أدب السياسة
في العصر الأموي

الدكتور
أحمد محمد الحوفي
استاذ الأدب العربي
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار القلم
بيروت - لبنان



الدكتور
أحمد محمد الحوفي
أستاذ الأدب العربي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

أدب السياسة
في العصر الأموي

دار القلم
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

— ١ —

فلست أنكر أن إلحاق الأدب بالعصور السياسية فى بدئها ونهايتها لا يخلو من تَجَوُّز ، ولا يسلم من حَيْف ، لأن الأدب ليس شارة يَسْهُل على الناس تغييرها بقيام دولة وسقوط دولة ، وإنما هو ثمار للنفوس ، ونتاج للعواطف والعقول ، فلابد من أن تمر عليها حقبة من الزمن ؛ لتنسلخ من ماضيها ، أو لينسلخ عنها ماضيها ، وتتقمص ثوب حاضرها ، وتتشكل لمستقبلها . ولقد يتأبى الماضى على أن ينسلخ كله ، فتبقى منه آثار ورواسب ومظاهر ، تبدو فى إنتاج الأدباء ، عن قصد ، وعن غير قصد .

وإذا فإن دراسة الأدب السياسى فى العصر الأموى لا تعنى أنه نجم على حين غرة ، منذ ولى معاوية أمر الأمة ، ولا تعنى أنه غَرَبَ فجاءة حينما تولى بنو العباس ، وإنما تعنى أن أدب السياسة استكمل مقوماته فى عصر بنى أمية ، إذ قامت الأحزاب السياسية الخالصة ، والفرق الدينية التى ساهمت فى السياسة بقَدَرَ ، وكان الصراع الحزبى فى هذه الحقبة أشد عنفا ، وأطول مدى ، وأبرز فى الأدب مظهرا ، من الصراع الشبيه بالحزبى فى أخريات صدر الإسلام ، ومن الصراع الحزبى فى عصر بنى العباس .

ثم إن العصر الأموى شهد الأحزاب كلها ، وعاصر صراعها ، ورأى مصرع اثنين منها ؛ لأن قوة الزبيريين قد تحطمت فى منتصف العصر ، وامحى أثرهم ،

وأسلحة الخوارج قد تثلمت قبيل نهايته ، ثم خبا نجمهم ، فلما قامت الدولة العباسية لم يكن هناك إلا أنصار بنى أمية يستخفون أو يفرون ، وشيعة قد انقسموا على أنفسهم ، فصار بعضهم عباسيا ، وبقى بعضهم علويا .

لهذا لا أجد تجوزا ولا حَيْفا فى أن أدرس الأدب السياسى فى هذا العصر السياسى .

— ٢ —

ولقد رددت النظر فى أدب العصر الأموى ، فوجدت بعضه قد درس ، حتى كاد يستوفى حقه من الدرس ، ووجدت الأدب السياسى ما زال فى حاجة إلى دراسة متأصلة جامعة لأنواعه من شعر وخطابة وحوار وكتابة ، فرأيت أن أختص ألوانه كلها بدراسة متأنية ، لأتبين أحوالها ، وبواعث ازدهارها ، ولأتعرف خصائصها ، ومدى توافقها أو تخالفها فى إنتاج الأحزاب ، وإلى أى حد نجح الأدب فى تصوير الصراع السياسى الناشب ، وفى الترجمة عن عواطف المتشيعين لهذا الحزب أو ذاك ، وماذا بلغ بلاؤه فى الدعاية والتأييد والتكثير ، وفى التشهير والتجريح والتنفير ، ثم ماذا كان نصيبه فى ميدان سياسى آخر ، هو النزاع القبلى ، والنزاع الجنسى أو الشعوبى .

— ٣ —

وإذا فلم يكن بُدٌّ من دراسة مفصَّلة للأحزاب السياسية فى العصر الأموى ، تتناول نشأتها ومذاهبها وغاياتها ، ليتكشف أدبها فى ضوء بواعثه وأهدافه .

وقد آثرت أن أدرس الأدب من نصوص شتى ، وأن أحللها فى تفصيل تارة ، وفى إجمال تارة ، لأنها الينابيع الأولى التى ينبغى أن نَرِدَها ، لنستنبط منها رأينا فى الأدب وأحكامنا عليه ، ولقد تضطرنا إلى مخالفة أحكام سابقة ، وآراء شائعة . وكثيراً ما استعنت بالتاريخ ، لجلاء بعض الأحداث ، وتجلية الجو الذى قيل فيه النص .

ثم آثرت أن أورد النصوص أولا ، وأن أعقب عليها بدراسة عامة لخصائصها، ثم أتبعها بدراسة لبواعث ازدهارها .

وقد ختمت الدراسة بضع تراجم موجزة لبعض الشعراء والخطباء والكتاب الذين مارسوا السياسة واشتهروا بها .

وإنى لآمل أن أكون قد تَهَدَّيْتُ إلى بعض الحق ، ووُفِّقْت إلى بعض الصواب ، وساهمت فى جلاء غامض ، وكشف عن مجهول ، والله المستعان ؟

أحمد محمد الحوفى

القاهرة فى { شوال سنة ١٣٨٤
يناير سنة ١٩٦٥ }

تمهيد

ما الذى نعنى بأدب السياسة أو بالأدب السياسى ؟

إن إضافة الأدب إلى السياسة أو وصف الأدب بأنه سياسى يقتضينا أن نحدد مفهوم السياسة أولا ، ونحدد مفهوم أدب السياسة ثانياً .

— ١ —

١ — أما السياسة فإنها بالمعنى اللغوى ولاية شئون الرعية ، وتدبير أمورها ، والاضطلاع بأمرها ونهيها .

جاء فى لسان العرب : السَّوْسُ الرياسة ، يقال ساسهم إذا رأسهم ، ويقال سوَّسُوه وأساسوه إذا رأسوه ، وساس الأمر سياسة قام به ، والجمع ساسة وسُوَّاسٌ

سادة قادة لكل جميع ساسة للرجال يوم القتال

ويقال سُوِّس الرجل أمور الناس إذا مُلِّك أمرهم ، ويروى قول الحطيئة :

لقد سُوِّسْتِ أمر بنيك حتى تركتهم أَدَقَّ من الطحين

وفى الحديث : كان بنو إسرائيل يَسُوسهم أنبياؤهم ، أى تتولى أمورهم ، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية ، والسياسة القيام على الشىء بما يصلحه[١] .

وجاء فى أساس البلاغة : الوالى يَسُوس الرعية ، ويَسوس أمرهم ، ويُسَوِّس أمورهم ، وسُوِّسَ فلان أمر قومه ، وذكر بيت الحطيئة[٢] .

وجاء فى القاموس المحيط : سست الرعية سياسة : أمرتها ونهيتها ، وفلان مجرب قد ساس ، أى أَدَّب ، ومجرب قد سيس عليه أى أُدِّب ، وسُوِّس فلان أمور الناس صُيِّر ملكا[٣]

(١) لسان العرب مادة سوس .

(٢) أساس البلاغة مادة سوس .

(٣) القاموس المحيط مادة سوس .

٢ — وهى فى عرف المسلمين الأولين كانت منوطة بالإمامة ، أى الخلافة ، فعرفها الماوردى بقوله : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا »[١] .

ومعنى هذا أن السياسة الإسلامية رعاية لشئون المسلمين المتصلة بدينهم وبدنياهم . ثم عرفها ابن خلدون بأنها « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٢] . »

٣ — أما فى الاصطلاح الغربى فالسياسة هى فن الحكم ، والرجل السياسى هو الذى يمارس أعمال الإدارة المدنية ، وهو أيضاً الحاكم الرسمى الموجِّه الناصح[٣] .

٤ — ومن هنا يتبين أن التعريف الإسلامى والتعريف الغربى يتفقان فى أن السياسة هى فن الحكم ، ويختلفان فى أن الإسلام يبنى طريقة الحكم على دعائم من الشرع ؛ إذ كان الإسلام ديناً ودولة ، أما الغربيون فيقصرون الحكم على شئون الدنيا ، بغضِّ النظر عن الدين ؛ إذ أن الدين ليس أساساً عندهم فى الحكم ، وإنما له رجاله المختصون به .

فالمسلمون والغربيون إذاً فهموا السياسة على أنها أسلوب الحكم وطريقته .

أما دراسة هذا الأسلوب من نواحى شكله ونظامه ، ومزاياه وعيوبه ، ومن نواحيه فى داخل الدولة وفى خارجها ، وعلاقتها بغيرها من الدول ، سواء أكانت هذه الدراسة فى الزمن الحاضر ، أو فى الماضى ، فإن هذا هو ما يطلق عليه علم السياسة .

---

(١) الأحكام السلطانية ٣ للماوردى

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥١٨

(٣) The concise oxford Dictionary

— ٢ —

الأدب السياسى أو أدب السياسة هو الفن القولى – شعراً وكتابة وخطابة وحواراً – الذى يتعاطى شئون الحكم تأييداً أو تفنيداً ، أو يتناول علاقة الأمة بغيرها فى حرب أو سلم .

وهذا الأدب السياسى ليس وليد العصر الإسلامى ، كما يتوهم كثير من الدارسين ، وإن كان قد استكمل خصائصه ومعالمه فى العصر الإسلامى .

ففى الجاهلية أدب سياسى كثير ، ولكنه مصبوغ بصبغة قبلية ، إذ كانت القبيلة وحدة المجتمع العربى ، وهى بهذا المعنى تشبه الدويلة إلى حد بعيد . ذلك أن الدولة أو الدويلة تقوم على دعائم ، أهمها وحدة الجنس ، ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة ، ووحدة الإقليم ، ووحدة المصالح الاقتصادية ، والاتفاق فى الأهداف والآمال والآلام والمشاعر ، ووحدة الدين وإن استبعد وحدة الدين كثير من الدارسين .

فهل كانت هذه الدعائم محققة فى القبيلة ؟ نعم .

١ – فالقبيلة ليست من جنس واحد فحسب ، بل إنها فى أعم حالاتها جماعات من الأسر موصولة برباط من القرابة الدموية .

وأقول فى أعم حالاتها ، لأنه لم يكن من الحتم اللازم أن تنحدر القبيلة كلها من أب واحد ، وإن كان النسب القريب هو الأصل الغالب فى تكوين القبيلة من فصائل وعشائر وأفخاذ وبطون وعمائر[١] .

فقد كان هناك مع النسب الحِلْفُ ، والمؤاخاة ، والاسترقاق ، والاستلحاق ،

---

(٢) نهاية الأرب ٢ / ٢٨٤ .

والولاء ، لكن الصبغ العام للقبيلة هو القرابة أو صبغ النسب[1]

٢ — والقبيلة تتكلم بلغة واحدة ، ولهجة متعددة ، وثقافتها المشتركة واحدة .

٣ — وهى تقيم فى مجال معين ، أو ترحل رحلة جماعية إلى مجال آخر ، وبهذا تتحد فى الموطن .

٤ — وتخضع القبيلة لنظام واحد من العرف والعادات فى الحكم والقضاء والميراث والحرب والملكية والزواج . . الخ .

٥ — ويحكمها شيخ مهيب مجرب ، له من السلطان المعنوى على النفوس أكثر مما للحكام ، ترجع إليه القبيلة فى مشاوراتها وخصوماتها ، ويتكفل هو برعاية صوالحها .

٦ — وللقبيلة أهداف مشتركة ، ومشاعر واحدة ، فهى تجد فى اجتماعها واتحادها ما يكفل لها الخير والقوة والسلامة والحرية والحصول على الأرزاق ، وهى تحرص على شرفها ومفاخرها وطيب سمعتها .

٧ — أما الوحدة فى الدين فإنه كان لكل قبيلة صنمها الخاص ، كسُواع لهُذَيْل ، ويغوث لمَذْحِج ، ونَسْر لِحمْيرَ ، ووُدّ لكَلْب ، ويَعُوق لخَيْوان الخ .

لكن كانت للعرب أصنام عامة يعظمونها جميعاً ، كالعزّى بوادى حُرَاض ، ومناة بين مكة والمدينة ، واللات بالطائف[2] ، وكان فى العرب كثير من القبائل يدينون بالنصرانية أو باليهودية أو بالزرادشتية[3] .

وإذاً فالقبيلة دويلة ، أو تشبه الدويلة شبها قويا ، إلا أن نظام الدويلة مكتوب ، ونظام القبيلة هو عرفها المتبع وتقاليدها المتوارثة .

---

(١) الحلف : أن تأسر قبيلة شخصا لا يستطيع الفداء ، فيصير حليفا لها يرث منها كما يرث الصريح من بنيها ، ولكن ديته إذا قتل نصف دية الصريح .
المؤاخاة : أن يؤاخى فرد من قبيلة فردا من أخرى ، أو تؤاخى قبيلة قبيلة ، على النصر والحماية .
الاسترقاق : اتخاذ الأسرى عبيدا ، واستخدامهم فى الحرب والسلم .
الاستلحاق : أن يلحق رجل آخر بنسبه سواء أكان حرا أم عبدا أم مولى .
الولاء : أن ينسب العبد المعتق إلى سيده الذى أعتقه أو إلى قبيلته ، فالمولى هو القريب .
(٢) راجع الأصنام لابن الكلبى .
(٣) راجع (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) للمؤلف .

ومن هنا يصح أن نعتبر الشعر القبلي المتصل بمصالح القبيلة والدفاع عنها والرد على خصومها شعراً سياسياً .

— ٣ —

فلما صدع النبي عليه الصلاة والسلام بالدعوة ، واستهلت بشائر الدولة الإسلامية ، بدأ المسلمون ينشئون مجتمعاً جديداً ، لا يخضع لعرف القبيلة ، بل يخضع لقانون واحد عام ، ولا يتوخى منافع فردية أو قبلية ، وإنما يتوخى المصلحة العامة للمجتمع كله ، وهذا المجتمع الجديد بِنْيةٌ واحدة متماسكة بأواصر من اللغة والدين ووحدة الأهداف والمصالح المشتركة ، ومتجانس في عواطفه ومشاعره ، فهو إذاً مجتمع سياسي ، لم يلبث — بعد استكمال وسائل الوحدة والقوة — أن صار دولة ، ثم مالبثت هذه الدولة الناشئة أن عمت جزيرة العرب وما جاورها ، ثم اتسعت في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ، ومارست شئون السياسة كلها من حكم ودفاع وقضاء وتعليم واقتصاد ومعاهدات وغيرها مما تقوم به كل دولة متحضرة ، ولم توصف وظيفة من هذه الوظائف أو عمل من هذه الأعمال بأنه ديني .

ذلك بأن الإسلام كما فهمه المسلمون دين وسياسة ، ولم يكن في الإسلام صنفان متميزان من الوظائف أو الأعمال العامة يخاص أحدهما للدين ، ويخاص الآخر للسياسة ، لأن الدين والسياسة متلازمان في الإسلام ، فالخليفة أو الحاكم يمثل السلطة المدنية ، إذ يسوس الرعية ، ويتولى شئونها هو وأعوانه ، لكن هذه السياسة قائمة على الخضوع للدين ، والاهتداء بأحكامه .

وقد نجمت في هذا المجتمع دعوات وآراء سياسية ، وجرت في أرضه تيارات متعارضة ، اعتمدت في جريانها على السيف وعلى اللسان .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما ذهبنا إلى أن الأدب السياسي الذي أثمره الصراع في العصر الأموي أضخم تراث سياسي في الأدب العربي منذ نشأته إلى العصر الحديث .

الباب الأول
الأحزاب السياسية

عوامل نشأتها

— ١ —

عاش المسلمون فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام فى شغل عن العصبية إلا فى القليل النادر ، لأنهم صاروا وحدة سياسية تصرف جهودها لحماية عقيدتها وصيانة حياتها ، ولأن الغزوات شغلتهم عن دعاوى الجاهلية ، وتعاليم الدين الجديد صاغتهم على الإخاء والمساواة والتعاون والمحبة ، ثم إن شخصية الرسول طغت على نزعاتهم ونزواتهم ، فاستظلوا جميعاً بظله ، واقتدوا بأفعاله وأقواله ، ووجدوا فيه الأب المحبوب المرهوب الذى يسوى بين بنيه ، ويعطف بعضهم على بعض ، وينسيهم ماسلف من شحناء وبغضاء .

— ٢ —

ولم يكد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى بدرت العصبية المتوارية ، ونجم النزاع على من يخلفه .

وكان هذا النزاع بين طائفتين اثنتين من المسلمين هما المهاجرون والأنصار ، لكن المهاجرين — ممثلين فى أبى بكر وعمر — سرعان ما أخمدوا الفتنة ، وأقنعوا الأنصار أو حاولوا أن يقنعوهم بأن الخلافة فى قريش .

وقد مثل الشعر غبطة قريش بالخلافة ، إذ قال أبو عبرة القرشى أبياتاً استبشر فيها ببيعة أبى بكر ، وندد بتطلع الأنصار إلى الخلافة ، منها :

شكراً لمن هو بالثنـــاء حقيق
ذهب اللّجاج وبويع الصّديقُ
من بعدما زلّتْ بَسَعدٍ نَعْلَهُ
ورجاء رجاءٍ دونه العيُّوق
إن الخلافة فى قريش مالـكم
فيها وربِّ محمد مَعْروق(١)

لـكن الأنصار لم يرتضوا هذه الدعوى — دعوى الخلافة فى قريش — فراحوا يشيدون بأعمالهم فى نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحماية الدين وإيواء المهاجرين ، ويتحسرون على صنيعهم الذى ضاع . يقول حسان بن ثابت :

نصرنا وآوينـا النبى ولم نَخَفْ
صُروفَ الليـالى والبلاء على رِجْل
بذلنـا لهم أنصافَ مال أكفِّنا
كقسمة أيسار الجَزُور من الفَضْل
فـكان جزاء الفضل منـا عليهم
جهالتهم حُمْقاً وما ذاك بالعدل(٢)

واحتدم اللجاج بين شعراء قريش وشعراء الأنصار ، فعمرو بن العاص يتهكم بتطلع الأنصار إلى الخلافة ، ومالك بن العجلان الأنصارى يرد عليه ، ثم يدعو خزيمة بن ثابت الأنصارى إلى الموادعة والـكف عن هذا اللجاج(٣) .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨/٦ . سعد : هو ابن عبادة أحد الأنصار الذين كانوا يريدون الخلافة . معروق : نصيب قليل ، من عرق الرجل الشراب إذا جعل فيه عرقاً من الماء أى قليلا . العيوق : نجم

(٢) ديوان حسان ٢٧٢ أيسار : جمع ياسر وهو الجازر أو الذى يقسم جزور الميسر . الجزور : الناقة التى تجزر أو البعير

(٣) شرح نهج البلاغة ١٠/٦ — ١٤

— ٣ —

انقضى عهد أبى بكر وعمر فى سلام ووئام ، إذ كفلا للمسلمين أسباب الرضا والطمأنينة ، وحققا لهم التسوية فى الحقوق ، وكان المسلمون فى عمل جاد شاق متصل بالفتوح وإقرار النظام الجديد ، ودرء الخطر المتهدد من الفرس والروم . فلما انقضى عهد أبى بكر وعمر زالت عوامل ، وجدت أسباب ، جعلت المسلمين يجدون فروقا بين الحياة المثالية التى نعم بها آباؤهم فى العهد الأول للإسلام والحياة الواقعية التى يعيشون هم فيها .

وكان من أثر هذا أن استعلن التذمر ، ودبت الفتنة ، وسخط كثير من المسلمين حكم الخليفة عثمان ، ثم انفجرت مراجل السخط ، وكان عثمان ضحيتها .

وحينئذ اتسعت الهوة بين المسلمين، وعصفت فرقتهم بوحدتهم، فنشأت الأحزاب السياسية ، وسرعان ما استكملت أسباب قوتها ، ومعالم شخصيتها .

وقد كانت أحزابا سياسية حقيقية ، لكل منها مذهبه وآراؤه ونظرياته فى الحكم، ولكل منها وسائله فى الدعاية لآرائه ، ووسيلة تحقيقها ، والتطور بها من نطاق الرأى والفكر إلى ميدان العمل ، فهى من هذه الناحية دانية الشبه من الأحزاب الحديثة ، إذ أنها تشاركها فى أن لكل منها مناهجه ونظمه وأهدافه وجهوده التى يسلكها فى تحقيق أغراضه .

فما هذه الأحزاب ؟ وما الأصول التى قامت عليها ؟ وما أهدافها ؟ وكيف دار الصراع بينها ؟

الفصل الأول

الأمويون

(٤١ – ١٣٢ هـ – ٦٦١ – ٧٤٩ م)

– ١ –

كانت خلافة عثمان فرصة مواتية للأمويين ، ليستردوا سلطانهم فى الجاهلية ، وليستأثروا بالخلافةدون بنى هاشم ، لأن عليا وكثيرا من بنى هاشم ومن الأنصار كانوا يرونه أحق بالخلافة من عثمان .

فلما قتل عثمان بويع على بالخلافة بيعة لم تـكتمل ، إذ انشق عليه معاوية بالشام، ونقض البيعة كبراء بنى أمية ، وهربوا إلى مكة والبصرة ودمشق [1] .

ولقد أطمع معاوية فى الخلافة أنه حاكم على الشام منذ زمن ، وأنه أثير عند أهل الشام ، عظيم النفوذ هناك ، إذ ساسهم بالرفق والحلم ، ووسع عليهم فى الأعطيات والهبات ، وكان أعوانه من بنى أمية ليسوا قلة .

فقد تولى معاوية دمشق لعمر بن الخطاب ، ثم ضم إليه عمر ولاية الأردن لما مات أخوه يزيد بن أبى سفيان ، وما زال معاوية يليهما حتى جاء عثمان فأقره عليهما، ثم ضم إليه ولاية فلسطين بعد موت واليها ، وولاية حمص لما استعفى واليها ، وبهذا صارت الشام كلها فى إمرة معاوية . وكان نجم معاوية صاعدا ، فطال عهده بالشام مدة عمر ومدة عثمان ، وكان معاويه سياسـياً موهوباً ، عطف على أهل الشام

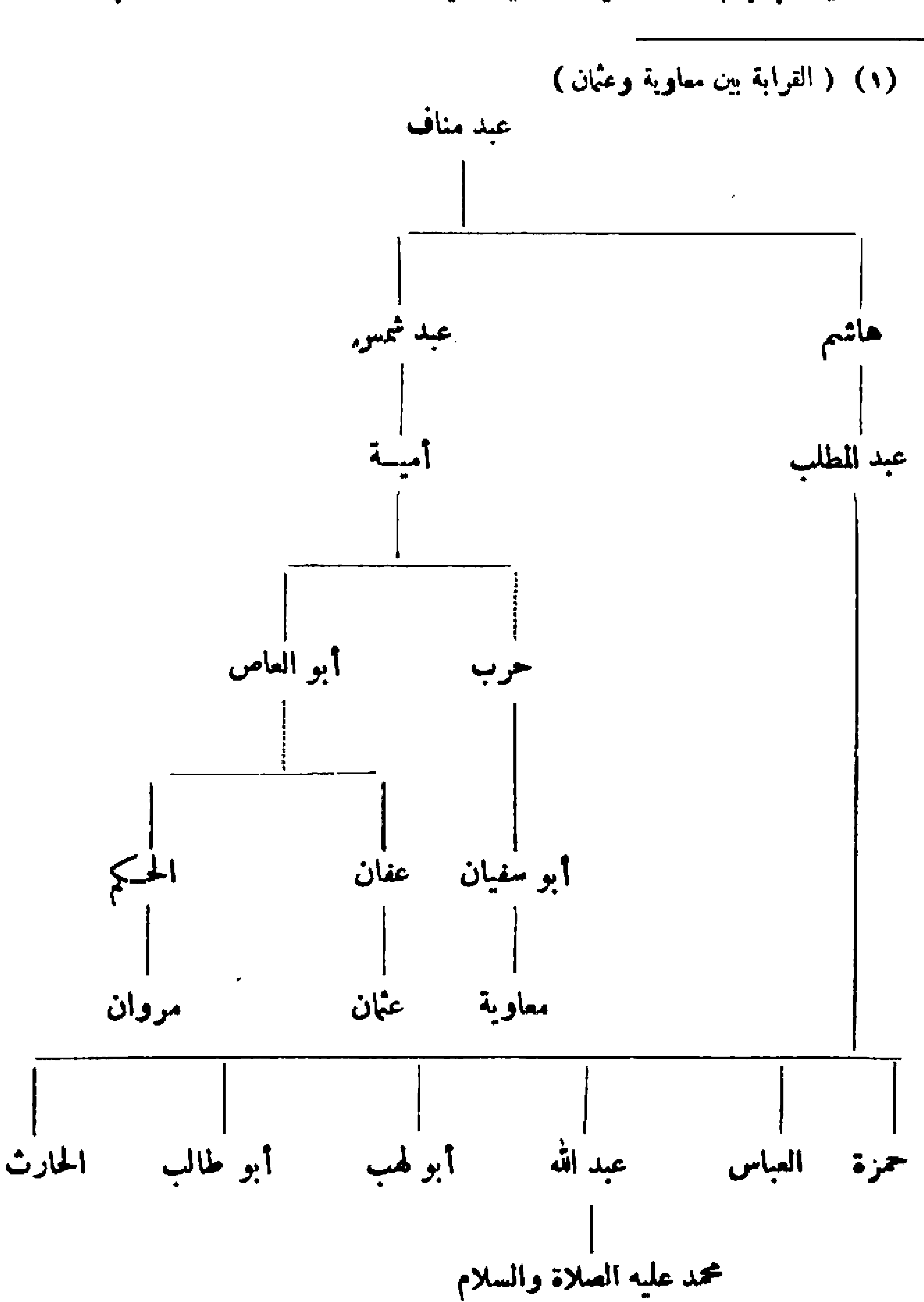
---

(١) تحايل طلحة والزبير فاستأذنا عليا فى العمرة فأذن لهما ، فلحقا بمكة وانضمت إليهما السيدة عائشة وكانت بمـكة ، وجعلت تحرض على الثأر لعثمان ، ثم اتفقوا على الشخوص إلى البصرة هم وأعوانهم لإثارة أهلها والاستعداد لحرب على والثأر لعثمان (الطبرى ٥ / ١٦٢ — ١٦٧)

فأحبوه ، ورضى عن سياسته الخليفتان ، فلم يفكر أحدهما فى عزله ، ولم يخش هو أن يعزل وبخاصة فى عهد عثمان ، إذ كان الولاة كثيرا ما يولون ويعزلون . وليس أدل على محبة الشاميين لمعاوية من أنهم ناصروه على على ، ولم يشترك واحد منهم فى فى الثورة على عثمان ، أو محاصرة داره ، أو المشاركة فى مقتله .

ولم يعدم معاوية الحيلة لاستمالة الأعوان ، وإضعاف على ، فجعل يبذل الأموال ، وجعل يطالب بدم عثمان ، ويحمل عليا جريرة مصرعه ، وينادى بأنه قريب عثمان[١]

(١) (القرابة بين معاوية وعثمان)



وولى دمه ، وقد قتله الثوار مظلوماً ، فلابد أن يثأر له من قاتليه[١] . والقرابة بين عثمان ومعاوية ليست بعيدة ، لأنهما يتصلان عند الجد الثانى ، ثم إن مروان ابن الحكم كان أحد الناصرين لمعاوية .

وكانت دعواهم قائمة على أن علياً إذا لم يكن قد حرض على قتل عثمان ، فإنه تخلى عن نصرته وحمايته من الثوار ، ثم إن قاتليه فى جند على ومن أتباعه ، فعليه أن يسلمهم لبنى أمية ليقتصوا منهم ، وقد رفض على أن يسلم أشخاصاً لم تثبت عليهم تهمة، وليس القصاص منهم من شأن معاوية أو مروان ، بل هو من شأن على وحده ، لأنه الخليفة القيم على شئون المسلمين .

كذلك اعتمد بنو أمية على أن لهم فى الجاهلية سابقة ومجداً ، وأنهم ليسوا بأقل من بنى هاشم ، فقد كان لواء قريش فى الجاهلية لبنى عبد شمس ، وسقاية الحجاج لبنى هاشم ، وأضافوا إلى هذا أن الحكمين قد قضيا لمعاوية على على .

ثم زعموا فيما بعد أنهم ورثة النبى، وأحق العرب بالحكم ، أو زعم بعض أنصارهم ذلك ، فقال شاعر فى تكذيبهم .[٢]

أيها الناس اسمعوا أُخْبِرْكُمُ ... عجباً زاد على كل العَجَبْ
عجبا من عبد شمس أنهم ... فتحوا للناس أبواب الكذب
ورِثوا أحمد فيما زعموا ... دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نَعْلَمه ... يُحْرِزُ الميراثَ إلا من قَرُب

وكانت السيدة عائشة تحرض أهل مكة على الثأر لعثمان ، وعلى محاربة على ، وتقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت . ولقد كنت تقولين : اقتلوا نَعْثَلا[٣] فقد كفر . قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول . فقال لها ابن أم كلاب[٤] :

---

(١) مروج الذهب ٢/٣٣ .
(٢) مروج الذهب ٢/٧٣ .
(٣) نعثل : شيخ أحمق ورجل لحيانى كان يشبه به عثمان للنيل منه .
(٤) الطبرى ٥/١٧٢ .

منكِ البَداء[١] ومنك الغِيَرْ ومنكِ الرياح ومنك المطرْ
وأنت أمرتِ بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبْنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أَمَر
ولم يسقط السقفُ من فوقنا ولم تنكسف شمسُنا والقمر
وقد بايع الناسُ ذا تُدْرَإٍ يُديل الشَّبا ويقيم الصَّعَرَ[٢]
ويلبس للحرب أثوابها وما مَنْ وَفَى مثلَ من قد غدر

لهذا رفض معاوية أن يبايع عليا ، وغدر طلحة والزبير ببيعتهما لعلى ، وخرجا لقتاله ، وانضمت إليهما السيدة عائشة وانتصر على فى موقعة الجمل (٣٦ هـ ٦٥٦م)[٣] وقتل فيها طلحة والزبير .

وتمادى معاوية فى دعواه وفى إثارته الناس ، فعرض قميص عثمان فى مسجد دمشق ملوثا بدمه ، وعرض أصابع زوجته نائلة وقد قطعت وهى تحاول أن ترد الثوار عن زوجها[٤] .

ثم تجدد الصراع إذ التقى على ومعاوية بصفين (٣٧هـ ٦٥٧ م) جنوبى الرقة ، وكاد النصر يتم لعلى ، لولا الحيلة التى لجأ إليها قائد جيش معاوية عمرو بن العاص ، فقد رفع بعض جنده المصاحف ، وكان التحكيم وخلع على وتثبيت معاوية .

وقد تبين اتهام الأمويين لعلى فى أبيات للوليد بن عقبة[٥] — أخى عثمان لأمه — هدد فيها بنى هاشم ، وتوعدهم ، واتهم علياً بقتله لتخلص الخلافة له ، واتهمه بأنه أخذ مافى دار عثمان من سلاح وإبل بعد أن بويع بالخلافة :

---

(١) البداء : البدء .
(٢) ذو تدرأ : ذو عز ومنعة . الشبا : المراد الرماح والسيوف ، أى يغلب خصمه . الصعر : المراد الكبر .
(٣) سميت بذلك لأن السيدة عائشة كانت تركب جملا
(٤) الآداب السلطانية — الفخرى ١٢٥ ، ١٣٧ .
(٥) الأغانى ٥/١٢٢ .

بنى هاشم رُدُّو سلاح ابن أختكم ... ولا تَنهبوه ، لا تَحل مناهِبُه

بنى هاشم لا تَعجَلوا بإقادة ... سواء علينا قاتلوه وسالبه

وإنا وإياكم وما كان منكمُ ... كصَدْع الصَّفا لا يرأبُ الصدعَ شاعبه[1]

بنى هاشم كيف التعاقد بيننا ... وعند علىّ سيفه ونجائبه[2]

لعمرك لا أنسىَ ابن أَرْوَى وقتله ... وهل يَنْسَيَنَّ الماءَ ــ ماعاش ــ شاربه ؟[3]

همُ قتلوه كى يكونوا مكانه ... كما غَدَرتْ يوما بكسرى مرازبه[4]

وإنى لمجتابٌ إليكم بجَحْفَلٍ ... يُصِمُّ السميعَ جَرْسُه وجلائبه[5]

وردّ الفضل بن العباس بن أبى لهب عليه فى قوله[6] :

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم ... أُضِيع وألقاه لدى الرَّوْع صاحبه

سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا ... فهم سلبوه ، سيفه وحرائبه[7]

وكان ولىّ العهد بعد محمد ... علىٌّ وفى كل المواطن صاحبه

علىٌّ ولىُّ الله أظهر دينه ... وأنت مع الأشْقَيْنَ فيما تحاربه

وقد أنزل الرحمن أنك فاسق ... فمالك فى الإسلام سهم تطالبه

---

(١) صدع الصفا : الشق فى الصخر الصلد . لا يرأبه شاعبه : لا يصلحه مصلح .

(٢) النجائب : النوق النجيبات

(٣) ابن أروى : أروى أم عثمان ، وهى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، فالهاشميون إذا أخوال عثمان وهو ابن بنت عمة النبى

(٤) المرازب : جمع مرزبان وهو رئيس الفرس .

(٥) مجتاب : سائر . جحفل : جيش كثير . الجلائب : جمع جليبة وجلوبة وهى الخيل المجلوبة .

(٦) مروج الذهب ٤٤٣/١ .

(٧) كان المحاصرون لعثمان ستمئة رجل من مصر فيهم محمد بن أبى بكر ومئتى رجل من الكوفة ومئة من البصرة. (مروج الذهب ٤٤٠/١) الحرائب : جمع حريبة وهى المال المسلوب.

على أن التاريخ المنصف يبرئ عليا من التحريض على الثورة ، ويبرئه من التقصير فى حماية عثمان ، ويبرئه من السرور بقتله[١] .

— ٢ —

قامت الدولة الأموية سنة ٤١هـ ٦٦١ م بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عن حقه فى الخلافة ، ليجنب المسلمين معاطب الفتنة والحروب ، ولأنه أيقن — بعد أن خذله أهل العراق — بأن لا طاقة له بمعاوية وجنده ، فصالحه على أن يكون المسلمون بعد وفاة معاوية أحراراً ، يولون عليهم من يشاءون .

ثم زار معاوية الكوفة سنة ٤١ هـ[٢] وبايعه أهلها على مشهد من الحسن والحسين ، ومنذ ذلك الوقت غادرها الحسن إلى المدينة ، وتوفى بها بعد ثمانى سنوات.

وهى تنتسب إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو عظيم من عظماء قريش فى الجاهلية ، طالما نازع عمه هاشم بن عبد مناف فى الشرف والرياسة ، وقد ورث أحفادهما هذه المنافسة فى الإسلام .

وأول ملوك الدولة معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠ هـ ٦٦٠ — ٦٨٠ م) وآخرهم مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ ٧٤٤ — ٧٥٠ م) وخلفاؤها أربعة عشر[٣] .

---

(١) راجع تفصيل هذا فيما سيجىء فى الفصل الخاص بالشيعة.
(٢) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٥٤ ومروج الذهب ٢/٣٦ .
(٣) معاويه (٤١ — ٦٠) ، يزيد (٦٠ — ٦٤) معاوية بن يزيد (نحو شهرين) مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥) ، عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦) ، الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) ، سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩) ، عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١) ، يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥) ، هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) ، الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦) ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦) مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢)

— ٣ —

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ، ليقرها فى البيت الأموى .

والحق أن الخلافة منذ آلت إلى معاوية لم يكن لها الطابع الكامل الذى كان للخلفاء الراشدين من قبل ، فقد صارت ملكية فى مظهرها ونظامها ، ولا يميزها من ملكية الفرس والروم إلا انضواؤها تحت لواء الإسلام وأخذها بأحكامه .

ولم يلبث معاوية إلا قليلا حتى شرع يوطد الملك لابنه يزيد ، ويعهد إليه بولاية العهد فى حياته .

ويذكر المؤرخون أنه استجاب لمشورة المغيرة بن شعبة والى الكوفة فى أن يأخذ البيعة ليزيد ، متذرعا بأن اختلاف المسلمين بعد مقتل عثمان كان مدعاة إلى سفك الدماء ، وأن استخلاف يزيد يقى المسلمين جرائر الفرقة « فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس ، وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة »[1]

وسواء أكان المغيرة صاحب الفكرة ، أم كان معاوية هو الذى أوحى إليه بها ، فإن معاوية سرعان ما كتب إلى مروان بن الحكم والى المدينة بقوله : « إنى كبرت سنى ، ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، ورأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى »[2] .

وإذاً فقد اطمأن معاوية إلى استقرار ملكه ، ثم مد بصره إلى المستقبل ، فزينت له نفسه أو زين له المغيرة بن شعبة أن يجعل الملك وراثيا فى عقبه ، باستخلاف يزيد من بعده .

وإن هذا الحدث فى الإسلام لم يعرفه المسلمون قبل معاوية ، ولم يهم بمثله خليفة ممن سبقوه ، لأن أبا بكر عهد إلى عمر ، ولم يستخلف أحداً من أبنائه ، ولأن عمر تخير ستة من جلة الصحابة ليختاروا أحدهم ، وضم إليهم ابنه عبد الله ليكون شاهدا ومرجحا فحسب ، ورفض أن يخلفه ابنه حتى لا يعذب من آل الخطاب

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/١٩٨ .
(٢) ابن الأثير ٣/١٩٩ .

اثنان ، ثم جاء عثمان وطال عهده ، ولم يستخلف أحداً ، وخلفه على ، وأبى أن يعهد إلى أحد من بنيه ، فلما عرض عليه الناس أن يبايعوا الحسن ، قال لهم : لا آمركم ولا أنهاكم ، وقال مرة لأصحابه : أتركـكم كما تركـكم رسول الله .

على أن معاوية هب لقتال على ، وهو يزعم أنه يطالب بدم عثمان ، ويزعم أنه يريد أن يكون أمر الخلافة للمسلمين ، يختارون من يشاءون .

ثم إنه لما صالح الحسن بن على أراد أن يصالحه على أمور ، منها أن يعهد للحسن من بعده ، فرفض الحسن ، واشترط أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين ، فقبل معاوية .

ولـكن معاوية لم يمض فى شىء مما كان يدعو إليه ، ويتذرع به ، فقد آل الحـكم إليه ، ولم يتعقب قتلة عثمان ، بل لم يهم بأن يتعقب أحداً ممن بقى منهم ، وآل الحـكم إليه بوسائل شتى ، فتلقاه أحسن لقاء ، وحرص عليه أشد الحرص ، ونسى أو تناسى دعوة الشورى التى تذرع بها أيام على ، ثم قبلها لما اشترطها الحسن عليه حينما تصالحا .

وها هو ذا لا يريد أن يخلى بين المسلمين وحريتهم فى اختيار حاكمهم ، وإنما يحملهم حملا على الرضا باستخلاف يزيد سنة ٥٦ هـ .

— ٤ —

تمت البيعة ليزيد ، فـكانت سبباً فى انقسام المسلمين فريقين كبيرين : راضين بالبيعة ، وساخطين عليها .

أما الذين ارتضوها فهم سكان الشام ، لما سبق من إيثارهم معاوية ، ولأنهم كانوا قد ألفوا النظام الملـكى الوراثى منذ حكمهم آل جفنة الغساسنة ، ولأن النظام الجديد يكفل لهم بقاء الحـكم فى ديارهم ، ويعيد إلى إقليمهم سيادته على نفسه ، ويصيرهم سادة العالم الإسلامى .

وأما الذين سخطوها فهم جمهور المسلمين ، وبخاصة أهل الحجاز وأهل العراق ، ففى الحجاز قرشيون أولى بالخلافة من يزيد ، وأنصار يؤثرون عليا ويشايعون أبناءه

وبالعراق متمردون على بنى أمية ، من خوارج وشيعة .

وهؤلاء الساخطون لم يكتموا سخطهم ، بل جهر به كثير منهم منذ اللحظة الأولى .

ذلك بأنه لما خطب مروان بن الحكم بالمدينة داعيا إلى تحقيق ما أراد معاوية قاطعه عبد الرحمن بن أبى بكر بقوله : « كذبتم ، ما الخير أردتم لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل »[1] .

وكان فى المعارضين الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وكلهم بالحجاز . وكان من المعارضين بالشام عبد الله بن عامر ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، لكن معارضى الشام رضوا ، فاتجه معاوية إلى الحجاز ، فلم يثن المعارضون عن رأيهم .

والذى ألاحظه أن الساخطين لم يجمعوا أمرهم ، ولم يوحدوا جهودهم ، وإنما كانوا أحزابا متنازعة ، بعضها سياسى خالص ، وبعضها سياسى دينى ، كما سنرى .

— ٥ —

مات معاوية ، فاتسعت هوة الخُلْف وازدادت نيران العصبيات اشتعالا .

فقد كان كثير من كبراء الأمة غير راضين عن البيعة ليزيد ، لهذا لم يكد يتولى حتى خرج عليه الحسين بالعراق ، ثم عبد الله بن الزبير بالحجاز.

وإذا كان الحسين قد قتل ، وقتل معه بعض أهل بيته وبعض أشياعه ، فإن هذا القتل لم يكفل ليزيد الراحة ، بل جلب عليه نقمة أشد ؛ لأنه استجد الحزازات القديمة ، وغير القلوب على يزيد . حتى إن عبد الملك بن مروان كان يقول فيما بعد إن هذا القتل عجل بسقوط ملك آل حرب ، ولهذا نهى الحجاج واليه على الحجاز أن يتعرض لمحمد بن على المعروف بابن الحنفية ، أو إلى أتباعه ، وجاء فى كتابه إليه قوله : « جنبنى دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحَرَب . وإنى رأيت

---

(١) ابن الأثير ٣/١٩٩ .

بنى حرب سُلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على[1] » فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه .

وأما ابن الزبير فقد أوقع قائد يزيد — مسلم بن عقبة — بأتباعه فى موقعة الحرة بالمدينة ، واشتفى يزيد بهذه الوقعة ، وعدها ثأراً لأعزائه القتلى ببدر ، إذ تمثل لما سمع نبأ النصر بأبيات عبد الله بن الزِّبَعْرَى التى قالها فى يوم أحد :

ليت أشياخى ببدر علموا جزع الخزرج من وقع الأَسَلْ

ثم حاصر جيش يزيد مكة ، وأحرق أستار الكعبة ، وصدع ركنها ، بأمر قائده الثانى الحصَيْن بن نُمَيْر ، ومات يزيد ، فعاد الجيش إلى الشام .

لكن ابن الزبير أعلن خلافته بعد موت يزيد ، وبايعته الأمصار .

ولم يعمر معاوية بن يزيد أكثر من أربعين يوما . فلما مات زازل الملك لزيادة السخط ، ولصغر خالد بن يزيد ، فبايعت القيسية بالشام عبد الله بن الزبير ، وولى عليهم زعيمهم الضحاك بن قيس ، وتعصب الكلبيون لخالد ، لأنهم أخواله وأخوال أبيه ، وانضم إليهم مروان بن الحكم ، على أنه كان يعتزم أن يستأثر بالحكم فيما بعد . ثم كانت نصرة مروان على قيس فى موقعة مرج راهط ، وبويع مروان ، وانتقل الملك من بيت سفيان إلى بيت مروان .

لكن البيت السفيانى له أنصار ، لهذا لم تغرب شمسه إلا بمقتل عمرو بن سعيد الأشدق فى عهد عبد الملك .

وكان عبد الله بن الزبير لما يزل خليفة على الحجاز ، ومعترفا به من كثير من الأمصار ، فولى عبد الملك الحجاج بن يوسف الحجاز ، ليقضى به على ابن الزبير ، ونهض هو لقتال مصعب بالعراق فقتله ، ثم قتل الحجاج ابن الزبير .

ثم ندب عبد الملك الحجاج ليقضى على الخوارج بنواحى العراق ، فقاتلهم هو والمهلب بن أبى صفرة ، حتى أضعفهم .

---

(١) العقد الفريد ٢ /٢٦٣ .

طابع سياستهم

يهمنا من السمات العامة لسياستهم مايتصل بالأدب شعراً وخطابة وكتابة وحواراً، لنستبين جو النصوص وملابساتها ومراميها ، ولنتبين مقدار نُجْحها أو تخلفها فى خدمة السياسة المنوطة بها .

— ١ —

كان بنو أمية ودعاتهم وأشياعهم ، ينتحلون خلافة الله ورسوله ، فعلى المسلمين أن يطيعوهم ، وأن يناصروهم ، ويقاتلوا من يتمرد على سلطانهم .

يدل على هذا أن حسان بن مالك — سيد قحطان بالشام — قال لسكان الأردن - لما توفى يزيد بن معاوية ، ودعا عبد الله بن الزبير لنفسه — : يا أهل الأردن ، ماشهادتكم على ابن الزبير ، وعلى قتلى أهل الحرة [1] ؟

قالوا : نشهد أن ابن الزبير منافق ، وأن قتلى أهل الحرة فى النار .

قال : فما شهادتكم على يزيد بن معاوية ، وقتلاكم فى الحرة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد على الحق ، وأن قتلانا فى الجنة . قال : وأنا أشهد لئن كان يزيد بن معاوية وهو حى قائماً على الحق إنه اليوم وشيعته على الحق ، وإن كان ابن الزبير يومئذ وشيعته على باطل ، إنه اليوم على باطل . فبايعوه حينئذ على قتال ابن الزبير وأعوانه [2] .

ويدل على ذلك أن زياداً جهر فى خطبته بالبصرة بأن معاوية وحكومته يلون أمور الناس بسلطان الله ، ويحمونهم من الأعداء بجند ينفقون عليهم من مال الله ، فعليهم أن يسمعوا ويطيعوا ، ولهم أن ينعموا بعدل الحكام فيما ولوا : « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ،

---

(١) موقعة بالقرب من المدينة بين الزبيريين والأمويين

(٢) تاريخ الطبرى ٧ / ٣٥ .

ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمنا صحتكم لنا ، وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذى إليه تأوون »[1]

وسنجد فى النصوص ترديداً لهذه الفكرة من الشعراء والخطباء .

— ٢ —

ولقد اتسم حكمهم بالعصبية ، عصبية للعرب عامة ضد العجم والموالى ، وعصبية لليمنية على القيسية ، وعصبية لبنى أمية على بنى هاشم ، وعصبية للقبائل الموالية لهم على المناوئة ، كعصبيتهم لكلب وتغلب على قيس . وسأفصل القول فى هذا فيما بعد[2] .

وكان يزيد بن معاوية أشدهم تعصباً على بنى هاشم ، جرياً على ما كان بين البيتين من منافسة وعداء فى الجاهلية وفى الإسلام .

فهو لم ينس أن جده لأمه وخاليه قتلوا يوم بدر ، ولم ينس أن المهاجرين والأنصار قد فتحوا مكة مع النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن جده أبا سفيان أسلم فى ذلك اليوم محرجا بعد أن قاوم الإسلام والمسلمين طويلا ، وهو يذكر أن الأنصار كانوا أقوى ظهير لعلى على معاوية .

ثم إن ثورة أهل المدينة عليه ، وخلعهم إياه ، وثورة أهل مكة بعد عام ، لم تبرح خاطره ، وليس أدل على حنقه عليهم من قوله إذ بلغته ثورتهم :

لقد بدلوا الحلم الذى من سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان[3]

فلما انتصر جيشه عليهم تمثل بقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى شاعر قريش فى موقعة أحد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزَعَ الخزرج من وقع الأَسَلْ

وزاد عليه قوله :

(١) تاريخ الطبرى ٦/ ١٢٤ والبيان والتبيين ٢/ ٦:

(٢) راجع الفصل الخاص بالعصبية القبلية .

(٣) الطبرى/ ٥٧

لأهَلُّوا واستهلُّوا فرحا ثم قالوا : يايزيد لا تُشَلَّ(١)

وعاد إلى الاستشهاد بقول ابن الزبعرى .

فجزيناهم ببدر مِثلَها وأقمنا مَيْل بدر فاعتدل

— ٣ —

جرى بنو أمية على تعيين من يخلفونهم ، يريدون بذلك إيثار أبنائهم أو المقربين إليهم ، ويريدون أن يقوا الأمة مصارع الفرقة والاختلاف فيمن يتولى بعد موت الخليفة .

ولكن ولاية العهد هذه جرت من الشرور بقدر ما كان متوقعاً منها الخير ، ذلك لأن كثيرين من الأمراء كانوا ينفسون على ولي العهد إيثاره بالولاية ، وكانوا يتنافسون على الاستئثار بها ، وكانوا أحياناً يتمددون فيكيد بعضهم لبعض .

وقد ناصر بعض الشعراء ولاة العهود ، كمسكين الدارمى وجرير ، كما ناصرهم بعض الساسة كالحجاج وقتيبة بن مسلم .

وكثيرا ما كانت الولاية تتغير وتنتقل وتشعل الفتن ، من هذا أنه بعد موت معاوية الثانى عظم شأن ابن الزبير ، وناصره الضحاك بن قيس الفِهْرِى ، وتزعم مروان بن الحكم بنى أمية ، فالتقى هو وعمرو بن سعيد الأشدق ، واتفقا على أن تكون الخلافة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد بن معاوية ، ثم لعمرو ، ورضى عمرو بهذا ، وناصر مروان، ولما تم الأمر لمروان بايع بعده لخالد ، ولعمرو بعد خالد ، ثم مات مروان ، فخلفه ابنه عبد الملك .

لكن المشكلة تكررت ، إذ اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق ، ليقاتل مصعب بن الزبير ، فقال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدنى

---

(١) أهلوا واستهلوا : رفعوا أصواتهم فرحاً . لاتشل : حفظ الله يدك من الشلل .

هذا الأمر من بعده ، لجاهدت معه ، فاجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك .

فلما كان عبد الملك على ثلاث مراحل من دمشق أغلقها عمرو ، وأعلن عصيانه ، فرجع إليها عبد الملك ، وحاصرها ، ثم صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة من بعده ، لكنه احتال وقتله سنة ٦٩ هـ .

ولم يشذ عن نظام توريث الخلافة إلا معاوية بن يزيد ، فقد أرادها شورية ديمقراطية ، كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وود لو أنه وجد جماعة كالذين عهد إليهم عمر ، ليفوض إليهم اختيار خليفته من بعده ، فإنه لما تولى سنه ٦٤ هـ خطب هذه الخطبة[1] :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم ، فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب — رحمة الله عليه — حين فزع إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر ، فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتا ، وما استمتعت بها حيا » . ثم دخل منزله ، ولم يخرج إلى الناس ، واعتكف حتى مات ، وقيل طعن أو دس له السم ، وكانت ولايته قصيرة لم تزد على شهرين أو ثلاثة .

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية ، وطالبوه بأن يعهد إلى من يختاره من أهل بيته ، فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها ، وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ؟ اللهم إنى برىء منها ، متخل عنها ، اللهم إنى لا أجد نفراً كأهل الشورى ، فأجعلها إليهم ينصبون من يرونه أهلا لها[2] » .

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٩٧ والطبرى ٧ / ٣٤ .
(٢) مروج الذهب ٢/ ٩٨ .

— ٤ —

وكان لهم ولاة يحكمون الأقاليم باسم الخلفاء ، كزياد والحجاج وقتيبة بن مسلم الباهلى وسعيد بن العاص وآل المهلب ، وكان لبعض هؤلاء الولاة سياسة خاصة وشخصية متميزة ، وقد التف الشعراء ببعضهم ، ومدحوهم ، كما مدح جرير الحجاج ، وكما مدح جميل وكثير وابن قيس الرقيات وغيرهم والى مصر عبد العزيز بن مروان .

الفصل الثاني

الشيعة

— ١ —

نستطيع أن نتأصل النشأة البعيدة لأنصار على بن أبي طالب [1] ، فنردها إلى العهد الذى اختير فيه أبو بكر ثم عمر للخلافة ، إذ كان على وبعض بنى هاشم يرونه أولى بخلافة الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك أن الأنصار رغبوا فى الخلافة ،وعارضهم المهاجرون يوم السقيفة، محتجين بأنهم عشيرة النبي وقومه ، فلما علم بذلك على بن أبي طالب قال: إن يكن ما قاله المهاجرون حقاً فالحجة لنا دونهم . وتشيع يومئذ لعلى جميع بنى هاشم وبنى المطلب ، وانضم إليهم الزبير بن العوام وثلاثه عشر رجلا أو اثنا عشر من المهاجرين والأنصار ، واحتجوا على تنحية على [2]. على أن أتباع على كانوا يعرفون بالعلوية فى حياته ،وبعد مماته مع الدلالة عليهم باسم الشيعة أيضا ، واستمر ذلك مدة بنى أمية ، كما كان أتباع معاوية يعرفون بالعثمانية .

فلما قامت الدولة العباسية نسخ اسم العلوية والعثمانية، وصار المسلمون شيعة وأهل سنة وخوارج .

---

(١) لم يكن أنصار على يسمون فى أول الأمر (الشيعة) وإنما تمحضت هذه الكلمة للدلالة عليهم بعد قتله جاء فى لسان العرب وفى تاج العروس : شيعة الرجل أتباعه وأنصاره جمعها شيع وجمع الجمع أشياع . وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة . وأصل الشيعة الفرقة من الناس على حدة ، وكل من عاون إنسانا وتحزب له فهو له شيعة ، وهو يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد . ثم غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته ، حتى صار اسمالهم خاصا ، فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه منهم .

والدليل على أن الكلمة لم تخلص للدلالة على شيعة على وحدهم إلا بعد مقتله أننا نجدها مستعملة بمعنى الأعوان والأنصار فى عهد على ، فهؤلاء شيعة على ، وأولئك شيعة معاوية وهكذا .

(٢) أعيان الشيعة ١ / ٣٤ وشرح نهج البلاغة ٤ / ٥٢٠ و ٢ / ٢

لكن الحزب العلوى لم يولد إلا بعد أن نشبت الفتنة ، وثار الثوار على عثمان وقتلوه ، فقد كان بنو هاشم يريدون الخلافة ، ويرون أنهم الأحق بها ، وكانوا يرشحون لها عليا ، وكان الساخطون على عثمان من غير بنى هاشم يريدون خليفة آخر غير عثمان ، وكان على واحدا ممن يركنون إليهم .

وكان قد نقم كثير من كبار المهاجرين والصحابة والمسلمين عدة أمور من عثمان ، بعضها يتصل بمسائل دينية ، وبعضها يتصل بمسائل سياسية وإدارية واجتماعية ومالية ، وأكثر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم فى نصحه ، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرفيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة ، وامتلأت العراق والحجاز ومصر باللائمين والناقدين والساخطين ، وانتهز عبد الله بن سبأ هذا الجو الملائم ، فصب على النار زيتا ، وجعل يثير المسلمين على عثمان ، فيزيدهم سخطاً على سخط ، وكان للرجل دعاة بالحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر يكاتبهم ويكاتبونه ، وكان لا يفتأ يحرض المسلمين على الثورة ، ويقول لأتباعه : انهضوا فى هذا الأمر ، فحركوه ، وأظهروا أنكم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، لتستميلوا إليكم الناس .

وعبد الله هذا يهودى من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، أسلم فى زمن عثمان ، ثم انتقل فى بلاد المسلمين يحاول إضلالهم (١) .

— ٢ —

كان عمر قد عهد بالشورى إلى ستة من جلة الصحابة ، هم الباقون من العشرة الذين بشرهم النبي بالجنة ، هؤلاء الستة هم : على وعبد الرحمن بن عوف وعثمان والزبير ابن العوام وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبى وقاص ، وكان الخليفة الذى اختير هو عثمان (٢) .

---

(١) الطبرى ٥/٩٨ .
(٢) الطبرى ٥/٣٤ .

فلما قتل عثمان صاروا أربعة ، لأن عبد الرحمن بن عوف كان قد مات فى خلافة عثمان ٣٢ هـ .

فماذا كانت وجهة كل من هؤلاء الأربعة أيام الفتنة وبعد أن قتل الثوار عثمان ؟[٣]

أما سعد فقد اعتزل فيمن اعتزل ، وبعد عن الثورة والشراذم الثائرة التى وفدت من الجند المرابط فى البصرة والكوفة ومصر ، وضمت إليها شراذم من أبناء المهاجرين ومن جفاة الأعراب .

وأما الزبير فقد وقف من الفتنة موقفاً لا هو دفاع خالص عن عثمان ، ولا هو تحريض سافر على عثمان ، وأغلب الظن أن ميله كان إلى الثوار .

وأما طلحة فقد كان يحرض الثوار ، ويزكى نفسه للخلافة عند جماعة منهم ، ولم يكن عمله هذا خافيا على عثمان ، فقد تكررت شكواه منه إلى على وإلى غير على ، وقد ذهب على إلى طلحة ليرده عن مسلكه هذا ، فرأى عنده فريقا من الثوار ، ونصح له فرفض نصحه ، فخرج علىٌّ إلى بيت المال ، فاستخرج ما فيه ، وقسمه على الناس ، ونال أعوان طلحة من هذا المال ، فتفرقوا عنه ، وحمد عثمان لعلى ما فعل .

وأغلب الظن أن شكوى عثمان لعلى ، ونصح على لطلحة ، وإخراجه المال من بيت المال لاصطناع الفريق الذين كانوا يؤازرون طلحة ، أو الذين كان طلحة يظن أنهم يؤازرونه ، ثم رضا عثمان بما فعل على ، أغلب الظن أن هذا وحده كفيل بتوضيح موقف على من الفتنة ، وسخطه على الثوار .

فما بالنا إذا علمنا أن عليا كان يخذل الثائرين عن ثورتهم ، وأنه سفر بينهم وبين عثمان مرتين ، وأنه أفلح فى الأولى فردهم عن المدينة ، وأفلح فى الثانية فطمأنهم إلى قبول عثمان لما طلبوا ، وصرفهم عن المدينة ، فلما عادوا على حين غرة واحتلوا المدينة بعد خروجهم منها حاول أن يردهم المرة الثالثة ، فأفلت الأمر من يده ، فأعان عثمان بما استطاع ، إذ أرسل إليه الماء لما شدد الثوار عليه الحصار ، ومنعوه

---

(٣) الطبرى ٥/٤٧ — ١٤٦ .

الماء ، وأرسل ابنيه الحسن والحسين ومولاه قنبرا ليحموا عثمان من الثوار ، وحاكاه كثير من الصحابة ، فبعثوا أبناءهم ، واشتبك المدافعون عن عثمان مع الثوار ، وجرح الحسن ، وشج قنبر ، فخشى الثوار أن يتحد بنو هاشم وبنو أمية ، وأن يجمعوا أمرهم لحماية عثمان ، فتسلل بعضهم إلى دار قوم من الأنصار ، وتسوروا عليها ، ودخلوا على عثمان فقتلوه .

فلما علم على بقتله أسرع إليه ، فدخل عليه الدار حزينا ، ولطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له طلحة : يا أبا الحسن ، لا تشتم ولا تضرب ولا تلعن ، لو أن عثمان دفع إلى الثوار مروان بن الحكم ما قتلوه[1] .

وقعت الكارثة ، واغتيل عثمان ، ولم يكن بد من اختيار خليفة يدبر شئون المسلمين ، ويجمع كلمتهم ، وينفذ فيهم حدود الله ، ففرض الثوار على على أن يقبل الخلافة فأبى ، ثم استعانوا عليه بالمهاجرين والأنصار فقبل ، وأقبل المسلمون فبايعوه . بايعه المسلمون إلا قلة ، منهم سعد بن أبى وقاص ، لأنه كان ممن اعتزلوا الفتنة ، وآثروا الحيدة المطلقة ، فخلاه على وشأنه ، ومنهم عبد الله بن عمر ، وقد حذره على عواقب الدس والمكيدة ، ومنهم الزبير وطلحة ، ولكل منهما طمع فى الخلافة ، لهذا لم يدعهما الثوار وشأنهما ، ولم يتسامح على معهما كما تسامح مع سعد وابن عمر ، بل اضطرهما الثوار إلى البيعة ، أوهما سارعا إلى البيعة مخافة الاضطرار ، واستوثق منهما على[2]

وإذا فقد صار علىٌ خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، ومن كانوا فى المدينة من الأنصار والمهاجرين .

والحق أن اختيار على كان غاية التوفيق فى خضم هذا الحرج والضيق ، فهو ابن عم النبي وربيبه ، وقد تعهد النبي بتربيته منذ العاشرة ، وقربه إلى نفسه أعظم تقريب ، واستخلفه على ودائعه حينما هاجر من مكة حتى يردها إلى ذويها ، وكشف له عن

---

(١) مروج الذهب ١/٤٤١ .

(٢) كانت الكوفة زبيرية الهوى والبصرة طلحية الهوى (الطبرى ٥ / ١٦٨) وأغلب الظن ان كلا منهما كان يطمع فى أن يوليه على المصر الذى يناصره .

خطته فى النجاة من المؤمرين بقتله ليلة الهجرة ، فنام فى فراشه ، فلما هاجر بعد النبى آخى النبى بينه وبينه ، وهو إلى هذا زوج ابنته فاطمة ، ووالد الحسن والحسين سبطى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو إلى كل ذلك بطل من أبطال الجهاد ، شهد مع النبي حروبه كلها ، وكان صاحب رايته ، وهو علم من أعلام الصحابة فى معرفة الشريعة ، واستقامة القصد، ووثاقة الإيمان .

أما مكة فقد تأبت على البيعة ؛ لأن كثيرا من أنصار عثمان وخصوم على كانوا بها ، وفى مقدمتهم السيدة عائشة . وقد حزنت أشد الحزن لما علمت بأن المدينة بايعت عليا ، وقالت : وددت لو أن السماء انطبقت على الأرض ، ولم يصر الأمر إلى على[1] . ثم انضم إليها طلحة والزبير ؛ وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا إلى البصرة فى نحو ثلاثة آلاف[2] .

لم يكن بد للخليفة الذى بويع ، واشترك فى بيعته بعض هؤلاء ، من أن يلحق بهم ، وقد فعل ذلك ، غير عازم على قتالهم ، بل لحق بهم ليناظرهم ويدعوهم إلى الصلح ، عسى أن يثوبوا إلى الحق ويعودوا معه إلى المدينة ، فقد سئل : أى شىء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال . أما الذى نريد وننوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه . فقيل له : فإن لم يجيبونا إليه ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قيل له : فإن لم يتركونا ؟ قال : نمتنع منهم[3] .

ومعنى هذا أن عليا حريص على السلام أشد الحرص ، حتى إنه إذا حورب فلن يفعل أكثر من الدفاع .

ثم التقى الفريقان فى موقعة الجمل[4] ، وقتل الزبير وطلحة ، وبايعت البصرة . وبعد أن هدأت المعركة بأيام رد علىٌّ السيدة عائشة إلى المدينة ، وشيعها وكرمها ، ثم ارتحل إلى الكوفة فبايعته ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية ، فلم يقدر لها نجاحا ، ثم كانت موقعة صِفِّين ، وكان التحكيم .

---

(١) الطبرى ٥/١٧٢ وما بعدها . (٢) الطبرى ٥/١٦٨

(٣) الطبرى ٥/١٨٣ . (٤) ذكر ابن النديم نقلا عن ابن إسحاق أن عليا لما خرج لقتال طلحة والزبير تسمى أتباعه بالشيعة

— ٣ —

انتقل على إلى العراق ، واختار الكوفة مركزاً له ، وينبوعا لدعوته ، وعاصمة لخلافته ، وانضوى تحت لوائه كثير من سكان العراق .

وصارت العراق والكوفة بخاصة موئل الشيعة ، ومنبع التشيع ، ومصدر الثورات على بنى أمية .

وهنا لك أسباب شتى لإقبال العراق بعامة والكوفة بخاصة على التشيع ، لعل أقواها :

١ — أنهم وجدوا عليا أجدر بالخلافة من معاوية ، وأعجبوا بعلمه وتقواه وعطفه عليهم .

٢ — وشعروا بأن فى التشيع لأبناء على نصرة للجنس الفارسى ، لأن الحسين ابن على تزوج شاهبانو إحدى بنات يزدجرد آخر أكاسرة الفرس ، فأبناء الحسين فى نظرهم ورثة ملوكهم وورثة تقاليدهم .

٣ — أن أكثر سكان الكوفة من أصل فارسى ، أسلموا واندمجوا بالعرب[1] . وكانت العقيدة الشيعية ملائمة لعقولهم ، وملائمة لعواطفهم وماضيهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون فى ملوكهم أنهم مصطفون من الله لسياسة خلقه ، فهم ظل الله على أرضه ، وهم مؤيدون بقوة من عنده ، ولهم على الناس أن يسمعوهم ويطيعوهم ، وليس لأحد حق عليهم . وإذا فلم يكن الفرس يستطيعون أن يتصوروا خليفة النبى يختار بالانتخاب ، وإنما يفهمون أنه يرث الخلافة ، كما توارثها البرثيون (٢٥٥ ق م إلى ٢٢٦ م) وكما توارثها من بعدهم بنو ساسان نحو أربعة قرون (٢٢٦ م — ٦٥٢ م) .

فلا غرابة فى أن نقل الفرس الذين أسلموا ولاءهم القديم لملوكهم إلى ولاء جديد لعلى بن أبى طالب وبنيه ، لأنهم أقرب الناس إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأحقهم بوراثته .

---

(١) فجر الإسلام ٩٢ عن ولهوسن Wellhausen

ولقد يدل على هذا أن الفرس كانوا يؤثرون أقارب النبي فى ولائهم ، فقد حالفت الأساورة [1] الأزد — وهم من اليمن — ثم سألوا عن أقرب الحيَّيْن — الأزد وبنى تميم — نسبا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإلى الخلفاء الراشدين ، فقيل لهم بنو تميم ، فتركوا الأزد وحالفوا بنى تميم .

ولقد اتفق على هذا الوصف كثير من الباحثين ، قال الأستاذ نولدكه : إن الملوك الفرس كانوا يزعمون أن لهم وحدهم الحق فى أن يلبسوا تاج الملك ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى .

وقال الأستاذ برَوْن : إن نظرية الحق الإلهى لم تعتنق كما اعْتُنِقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية [2] .

وقال دوزى : يظهر فى فرقة الشيعة الفارق بين الجنس العربى الذى يحب الحرية ، والجنس الفارسى الذى اعتاد الخضوع كالعبيد ، لقد كان انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهود ولا مفهوم ، لأن الفرس لم يعرفوا غير الوراثة فى الحكم ، لهذا اعتقدوا أن النبي إذ لم يترك وارثا فإن عليا هو الذى كان يجب أن يخلفه ، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى أبناء على ، وصار الخلفاء فى نظرهم غاصبين للحكم ، لا تجب طاعتهم ، وقوى هذا الاعتقاد كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية ، وحسدهم لسادتهم ولثرواتهم ، ثم إنهم اعتادوا أن يروا فى ملوكهم أحفادا منحدرين من الآلهة الدنيا ، فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى على وذريته . . .

ويتحدث ملَّر بما يشبه هذا ، ويزيد عليه أن الفرس كانوا قد تأثروا بآراء هندية قبل الإسلام بزمن طويل ، فمالوا إلى القول بأن الشاهنشاه هو تَجَسُّدٌ لروح الله التى تتنقل فى أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء [3] .

وإذاً فقد كان التشيع ملائما للفرس ، مجاريا لعقيدتهم ، موافقا لعواطفهم . ولكن ليس معنى هذا أن الشيعة فرقة فارسية ، كما ذهب دوزى [4] ، لأن هذا

---

(١) قوم من فرسان الفرس نزلوا البصرة، والأحامرة نزلوا الكوفة .
(٢) فجر الإسلام ١٠١ .
(٣) الخوارج والشيعة ٢٤٠ ولهوزن .

معناه أن المذهب فارسى النشأة ، وأنه نبع من الفرس أنفسهم ، على حين أن الوقائع تكشف عن نشأة التشيع بين العرب الخاص ، وانتقاله منهم إلى الموالى . ثم توالت المحن على هؤلاء وأولئك ، فوثقت ما بينهم من وحدة المذهب ، فقد كان بعض المسلمين من بنى هاشم وغيرهم يؤثرون أن يتولى الخلافة على بن أبى طالب بعد رسول الله ، ثم تحمس لهذا الرأى العرب الذين بالعراق .

وحتى الفرقة الكيسانية التى نشأت بأُخْرَة ، واشتهر زعيمها المختار بن أبى عُبَيْد بالمَخْرقة والأضاليل ، حتى هذه الفرقة كان بينها كثير من العرب الخلص ، فأول سادن لكرسيه هو موسى بن أبى موسى الأشعرى ، ثم تلاه حَوْشَب البُرْسُمِىّ . والكرسى نفسه كان فى حوزة اليمنيين ، وكان عبدالله بن نَوْف الهمدانى ينافس زعيمه المختار فى التكهن والتمويه ، وكان أحد أعمام أعشى همدان ممن صدق بأن المختار يوحى إليه .

فإذا مارجعنا إلى الشعر المناهض لدعوة المختار ومخرقته ، وجدنا ذكرا لأحياء من العرب كانت تلتف به وتصدق دعاويه ، كشِبام وشاكر ونَهْد وخارف .

قال المتوكل الليثى(١) :

أَبْلِـغْ أبا إسحاق إن جئتـه ... أنى بـكرسـيكُم كافـر
تَـنْزُو شِـبامٌ حـول أعواده ... وتَحْـمِلُ الوَحْىَ له شـاكر

وقال أعشى همدان(٢) :

وأُقسِمُ ما كرسِيُّكم بسكينة ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سَعَتْ ... شِبام حواليه ونَهْدٌ وخارف

لهذا كان جولد تسيهر على حق فى ذهابه إلى أن التشيع عربى النشأة(٣) .

---

(١) و(٢) الطبرى ٦ / ١٤١ .
(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام ١٦٩ جولد تسيهر .

٤ — وكان شعور الموالى بتخلفهم عن العرب فى المكانة الاجتماعية والوضع السياسى من بواعث تشيعهم ، وبخاصة فى الكوفة ، وسأزيد هذا إيضاحا فى دراستى للشعوبية فى هذا العصر .

٥ — ثم إن جنوح العراق بعامة إلى علىّ وبنيه من بعده ، وثوراتهم المتكررة على الدولة الأموية ، إن هى إلا أصداء للعداء القديم الذى كان بين العراق والشام ، فالتاريخ يحدثنا أن الحيرة كانت إمارة عربية موالية للفرس ، وكثيرا ما حاربت معهم الروم وأعوانهم من الغساسنة ، وكانت غسان إمارة عربية موالية للروم ، وكثيرا ما حاربت الفرس وعرب الحيرة مناصرة للروم ، ولم يكن هـذا فحسب ، بل إن المناذرة ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام طالما حارب بعضهم بعضا .

ثم جاء الإسلام فصب ماء على هذه النار المشتعلة ، وانصرف هؤلاء وهؤلاء إلى الذود عن دينهم ، وإلى الفتح ، وحسب الناظرون أن النار قد خمدت ، فلما هبت عليها ريح من الصراع الناشب بين على ومعاوية سرعان ما استعادت لهيبها ، وسرعان ما أُرِّثَتْ وقودها ، فأبت الشام أن تخضع لعلى فتكون تبيعة للعراق ، وأبت العراق أن تبايع معاوية فتصير تابعة للشام ، وشمرت العراق لنصرة علىٍّ ، وجَدَّتْ الشام فى تعزيز معاوية .

وليس أدل على أن مناوأة العراق للأمويين مظهر من مظاهر العداء القديم والعداء الجديد معا ، من أن سكان العراق كانوا طوال العصر الأموى يستجيبون لكل من يقودهم إلى الثورة على الخلافة الأموية .

فعلوا ذلك منضمين إلى على ، ثم إلى ابنه الحسين ، ثم كانوا جنودا فى ثورة المختار بن أبى عُبَيْد الثقفى ، وفى حرب مصعب بن الزبير لعبد الملك ، وفى خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك ، وكذلك ثاروا على هشام ابن عبد الملك منضمين إلى يزيد بن على زين العابدين بن الحسين ، فلما قتل ونبش الأمويون قبره ، وأخرجوا جثته وصلبوها وأحرقوها وذروا رمادها فى نهر الفرات ، حنق الشيعة ، والتفوا حول ابنه يحي ، وأغروه بالثورة فى عهد الوليد بن يزيد ،

فقتل كما قتل أبوه ، وأحرق ، ثم ثاروا على الدولة مناصرين ليزيد بن المهلب .

٦ — ولقد أرَّثَ هذا كله أن أكثر سكان العراق كانوا من العدنانية ، وبخاصة قيس ومضر وتميم ، على حين أن أكثر سكان الشام من القحطانية ، وبين هؤلاء وأولئك صراع قديم ، وإذا كان قد توارى في صدر الإسلام فإنه لم يلبث أن استيقظ فى عصر بنى أمية ، كما سأبين فى دراسة العصبية القبلية .

— ٤ —

أهم ثوراتهم وأحداثهم

اتفق ثلاثة من الخوارج على إراحة المسلمين من رؤساء الفرقة والصراع : على ومعاوية وعمرو ، بقتلهم فى يوم واحد حينما يخرجون لصلاة الصبح .

أما عمرو فقد تكفل بقتله عمرو بن بكر التيمى ، لكنه لم يظفر به ، لأن عمرو ابن العاص تخلف عن صلاة الصبح فى ذلك اليوم لعلة نزلت به ، وأناب عنه فى الصلاة صاحب شرطته خارجة العدوى ، وظنه القاتل عَمْراً فقتله ، واقتص منه عمرو فقتله .

وأما معاوية فقد انتدب لقتله الحجاج بن عبد الله الصريمى التميمى ، لكنه أخفق ، لأنه ضرب معاوية وهو دارع ، وقُتل جزاء على جنايته .

وأما على فقد تكفل بقتله عبد الرحمن بن مُلْجَم الحميرى حليف مراد ، فنجح حيث أخفق صاحباه ، ضرب عليا بسيفه وعلى ينادى للصلاة ، فكان جزاء القتال أن مزق شر ممزق ، وأحرق بالنار .

١ — فلما قتل على راجت الدعوة لابنه الحسن ، وبايعه أهل الكوفة ، وقضى بالخلافة ستة أشهر . وجعل يستعد لقتال معاوية على كره منه ، لأنه لم يكن يريد قتال أحد ، على حين أن معاوية كان أمضى منه عزيمة ، وأشد ميلا إلى الحرب ، فسبقه إلى الخروج بجيشه[1] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ١٧٥ والبداية والنهاية ٨/ ١٤

ولهذا يرى بروكلمان أن الحسن لم يكن الزعيم الذى تنتظره الدولة ، لأنه رفض أن يقود جيشه فى الهجوم على معاوية[١] . ثم سار معاوية إليه ، فوجد الحسن أن أهل العراق قد خذلوه ، وأيقن أنه لا طاقة له بمعاوية وجنده ، فتصالح مع معاوية (٤٠ هـ ٦٦٠ م) ، على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وعلى أن يختار المسلمون من يشاءون بعد موت معاوية ، ورفض ماعرضه عليه معاوية أن يخلفه بعد موته .

ولقد أراد بهذا الصلح أن يحقن دماء المسلمين ، لكن أصحابه لم يرتضوا الصلح ، فكانوا يقولون له : يا عار المؤمنين ، فيرد عليهم بقوله : العار خير من النار . وقال له رجل : السلام عليك يا مُذِلّ المؤمنين ، فقال : لست بمذل المؤمنين ، ولكنى كرهت أن أقتلكم على الملك[٢] .

وحينئذ توارى التشيع من الكوفة حينا ، وانضم أهلها إلى معاوية ، وغادرها الحسن إلى المدينة ، وعاش بها حتى مات (٤٨ هـ ٦٦٨ م) .

٢ — لكن التشيع لم يلبث أن عاد ، لأن معاوية أباح سبّ علىّ على منابر الكوفة عقب كل خطبة[٣] ، فهاج الشيعة ، فقبض زياد والى الكوفة على كبرائهم (٥١ هـ) وأرسلهم إلى معاوية ، فقتل منهم ثمانية ، فيهم حُجْر بن عَدىّ ، وعفا عن ستة تبرأوا من على[٤] .

وكانت هذه القسوة سببا فى ضعف الشيعة أيام معاوية ، وقصر التشيع على ميدان النظر والعقيدة ، لا على ميدان العمل والثورة .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/١٤٥

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٩٢ والطبرى ٦/٩٢ واليعقوبي ٢/٢٥٥ ومروج الذهب ٢/٥٠ .

(٣) أباح سبه خلفاء بنى أمية إلا عمر بن عبد العزيز . ولقد استنكرها الصحابة ، ونهوا معاوية وخلفاءه عنها ، وكتبت أم سلمة زوجة الرسول إلى معاوية تقول إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، لأنكم تلعنون عليا ومن أحبه ، وأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه .

(٤) تاريخ الطبرى ٦/١٤١ — ١٦١

٣ — فلما تولى يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى عامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة فى الحجاز ، فرفض عبد الله بن الزبير ، وفر إلى مكة .

وكذلك فعل الحسين بن على ، وراسلته الشيعة من الكوفة ، فبعثوا إليه كتبا عدة يطالبونه فيها أن يَشْخَصَ إليهم .

فبعث ابن عمه مسلم بن عَقِيل ، ليتعرف حقيقة أمرهم ، فالتفوا حوله ، وعاهدوه على النصرة ، فأرسل إلى الحسين يستدعيه[١] .

وكان عبيد الله بن زياد قد تولى الكوفة مضافة إلى البصرة ، فاشتد فى معاملة الشيعة ، وقسا عليهم ، فتخلى كثير منهم عن مسلم ، وقضى عبيد الله بن زياد على ثورة الشيعة التى قادها مسلم ، وصلبه بعد مقتله ، فكان أول مصلوب من بنى هاشم[٢] . وبهذا أراد أن يقوض دعائم الحزب العلوى معتمدا على الإرهاب الشديد ، إذ كان يقتل أو يسجن من يتشكك فى ولائه لبنى أمية ، وكان يعتمد على المال فى استمالة الأنصار والخصوم على السواء ، ونجحت عطاياه فى تأليف قلوب كثير من العلويين ، ولهذا صدق الفرزدق فى قوله للحسين لما سأله عن أحوال الكوفة : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء[٣] .

خرج الحسين إلى الكوفة ، ولم يستمع إلى تحذير المحذرين ، ولم يكن قد علم بقتل مسلم وتخلى أهل الكوفة عنه ، فلقيته جنود عبيد الله عند كَرْبِلاء ، بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فأعلمه الحسين أنه ما قدم يبتغى حرباً ، وإنما استدعاه أهل الكوفة ، وعرض عليه أن يخلى بينه وبين أى ثغر من ثغور المسلمين ، أو يتركه ليعود إلى مكة ، أو يدعه ليسير إلى دمشق ، فيلقى يزيد بن معاوية .

ولكن عبيد الله بن زياد رفض هذا كله ، وبعث إلى قائده عمر ألا يقبل من الحسين إلا البيعة ليزيد والخضوع له .

فقال الحسين : أما هذه فدونها الموت ، واضطر إلى أن يحارب هو وأهله ، وأن يبلوا أروع البلاء على قلة عددهم وكثرة خصومهم ، فقتلوا جميعا سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م)

---

(١) الطبرى ٦/١٩٤ — ٢١٥

(٢) مروج الذهب ٣/٩

(٣) الأخبار الطوال للدينورى ٢٥٨

ماعدا النسوة وبعض أطفال[1] ، فيهم على بن الحسين .

ولقد كان هذا الحادث البشع المنكر مذكياً للتشيع إلى أقصى حد ، وكان عاملا على وحدة الشيعة وحماستهم لنصرة مذهبهم ، وسبباً فى ثوراتهم الجارفة ليثأروا من قَتَلَةِ الحسين ، ثم كان من الأسباب التى نشرت التشيع بين الفرس أصهار الحسين[2] ، فناصروا بنى العباس فى إسقاط بنى أمية .

٤ — ولم يلبث عداء الشيعة للأمويين أن استعلن فى عهد عبد الملك بن مروان ، فتحركوا بالكوفة سنة ٦٥ ﻫ وتداولوا أمرهم بينهم ، وأجمعوا على أنهم قد فرطوا فى دم الحسين ، وندموا على ما اقترفوا ، وتابوا مما اجترحوا ، فسموا التوابين ، وتزعمهم سليمان بن صُرَد الخزاعى ، وهؤلاء التوابون اجتمعوا بالنُّخَيْلة ، ثم انتقلوا منها إلى قبر الحسين فبكوا كثيراً ، ونادوا : يارب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا . فاغفر لنا ما مضى ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصِّدِّيقين .

ثم ساروا حتى التقوا فى عين الوَرْدَة بجيش عبد الملك بن مروان ، يقوده الحُصَيْن بن نُمَيْر السَّكونى . فدعاهم القائد قبل الاشتباك أن يبايعوا عبد الملك ؛ فرفضوا ، وطلبوا منه أربعة مطالب : أن يدفع أهل الشام إليهم عبيد الله بن زياد ليقتلوه ثأرا للحسين ، وأن يخلعوا عبد الملك ، وأن يخرجوا من العراق آل الزبير ، ثم يرد الحكم إلى أهل بيت النبى . فأبى أهل الشام ، وتقاتل الفريقان بضعة أيام أحرّ قتال ، وقتل سليمان بن صرد ، وقتل من خلفاه على القيادة ، وانهزم التوابون سنة ٦٥ ﻫ[3] .

٥ — عاد الذين نجوا من القتل إلى الكوفة ، وكان المختار بن أبى عُبَيْد محبوساً ، وكان يكثر من الثناء على التوابين والإعجاب بشهدائهم وهو فى سجنه ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ١٩ والذى ارتكب قتل الحسين شمر بن ذى الجوشن التيمى

(٢) كان متزوجا شاهبانو بنت يزدجرد ملك الفرس (الدعوة إلى الإسلام ١٨١ أرنولد) .

(٣) الطبرى ٧ / ٦٦ — ٨٠ وابن الأثير ٤ / ٧٣ ومروج الذهب ٢ / ١١٠ .

ويود لو أطلق ليتزعم التوابين ، ويثأر للحسين وللشيعة ، ويثأر من الزبيريين الذين حبسوه . وتشفع إلى والى الكوفة من قبل ابن الزبير ، فأطلق سراحه بعد استيثاق شديد ، لكنه بعد خروجه تزعم الدعوة ، والتفت الشيعة حوله ، وآزره محمد بن الحنفية ، وادعى المختار أنه أمينه ووزيره ، فقوى أمره بالكوفة حتى تغلب على والى ابن الزبير وطرده ، وجعل يحسن سياسته للكوفة ويوادُّ أهلها ، ويعطف على الموالى . وفى السنة نفسها بعث جيشاً إلى المدينة لمساعدة ابن الزبير أو للمكر به ، وهو مظهر له أنه يريد مناصرته على جيش عبد الملك الذى قدم إلى مكة ليحاربه ، فنزل جيش المختار وادى القُرَى ، وتبين لقائد ابن الزبير أنهم يريدون الاستيلاء على المدينة ، فحاربهم وهزمهم .

فلما حبس ابن الزبير محمد بن الحنفية وأهل بيته وبعض أشراف الكوفة — وكان ابن الحنفية قدم إلى مكة للحج — بالبيت الحرام ، وهددهم بالإحراق إن لم يبايعوه ، أرسل ابن الحنفية إلى المختار يطلب النجدة ، فأرسل جنوداً إلى مكة لإنقاذه ، فخافهم ابن الزبير وأطلقه .

وعلم المختار أن عبيد الله بن زياد قادم بجيشه من الشام إلى العراق ، فبعث جيشا لقيه عند الموصل سنة ٦٦ ، وانتصر جيش المختار نصرا غير حاسم ، ثم التقى الجيشان ثانية بقيادة المختار نفسه عند نهر خازر سنة ٦٧ وكان النصر الحاسم للمختار ، وقتل عبيد الله بن زياد .

وفى الفترة التى بين الموقعتين تآمر عليه أشراف الكوفة ، فحاربهم سنة ٦٦ ، وقتل كثيرا منهم ، وثأر للحسين من قاتليه ، واشتفى بخاصة من عمر بن سعد بن أبى وقاص وشَمِر بن ذى الجَوْشن ، فهرب كثير من سكان الكوفة إلى مصعب ابن الزبير بالبصرة .

ثم كانت نهايته على يد المهلب قائد جيش مصعب سنة ٦٧[1] هـ .

٦ — فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بالكوفة يريد الخلافة ، وكان معه القواد والأشراف ، فلما قامت

(١) الطبرى ٨٠/٧ ، ١١٢ ، ١٤٦ وابن الأثير ٦٩/٤ ومروج الذهب ٩٨/٢ ، ١١٤

الحرب انهزم عنه أصحابه ،وبقى فى جمع قليل ، فقاتلهم أشد قتال وهو يقول متمثلا :

أذلّ الحيـــاة وعز الممـــات وكلا أراه طعـــاما وبيـــلا
فإن كان لا بد من واحد فسيرى إلى الموت سيرا جميـــلا

فقتل وصلب سنة ١٢١ أو ١٢٢ هـ .

وبعد أربع سنوات أو خمس ثار ابنه يحي فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان ، فقتله قائد الوالى نصر بن سيار ، وصلبه سنه ١٢٥[1]

٧ — على أن الشيعة لم يثنهم عن عقيدتهم ما لقوا من تنكيل ، فما زالوا يَدْعون إلى مذهبهم ، ويؤلبون الأنصار ، حتى ضعفت الدولة الأموية ، وقامت دولة بنى العباس .

وهنا تلون الصراع بلون جديد ، إذ انقسم الشيعة إلى علويين وعباسيين ، وصار المتشيع هو الذى يقصر الإمامة على نسل على بن أبى طالب ، أما الذى يوالى بنى العباس فليس من الشيعة فى شيء[2] .

ولقى الشيعة من اضطهاد بنى عمومتهم مثل الذى لقوه من بنى أمية من قبل ، بل أشد وأقسى ، وتعددت ثوراتهم فى أقاليم شتى .

ففى عهد المنصور خرج محمد (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على الذى كان أستاذا لأبى حنيفة . خرج إبراهيم بالعراق ، وخرج محمد (النفس الزكية) بالمدينة سنة ١٤٥ ، وبسبب خروجهما أوذى أبو حنيفة بالعراق ، وأوذى مالك بالمدينة ، لأن أبا حنيفة كان لا ينهى عن الخروج لمناصرة إبراهيم ، بل كان يحرض عليه أو يوعز به ويزكيه . فلما تولى أبو جعفر المنصور ترصد أبا حنيفة ، حتى إذا خمدت الثورة أراد أن يثأر منه ، فدعاه إلى القضاء ، فلما رفض نـكل به .

---

(١) الطبرى ٨/ ٢٦٠ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ ومروج الذهب ٣/ ١٨٢
(٢) أعيان الشيعة ١/ ١٦ — ١٩

وأما مالك فقد أفتى أهل المدينة بأن المستكره لا يمين له ، لأن كثيرا من الثائرين مع محمد النفس الزكية قالوا إن بيعة المنصور أُخِذَتْ كرها ، فاتخذوا من فتوى مالك ذريعة للانتقاض ، فلما سئل مالك عن خروجهم على المنصور قال: إن الخروج على مثل عمر بن عبد العزيز لا يجوز ، فإذا كان على غير مثله فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم الله من كليهما ، وقد نكل به والى المدينة بأمر من المنصور، ثم ادعى المنصور أنه لم يأمره .

ثم قتل محمد ، وحمل رأسه إلى عيسى بن موسى ، فدخل المدينة ، وآمن أَهْلَها على أنفسهم ، وكانت الثورة شهرين وسبعة عشر يوماً(١) .

وهكذا تعددت الثورات باليمن والمدينة والبصرة سنة ١٩٩ فى عهد المأمون ، وبالكوفة وطبرستان فى أيام المستعين سنة ٢٤٨ ، ٢٥٠ ثم بالكوفة والرى سنة ٢٥٥ فى خلافة المعتز بالله .

وكان العباسيون يقسون أشد القسوة فى التنكيل بالثوار وتقتيلهم وتحريقهم ، ذكروا أن المنصور أمر فحمل إليه مَنْ فى المدينة من علويين مقيدين بالسلاسل ، فلما وصلوا إليه حبسهم فى سجن مظلم لا يتبين فيه ليل ولا نهار ، فإذا مات واحد منهم فى السجن تركه معهم ، ثم أمر بهدم السجن عليهم .

وقد ردد شعراء الشيعة سخطهم على بنى العباس ، وشهروا بمظالمهم ، كقول الشريف الرضى :

ألا ليس فِعْلُ الأولين وإن علا ... على قُبْحِ فِعْل الآخرين بزائد

وقول أبى فراس الحمدانى :

ما نال منهم بنو حرب وإن عَظُمَتْ ... تلك الجرائمُ إلا دون نَيْلِكُمُ

ولكن كيف انتقلت الدعوة من نسل على بن أبى طالب إلى نسل العباس بن عبد المطلب ؟

---

(١) الطبرى ٩/٢٠١ — ٢٣٥ .

ذلك أنه بعد موت محمد بن الحنفية ظهرت فرقة الهاشمية التى اعتقدت أنه أوصى إلى ابنه عبدالله المعروف بأبى هاشم .

ثم افترقوا ، فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه على ثم إلى ابنه الحسن بن على .

ومنهم من زعم أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة فى منصرفه من الشام أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام ، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله الملقب بالسفاح . وأوصى السفاح إلى أخيه عبد الله ابن أبى جعفر الملقب بالمنصور ، وانتقلت فى ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد .

وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة العباسيين ، وكان منهم أبو مسلم الخراسانى وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة بنى العباس[1]

أشهـــــر فرقهم

الإمامية لقب يشمل فرق الشيعة ، لأن الإمامية هم الذين استدلوا على إمامة على ، ورأوا أنها تنتقل منه بالتعيين ، وأن الإيمان لا يكتمل إلا بمعرفة الإمام .

وهم مجمعون على أن الإمامة فى على بن أبى طالب ، ثم فى ولديه الحسن والحسين ، ثم انقسموا إلى قسمين :

قسم نقلها من الحسين إلى محمد بن الحنفية ، وهم الكيسانية ، ووقف بعضهم عنده ، وساقها آخرون إلى ابنه أبى هاشم .

ثم افترقت الهاشمية إلى خمس فرق ، رأت إحداها أن الإمامة انتقلت من أبى هاشم إلى بنى العباس .

وقسم نقل الإمامة من الحسين إلى ابنه على زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق

وهؤلاء انقسموا قسمين :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣٣ .

١ — الإمامية الاثناعشرية ، وهم الكثرة الغالبة الآن فى باكستان وإيران والعراق وسورية ولبنان وغيرها .

٢ — والإمامية الإسماعيلية ، وهم فى الهند وباكستان وسورية وجنوبى افريقية ، وكان منهم الفاطميون والقرامطة .

والإمامية الاثناعشرية والإسماعيلية يتفقون فى الأئمة إلى جعفر الصادق .

ثم يختص الاثناعشرية بالإمامة بعده ابنه موسى الكاظم ومَنْ بعده ، إلى الإمام الثانى عشر ، وربما خصوا باسم الإمامية .

ويذهب بها الإسماعيلية إلى ابنه إسماعيل ، معتمدين على أن ذلك كان بنص من أبيه جعفر . وإذا كان إسماعيل قد مات قبل أبيه فإن إعمال النص الذى قاله الإمام أولى من إهماله ، وهم يعتبرون أقوال الإمام نصوصاً شرعية واجبة الإعمال .

ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المستور ومَنْ بعده .

وهؤلاء الإسماعيلية قد سُمُّوا الباطنية ، إما لأنهم كانوا يستخفون من الناس فرارا من الاضطهاد ، وإما لزعمهم أن الإمام مستور إلى أن ظهرت لهم بالمغرب دولة ، ثم انتقلت إلى مصر ، وإما لزعمهم أن للشريعة ظاهراً يعلمه الناس ، وباطناً لا يعلمه إلا الإمام[1] .

والجدول الآتى يوضح تسلسل الأئمة فى عقيدة الاثنا عشرية والإسماعيلية .

---

(١) الاثناعشرية يوافقونهم فى أن الإمام منفرد بعلم الباطن

(١) على

(٢) الحسن — الحسن — عبد الله المحض — إبراهيم، محمد (النفس الزكية)

(٣) الحسين — (٤) على زين العابدين — (٥) محمد الباقر، زيد — (زيد): يحي، عيسى

(٥) محمد الباقر — (٦) جعفر الصادق

محمد بن الحنفية — أبو هاشم، على — (على): الحسن — على — الحسن

(٦) جعفر الصادق — إسحاق، (٧) موسى الكاظم، عبدالله الأفطح، محمد الديباج، (٧) إسماعيل

(٧) موسى الكاظم — أحمد، (٨) على الرضا — (٩) محمد الجواد — موسى، (١٠) على الهادى

(١٠) على الهادى — أبو جعفر محمد، (١١) الحسن العسكرى، جعفر

(١١) الحسن العسكرى — (١٢) محمد (المهدى المنتظر)

(٧) إسماعيل — محمد — إسماعيل — محمد — أحمد — عبدالله — أحمد — حسين (أئمة مستورون) — عبيد الله المهدى رأس الدولة فاطمية

الكَيْسانيّة

١ — أول فرقة يصح أن تسمى بالشيعة هي الكيسانية ، لأن كلمة شيعة كانت تطلق من قبل على أنصار أي شخص وأعوانه ، وكان أنصار علي يسمون العلويين أو الهاشميين ، ولكن كلمة شيعة تمحضت في هذا الوقت للدلالة على أنصار أبناء علي .

أما كَيْسان المنسوبة إليه فمختلف فيه [١] ، لكن الذي لا خلاف عليه أن المختار ابن أبي عُبَيْد الثقفي تزعم الفرقة سنة ٦٦ هـ بعد مقتل سلفه سليمان بن صُرَد ، وبعد هزيمة التوابين بسنة .

٢ — فمن المختار ؟ وماحقيقته ؟

أما نسبه فثقفي ، من أسرة كريمة ، قاد أبوه المعركة ضد الفرس عند البُوَيْب (النُّخَيْلة) وقتل .

وكان المختار زوجا لبنت النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة في عهد يزيد ، وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب زوجا لأخته ، ولهذا كان المختار يعتمد عليه في تخليصه من المآزق ، فقد أنقذه من سجن عبيدالله بن زياد ، ومن سجن ولاة عبد الله ابن الزبير بالعراق .

وأما تاريخه فحافل بالدهاء والتقلب والمطامع والشجاعة ، ذلك أنه بدأ حياته السياسية عثماني النزعة لا علوي الوجهة [٢] ، ويعزز ذلك أنه في سنة ٤٠ هـ بايع الناس الحسن ابن علي بالخلافة ، ثم خرج بهم حتى نزل المدائن ، وأقبل معاوية في أهل الشام ، وكان سعد بن مسعود عم المختار عاملا على المدائن حينئذ ، وكان هو وعبد الله ابن عباس يتزعمان البيعة للحسن ، فقال له المختار وهو مايزال شابا : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وماذاك ؟ قال : تقبض على الحسن ، وترسله إلى معاوية ، لتنال رضاه .

---

(١) أهو كيسان مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين ؟ أم كيسان تلميذ محمد بن الحنفية ؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفي ؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان ويكنى أبا عمرة وأبا اسحاق ؟ (الملل والنحل ١/١٣٣ والفرق بين الفرق للبغدادي والحور العين لنشوان الحميري ١٨٢) .

(٢) الطبري ٦/٩٢

فأبى سعد أن يستجيب لمشورة المختار [١] .

ثم صار من شيعة الحسين بن على ، لأنه أوى مسلم بن عقيل لما بعثه الحسين إلى الكوفة ، وشاركه فى الدعوة إلى الحسين[٢] ، فلما قتل مسلم سجنه عبيد الله بن زياد ، ثم عفا عنه ، ونفاه خارج الكوفة .

وقبيل مقتل الحسين أقبل المختار فى جند مسلح لينصروا الحسين ، لكن الحسين قتل قبل أن يبلغوه ، فقبض عليه عبيدالله بن زياد وحبسه ، وضربه بالقضيب حتى شتر عينه ، فشفع له عبد الله بن عمر بكتاب إلى يزيد بن معاوية ، فكتب يزيد إلى عبيد الله أن يطلقه ، فأطلقه ، ولكن نفاه ، فخرج إلى الحجاز ، واتصل بعبد الله ابن الزبير [٣] .

وحينئذ يصير المختار من أنصار ابن الزبير ، ويبايعه ، ويشترط عليه ألا يقضى أمرا دونه ، وأن يكون أول من يدخل عليه ، وأن يوليه أفضل أعماله إذا استقام له الأمر . لكن ابن الزبير يتأنى قليلا فى الموافقة ، ثم يستجيب ، ووفى كل من الرجلين بما عاهد عليه إلى زمن محدود ، فكان المختار اثيراً عند ابن الزبير ، وكان ابن الزبير يستشيره ، وقد أبلى المختار فى قتال ابن الزبير للحصين بن نمير أحسن بلاء ، وقاتل أشد قتال سنة ٦٤ هـ مع الخوارج الذين قدموا للدفاع عن مكة ولمناصرة ابن الزبير [٤] .

فلما مات يزيدبن معاوية ، وأعلن ابن الزبير نفسه خليفة طمع المختار أن يوليه العراق ، فلم يجبه إلى ماطلب .

وأغلب الظن أنه تخوف من مطالبه ومن نفوذه هناك ، فاحتال المختار عليه ليعود إلى العراق ، بدعوى جمع الأنصار وتدبير الوسائل [٥]

والحق أنه لم يجد فى انضمامه إلى ابن الزبير ما كان يريد من مآرب ، ولم يجد فى مكة

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/٢١٤ .
(٢) الطبرى ٧/٥٨ .
(٣) اليعقوبى ٢/٥
(٤) الكامل لابن الأثير ٣/٥٥ و ٤/٧٢ والبداية والنهاية ٨/٢٤٩ ومروج الذهب ٣/١٩ .
(٥) الطبرى ٧/١٣٣ .

مجالا لزعامته ، فتخلى عن ابن الزبير ، واتجه إلى الكوفة بعد أن طرد التوابون واليها عبيد الله بن زياد ، واعتزم — كما قال — أن يجمع التوابين على مرّ الحق ، وينفى بهم ركبان الباطل ، ويقتل بهم كل جبار عنيد

فلما قتل سليمان بن صُرَد خلفه فى زعامة التوابين ، وهم بإثارتهم على واليهم من قبل عبد الله بن الزبير — عبد الله بن يزيد — فسجنه ، ثم أطلقه بعد استيثاق وأيمان ، لكنه تحلل من أيمانه فى عهد الوالى الآخر — عبد الله بن مطيع القرشى — وكتب إلى على بن الحسين يعرض ولاءه ، فرفضه ولعنه ، فكتب إلى محمد بن الحنفية[1] يؤكد ولاءه له ويعده بالنصرة ، فحذر علىّ عمه ، وأشار عليه ابن عباس ألا يجبهه باللعن والتكذيب كما فعل على ، فقبل محمد بن الحنفية .

حينئذ قوى شأن المختار بالكوفة ، وكثر أنصاره ، وجعل يدعو لمحمد بن الحنفية ، ويزعم أنه أمينه ووزيره[2] ، واستطاع أن يضم إليه إبراهيم بن الأشتر النخعى ، وأن يحارب الوالى ، ويستولى على الكوفة سنة ٦٦ هـ . وجدّ فى تقريب الموالى والعطف عليهم[3] ، فتكاثروا فى حزبه كثرة مذهلة ، وكانوا يخلصون له أعظم الإخلاص ، ويثقون به أعظم الثقة .

وهنا مال إلى ابن الزبير مرة ثانية ، أو أراد المكيدة به والخديعة له ، فإنه بعد استيلائه على الكوفة أرسل إلى ابن الزبير يعرض عليه أن يتعاونا على عدوهما المشترك ، جند الشام الذين زحفوا إلى الحجاز حتى بلغوا وادى القرى سنة ٦٦ ، فوافق ابن الزبير ، وأرسل إليه المختار جيشا من ثلاثة آلاف ، لكن قائد ابن الزبير توجس منهم شرا فقتلهم .

ثم تتبع المختار قاتلى الحسين والمتآمرين عليه ، فقتلهم ، وكادت العراق كلها تدين له ، وحارب عبيد الله بن زياد وقتله ، فكان هذا النصر من عوامل قوة الكيسانية وكثرة أشياعهم .

---

(١) هو محمد بن على بن أبى طالب ، أمه خولة بنت جعفر الحنفية ، نسبة إلى حنيفة وهم حى من العرب (القاموس المحيط) .

(٢) الطبرى ٧/٩٧ .

(٣) الأخبار الطوال ٢٩١ الدينورى

ثم كانت نهايته على يد مصعب بن الزبير ، إذ حاربه قرب الكوفة سنة ٦٧ وقتله ، وقضى على آلاف من أتباعه ، فدانت الكوفة لمصعب . وكان عبد الملك بن مروان قد ترك خصميه يتصارعان ، لتضعف قوتهما ، وليقضى أحدهما على الآخر .

وكان مصعب — بعد قتل المختار — شاور أصحابه فى المحصورين من الكيسانية الذين نزلوا على حكمه ،فاختلفوا فى أمرهم بين الإطلاق والقتل ، فأمر مصعب بقتلهم، — وكانوا ستة آلاف — فقال عقبة الأسدى :

قتلتم ستة الآلاف صَبْرا على العهد الموثَّق مُكتفينا
جعلتم أمة الحَبَطِىِّ جِسْرا ذُلالاً ظَهْرُه للواطئينا
وما كانوا غداةَ دُعُوا فَغُرُّوا بعهدهم بأول خائنينا
وكنت أمرتهم لو طاوعونى بضرب فى الأزقَّة مُصْلِتِينا (١)

٣ — على أنه لما أدرك بغيته تبين أنه صاحب أباطيل ، وليس صحيح المذهب . وإنما هو يريد الحكم(١) . يصفه المبرد بأنه كان خارجيا ،ثم زبيريا ، ثم رافضيا (٢) .

ويذكرون عنه ألوانا من الأضاليل ، فيقولون إنه كان يزعم أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بوحى من الله ، وكان يدعى أنه نبى ، فقد كتب إلى أهل البصرة يقول : بلغنى أنكم تكذبوننى ، وتكذبون رسلى ، وقد كُذِّبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم(٣) .

ويقولون إنه كان يمخرق على الناس بأكاذيب شتى ، منها أنه كان يتهكن بأمور ويحتال فيوقعها ، ثم يزعم للناس أن هذا من عند الله ، كقوله : « لتنزلن من السماء نار دهماء ، فلتحرقن دار أسماء » فعلم بهذا أسماء بن خارجة ، فقال « أو قد سجع بى أبو إسحاق ؟ هو والله مُحَرِّقٌ دارى » . فتركه وترك الدار ، وهرب من الكوفة .

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٦١
(٢) الأخبار الطوال للدينورى /٢٩٨
(٣) تهذيب الكامل ٢/٣٦٧ .
(٤) العقد الفريد ٥/٢٦٥ .

وخرج يُشَيِّع إبراهيم بن الأشتر وهو ماض لقتال عبيدالله بن زياد ، فقال للناس : « إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتم حَيْصة (١) ، فإني أجد في محكم الكتاب ، وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتي في صور الحمام دُوَيْن السحاب » . وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ، وقال لهم : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها . فلما التقى الجمعان دارت الدائرة على أصحاب إبراهيم ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة الملائكة ، فتراجعوا وقاتلوا حتى انكشف أصحاب ابن زياد وفنوا(٢) . ومن ضلالاته أنه جوز البَدْء على الله تعالى(٣) .

وإنما افترى هذا ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث ، إما بوحى ، وإما برسالة من قبل الإمام ابن الحنفية ، فإن وافق الحدث ما تكهن به جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن خالفه قال : قد بدا لربكم (٤) .

ومن مفترياته أنه اتخذ كرسيا غطاه بالديباج ، وكان يضعه في مقدمة الجيش ، ويقول لجنده : قاتلوا عليه ، فهو لكم كالتابوت لبني اسرائيل(٥) . وكان بعض أتباعه يعتقد أن الملك يأتيه بالوحى ، ويخبره بالغيب(٦) .

٤ — وإذا كان المختار لم يجد من أول أمره استجابة من الحسن بن على ، لأن الحسن أنكر رجعة أبيه ، ولم يجد ترحيباً من بعض أبناء الحسين ، لأنهم أنكروا فكرة

---

(١) حصتم : حدتم .

(٢) ابن الأثير ٢/١٦٩ والطبرى ٦/١٢٣ وطبقات الشعراء ٢٧٦

(٣) للبدء ثلاث صور : البدء في العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، وبدء في الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء في الأمر ، وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بخلافه . وهي كلها محالة عليه سبحانه وتعالى !

(٤) الملل والنحل ١/١٣٢ .

(٥) الطبرى ٧/١٤٠ والكامل للمبرد ٢/١٧٠ والملل والنحل ١/١٣٣ تابوت بني إسرائيل : كانوا يحتفظون فيه بالتوراة ، وكان مغطى لا يرفع غطاؤه إلا في المناسبات الرسمية .

(٦) مروج الذهب ٢/٩٨

الوصاية[١] ، فإن محمد بن الحنفية لم يكن صريح التأييد للمختار ، لأنه كان ضعيف الثقة فيه وفى أهل الكوفة ، إذ خذلوا أباه وأخويه من قبل ، بل برىء من المختار، وتبرأ من ضلالاته[٢] .

دعائم مذهبهم :

تدور أصول المذهب الكيسانى [٣] حول الإمامة والإمام .

١ — فالإمامة — الخلافة — واجبة على المسلمين ، لا غنى لهم عنها ، لأن الإمام هو القيم على شئون الناس ، والمنفذ لأحكام الله .

٢ — الإمامة حق علىّ وبنيه ، فكل من ولى الخلافة منذ قامت غاصب جائر .

٣ — محمد بن الحنفية هو الإمام ، وقد عهد إليه أخواه الحسن والحسين بالأسرار وعلم التأويل والباطن الذى لقناه من أبيهما على ، وعلى لقنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومحمد هذا لم يمت ، وإنما هو حى مقيم بجبل رضوى — بالقرب من المدينة — وسيعود فيملأ الأرض عدلا ، لأنه المهدى المنتظر . ولم يصرفهم عن هذا الزعم أن ابن الحنفية قد مات حقيقة سنة ٨١ هـ ، وصلى عليه والى المدينة أبان بن عثمان بن عفان ، ودفن بالبقيع .

٤ — الإمام ممتاز من البشر ، لأن فيه قبسا إلهياً تنقل من نبى إلى نبي ، وتنقل من محمد صلى الله عليه وسلم إلى على ، ومن على إلى ذريته .

وهذا القبس الإلهى يطهر الإمام من كل إثم ، ويعصمه من الخطأ ، ويفيض على قلبه وعقله معارف ربانية لايدركها سواه ، لهذا زعموا أن الإمام هو العليم بالشريعة،

---

(١) الطبقات

(٢) الملل والنحل ١/١٣٣ .

(٣) الملل والنحل ١/١٣٢ والفرق بين الفرق ٣٦ وتاريخ اليعقوبى ٢/١٢٥ والشريعة والعقيدة فى الإسلام لجولد زيهر ٢١٧

وأنه المشرع الوحيد ، فليس لأحد من المسلمين أن يجتهد ولا أن يقول برأيه . وإذا ارتكب الإمام خطأ فى نظر الناس فإنه بالنسبة إليه مقبول لأن له من علمه وعصمته ما يوضح له السبيل .

٥ — طاعة الناس للإمام مفروضة عليهم ، والدين هو طاعة الإمام ، وهذه الطاعة تبطل ضرورة التمسك بالعبادات من صلاة وصيام

٦ — المؤمنون هم الأئمة ومن ناصروهم ، لأنهم الذين اكتمل إيمانهم ، وما الأئمة إلا على وبنوه .

٧ — ويدينون بالتقية ، كما دان من بعدهم بها .

والتقية هى اتقاء المكروه بالتظاهر بغير ما فى النفس ، محافظة على الحياة أو المال أو العرض أو الخطة المرسومة ، كأن يظهر الشيعة طاعتهم للحاكم تقية لا رضا بحكمه ، ويوافقوا خصومهم من كفار أو خوارج أو سنية ، فيدينوا بمذهبهم ، ويصلوا صلاتهم ويصوموا صيامهم ، تقية لا عقيدة .

وهى بهذا المعنى أصل من أصول التشيع ، لم يشذ إلا قليل عنه من فرق الشيعة ، لأنها وسيلة من وسائلهم السرية فى كتمان العقيدة ، والتعمية على الحكومة ، والتلبيس على غيرهم من المسلمين ، وتدبير الخطط للثورات حتى تحين الفرص المواتية . ولهم فى التقية أخبار شتى ، كقولهم إنه لا دين لمن لا تقية له ، وقولهم إن أبا جعفر سئل عن رجلين من الكوفة أخذا ، وطلب منهما أن يبرآ من على ، فبرئ واحد منهما ورفض الآخر ، فأطلق الأول وقتل الثانى ، فقال أبو جعفر : أما الذى برى فرجل فقيه فى دينه ، وأما الذى لم يبرأ فرجل تعجل إلى الجنة .

وكأنما لم يقنعوا بدعواهم هذه ، فراحوا يسندونها بتأويل لبعض آيات القرآن الكريم ، وتخريج لأعمال أئمتهم ، فسر بعضهم قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » بأن المراد صبرهم على التقية ، وبأن أصحاب الكهف كانوا أعظم الناس تقية ، لأنهم كانوا يشهدون الأعياد ويشدون الزنانير ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين . وفسر بعضهم قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » بأن المقصود بما أنزل إليه خلافة على .

وأولوا قوله تعالى : « قل إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » بأنه يجب على الشيعى أن يكتم ولاءه الحق .

وقالوا : إن رضا على ببيعة أبي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، وإن صلح الحسن مع معاوية كان تقية .

٨ — وقد تحدث الشعر عن هذا المذهب حديثا سيأتى فى دراسة الشعر . أما الآن فأكتفى بقول كثير عزة — شاعر الكيسانية — فى الدعاية لابن الحنفية [١]

هُـدِيتَ يامَهدِيّنا ابن المهتدِى
أنت الذى نَرْضى به ونَرْتجِى
أنت ابن خير النـاس من بعد النبى
أنت إمام الحق لسنا نمترى

ويقول السيد الحميرى[٢] :

إذا ما المرء شاب له قَذالٌ — وعلَّله المواشطُ بالخضابِ[٣]
فقد ذهبت بشاشته وأودى — فقُمْ ياصاح نَبْكِ على الشباب
إلى يوم تئوب الناس فيه — إلى دنيـاهمُ قبل الحساب
فليس بعائدٍ مافات منه — إلى أحد إلى يوم الإياب
أدين بأن ذلك دين حق — وما أنا فى النشور بذى ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناسٍ — حَيُوامن بعددَرْسٍ فى التراب[٤]

(١) ابن الأثير ٤/١٠٦
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٣٢ .
(٣) القذال : مؤخر الرأس . المواشط : جمع ماشطة وهى التى ترجل الشعر
(٤) درس : فناء .

يشير الحميري إلى ماذكره الله تعالى في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف[١] ، وإلى ما جاء في سورة البقرة من ذكر الرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها ، وعجب من إحياء الله لها بعد موتها ، فأماته الله مئة عام ثم بعثه[٢] ، وإلى إحياء القتيل حين ضرب ببعض البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها[٣] .

٩ — وأغلب الظن أن الكيسانية وغيرهم من الغلاة تأثروا بمزاعم سبقهم إليها عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في عهد عثمان مخادعا أو صادقا .

وقد تقدم أنه كان من المؤلبين على عثمان ، وأنه انتهز النقمة على سياسته ، فجعل يوغر الصدور عليه .

ولابن سبأ هذا آراء متطرفة مضللة :

(أ) افترى مذهب الرجعة ، وقال : إني لأعجب ممن يقول برجعة موسى ولا يقول برجعة محمد ، والله تعالى يقول : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وزاد على هذا أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى ، ثم بنى على زعمه ، وبنى أتباعه من بعده أن عليا سيرجع .

ولقد بنى زعم الرجعة على أساس آخر ، هو أن علياً لم يمت ، ولما علم بقتله قال : لو أتيتمونا بدماغه في سبعين صرة ، وأقمتم على قتله سبعين عدلا ، ما صدقنا موته ، فانه لا يموت حتى يعود ، فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً . علي إذاً حي ، وهو يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه[٤] .

هذه العقيدة في الرجعة أصل من أصول الشيعة ، نقلوها فيما بعد إلى المهدي المنتظر ، كما سأبين بعد . والعجيب أن السيد محسن الأمين العالم الشيعي المعاصر يقول إن في رجعة علي أخبارا عن أئمة أهل البيت ، وإنها لا يمنع منها عقل ولا شرع ،

---

(١) سورة الكهف ٩ — ٢٦
(٢) سورة البقرة ٢٥٩
(٣) سورة البقرة ٦٧ — ٧٣
(٤) الملل والنحل ١/١٥٥ وفرق الشيعة ٣١ والطبري ٥/٩٨

فمن صحت عنده لزمه القول بها ، ويقـول إن موافقتها لرأى ابن سبأ لا توجب أن تـكون ماخوذة عنه (١) .

(ب) ادعى أن علياً وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء ، بعد محمد خاتم الأنبياء ، وهذه عقيدة أخرى دان بها أكثر الشيعة . يقول السيد محسن الأمـين إن القول بالوصاية لعلى بالإمامة لم يخترعه ابن سبأ ، بل إن كل الذين دعوا إلى إمامة على بعد وفاة النبي كانوا يرون أن عليا وصى النبي ، وكل الذين حضروا يوم الغَدِير كانوا يعلمون تلك الوصاية (٢) .

(حـ) على أن فى كتب المذاهب أخبارا شتى عن ابن سبأ ، لم تسلم من التهويل والتزيد والتـكثير ، وربمـا كان خصوم الشيعة هم الذين روجوا هـذه الأخبار ، لينتقصوا من أقدارهم منذ قام لهم حزب متميز .

فهم يذكرون أن ابن سبأ كأن يؤله عليا ، وأن علياً أمر بقتله ، ثم استبدل بالقتل نفيه إلى المدائن (٣) .

ولو أن هذا الخبر صحيح لاتخذه خصوم على سلاحا بتارا فى القضاء عليه ، وفض أتباعه من حوله ، بل لـكان أتباع على هم أول الخارجين عليه ، المحاربين له .

ويروون أن عليا لما آلت اليه الخلافة جَدَّ فى مقاومة السبئية ، وهاله أنهم يؤلهونه (٤) ، فأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبرا فرماهم فيها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنه الله ، يريدون أن الله تعالى هو الذى يعذب الـكفار فى النار .

ولا شك أن هذه أسطورة ، لـكنها مثيرة ، فليس فى كتاب من كتب التاريخ الأول شيء من هذا ، وليس فى أقوال أنصار على أو خصومه إشارة إلى هذا الحدث، ولو أنه كان صحيحاً لأشاد به أنصار على ، دلالة على صفاء إيمـانه ، ولو أنه كان

---

(١) أعيان الشيعة ١/٦٨
(٢) أعيان الشيعة ١/٦٨
(٣) الملل والنحل ١/١٥٥
(٤) نقد العلم والعلماء ١٠٣ ــ ١٠٨

شبه صحيح لاتخذه خصوم على معاول لهدم حزبه ، لأنه إذاً ضال مضل ، فهم لايعنيهم أنه حرق الذين ألهوه ، بقدر ما يعنيهم أنه أله .

ومن عجب أن يوافق على صحةهذا الخبر عالم شيعى كبير ، ثم يعلق عليه بأنه ليس من التشيع ، بل هو خروج على الإسلام (١) .

— ٢ —

الزيديـــة

أما هذه الفرقة فمنسوبة إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على .

وكان زيد قد خرج فى عهد هشام بن عبد الملك ، يريد الخلافة ، وانضم اليه كثير من أهل الكوفة ، وتبعوه الى المدينة ، فحاربه جيش هشام وقتله (٢) .

ومذهب هؤلاء أقرب الى الاعتدال من الكيسانية ، وآراؤهم متأثرة بآراء المعتزلة ، لأن زعيمهم زيد بن على كان تلميذا لواصل بن عطاء ، فتأثر بآرائه ، وتأثر أتباعه به (٣) .

دعائم مذهبهم :

١ — يحصرون الخلافة فى بنى على من فاطمة ، ولكن لا عن طريق الوصية ، بل عن طريق إختيار ذوى الرأى من الأمة ، ويرون أنه يصلح لها كل فاطمى عالم شجاع سخى زاهد ، متى خرج طالبا لها ، سواء أكان من نسل الحسن أم من نسل الحسين ، وهم متفقون على هذا التسلسل :

---

(١) أعيان الشيعة ١ / ٦٨

(٢) مروج الذهب ٢/١٨٢ والطبرى ٨/٢٧٦

(٣) الملل والنحل ١/١٣٨

١ — الحسين بن على .

٢ — على زين العابدين بن الحسين

٣ — زيد بن على (صاحب المذهب)

٤ — يحي بن زيد

٥ — محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب المسمى بالنفس الزكية .

ثم يفترقون الى عدة فرق :

١ — الجارودية أتباع أبى الجارود

٢ — السليمانية أتباع سليمان بن جرير

٣ — الصالحية والبترية أتباع الحسن ابن صالح وكثير بن الأبتر .

٢ — لم ينكروا خلافة أبى بكر وعمر ، ولم يكفروهما ، لأنه يجوز فى نظر رئيسهم زيد بن على بن الحسين أن يتولى الإمامة مفضول فى وجود الأفضل ، وعلل لخلافة أبى بكر مع وجود على بقوله : كان على أفضل الصحابة ، ولكن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التى جرت أيام النبوة كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على لم يجف بعد من دماء المشركين ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فاقتضت المصلحة أن يقوم بهذا الأمر من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق إلى الإسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما سمعت شيعة الكوفة رأيه هذا ، وعرفوا أنه لا يبرأ من أبى بكر وعمر رفضوه ، فسموا رافضة [١] .

---

(١) الملل والنحل ١/٣٩

ويزيد ابن أبى الحديد هذه العقيدة وضوحا فى قوله إن عليا لو أنكر إمامة من قبله وغضب عليهم لقلنا إنهم من الهالكين ، كالو غضب عليهم رسول الله ، لأنه ثبت أنه قال له : حربى حربك ، وسلمى سلمك . وقال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . لكنا رأيناه رضى إمامتهم ، وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وأنكحهم وأكل من فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه ؟ ولما لعنه لعناه(١) ؟

وهم بهذا لم يذهبوا مذهب الكيسانية والرافضة فى تخطئة أبى بكر وعمر ، إذ رفضا أن يعطيا السيدة فاطمة بنت النبى قرية فَدَك التى كان النبى قد صالح اليهود على نصفها وكانت خالصة له .

وحجة أبى بكر وعمر قوله النبى : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

لكن الشيعة — عدا الزيدية — لم يصدقوا هذا ، وذهبوا إلى أن النبى يورث ، ليعتمدوا على هذا فى مطالبتهم بوراثة الخلافة أيضاً .

٣ — وكذلك لم يتغالوا فى تقدير الإمام على مغالاة لا يقرها مسلم عاقل ، كما تغالت بعض فرق الشيعة .

فهو فى رأيهم أفضل الخلق فى الآخرة ، وأعلاهم منزلة فى الجنة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو الله سبحانه ، ومخلد فى النار مع المنافقين والكفار ، إلا أن يتوب .

ومعنى هذا أنهم لا يجعلون بينه وبين النبى عليه الصلاة والسلام إلا رتبة النبوة ، وهما فيما عداها شريكان فى الفضل(٢) .

٤ — يجوز عندهم خروج إمامين فى وقت واحد فى قطرين مختلفين ، وطاعة كل منهما واجبة .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٢٠

(٢) شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٢٠

٥ — لا يضفون على الإمام خصائص روحية تميزه من البشر ، فليس معصوماً من الخطأ كما زعم الكيسانية ، وإنما يتصف بالعلم والزهد والسخاء والشجاعة[1] .

يقول الكميت شاعرهم[2] :

الحماةُ الكُفاة فى الحرب إن لفَّـ ـت ضِراما وقـودَها بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا س فمأوى حواضن الأيتام
طالبيين هاشميين فى العلـ ـم رَبَوْا من عطية العلام

٦ — لا يدينون برجعة مهدى منتظر ، وهم بهذا يخالفون فرق الشيعة

٧ — لا يأخذون بمذهب التقية كما أخذت الكيسانية .

٨ — لا يحلون زواج المتعة .

٩ — يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار إن لم يتب . وهم يتفقون فى هذا مع المعتزلة ، لأن رئيسهم زيد بن على كان على صلة وثيقة بواصل بن عطاء شيخ المعتزلة .

وكان الكميت زيديا ، فلم يحمل على أبى بكر وعمر ، بل دان بما دان به زعيم الفرقة زيد ، أن خلافتهما صحيحة .

يقول الكميت[3] :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا
ولا أقول — وإن لم يُعطيا فَدَكاً بنت الرسول ولا ميراثه — كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

---

(١) الملل والنحل ١ / ١٣٧ . (٢) الهاشميات ٢ :
(٣) الهاشميات ١٥٦ .

وبعد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ضعف المذهب الزيدى ، وتغلبت عليه المذاهب الشيعية الأخرى ، وغذته بكثير من آرائها ، وصار مذهب الرافضة المشتق من الزيدية لا يجوز إمامة مفضول فى وجود الأفضل، أى ينكرون إمامة أبى بكر وعمر.

ولكن المذهب الزيدى القائم الآن باليمن أقرب إلى المذهب القديم .

— ٣ —

الرافضة

من فرقة الزيدية نشأت فرقة الرافضة ، ذلك بأن أصحاب زيد بن على الذين بايعوه علموا أن يوسف بن عمر والى الكوفة من قبل هشام بن عبد الملك قد بلغه أمره ، وأنه يتعقبه ، فاجتمع رؤساؤهم بزيد ، وقالوا له : رحمك الله ، ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ .

قال زيد : رحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما إلا خيراً .

قالوا : فلماذا تطالب بدم أهل هذا البيت ، إلا أن وثبوا على سلطانكم ، فنزعوه من أيديكم ؟ .

قال زيد : إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، وإن القوم استأثروا علينا ، ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا ، فعدلوا فى الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة .

قالوا : لم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك ، فلماذا تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك الظالمين ؟ .

قال : إن هؤلاء ليسوا بأولئك ، هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم ، وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإلى السنن أن تحيا ، وإلى البدع أن تطفأ ، فإن أنتم أجبتمونا سعدتم ، وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل . ففارقوه ، ونكثوا

بيعته ، وقالوا إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن الحنفية[1] ، وهو أحق بالأمر ، ولا نتبع زيداً ، فليس بإمام ، فسماهم زيد الرافضة ، وهم يزعمون أن الذى سماهم الرافضة هو المغيرة حيث فارقوه[2]

على أن كلة رافضة كانت تدل أحياناً على الشيعة عامة ، وعلى كل من جنحوا إلى آل البيت .

يدل على هذا قول الشاعر :

إن كان رَفضاً حُبُّ آل محمد ۞ فليشهد الثّقَلان أنى رافضي

وعائم مذهبهم :

١ — يغالون فى تقدير على مغالاة كافرة ، فمنهم طائفة يقال لها الإسحاقية يزعمون أنه الله ، وأنه يظهر فى كل وقت ، فهو الحسن فى وقت ، وهو الحسين فى وقت ، وهو الذى بعث محمداً ، وطائفة أخرى تدعى أنه خير من الأنبياء ، وطائفة يقال لها الغرابية يدعون أنه شريك محمد فى النبوة ، وطائفة يقال لها الذّمّامِيَّة يذمون جبريل ، ويزعمون أنه كان مأموراً بالنزول إلى على فنزل إلى محمد[3] .

وقد سفه آراءهم ابن أبى الحديد ، وأبطل ما نسبوه إلى الإمام على من ألوهية ومعجزات[4]

٢ — يذمون أبا بكر وعمر . وبعضهم يقضى بكفرهما ، وقد طالبوا زيد بن على بأن يتبرأ منهما ، فامتنع ، فرفضوه إماما لهم . وهم يلعنون أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة ، ويتخذون هذا اللعن قربة إلى الله[5]

٣ — ذهب بعضهم إلى أن الإمامة فى موسى بن جعفر ثم فى ابنه على . . حتى

---

(١) كانوا يزعمون أن محمد بن الحنفية هو الإمام ؛ وكان قد مات يومئذ .
(٢) الطبرى ٨/٢٧٢ ونقد العلم والعلماء ١٠٣
(٣) الملل والنحل ١/١٠٤ — ١٧٨
(٤) شرح نهج البلاغة ٢/١٧٦
(٥) شرح نهج البلاغة ٤/٤٠٥

تنتهى إلى الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن العسكرى — وهو الإمام المنتظر الذى يزعمون أنه لم يمت ، وأنه سيرجع فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا .

وطائفة أخرى هى الجناحية يزعمون أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ذى الجناحين هو الإمام المنتظر ، وأنه لم يمت .

٤ — لهم آراء دينية يخالفون فيها الإجماع ، منها تحريم الجماعة ، لأنهم يطلبون إماما معصوما(١) .

مذهب الشيعة السياسى

يقوم المذهب الشيعى أو مذاهب الفرق الشيعية على عدة دعائم سياسية دينية ، لا يكادون يختلفون عليها ، أهمها :

١ — أن الإمام واجب التعيين

فهم متفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة لانتخاب من تراه ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبى إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم(٢) .

٢ — على هو الإمام

ويعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم قد عين عليا ، معتمدين على نصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم .

فمن الجلية قوله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خُمّ :(٣)

ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا بلى . قال : فمن كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . ولهذا قال له عمر : أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

---

(١) نقد العلم والعلماء ١٠٢ — ١٠٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٧ .

(٣) موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة ، روى الشيعة أن النبى نزل به ثم صلى وصلى المسلمون معه ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب وقال: ألستم تعلمون الخ وقد كذب بعض العلماء هذه الرواية .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : أقضاكم على . ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله .

ومنها قوله : من يبايعنى على روحه ، وهو وصِيِّ وولى هذا الأمر من بعدى ؟ فلم يبايعه إلا على .

ومن النصوص الخفية عندهم أن رسول الله بعث عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم حين أنزلت ، وأنه لم يقدم أحداً عليه ، على حين أنه قدم على أبى بكر وعمر أسامة ابن زيد مرة ، وعمرو بن العاص مره[١] .

وهذه النصوص المنقولة والمؤولة لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم[٢] .

وكذلك يقضى فيها عالم كبير من الشيعة الزيدية هو ابن أبى الحديد ، فيقول : والأخبار فى هذا كثيرة جداً ، ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ، ولا تتطرق إليه الاحتمالات ، كما تزعم الإمامية .

وكل ما قالوه لا أصل له عند أصحابنا — الزيدية — ولا يثبته أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله[٣] .

وقد ذكر السيد محسن الأمين الحسينى العاملى كثيرا من أشباه هذه الأخبار[٤]

---

(١) الملل والنحل ١/١٤٤ ومقدمة ابن خلدون ٥٢٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٧

(٣) شرح نهج البلاغة ١/١٣٥

(٤) زاد على الأخبار السابقة :

ا — ظهور معجزات على يديه

ب — أنه أفضل الصحابة فيكون الإمام ، لأن تقديم المفضول على الفاضل قبيح

ج — هو المقصود بقوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » لأنها نزلت فى شأنه لما تصدق بخاتمه وهو فى الصلاة إذ أعطاه سائلا وهو راكع فى صلاة تطوع

د — قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ودلت الأخبار الكثيرة على أن المراد بأهل البيت على وفاطمة والحسن والحسين ، فهم إذا معصومون ، لأن الذنب رجس ، وقد طهرهم الله من كل رجس وذنب ، ولا ينافى ذلك أن ماقبلها ومابعدها فى نساء النبى

ثم إنهم رووا أشعارا منذ موقعة الجمل تذكر وصاية على ، بعضها لأنصاره ، وبعضها لخصومه .

فمن شعر شيعته قول رجل من الأزد :

هذا عليٌّ وهو الوصى　　آخاه يوم النَّجْوة النبى
وقال : هذا بعدى الولى　　وعاه واعٍ ونَسِىَ الشَّقى

وقول زَحْر بن قيس الُجْعفى :

أضربكم حتى تقروا لعلى　　خير قريش كلها بعد النبى
من زانه الله وسَمَّاه الوصى　　إن الولىَّ حافظُ ظهر الولى

ومن شعر خصومه قول شاب من بنى ضَبَّة ، خرج من عسكر عائشة وهو يقول :

نحن بنى ضَبَّةَ أعــداء على　　ذاك الذى يُعْرَفُ قِدْماً بالوصى
وفارس الخيل على عهد النبى　　ما أنا عن فضل علىّ بالعَمِى
لـكننى أنعى ابن عفان التَّقِى　　إن الولىّ طالبُ ثأر الولى[1]

وهذه أشعار تبدو عليها سمة الوضع ، لأن مضمونها واحد، وبحرها واحد، ورويها مقصود فيه أن يكون متسقا مع كلمة (الوصى) . ثم إن الأبيات الأخيرة لا تمثل مشاعر خصم من خصوم الإمام على . وهل يعقل أن أحد أتباع طلحة والزبير والسيدة عائشة يدين بأن علياً يعرف بالوصى منذ زمن بعيد ، ويعلن إشادته بشجاعة على وفضله ، ثم يتهمه بقتل عثمان أو التآمر عليه ؟

= هـ — أحاديث كثيرة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : الأئمة من قريش . ومنها : يكون بعدى اثناعشر خليفة كلهم من قريش . ومنها : النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف .

ومنها : أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى (أعيان الشيعة ٣/٢٢ — ٧١)

(١) أعيان الشيعة ٣/٨

وإذا كان علىّ وصيا منذ عهد بعيد ، وهم يعلمون ذلك كما يعلمه ، فلماذا لم يستدل على استحقاقه الخلافة بما يعلم ويعلمون ؟

هكذا كانت الإمامة فى رأى الشيعة حقاً لعلى ولأبنائه وحدهم ، لا يستحقها غيرهم، ولا تتجاوزهم إلا لتَقِيّة مستحقها ، وظلم غاصبها .

٣ — العصمة :

الأئمة معصومون منزهون عن ارتكاب الكبائر والصغائر ، ولايجوز عليهم الخطأ ، لأنهم ممتازون من البشر ، متفردون بأسرار الشريعة . وإذا كان الزيدية يخالفون فى وجوب العصمة للإمام ، فإنهم يعتقدون أن عليا كان معصوما دون غيره من الصحابة ، ويكتفون بأن يتصف الإمام بالعلم والزهد والسخاء والشجاعة .

والسبب فى هذه العقيدة عند الإمامية جميعا أن الإمام مبلغ الشريعة إلى الأمة بعد النبى ، وحافظ لها من الزيادة والنقص ، وأنه يوحى إليه، فهو مصيب دائما ، ولو جاز الخطأ على الإمام كان محتاجا إلى هاد يهديه ، وليس من المعقول أن يؤتمن على حفظ الشريعة إلا إذا كان معصوما (١) .

٤ — الإمامة واجبة :

لاغنى عن الإمامة للمسلمين ، فهى واجبة عليهم ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية (٢) .

٥ — الرجعة :

المراد بها عودة الإمام إلى الظهور بعد اختفائه ، أو إلى الحياة بعد موته .
وقد سبق أن الذى ابتدع هذه العقيدة عبد الله بن سبأ ، وروج لها بقوله : إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد ، والله تعالى يقول : « إن الذى

---

(١) أعيان الشيعة ٣ / ٢٢ وأصل الشيعة وأصولها ٢٩ للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء والشافى ٤٠ للشريف المرتضى
(٢) أعيان الشيعة ٣ / ٧١

فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وبنى على هذا أن محمدا أحق بالرجوع من عيسى ، ثم زعم وزعم أتباعه من بعده أن عليا سيرجع .

ومن مزاعمه أن عليا لم يمت ، حتى إنه لما علم بقتله أنكره ، وأكد أنه لن يموت حتى يعود فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، فهو مازال حيا ، يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه (١) .

وهي عقيدة يهودية سببها أن الله تعالى أمات عُزَيْرًا مئة عام ثم بعثه ، وعقيدة نصرانية إذ زعمت النصارى أن المسيح بعد صلبه حي بعد ثلاثة أيام ، وقام وصعد إلى السماء ، وسيعود مرة أخرى للقضاء بين الأحياء والموتى (٢) .

والشيعة في هذا شعب شتى :

فالرافضة على أن آخر إمام ينصبونه لا يموت ، بل يبقى حيا حتى يرجع فيملأ الأرض عدلا ، ويسمون الواقفية ، لوقوفهم عند إمام لا يتجاوزونه .

ومن الكيسانية فريق وقفوا عند محمد بن الحنفية ، وقالوا بعودته بعد موته ، بل زعم بعضهم أنه حي في جبل رَضْوَى ، ووقف فريق من الزيدية عند يحي بن زيد ، وقالوا برجعته ، وذهب فريق آخر منهم إلى أنه فاطمي اسمه محمد يولد في مستقبل الزمان ، ليقتل السفياني الذي يدين به بنو أمية ، ويقتل أشياعه (٣) .

والباقرية قالوا برجعة الباقر أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن ، ومنهم من وقف عند ابنه أبي عبد الله جعفر الصادق ، ومنهم من وقف على موسى الكاظم .

وأما الإسماعيلية فقد وقفوا عند محمد بن إسماعيل ، وقالوا برجعته . ووقف الاثنا عشرية عند إمامهم الثاني عشر المهدي المنتظر ، وقالوا إنه اختفى في سرداب بالحِلّة .

وزعم بعض القائلين بالرجعة أن الأئمة السابقين وخصومهم يرجعون جميعا زمن المهدي ، لينال كل جزاءه الدنيوي ، ثم يموتون ويبعثون ويحاسبون .

---

(١) الملل والنحل ١ / ١٥٥ وتاريخ الطبري ٥ / ٩٨ وفرق الشيعة ٢١

(٢) الملل والنحل ١ / ٢٠١

(٣) شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧٩

ولكن المعتدلة من الشيعة ينكرون الرجعة ، وزعماءهم ينكرون ماذهب إليه الغلاة [١] ، والمعتدلة من الزيدية ينكرون المهدى المنتظر .

٦ — التَّقِيَّة :

هى إظهار غير مافى النفس ، محافظة على الحياة أو المال أو العرض ، والشيعة — ماعدا الزيدية — يدينون بها ، لأنها إحدى وسائلهم فى كتمان العقيدة ؛ والنجاة من الاضطهاد ، والتعمية على الحكام والناس ، حتى تحين الفرصة المواتية للثورة .

وهم يستدلون على جوازها بأدلة ، منها أن أئمتهم قالوا : لا دين لمن لاتقية له ، وأن عليا سكت عن أبى بكر وعمر وعثمان تقية ، وأن الحسن صالح معاوية تقية [٢]

ومن هنا جعلوا للكلام ظاهرا يفهمه الناس ، وباطنا لا يعلمه إلا الخاصة .

والذى يتقفى آراء الشيعة ، ولا سيما الغلاة منهم ، يتبين له أن التشيع قد اختلط بكثير من النظريات الفلسفية ، لأن العراق كان حصن الشيعة ، وكان ملتقى ثقافات شتى وحضارات متنوعة ، من علوم الفرس والكلدان إلى فلسفة الهنود واليونان ؛ إلى أخلاط من الزرادشتية والمانوية والمزدكية .

يضاف إلى هذا أن التشيع الخارج على الإسلام كان وسيلة إلى حرب الإسلام وتضليل المسلمين وكيد العرب . يقول ابن حزم [٣] :

والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة النظر فى أنفسهم ، حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار ، ويعدون جميع الناس عبيدا لهم .

فلما امْتُحِنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظموا الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، وفى كل ذلك كان يظهر الله الحق .

فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله عنه ، حتى أخرجوهم عن الإسلام . . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠

(٢) راجع ما سبق فى مذهب الكيسانية .

(٣) الفصل ٢/١١٥

٧ – المَهْدِيَّة

هذه العقيدة عاصرت الشيعة منذ فجرهم الأول ، وجعلت تتمشى مع فرقهم كلها على مر العصور ، إلا المعتدلين من الزيدية .

ذلك لأن الشيعة أقاموا العقيدة فى المهدى المنتظر دعامة من دعائم مذهبهم ، وكان لها أثر عظيم فى تشريعهم وفى ثوراتهم وأدبهم .

ولم تقتصر هذه العقيدة على الشيعة ، بل تجاوزتهم إلى غيرهم ، إذ انتقلت إلى بعض المسلمين الآخرين ، ودان بها أو بما يشبهها بعض الأمويين ، ثم نازعهم فى احتضانها بنو العباس .

يقول السيد محسن العاملى : المسلمون جميعا على خروج المهدى فى آخر الزمان ، وعلى أنه من ولد على وفاطمة ، وأن اسمه كاسم النبى ، وهذا الاعتقاد أساس فى ملة الإسلام ومتواتراته وضرورياته ، حتى إن بعض الأخبار تكفر من ينكره .

ثم يعقب على هذا بأن المسلمين مختلفون فى أن المهدى وُلِدَ أو أنه سيولد ، ويذكر أن الشيعة مجمعون على أنه قد ولد ، ووافقهم جماعة من أهل السنة ، ولكن أكثر أهل السنة على أنه لم يولد بعد ، ولكنه سيولد[1] . ويرى الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء أن المهدى حى ، وقد تجاوز عمره ألف سنة ، ويرد على المخالفين بأن عيسى وإدريس حيان فى السماء ، وإلياس والخضر حيان على الأرض[2] .

فما هى ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تنقلت وتطورت ؟ وإلى أى مدى بلغ سلطانها الدينى والسياسى والعلمى فى نفوس معتقديها ؟ وما وجه الحق فيها ؟ وماذا كان لها من نتائج ؟

نشأتها وتنقلها :

١ – بدأت هذه العقيدة عند الشيعة منذ عهد مبكر ، ثم لم تلبث أن تنقلت وتطورت .

---

(١) أعيان الشيعة ٤/٣١٤

(٢) أصل الشيعة وأصولها ١٣٨ .

ا — فقد دعا عبد الله بن سبأ إلى الرجعة ، وقال : إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ، ولا يقول برجعة محمد ، والله تعالى يقول : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ، بل ذهب ابن سبأ إلى أن محمدا أحق بالرجوع من عيسى .

وإذ كان يزعم أن عليا وصى محمد ؛ زعم أن عليا سيرجع ، وزعم أنه حى لم يمت ، حتى إنه قال لما علم بقتله : والله لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين صرة وأقمتم على قتله سبعين شاهدا عدلا ، ما صدقنا موته ، فإنه لا يموت حتى يملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، فهو حى ، وهو الذى يجىء فى السحاب ، والرعد صوته ، ويجىء فى البرق تبسمه[1] .

ب — ثم جاءت الكيسانية[2] — إحدى فرق الشيعة — فادعت أن محمد ابن الحنفية هو الإمام ، وهو المهدى الذى ينشر العدل على الأرض ، وزعمت أنه حى مقيم بجبل رَضْوَى ؛ ولم يضعف من زعمهم هذا أن ابن الحنفية قد مات سنة ٨١ هـ وصلى عليه والى المدينة — أبان بن عثمان بن عفان — ودفن بالبقيع . وزعمهم هذا بَيِّنٌ فى قول شاعرهم كثير :

ألا إن الأئمة من قريش ولاةَ الحق أربعة سواء

. . . .

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يَقْدَمها اللواء
تَغَيَّبَ لا يُرى فيهم زمانا برَضْوى عنده عسل وماء

حـ — وفى مطلع القرن الثانى زعم جابر الجُعْفِىّ[3] ما زعمه ابن سبأ أن عليا سيرجع ، وأنه هو الدابة المذكورة فى قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

(د) فلما كان القرن الثالث زعمت الإمامية — إحدى فرق الشيعة — أن الأئمة — على وبنوه من فاطمة وحدها — سيعودون ، وسيعود معهم خصومهم ، حينما يظهر المهدى[4]

---

(١) الملل والنحل ١/١٥٥ وفرق الشيعة ٢١ وتاريخ الطبرى ٥/٩٨
(٢) راجع ما تقدم فى فرق الشيعة .
(٣) كذاب ، وصفه أبو حنيفة بأنه أكذب من رآهم (٤) تفسير الألوسى ٦/٣١٦

لـكنهم اختلفوا فى تعيين المهدى كما سبق ، وحسبنا أن نذكر عقيدة أشهر فرقة منهم وهم الاثنا عشرية(١) ، فهم يدينون بأن محمد بن الحسن العسكرى هو المهدى المنتظر ، وهو الذى سيعيد إلى الشيعة حقهم ومجدهم ، ويعيد إلى الناس السلام .

٢ — ومن عجب أن هذه العقيدة لم تقتصر على الشيعة ، بل تجاوزتهم إلى بعض بنى أمية ، فزعم بعضهم أن لهم مهديا ، لـكنهم لم يسموه المهدى ، بل سموه السفيانى ، وراجت الدعوة له . ولعل خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من دعا إلى هذا ، ليجمع الناس حوله بعد أن غلبه مروان بن الحـكم على الملك وتزوج أمه (٢) .

وقد أحس الشيعة بما فى دعوى الأمويين من خطر على دعواهم ، فزعموا أن المهدى والسفيانى سيلتقيان ، وسيبايع الناس المهدى بمكة بين الركن والمقام ، ثم يدعوهم إلى قتال السفيانى عدو الله وعدوهم ، فيسارعون إلى طاعته ، ويخرجون معه إلى الشام لقتال عروة بن محمد السفيانى ومن معه من كَلْب (٣) .

٣ — ويظهر أن بنى مروان خشوا العقيدة فى المهدى ، لأنه من الشيعة وسيعيد الحـكم إليهم ، وتخوفوا العقيدة فى السفيانى ، لأنه من بنى أمية ، وسيرجع الحـكم إليهم ، فجعل بعض شعرائهم يدعون أن القائم بالحـكم هو المهدى الذى ينتظره الناس ، ليقضوا بالواقع على الأمل فى مهدى أو سفيانى .

نجد هذا فى مدح الشعراء لبعض خلفائهم ، كقول الفرزدق فى مدح سليمان بن عبد الملك إنه المهدى المذكور فى التوراة ، الذى بشرت به القسس(٤) :

أنت الذى نَعَتَ الـكتابُ لنا ... فى ناطق التوراة والزُّبُر
كم كان من قَسٍّ يُخَبِّرُنا ... بخلافة المهدىّ أو حَبْر

---

(١) سموا بذلك لأن الأئمة فى رأيهم اثنا عشر : على والحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق ثم موسى الـكاظم ابنه عند بعضهم أو إسماعيل ابنه الآخر عند بعضهم أو محمد ابنه عند بعضهم ، ثم يتفقون من الإمام الثامن وهو أبو الحسن على الرضا بن موسى الـكاظم ، ثم أبو جعفر محمد الجواد بن على الرضا ، ثم على الهادى بن محمد الجواد ؛ ثم أبو محمد الحسن العسكرى بن الهادى ثم محمد المهدى المنتظر بن العسكرى وقد اختفى سنة ٢٦٠ هـ بسرداب فى سامرا .

(٢) الأغانى ١٦/ ٨٨ والنجوم الزاهرة ١/ ٢٢١ .

(٣) ضحى الإسلام ٣/ ٢٣٩ عن مختصر تذكرة القرطبى ١٥٩ .

(٤) ديوان الفرزدق ٣٢٧

ونجده فى مدح جرير لسليمان نفسه :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدىُّ قد وضح السبيل

وكذلك زعم غيرهما من الشعراء[١] .

ثم نجده فى بعض حروبهم مع دعاة العباسيين ، ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٣٢ﻫ أنه قد اجتمع أناس من قِنَّسْرِين وحمص وتَدْمُر والوف آخرون ، على رأسهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وقالوا هو السفيانى الذى كان يذكر ، وكانت موقعة شديدة انهزم فيها أبو محمد وأتباعه ، وقتل ، وأرسل برأسه إلى أبى جعفر المنصور[٢] .

٤ — هذا المهدى الذى للشيعة ، وهذا المهدى أو السفيانى الذى لبنى أمية ، يقابلهما مهدى آخر لبنى العباس ، لأن العباسيين أرادوا أن يبثوا الأمل فى نفوس أتباعهم كما بثه سابقوهم ، وأرادوا أن يظاهروا حكمهم بدعوى تقويه كما ظاهر سابقوهم حكمهم وقووه ، فوضعت لهم أحاديث تنبىء عن مهدى يظهر منهم .

٥ — فإذا ما تركنا الشيعه وبنى أمية وبنى مروان و نى العباس ، وجدنا كثيراً من غيرهم يتذرع ن بدعوى المهدية لتحقيق مآرب لهم .

ا — وحسبنا أن نذكر الحارث بن سُرَيْج أحد زعماء المرجئة ، فقد ثار على الأمويين فى بلاد ما وراء النهر ، لأنهم اشتطوا فى جباية الضرائب من الناس ، وادعى أنه المهدى الذى بعثه الله لإنصاف المظلومين ، وتحريرهم من العسف الأموى ، وأقام دعوته على الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب حكومة يرضاها أكثر الناس ، وسرعان ما استولى على المدن التى على شواطىء نهر سَيْحُون ، إلى أن أجبرته جيوش أسد بن عبد الله القَسْرِىّ والى خراسان على الارتداد إلى ما وراء النهر سنة ١١٨ ﻫ. ثم عفا عنه الوليد الثانى ، لكنه عاد إلى التمرد ، فانضم إلى اليمانية وطرد والى خراسان نصر بن سيار — وهو الذى كان قد توسط له عند الخليفة ليعفو عنه —

---

(١) راجع ما سيأتى فى الشعر الأموى

(٢) تاريخ الطبرى ٩/١٣٨ .

من مَرْو حاضرة خراسان ، ثم اختلف مع اليمانية ومات سنة ١٢٨هـ(١)

ب — زعم أنصار أبي مسلم الخراساني — بعد أن قتله أبو جعفر المنصور — أنه لم يمت ، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا ، بل إن بعضهم زعموا أن روح الله قد حل فى أبى مسلم ، وأن الذى قتله المنصور كان شيطاناً تصور للناس فى صورة أبى مسلم ، وهؤلاء يعرفون فى مَرْو وهَراة بالبَرْكُوكِيَّة(٢)

حـ — ذكر ابن خلدون أن بعض ذوى الأطماع والتلبيس على الناس قد انتحلوا شخصية المهدى ، ليموهوا على الناس ، ويبلغوا مآربهم .

فنى أول المائة الثامنة ظهر رجل من منتحلى التصوف ، يعرف بالتُّوَيْزَرِيّ — نسبة إلى مدينة تُوزَر — وادعى أنه الفاطمى المنتظر ، وتبعه كثير من أهل السوس وعظم أمره ، وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم ، فدسوا عليه من قتله .

د — وذكر أنه فى آخر المائة السابعة ظهر رجل يعرف بالعباس ، وادعى أنه الفاطمى ، وتبعه الدهماء من غمارة ، ودخل مدينة فاس عنوة ، وحرق أسواقها ، ثم قتل غيلة ، ولم يتم أمره .

هـ — وذكر أنه كان فى رباط العباد بجبل تِلِمْسان رجل من أهل البيت متبوع معظم ، أصله من كربلاء ، جاء هو وأتباعه من موطنهم لطلب هذا الأمر ، وانتحال دعوة الفاطمى بالمغرب ، فلما عاين دولة بنى مَرِين قال لأصحابه : ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط ، وليس هذا الوقت وقتنا .

ويدل هذا القول من الرجل على أنه مستبصر فى أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت ، فلما علم أنه غريب فى ذلك الوطن ، ولا شوكة له ، وأن عصبية بنى مَرِين لا يقاومها أحد من أهل المغرب ، استكان ورجع إلى الحق ، وأقصر عن مطامعه (٣) .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ٢/١٢
(٢) فرق الشيعة ٤٢
(٣) مقدمة ابن خلدون ٧٥٦

(و) فى القرن التاسع عشر ظهر فى السودان محمد أحمد ، واشتهر بالورع والتقوى والزهد ، ثم بدأ دعوته الدينية الإصلاحية ، ثم اتجه إلى السياسة ومناوأة الأتراك والمصريين ، وأثار السودانيين على الحكم المصرى ، وصادفت دعوته ميلا فى نفوس أتباعه ، فاعتقدوا أنه المهدى المنتظر ، وروج هو لهذه الدعوة . كتب هنزل hanzol قنصل النمسا فى الخرطوم إلى حكومته سنة ١٨٨١ بأن الفقيه محمد أحمد قد أعلن على الملأ فى جزيرة آبا أنه المهدى المنتظر المكلف من قبل المولى بتأسيس دولة إسلامية مترامية الأطراف ، تتخذ مكة المكرمة عاصمة لها (١) .

الغاية منها :

فما الذى زين لهؤلاء جميعا أن يروجوا لهذه الدعوى ؟ وكيف توافقت دعوى الخصوم من شيعة وأمويين وعباسيين ؟ ولماذا تقبلها المسلمون ، ومازال بعضهم يدين بها إلى اليوم ؟

١ — أما الشيعة فقد بثوا دعواهم بعد مقتل على وصلح الحسن مع معاوية ، ومقتل الحسين ، وتحققهم أن الخلافة بعيدة المنال ، وإن كان ابن سبأ قد بدأ القول فى هذا بعد مقتل على مباشرة . وهدفهم من هذه الدعوى أن يباعدوا بين أتباعهم واليأس من عودة الخلافة إليهم ، لتعيش الدعاية إلى التشيع قوية لاتضعف ، حارة لاتفتر ، فإنه ليس أدعى إلى الخذلان وتفرق الأعوان من اليأس ، وإذ كانوا فى حرب دائمة مع بنى أمية ، وكانوا لايفتأون ينشرون التشيع مجاهرين تارة ومتسترين بالتَّقِيَّةَ تارة ، فلا مندوحة لهم عن هدف يعلقون أنظار الشيعة به ، وهذا الهدف هو الثقة فى رجعة إمام منهم ، يقوض ملك بنى أمية ، ويثأر منهم ، ويكفل للشيعة ماحُرموه من سلام وأمن ورغد وسلطان . ولهذا تذرعوا بالجلد ، وحثوا أعوانهم على الصبر ، وأباحوا لهم التقية ، وصوروا الإمام تصويرا يرفعه عن مستوى البشرية .

٢ — وأما دعاة السفيانية من بنى أمية فهم ساخطون ؛ لأن الحكم زايلهم إلى بنى مروان ، وهم يأملون أن يعود إليهم ، ويبثون هذا الأمل فى نفوس أنصارهم مثلما فعل الشيعة .

---

(١) مصر والسوادن ٢٩١

٣ — ويظهر أن بعض المروانية أرادوا أن يحاربوا الأملين : أمل الشيعة وأمل الأمويين بحقيقة واقعة ، لا بأمل يرتجى ، فزعم بعض مادحيهم أن الخليفة القائم هو المهدى الذى كان ينتظره المسلمون ، سواء أكان مهدى الشيعة أم سفيانى بنى أمية .

٤ — لكن العباسيين فى ترويجهم لدعوى المهدية كانوا يزعمون أنه منهم ، لا من شيعة على ؛ ليصرفوا الناس عن مناصرة العلويين ، وعن الأمل فى أن يئول الحكم إليهم ، بعد أن انتقل من أيدى الأمويين إلى بنى العباس .

٥ — أما ذيوع الدعوى بين طوائف المسلمين الذين لا ينتمون إلى حزب من هذه الأحزاب ، فراجع إلى أنهم سرعان ما صدقوا الأحاديث النبوية التى راجت ، منبئة بمهدى عادل يعيد إلى الأرض السلام ، فى وقت كانوا يشعرون فيه بوطأة الحكم ، ومظالم الحكام ، ويضجون فيه من شرور الناس وآثامهم ، فيعللون أنفسهم بإمام عادل يلتزم حدود الله ، وينصر دينه ، ويكفل للناس وسائل الطمأنينة والأمن والعدل والسلام والخير .

وراجع أيضا إلى أن بعض ذوى المطامع واستغلال الشعب موّهوا على الناس ، وأوهموهم بصحة العقيدة ، ليلتفوا حولهم إذا كانوا من الدعاة إلى شخص معين ، وليؤازروهم فى ثورتهم إذا كانوا من الثائرين الطامعين أو المصلحين كما رأينا فى ثورات بعضهم .

نتائجها :

تفاقمت هذه العقيدة ، وكانت لها آثار فى المجتمع الإسلامى ، فى عصور شتى .

فكم من فتن وثورات وحروب أشعلها ذوو الأطماع ، بدعوى المهدية ، خربت المدن ، وأزهقت الأرواح ، وسفكت الدماء ، وأفقدت الآمنين أمنهم ، كثورة الحارث بن سُرَيْج فى عهد بنى أمية ، إلى أن مات سنة ١٢٨ هـ ، وثورة سنباذ ، وثورة الراوندية أيام المنصور ، بعد قتل أبى مسلم ، وثورة المقنّع الخراسانى فى عهد المهدى ، وثورة التُّوَيْزَرِى ثم العباس بالمغرب ، وثورة محمد بن أحمد بالسودان .

وكم من خرافات تبوأت فى نفوس الشعوب منزلة العقائد ، فجنت عليهم ، وباعدت ما بينهم وبين الدين .

وكم من تنظيم صوفى قائم على تخيل عالم روحانى فيه أَبْدَال [١] وأقطاب ؛ يحل فيه القطب محل الإمام أو المهدى « فالقطب هو رئيس المملكة الروحية ؛ وهو الذى يدبر الأمر فى كل عصر، وهو عماد السماء ، ولولاه لوقعت على الأرض . وله اثنا عشر نقيبا فى كل زمان ، هم وحدهم العلماء بخفايا النفوس ، وهم وحدهم العلماء بالشرائع »[٢] .

بطلانها :

أغلب الظن أن هذه الدعوى ليست فى حاجة إلى تفنيدها وإبطالها ؛ لأنها تنافى العقل والمنطق والواقع .

وهل من المعقول أن نصدق بأن شخصا قد مات سيبعث قبل يوم البعث ليحارب ويحكم ويقتص ويعدل بين الناس ؟

ولماذا انقضت الأزمان التى حددت لظهوره ولم يظهر فى أحدها ؟ ثم انقضت أحقاب بعد ذلك ، ولا أثر لمهدى واحد من هؤلاء المهديين جميعا ؟

لكننا لا نكتفى بهذا ، ونرجح أن بعض الذين يصدقون الدعوى لا يكتفون ، فلنأخذ أنفسنا بالتدليل على بطلان الدعوى فى رفق وأناه وحَيْدَة ، لأننا طلاب حقيقة ، ولسنا من أهل التعصب أو الكلف بالمخالفة .

١ - هذه المزاعم الباطلة أصداء لعقائد يهودية ونصرانية وفارسية . يتبين هذا من تعقب الدعوى منذ ولادها ، فلم ننس بعد أن الدعوى وليدة ابن سبأ اليهودى الذى أسلم أو تظاهر بالإسلام .

فهو بزعمه أن عليا وصى النبى صلى الله عليه وسلم يجارى زعمه فى اليهودية أن يوشع بن نون وصى موسى ، ويريد أن يقيم الحكم على أساس من نظرية الحق

---

(١) الأبدال قوم يقيم الله بهم الأرض ، وهم سبعون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من الناس (القاموس المحيط مادة بدل) .

(٢) ضحى الإسلام ٣/٢٤٥

الإلهى التى نقلها عن الفرس . ذلك أنه يريد أن يكون علىٌّ هو الخليفة بعد النبى بوصاية منه وتعيين ، لأنه حينئذ يستمد الحكم من النبى ، وإذ كان النبى مبعوثا من الله ، ومستمدا حكمه من الله ، فإن حكم علىّ امتداد لحكم النبى ، فهو إذاً مستمد من الله .

وقد كان ابن سبأ على صلة بالفرس ، إذ أنه يمنى ، والفرس حكموا اليمن ، وخالطوا أهلها إلى صدر الإسلام .

ثم إنه بزعمه أن عليا لم يمت ، وأنه سيرجع ، يشبه اليهود الذين يزعمون أن النبي إلياس (إيليا) رفع إلى السماء ، وأنه سيعود إلى الأرض آخر الزمن ، ليملأها عدلا وخيرا[١] ، كما يزعمون أن النبي أخنوخ رفع إلى السماء حيا[٢] .

وهو بدعواه أن فى علىّ قبسا إلهيا يشبه النصارى الذين يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت .

وليس أدل على تأثر مزاعم الشيعة بعقائد مسيحية من أن بعض الرافضة[٣] زعموا أن عليا هو الله ، وأنه يظهر فى كل وقت ، فهو الحسن آنا ، وهو الحسين آنا ، وهو الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم[٤] .

وهذا الباطل قريب الشبه من ضلال بعض النصارى فى قولهم إن المسيح هو الله.

٢ — وجد دعاة المهدية جميعا أن الدعوى لاتذيع ولاتروج ولا تصل إلى أعماق النفوس إذا لم يساندها الدين ، فوضعوا لهم أحاديث ، بل تأول بعضهم آيات من القرآن الكريم .

وهذه الأحاديث التى رويت فى شأن المهدى لم يرد منها شىء فى صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، وإنما خرجها جماعة ، منهم الترمذى وأبو داود والبزّار وابن ماجه

(١) سفر التكوين ٥/ ٢٤ وسفر الملوك الثانى ٢/ ١ .
(٢) كان أخنوخ قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنين وثمانين سنة .
(٣ فرقة سميت بذلك لأنهم طالبوا زيد بن على زين العابدين بن الحسن بالتبرؤ من أبى بكر وعمر لأنهما فى زعم بعضهم غاصبان حق على وفى زعم بعضهم كافران ، فأبى فرفضوه (نقد العلم والعلماء ١٠٢) .
(٤) نقد العلم والعلماء ١٠٢ — ١٠٨ .

والحاكم والطبرانى وأبو يعلى الموصلى ، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل على وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود . . . . .

وقد ذكر ابن خلدون هـذه الأحاديث كلها ، ونقل تجريح العلماء لرواتها فى تفصيل وتوضيح[١] ، سواء أزعمت أن المهدى من نسـل علىّ أم من نسل العباس ، وسواء اقتصرت على التبشير بالمهدى أم بشرت بنصرة قوم من الشرق له ؛ معهم رايات سود يوطئون له .

ثم ذكر أن المتصوفة المتقدمين لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا ، أما المتأخرون كابن العربى الحاتمى (٥٦٠ — ٦٣٨ هـ) وعبد الحق بن سبعين (٦١٣ — ٦٦٧ هـ) وغيرهما فإنهم قد تـكهنوا بظهور المهدى فى زمن معين ، لـكن الزمن انقضى ولم يظهر المهدى ، « وبعضهم عين الرجل والوقت والمـكان بأدلة واهية ، وتحكمات مختلفة ، وانقضى الزمان ولا أثر لشىء من ذلك ، فرجعوا إلى تجديد رأى آخر منتحل ، كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية »[٢] .

٣ — يبدو التناقض والاضطراب فى الأحاديث الـكثيرة التى رويت[٣] فى شأن المهدى .

فهو فى بعضها اسمه محمد ، وفى بعضها اسمه محمد بن عبدالله ، وفى بعضها اسمه الحارث ، وفى بعضها غير معين الاسم . وقد عرفنا أن كثيرا ممن ثاروا زاعمين أنهم المهديون مُسَمَّوْن بهذه الأسماء .

وهو من ولد فاطمة ، أو من بنى العباس ، أو من أهل المدينة غير معين النسب ، أو من أمة محمد بلا تعيين . وفى التاريخ ثورات قادها أشخاص من هؤلاء جميعا . وبعض الأحاديث تصفه بأنه أَجْلَى[٤] الجبهة ، أقنى الأنف ، وبعضها يشبهه بالنبى فى الخَلْق لافى الخُلُق ، وبعضها لا يصفه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٧٢٥ — ٧٤٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٧٤٧ — ٧٥٥ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٧٢٥ — ٧٤٦ .

(٤) واسعها .

أما مكان ظهوره فبيت المقدس تارة ، ومكة تارة ، وما وراء النهر تارة ، وفى أكثر الأحاديث لا تعيين لمكان ظهوره .

وأما أنصاره فهم من الشام والعراق معاً ، أو من الشام وحده ، أو من المشرق معهم رايات سود ، وفى أحد الأحاديث أن على مقدمته رجلا يقال له منصور .

ولا شك أن مرجع هذا التناقض والاضطراب إلى الوضع والاختلاق ، لأن كل حزب روج لأن يكون المهدى منه بأحاديث وضعها أو وضعت له .

ويكفى أن نذكر هذا الحديث الذى لا يمكن أن يفهم منه أيكون المهدى من نسل على أم من نسل العباس :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من المهاجرين والأنصار ، وكان على ابن أبى طالب عن يساره ، والعباس عن يمينه ، وتلاحَى العباس ورجل من الأنصار ، فأغلظ الأنصارى للعباس ، فأخذ النبى بيد العباس وبيد على ، وقال : « سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جورا وظلما ، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطا وعدلا . فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمى ، فإنه يُقْبِلُ من قِبَل المشرق ، وهو صاحب راية المهدى » .

لكن العباسيين استنبطوا من هذا الحديث الموضوع لهم أنهم أصحاب الفتى الذى يملأ الأرض عدلا ، لأنهم أصحاب الرايات السود التى أقبلت من المشرق .

٤ — اختلف الشيعة فى تعيين المهدى المنتظر اختلافا جسيما ، وتمسكت كل فرقة بشخص معين ، وهذا الاختلاف الجسيم كفيل بإبطال الدعوى ونقضها .

ذلك أن بعضهم يرى أنه على بن أبى طالب .

وبعضهم يرى أنه ابنه محمد المشهور بابن الحنفية .

وآخرون يعتقدون أنه يحيى بن زيد .

وفريق يذهب إلى أنه محمد بن إسماعيل .

وأكثرهم على أنه محمد بن الحسن العسكرى . ويقولون إنه اختفى فى سرداب بسامرا ، وسيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا . وهم ينتظرونه إلى الآن . ويقفون كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب السرداب ، وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة التالية(١)

وقد أنكر السيد محسن العاملى العالم الشيعى المعاصر ما ينسب إلى الشيعة من اعتقادهم أن المهدى حى فى سرداب بسامرا ، وأنهم يقصدون السرداب كل يوم جمعة ، وينادونه : يامولانا اخرج الينا . وقال إن هذه شبهة نشأت من زيارتهم للسرداب ، وتبركهم به ، لأنه سرداب الدار التى كان يسكنها الإمام على بن محمد الهادى وابنه الحسن العسكرى وابنه الإمام المهدى ، وعقب على هذا بقوله : إنه زعم لم نسمع به ، ولم يسمع به سامع(٢) .

لكنه ذكر فى كتابه قبل ذلك بنحو مئة صفحة أن المهدى القائم اسمه محمدابن الحسن العسكرى ، وأكثر الشيعة يفتون بحرمة التصريح باسمه حتى يخرج ، وقال إنه ولد سنة ٢٥٥ هـ فى خلافة المعتمد ، وإن الشيعة يقولون إنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله الله آية للعالمين ، كما آتى الحكمة يحيى وهو صبى ، وجعله إماما فى طفولته ، كما جعل عيسى بن مريم نبياً فى المهد ، وإنهم يدينون بأنه حى لم يمت ، وعمره إلى يومنا هذا (سنة ١٣٥٥ هـ حين ألف الكتاب) ألف سنة ومائة سنة ، وثلاثة أشهر ، وستة وعشرون يوما(٣) .

ثم ذكر أيضا أن الشيعة يدينون بأنه يحضر موسم الحج فى كل سنة ، فيرى الناس ويعرفهم ، وهم يرونه ولا يعرفونه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣١ .

(٢) أعيان الشيعة ٤ / ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ٤ / ٣٢٨ .

وكان السبب فى هذه الغيبة الخوف عليه من سلطان زمانه ، ثم اتصلت غيبته لحكمة يعلمها الله[1]

ولست أدرى كيف يعترف بأن المهدى حى ، ويحج فى كل سنة ، وأن عمره تجاوز أحد عشر قرنا ، ثم ينفى بعد ذلك ما نسب إلى الشيعة من اعتقادهم أنه حى فى السرداب ؟

٥ — على أن الزيدية لم يصدقوا الرجعة ، ولم يعتقدوا فى مهدى منتظر ، بل أنكروا هذا وفندوا الأحاديث المروجة له ، ورووا عن أهل البيت أخبارا تبطل الدعوى .

ولا شك أنهم حكموا عقولهم ، لأنهم متأثرون بالمعتزلة فى تفكيرهم ، كما سبق فى دراسة مذهبهم .

٦ — ثم إن التاريخ يحدثنا بظهور مثل هذه العقيدة قبل الشيعة وبعدهم فى عدة شعوب ، حينما كانت هزيمة وتعلق بأمل أو وهم ، أو حينما كان قهر واضطهاد واستراحة إلى الأمانى ، أو حينما يلجأ الحكام إلى خداع الجماهير .

ا — فقد زعم اليهود أن النبى أخنوخ رفع حيا إلى السماء ، وزعموا أن النبى إلياس رفع إلى السماء ، وسيعود إلى الأرض ، ليملأها عدلا .

ب — وزعم المسيحيون من الإسبان — لما فتح العرب بلادهم — أن ملكهم لذريق ـ ردريك ـ لم يقتل ، وإنما ذهب إلى مكان بعيد فى المحيط ، وسيعود بعد أن تبرأ جراحه ؛ ليخلص الإسبان من الفاتحين العتاة .

حـ — وكذلك زعم أنصار أبى مسلم الخراسانى ، كما قدمنا .

ء — وحكى المعرى فى رسالة الغفران نقلا عن بعض محدثيه أن للقرامطة بالأحساء بيتا يزعمون أن إمامهم سيخرج منه ، وأنهم يقيمون على باب هذا

---

(١) أعيان الشيعة ٤ /٣٣٤ .

البيت فرسا مسرجا ملجما ، ويقولون للعامة الأغرار : هذا الفرس ليركبه المهدى متى ظهر ، وغرضهم من ذلك خداع وتعليل ،وتوصل إلى المملكة وتضليل .

٧ — إذاً فالعقيدة باطلة ، لأن الأحاديث المروجة لها موضوعة ، ولأن الشيعة أنفسهم اختلفوا فى تعيين إمامهم المنتظر ، ثم اختلف غيرهم من أدعياء المهدية فى تعيين هذا الإمام ، ثم ظهر كثير من الثوار منتحلين شخصية المهدى فى عصور عدة .

على أن العقيدة قديمة فى اليهودية قبل أن تتبناها الشيعة ، وهى إلى ذلك كله وهم تعلق به كثير من الناس فى ظروف خاصة كما سبق .

الفصل الثالث

الخوارج

— ١ —

بعد مقتل عثمان بن عفان بايعت جمهرة المسلمين على بن أبى طالب ، وكان فى المبايعين طلحة والزبير .

ولكن معاوية ـ والى الشام ـ رفض أن يبايعه ، ولم يجرؤ على المطالبة بالخلافة ، فتذرع بأنه يطالب بدم عثمان ، وادعى أن فى جند على بعض قاتليه ، وأن تخلف على عن نصرته شجع الثوار عليه . ثم انضم طلحة والزبير إلى هذا الرأى ، وآزرتهما السيدة عائشة ، وكانت موقعة الجمل بالقرب من البصرة (٣٥ هـ ٦٥٥ م) وانتصر على ، وقتل طلحة والزبير ، وأعيدت السيدة عائشة إلى المدينة فى رعاية وتوقير .

ثم كانت الحرب بين على ومعاوية ، وكاد على ينتصر فى موقعة صفين (٣٦ هـ ٦٥٦ م) ، وهم معاوية نفسه بالفرار ، لكن جند معاوية رفعوا المصاحف ، ونادى مناديهم : الله الله فى العرب ، الله الله فى الإسلام ، كتاب الله بيننا وبينكم . فانخدع بعض الكبار من أصحاب على ، ودعوه إلى الرضا بما يعرض أهل الشام ، فأبى ، وبين لهم أنهم كائدون لامخلصون ، وأنهم قد تحايلوا لما أيقنوا الهزيمة ، لأنهم ليسوا أصحاب دين ولا قرآن .

لكن هؤلاء الرؤساء من أصحاب على أصروا على أن يستجيب لما طلب أهل الشام ، وإلا تخلوا عنه .

ونظر على فوجد كثيراً من أصحابه قد جنحوا إلى السلم ، وكادوا يلقون

سلاحهم ، ووجد غير قليل من أصحابه لم ينخدعوا بحيلة أهل الشام ، ولم يجنحوا إلى السلم ، فاضطر إلى قبول التحكيم ، استجابة للكثرة ، وإبقاء على وحدة جيشه .

ومن عجب أن هؤلاء الذين اضطروا علياً إلى وقف القتال ، والرضا بالتحكيم ، لم يدعوه حرا فى اختيار من ينوب عنه ، فقد كان على يريد أن يكون عبد الله بن عباس أو الأشتر النخعى هو النائب عنه فى مجلس التحكيم ، لكن هؤلاء أصروا على أن يكون أبو موسى الأشعرى هو نائبه . ولم يكن الحكمان متكافئين ، فمندوب معاوية داهية من دهاة العرب ، ومندوب على تقى ورع لا طاقة له بالخداع .

ولقد يسترعى الانتباه أن أبا موسى يمنى ، وأنه كان والياً لعلى على الكوفة قبل موقعة الجمل ، وخذل أهل الكوفة عن المسارعة لنجدة على ونصرته ، فعزله على .

ويسترعى الانتباه أيضاً أن الأشعث بن قيس الكندى واليمنيين الذين معه كانوا أشد القوم إصراراً على اختيار أبى موسى .

وللأشعث هذا ماض جدير بالنظر ، فإنه أسلم فى عهد النبى ، ثم ارتد مع المرتدين ، ثم تاب فى عهد أبى بكر ، وولاه عثمان ولاية فى فارس ، فلما قتل عثمان وتولى على عزله ، ثم قربه ووثق به وولاه الكوفة ، فلما كانت موقعة صفين ورفع المصاحف كان الأشعث أول الداعين إلى قبول التحكيم .

اجتمع الحكمان : عمرو بن العاص وأبو موسى فى أَذْرُح ، وتداولا فى الأمر ، ثم اتفقا على أن يخلصا المسلمين من هذا الصراع ، بتنحية على ومعاوية معاً ، وترك الأمر شورى للمسلمين ، ليختاروا من يشاءون .

غير أن أبا موسى كان مخدوعاً ، لأنه أعلن خلع على ومعاوية ، ثم أعلن عمرو بعده تثبيت معاوية وخلع على[1] .

---

(١) راجع التفصيل والآراء المختلفة فى التحكيم بتاريخ الطبرى ومروج الذهب وتاريخ =

— ٢ —

وحينئذ عاد على إلى العراق ، وعاد معاوية إلى الشام .

لكن جند على عادوا وكثير منهم مصرون على التحلل من بيعته ، ساخطون على التحكيم الذى رضى به « فما برحوا معسكرهم بصفين ، حتى فشا فيهم التحكيم . ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله ، أدهنتم فى أمر الله عز وجل ، وحكمتم ، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا ، وفارقتم جماعتنا[1] » .

فلما سمع على قولهم : لاحكم إلا لله ، قال : كلمة عادلة يراد بها جور ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بد من إمارة برة أو فاجرة [2] .

دخل على الكوفة ، وانفصل عنه مخالفوه من الذين كانوا أعوانه إلى حروراء[3] وكانوا اثنى عشر ألفا ، تنادوا بأن أميرهم على القتال شَبَث بن رِبْعِىّ ، وأميرهم على الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى ، وتنادوا بأن الأمر شورى ، وبأن البيعة لله عز وجل ، وعليهم أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر . وهؤلاء هم الذين يسمون الخوارج[4] .

= اليعقوبى والفخرى والأخبار الطوال للدينورى .

وستجد المؤرخين يكادون يتفقون على أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى خديعة انتهت بخلع على وتثبيت معاوية .

فهم يذكرون فى تفصيل طويل أن الحكمين قد اتفقا على خلع على ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى ، ليختار المسلمون رجلا آخر يصلح للخلافة ، وقدم عمرو أبا موسى ليعلن هذا الرأى ، فقال إنى قد خلعت علياً ومعاوية معاً ، فقام عمرو فقال إن هذا قد خلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية (الطبرى ٦ / ٣٨ ومروج الذهب ٢ / ٣٣) .

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ٣٥ (٢) تهذيب الكامل ١ / ٧٣

(٣) ضاحية بالكوفة (٤) سموا بالخوارج لأنهم خرجوا على الإمام على بعد أن بايعوه ، أو لأنهم خرجوا إلى المدائن ، أو خرجوا على الجماعة ، أو لأنهم خرجوا من =

ثم ناظرهم علي ، فثاب إليه بعضهم ، وبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم ، فأصروا على رأيهم أن يتوب علي من كفره بقبول التحكيم ، لينضموا إليه [١] .

فلما اشتد تهورهم ، وقتلوا صحابياً وزوجته ، ثم قتلوا رسول علي إليهم ليستوضح أمرهم، نازلهم علي في موقعة النهروان سنة ٣٧هـ وهزمهم ، ثم حاربهم في عدة مواقع وتغلب عليهم .

وانتهى بهم الأمر إلى أن اجتمع ثلاثة منهم – عبد الرحمن بن مُلْجَم والبَرْك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي – بمكة ، وتعاهدوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، وإراحة العباد منهم .

وقدم ابن ملجم إلى الكوفة ، وقتل عليا [٢] ؛ ولم يتمكن صاحباه من قتل معاوية وعمرو .

— ٣ —

وإنه ليسترعي النظر أن المذهب نشأ نشأة عربية خالصة ، وأن الذين أقاموه ونهضوا به في أول الأمر لم يكن فيهم أحد من قريش أو ثقيف أو الأنصار أو من مضر عامة ، بل كان رجال الأزارقة والنجدات والإباضية عربا خلصا من بدو الصحراء ومواليهم من قبائل ربيعة مثل تميم وبكر ، ومن القبائل اليمنية من الأزد وهمدان .

= ديارهم مجاهدين في سبيل الله ، من قوله تعالى . « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » وسموا الحرورية نسبة إلى حروراء ، موئلهم بعد التحكيم .

وسموا الشراة — وهذا هو الاسم الأثير عندهم – لأنهم باعوا حياتهم في سبيل الله ، من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » أي يبيعها ويفدي بها دينه .

وسموا المحكمة ، لأن أحدهم – عروة بن أدية التميمي – صاح في وجه الأشعث لما جاء يتلو عليهم كتاب التحكيم بقوله : لاحكم إلا الله ، فأين قتلانا يا أشعث ؟

(١) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي ٩٧ .

(٢) نقد العلم والعلماء ١٠٠

ويكفى أن نذكر منهم نافع بن الأزرق الحنفى ، ونجدة بن عامر الحنفى ، وقطرى ابن الفجاءة المازنى ، وعبد الله بن وهب الراسبى الأزدى ، ومعدان الإيادى ، وعمران ابن حطان اليشكرى ، وشبث بن ربعى ، وعبد الله بن الكواء اليشكرى ، وشَوْذَب (بسطام) اليشكرى ، والضحاك بن قيس الشيبانى ، وأبا حمزة (المختار بن عوف) الأزدى ، وشبيب بن يزيد الشيبانى .

وكان كثير من هؤلاء من المجاهدين القدماء الذين شاركوا فى فتح فارس ، ومن القراء الذين كانوا فى جند على ، ومن أصحاب الحماسة الدينية .

ثم انضم إليهم كثير من الموالى[1] ، إعجابا بمذهبهم السياسى الذى يسوى بين المسلمين من عرب وعجم فى الترشيح للخلافة ومناصب الحكم والمكانة الاجتماعية .

ولعل السبب فى قيام المذهب على سيوف ربيعة والقبائل اليمنية أن على بن أبى طالب ومعاوية مضريان .

وقد انفردت قريش المضرية بالخلافة منذ أعلن أبو بكر يوم السقيفة أنها حق لقريش وحدها ، والعداء بين ربيعة ومضر ، وبين مضر واليمن ، قديم مستحكم منذ العصر الجاهلى ، فلما جاء الإسلام أطفأ شعلته ، لكن جذوتها بقيت تحت الرماد ، ثم اشتعلت ثانية فى آخر عهد عثمان بن عفان .

— ٤ —

وقد حكم الخوارج بكفر على ومعاوية ومن ناصرهما بعد التحكيم ؛ لأنهم حكموا بغير مافى كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس .

أما حكم الله فى معاوية وأعوانه فبيِّنٌ من قوله تعالى : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله» وقد بغى معاوية ، فلا يصح إلقاء السلاح حتى يفىء

(١) امتلأت البصرة بآلاف من الفرس الذين أسلموا كموالى بنى تميم وأنصار أبى مريم الذى ثار على معاوية سنة ٤٢ وأنصار عبد الله بن الماحوز ، وكانوا من أجناس شتى ، حتى سماهم المهلب عبيدا .

إلى أمر الله . وأما حكم الله فى على فواضح من الآية ، لأنه حكم الناس ، ورضى بإلقاء السلاح .

وقد أفصحوا عن هذا فى محاورتهم عبد الله بن عباس ، حينما أرسله إليهم على ليناظرهم ، إذ دار بينه وبينهم هذا الحوار[1] .

ابن عباس : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكَّم فى دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له .

ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .

الخوارج : إنه قد حكم .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد ، فقال : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟

الخوارج : لقد حكم عليه ، فلم يرض .

ابن عباس : الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

الخوارج : بعضهم لبعض ــ لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله فيهم : « بل هم قوم خصمون » وقال : « وتنذر به قوماً لُدًّا » .

— ٥ —

وهم أشد بغضة لمعاوية ، لأنه سطا على الخلافة ، واحتكر أموال المسلمين وعبث بها ، ولأنه صاحب مظهر ملكى ، إذ اتخذ القصور والحجاب والحراس ، ومظاهر الملك البيزنطى .

أما التحكيم فجريرته على معاوية وعلى معاً .

---

(١) تهذيب الكامل ١/٧٦ ونقد العلم والعلماء ٩٧ .

— ٦ —

وأما ثوراتهم وحروبهم فى العهد الأموى فكثيرة :

١ — بدأ القتال بينهم وبين معاوية منذ سنة ٤١ هـ إذ نزلوا النُّخَيْلة بالقرب من الكوفة ، فأرسل إليهم جيشا من الشام ، فانتصروا عليه ، فاستشار معاوية أهل الكوفة لقتالهم ، فأثخنوا فى الخوارج وانتصروا عليهم ، ثم بعث إليهم معاوية جندا فقتلوهم جميعاً .

ثم نزل الكوفة جمع منهم ، وكان واليها المغيرة بن شعبة من قبل معاوية ، ولم يكن المغيرة صارما فى معاملتهم، فلما تواعدوا على الثورة سنة ٤٣ ندب المغيرة أهل الكوفة لقتالهم ، فتثاقلوا ، فجمع لقتالهم جيشاً من الشيعة ، وكان النصر له ، وبهذا ضرب المغيرة خصمى معاوية بعضهما ببعض .

ثم ولى معاوية على البصرة زيادا سنة ٤٥ وأضاف إليه الكوفة سنة ٥١ ، فأخذهم زياد بما فى جهده من قسوة وصرامة .

فلما تولى البصرة عُبَيْد الله بن زياد ، حسبوه أسمح من أبيه وألين ، فبدءوا يظهرون سنة ٥٨ فقتل جماعة منهم ، وكان فى القتل عروة بن أُدَيَّة أحد زعمائهم[1] .

غضب لمقتل عروة أخوه أبو بلال مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز فى أربعين رجلا من الخوارج ، فبعث إليهم ابن زياد ألفى رجل ، على رأسهم ابن حصن التميمى ، فهزمته الخوارج فى (آسك) ، فقال شاعرهم عيسى بن فاتك الحبطى :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسكَ أربعونا ؟
هم الفِئَةُ القليلة غَيْرَ شكٍّ ... على الفئة الكثيرة يُنْصَرُونا

(١) أقبل عروة على عبيد الله بن زياد ــ وقد جلس فى رهان له ينظر الخيل ــ فقال له: خمس كن فى الأمم قبلنا قد صرن فينا ، قال تعالى : [أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين] فلما سمع عبيد الله ذلك ترك رهانه ، وأضمر الشر لعروة ، فهرب ، فقبض عليه وقتل .

لكن ابن زياد لم يصبر على الهزيمة ، فبعث إلى مرداس ثلاثة آلاف ، فأوقعوا به وقتلوه ، وقتلوا كثيرا من أعوانه سنة ٦١ هـ ، وكان مقتل مرداس فاجعة موجعة لم تقتصر على الخوارج .

وذلك أن أصحاب المذاهب تنازعوه لزهده وبصيرته وصحة عبادته وتدينه وبلاغته .

فقد ادعته المعتزلة، وزعمت أنه خرج منكراً جور السلطان ، داعياً إلى الحق . واحتجت بأنه رد على زياد إذ قال فى خطبته : « والله لآخذن المحسن منكم بالمسىء ، والحاضر بالغائب ، والصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصى » . فقال له مرداس . ما هكذا ذكر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وإبراهيم الذى وَفَّى ، ألا تَزِرُ وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرَى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وادعته الشيعة ، وزعمت أنه كتب إلى الحسين بن على : إنى لست أرى رأى الخوارج ، وما أنا إلا على دين أبيك[١] .

٢ — رحل الخوارج بعد هذه الوقعة إلى مكة ، لينضموا إلى عبدالله بن الزبير ، استجابة لزعيمهم نافع بن الأزرق، إذ قال لهم : « إن الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم الجهاد ، واحتج عليكم . وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف ، فاخرجوا بنا إلى هذا الذى قد ثار بمكة ، فإن كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن لم يكن على رأينا دافعناه عن البيت » [٢]

وفى مكة انضموا إلى ابن الزبير ، ورحب بهم ، فقاتلوا معه وهو محاصر ، فلما عاد جيش الشام ، ثم تبينوا أنه ليس على مذهبهم انفضوا من حوله ، ورحل بعضهم إلى البصرة ، وبعضهم إلى اليمامة [٣] .

---

(١) الكامل للمبرد ٣/٢١٤

(٢) الطبرى ٧/٥٥

(٣) الكامل لابن الأثير ٤/٨٠

٣ — أما الذين قصدوا اليمامة فهم النجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وقد راجت هناك وبالبحرين دعوتهم ، وهم الذين أرسل جيشا لمحاربتهم سنة ٦٦ هـ مصعب ابن الزبير ، فهزمهم ، فانتقلوا إلى صنعاء ، وبثوا باليمن آراءهم ، وكاد سلطانهم يعم الجزيرة كلها . ثم انشق النجدات على زعيمهم نجدة فقتلوه سنة ٧٢ هـ ، وأرسل إليهم الحجاج قائدا قضى عليهم .

٤ — وأما الذين قصدوا البصرة فكانوا فى زعامة نافع بن الأزرق ، وقد قويت شوكتهم ، وأخرجوا من السجن إخوانهم الذين حبسهم عبيد الله بن زياد حينما ثار عليه أهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية ، وتفاقم الحركة الزبيرية فى الحجاز .

ثم استولى نافع على الأهواز ، وجبى خراجها ، فكثر أتباعه ، وذعر منه أهل البصرة فقاتلوه ، وكانت بين الفريقين وقعة دولاب التى قتل فيها نافع ، فخلفه عبيد الله ابن الماحوز ، وصارت الحرب سجالا بين الأزارقة والجيش الأموى بالبصرة إلى أن انهزم البصريون سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م فلما تكفل المهلب بن أبى صفرة بحربهم غلبهم ، سنة ٦٦ ، فانحازوا إلى كرمان وأصفهان .

ولم يزل يطاردهم هو ومن بعده حتى تجمعوا فى سابور ، فهزمهم قائد الأمويين ، لكنهم مالبثوا أن استرجعوا قوتهم ، وقتلوا الأطفال والنساء ، وجبوا الخراج .

فطلب أهل العراق من واليهم — مصعب بن الزبير — أن يندب المهلب بن أبى صفرة لقتالهم ثانية ، فقاتلهم — وهم فى زعامة قطرى بن الفجاءة — قتالا دام ثمانية أشهر[1] لم يكتب فيه نصر حاسم لأيهما ، وكان عبد الملك قد قتل مصعبا ، ودانت له العراق .

ثم ولى عبد الملك الحجاج على العراق سنة ٧٥ هـ فأعاد المهلب إلى حرب الأزارقة ومده بالجيوش ، فطاردهم حتى دب اليأس بينهم ، وانقسموا سنة ٧٧ هـ إلى فريقين : فريق بقى مع قطرى ، وفريق انتقل إلى عبد ربه الصغير فضعف الفريقان .

هزم المهلب عبد ربه وقتله وقضى على أتباعه سنة ٧٧ ، وارتحل قطرى إلى طبرستان ، فلحق به جيش الشام فقضى عليه[2] سنة ٧٨ . وبهذا تثلمت قوة الأزارقة

---

(١) ابن الأثير ٤/١٨٨

(٢) ابن الأثير ٤/١٨٢ — ١٨٣

٥ — أما الصُّفْرِيَّة فقد تزعمهم صالح بن مُسَرِّح أول الأمر، ثم خلفه آخرون، فأرسل الحجاج لمحاربتهم عدة جيوش منذ سنة ٧٦ هـ لكنهم هزموها، وغنموا سلاحها ومالها، فعظم شأنهم وزحفوا نحو الكرخ، ثم دخلوا بغداد، وساروا نحو الأنبار، وارتفعوا نحو أذربيجان، فترك الحجاج شبيباً هناك — شبيب بن يزيد الشيبانى زعيم الصفرية — وخرج إلى البصرة، فهاجم الصفرية الكوفة ودخلوها وقتلوا كثيرا من أهلها، ثم أخرجهم الحجاج منها، وحاربهم جيش من جيوشه قرب الحيرة فانتصروا مرات.

فلما هال الحجاج مافعلوه نازلهم بنفسه فى جيش من أهل الشام، وانتصر عليهم، وقتل غزالة زوجة شبيب، وقتل أمه، وفر شبيب.

فبعث الحجاج وراءه جيشا يطارده، فانتصر عليه، ثم غرق شبيب فى دجيل الأهواز سنة ٧٧ أو ٧٨ هـ فتفرق أصحابه، وحمل عليهم جند الشام فأفنوهم.

غرق شبيب بعد أن حمل على جيوش الدولة أكثر من ثلاثين حملة، لكن غرقه والتنكيل بأصحابه لم يقض على الصفرية.

فقد خفت صوتهم فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز استعلن صوتهم بقيادة زعيمهم شَوْذَب، فأخذهم عمر بالرفق والمحاجة، إيثارا للسلام، وحقنا لدماء المسلمين، وكاد ينجح. وفى عهده نصبوا أنفسهم حماة للضعفاء والمضطهدين بالعراق والجزيرة، وناصروا المظلومين على الطغاة، حتى إنهم بعثوا بسلاح إلى البربر بشمالى إفريقية ليعاونوهم فى ثورتهم على حكامهم الأمويين.

ثم تزعم شَوْذَب ثورتهم بالعراق سنة ١٠٠ هـ على الخليفة عمر بن عبد العزيز، فى ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة، وهزموا واليه على العراق، فبعث إليهم جيشا من أهل الشام يقوده مَسْلَمة بن عبد الملك، فانتصر عليهم، وقتل شوذبا سنة ١٠١ هـ(١)

---

(١) الطبرى ٨ / ١٣١

فلما كان عهد مروان بن محمد راجت دعوة أبي مسلم الخراساني ، واستشرى خطر الصفرية بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني ، ومكن لهم في الأمر أن الأمويين منقسمون على أنفسهم ، حتى إن سليمان بن هشام انضم إلى الضحاك بعد وفاة أبيه هشام ، ودعا أهل الموصل الضحاك إلى بلدهم ، فدخله وطرد عامل مروان . وكذلك انضم إليه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز — كان واليا على العراق وعزله مروان — حينما زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ ٧٤٤ م . وعظم شأن الضحاك بالكوفة ، وكثر أتباعه ، حتى قيل إنهم تجاوزوا مئة الف ، فسار إلى الموصل ثم إلى نصيبين ، فحاصره عبد الله بن مروان — ثم لحق به مروان نفسه ، وهزمه وقتله عند ماردين سنة ١٢٨ هـ[١] — فبايع أتباعه الخيبري فقتل في العام نفسه[٢] .

٦ — في هذا الوقت كانت فرقة جديدة توشك أن تظهر ، وكان زعيمها عبد الله بن يحيى الكندي — الذي سمى طالب الحق — فلما كثر أتباعه أعلن دعوته بحضر موت ، واستولى على اليمن ، وانضم إليه أبو حمزة — المختار بن عوف الأزدي — وكان أبو حمزة كثيرا ما يشخص إلى مكة في موسم الحج ، ليثير المسلمين على مروان بن محمد ، فدخلها بعد انقضاء الحج من غير قتال . ولما اتجه إلى المدينة خرج إليه أهلها فقاتلهم بقُدَيْد ، وقتل منهم ألفين ونيفا ، وانتصرت الإباضية ، ودخل أبو حمزة المدينة سنة ١٣٠ هـ ٧٤٧ م واستمال أهلها ، وأحسن معاملتهم . وأقبل جيش الشام ، فخرج أبو حمزة للقائه في وادي القرى ، فهزم أبو حمزة ، وقتل كثير من أتباعه سنة ١٣٠ ، وهرب هو إلى مكة ، فتعقبه الجيش الأموي وقبض عليه وصلبه ، وصلب زعماء الخوارج الذين معه . ثم سار الجيش إلى اليمن ، وهزم طالب الحق وقتله ، وقتل كثيراً من أشياعه سنة ١٣٠[٣] .

وبهذا استراحت الدولة الأموية من ثوراتهم ، وثورات فرق أخرى ، لكن الدولة لم تعمر إلا قليلا ، لأن الدولة العباسية كانت توشك أن تولد .

---

(١) ابن الأثير ٥/١٣٥ — ١٤١

(٢) الطبرى ٩/٦٧

(٣) ابن الأثير ٥/١٤١ والطبرى ٩/٩٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ وشرح نهج البلاغة ١/٤٦٠ والأغاني ٢٠/٩٩ .

ولم يكن للخوارج فى العصر العباسى إلا هبات ضعيفة بعمان ، إذ كانوا قد انعزلوا هناك ، واستقلوا نحو مئة سنة ، حتى قضى عليهم بنو العباس سنة ١٧٢ هـ ٧٨٨ م .

أشهر فرقهم

بقى الخوارج حزبا واحدا لم يتصدع إلى فرق حتى سنة ٦٥ هـ إذ اتجهوا إلى مكة بزعامة نافع بن الأزرق ، ليناصروا عبد الله بن الزبير إذا وجدوه يدين بمذهبهم . فلما ناقشوه وحاوروا ابن عباس ، تبينوا أن ابن الزبير يخالفهم فى آرائهم ، فانفضوا عنه .

وحينئذ بدأوا يفترقون ، فشخص بعضهم إلى اليمامة ، وهم النجدات أتباع نجدة ابن عامر الحنفى ، واتجه الباقون إلى البصرة ، وهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، ثم تشعبوا جميعا إلى عشرين فرقة ، لكل منها آراؤها .

— ١ —

الأزارقة

هم أتباع نافع بن الأزرق من بنى حنيفة ، المكنى بأبى راشد ، وكان فقيها مُقَدَّما فى فقه الخوارج . أكثرهم من تميم ، ثم انضم إليهم كثير من الموالى ، وصاروا مثل العرب حماسة فى الدفاع عن مذهبهم ، وكانوا يكثرون فيعوضون ما ينقصه القتل من الأزارقة .

وانتهت زعامتهم أخيراً إلى قطرى بن الفجاءة ، ثم انقسموا عليه ، فبقى فريق معه ، وتخلى عنه فريق إلى عبد ربه الصغير .

كان نفوذهم بالقرب من البصرة وبفارس وكرمان .

وهذه الفرقة أكثر فرقهم عدداً ، وأعظمها قوة ، ولهم تعاليم شتى [1] :

---

(١) الكامل ٣/٢٨٤ والملل والنحل ١/١٠٩ ، ١٢٢ والفرق بين الفرق ٦٢ ومروج ٢/٤١ — ١٩١ ونقد العلم والعلماء ١٠٠ وشرح نهج البلاغة ١/٣٨١ .

دعائم مذهبهم :

١ — أنهم كفروا عليا والمسلمين جميعاً ، ما عدا الأزارقة .

٢ — لم يلبوا دعوة غيرهم للصلاة ، ولم يستحلوا ذبائحهم ، ولم يتزوجوا منهم أو يزوجوهم ، ولم يرثوهم أو يورثوهم ، ولم يقبلوا شهادتهم ، ورأوا أن علم الدين لا يؤخذ عنهم .

٣ — غلوا فى الحكم على مخالفيهم ، فقضوا بتكفيرهم ، وزعموا أن بلاد المسلمين دار حرب ، فاستحلوا قتالهم ، لأنهم مثل كفار العرب عباد الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، وبهذا استحلوا قتل شيوخهم ونسائهم ، واستحلوا قتل الأطفال ؛ لأنهم مشركون كآبائهم مخلدون فى النار .

وكانت غلظتهم على مخالفيهم من المسلمين أشد من غلظتهم على الكفار . روى أن واصل بن عطاء المعتزلى وقع فى أيديهم ، فادعى أنه مشرك مستجير ، لأن هذه الدعوى تنجيه أكثر من إسلامه المخالف لمذهبهم(١) .

وهذا شاعر من شعرائهم — شُبرة بن الجَعْد — يصف مخالفيهم بالكفر ويلعنهم فى قوله (٢) :

فمن مُبلغ الحجاج أن سميره ... قَلَى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناسَ — إلا من رأى مثل رأيه — ... ملاعينَ ترّاكين قصد المخارج

٤ — لم يجيزوا التقية فى فعل أو قول ، ولم يجيزوها فى الانضمام إليهم رهبة منهم ، لا إيمانا بصحة مذهبهم . وهم يستدلون على تحريم التقية بقوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » وبأنه تعالى وصف المتحرجين منها بأنهم يحبون الله والله يحبهم ، ووصفهم بالثبات فى جهادهم ، والصراحة فى قولهم وفعلهم ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه

---

(١) تهذيب الكامل ١/ ٨٣ .

(٢) مروج الذهب ٢/ ٣٩ كان سبرة قد اتصل بالحجاج وسامره ثم عاد الى مذهبه الخارجى .

فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين. يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »[١]

٥ — كفروا إخوانهم القاعدين عن القتال وهم قادرون عليه ، واستحلوا قتلهم .

٦ — كفروا مرتكب الكبيرة ، ومرتكب الصغيرة أحياناً ، وذهبوا إلى أنه مخلد فى النار .

٧ — أسقطوا الحد عن الزانى المحصن ؛ لأنه لم يرد فى القرآن نص عليه ، وأسقطوا الحد عن قاذف الرجل المحصن ، وأقاموه على قاذف المحصنة .

٨ — حكموا بقطع يد السارق فى القليل والكثير .

٩ — ذهبوا إلى أن الفرائض الدينية كالصلاة والصيام والفضائل الخلقية كالصدق والعدل ، جزء من الإيمان ، لأن الإيمان ليس محصوراً فى التوحيد وتصديق الرسالة . فالذى يدين بالوحدانية ، ويدين برسالة محمد ، ثم لا يقوم بالفرائض الدينية ، أو يرتكب الكبائر ، كافر .

١٠ — وإذ كفروا مرتكب الكبيرة ، وكذلك مرتكب الصغيرة ، فإنهم أوجبوا الخروج على أئمتهم إذا ما ارتكبوا هفوة .

وبعد

فالأزارقة أشد طوائف الخوارج قسوة على مخالفيهم ، وبغضاً لهم ، وأشدهم على أنفسهم أيضاً .

فلا عجب فى أن كرههم المسلمون ، وحاربهم المهلب فى خلافة عبد الله بن الزبير، لما ندبه لحربهم مصعب بن الزبير ولى العراق ، ثم حاربهم فى ولاية الحجاج على العراق، حتى قضى عليهم [١]

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) تهذيب الكامل ١/١٨٢ والملل والنحل ١/١٠٩ والفرق بين الفرق ٦٢

— ٢ —

النَّجَدات

هم أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، كانوا فى أول أمرهم باليمامة والبحرين وحضرموت .

وكان نجدة من الأزارقة ، ثم خالف نافع بن الأزرق سنة ٦٦ فى عدة مسائل ، وكتب إلى نافع كتابا[1] ملخصه :

١ — ليس المتخلفون عن الجهاد لنصرة الحزب كفارا كما ذهب نافع ، لأن الله عذرهم وسماهم أحسن الأسماء فى قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل » .

ولأن الله فضل المجاهدين على القاعدين غير أولى الضرر ، من غير أن يحكم عليهم بالكفر فى قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » .

٢ — ولهذا يحل الزواج منهم وإليهم ، ويحل ميراثهم ، وذبائحهم ، وتقبل شهادتهم .

٣ — لا يحل الغدر بالأمانة ، لقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٤ — ولا يحل قتال الأطفال ، لقوله تعالى : « لا تزر وازرة وِزْرَ أخرى » ولنهى الرسول عن قتلهم .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٨٢ والملل والنحل ١ / ١١٢ .

٥ — التقية جائزة ، لقوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تُقاةً » ولأنه سمى صاحبها مؤمنا فى قوله : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ » .

لكن نافع بن الأزرق لم يرجع عن رأيه[1] ، فانفصل منه نجدة ، وسار إلى اليمامة مع أتباعه . فاختاره للزعامة الفريق الذى كان يتزعمه أبو طالوت البكرى ، وخلعوا أبا طالوت . وأقام نجدة بالبحرين مدة ، حتى قدم مصعب بن الزبير إلى الكوفة سنة ٦٩ هـ فبعث إليه جيشا هزمه ، فاتجه إلى صنعاء ، وراجت دعوته باليمن .

ثم اختلف معه أتباعه بزعامة أبى فُدَيْك فقتلوه سنة ٧٢ هـ . وأمروا عليهم أبا فُدَيْك ، فصاروا يسمون فُدَيكِيَّة . وحاربوا أهل البصرة ، وانتصروا عليهم انتصارا مبينا ، ولكن جيش عبد الملك بن مروان الذى قاده عمر بن عبدالله بن مَعْمَر قائد الحجاج استطاع أن يهزم الفديكية سنة ٧٣ هـ ، وأن يقتل أبا فديك ، ويحصر جيشه بالمشَقَّر ، ويضطره إلى التسليم . وكانت هذه نهاية النجدات باليمامة والبحرين

على أن عطية بن عطية بن الأسود الحنفى برئ من أبى فديك ، وبرئ أبو فديك منه قبل هذه الموقعة . وبعدها لحق عطية بأرض سجستان ، وسمى أصحابه العَطَوِيَّة ، ومنهم عبد الكريم بن عَجْرَد زعيم العجاردة[2] .

دعائم مذهبهم :

للنجدات تعاليم منها[3] :

١ — إذا أخطأ المجتهد فاستحل حراما أوحرم حلالا ، فهو معذور .

٢ — تحريم دماء المسلمين ، وتحريم اغتصاب أموالهم ، إلا فى حرب .

٣ — جواز التقية قولا وفعلا .

---

(١) راجع رسالتى نجدة ونافع فى باب الرسائل من هذا الكتاب .

(٢) لاخلاف بين العجاردة والنجدات ، إلا أنهم افترقوا فرقا ، منها الميمونية الذين أحلوا نكاح لبنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، بدعوى أن القرآن لم يحرمهن . وحكى عنهم أنهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن ، لأنها فى زعمهم قصة إغراء (الملل والنحل ١/١١٦)

(٣) الملل والنحل ١/١١٠ والفرق بين الفرق ٦٨ ومروج الذهب ٢/١٩١

٤ — إباحة التخلف عن القتال للقادر عليه ، وإن كان الجهاد أفضل .

٥ — إباحة دماء أهل العهد والذمة وأموالهم فى حال التقية .

٦ — إسقاط الحد عن شارب الخمر .

٧ — ارتكاب الذنب الصغير أو الكبير مع الإصرار عليه يعد كفراً ، وارتكاب الكبيرة مع عدم الإصرار لايخرج من الإيمان .

٨ — أجمعوا على أنه لاحاجة إلى إمام قط ، بل على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن وجدوا أن صلاح أمورهم لا يتم إلا بإمام فأقاموه جاز .

وهم فى هذا يتفقون مع بعض المعتزلة كابن الأصم ، لأن العقل والشرع لايوجبان إقامة إمام ، مادامت أحكام الشريعة نافذة ، فإذا اتفقت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى فلا حاجة إلى إمام .

والذى حملهم على هذا الرأى هو الفرار من الملك وما ينشأ عنه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا (١) .

— ٣ —

الإباضية

هم أتباع عبد الله بن إباض التميمى الذى عاش فى عصر معاوية ، وكان عبد الله من أتباع نافع الازرق ، ثم خالفه فى مسائل .

أما نفوذهم فكان باليمن وحضرموت ، إذ تزعمهم عبد الله بن يحيى الكندى ، وبايعه بالخلافة أبو حمزة سنة ١٢٨ هـ كما سبق فى ثورات الخوارج .

دعائم مذهبهم (٢) .

١ — لم يغالوا فى عداء مخالفيهم كما غالى الأزارقة ؛ فخالفوهم فى نظرهم كفار غير مشركين ، ودارهم دار إسلام لادار كفر ، لهذا لم يحلوا قتالهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجه وإعلان الحرب . فإذا قاتلوهم وغنموا منهم ردوا كل شىء إلا المال

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٠ .

(٢) الفرق بين الفرق ٨٢ . (٣) الأغانى ٢٠/٩٨ . (٤) الأغانى ٣٠/١٠٥ .

والسلاح ، فهم يشبهون فى هذا فرقة النجدية . ومعنى هذا ان أموال مخالفيهم محرمة عليهم فى غير الحرب ، وأن قتلهم حرام .

٢ — أباحوا الزواج من مخالفيهم ، وأباحوا أن يرثوهم ، وجوزوا قبول شهادتهم .

٣ — مرتكب الكبيرة فى مذهبهم موحد لا مؤمن ، فهو كافر بالنعمة لا بالملة ، أى أنه كافر كفر نعمة لا كفر شرك . جاء فى خطبة عبد الله بن يحي باليمن بعد أن استولى عليها : من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك فى أنه كافر فهو كافر[١] . وكرر أبو حمزة هذا فى خطبة له بالمدينة[٢] .

٤ — والإباضيّة بشمالى إفريقية وعمان يتفقون فى كثير من آرائهم مع المعتزلة ، كقولهم بخلق القرآن ، وتأويلهم بعض الكلمات القرآنية تأويلا مجازيا مثل الميزان والصراط والاستواء على الدين ، وقولهم بعدم المغفرة لمرتكب الكبيرة إلا إذا تاب قبل الموت ، وتأبيد العذاب للمشركين ولمرتكبي الكبائر من المسلمين إذا لم يتوبوا ، والقول بأن صفات الله ليست زائدة على ذاته .

ويخالفون للمعتزلة فى القول بأن مرتكب الكبيرة بمنزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولاهو كافر ، لأنهم خوارج يدينون بتكفير مرتكب الكبيرة .

وكذلك يخالفونهم فى القول بالقدر وحرية العبد فى أفعاله ، لأن المعتزلة يرون أن العبد حر ، والإباضية يرون أن حريته محدودة بالكسب أو الا كتساب كما يقول الأشاعرة ، فالعباد اكتسبوا أفعالهم وعملوها ، ولم يجبرهم الله عليها أو يضطرهم إليها .

وما زالت بقايا منهم بالجزائر وطرابلس وعمان وزنجبار إلى اليوم .

---

(١) الأغانى ٢٠/٩٨ .
(٢) الأغانى ٢٠/١٠٥ .

— ٤ —

الصُّفْرِيَّة

هم أتباع زياد بن الأصفر ، ولذلك يسمون صُفْرِيَّة أو زِيادِيَّة (١)

وقيل إنهم سموا صفرية ، لأن ألوانهم كانت مصفرة ، وفي هذا يقول ابن عاصم الليثي – وكان خارجيا ثم صار مرجئا – :

فارقت نجدة والذين تَزَرَّقُوا ... وابن الزبير وشيعة الكذاب (٢)

والصُّفْرَ الاذان الذين تخيروا ... دينا بلا ثقة ولا بكتاب (٣)

ثم تزعمهم شبيب بن يزيد ، ثم شَوْذَب (بسطام اليشكري) ثم الضحاك بن قيس الشيباني .

وكانت لهم ثورات عدة سبقت في حروب الخوارج .

كان زياد بن الأصفر كسابقيه نجدة وعبد الله بن إباض من أتباع نافع ، ثم اختلف معه ، فانفصل بأتباعه ، واستقل بمذهبه .

ذلك أن نافع بن الأزرق كتب إلى عبدالله بن إباض وإلى عبد الله بن صَفار كتابا يعلن فيه مذهبه القائم على الحكم بالشرك على من لم يخرجوا معه ، وما ينشأ عن هذا الحكم من تحريم ولايتهم ، ووجوب قتالهم ، الخ

فلما قرأ عبد الله بن إباض الكتاب قال : قاتله الله ، أيّ رأى رأى ؟ صدق نافع ، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأيا وحكما فيما يشير به ، وكانت سيرته كسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في المشركين ، ولكنه قد كذب فيما يقول ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام وهم براء من الشرك ، ولا يحل لنا إلا دماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام .

فقال له ابن صفار : برئ الله منك فقد قصرت ، وبرىء الله من ابن الأزرق

(١) الملل والنحل ١/١٢٣

(٢) تزرقوا: صاروا من الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق . الكذاب: المختار بن عبيد الثقفي .

(٣) الكامل للمبرد ٣/٢٩٢

فقد غلا ، برئ الله منكما جميعا . فقال ابن إباض : فبرئ الله منك ومنه .

وتفرق القوم(١)

دعائم مذهبهم :

قام مذهبهم على عدة أصول ، منها :(٢)

١ ـ لا يحكمون بكفر إخوانهم القاعدين عن القتال مع قدرتهم عليه ، فهم فى هذا الرأى مثل النجدات .

٢ ـ أجازوا التقية قولا لا فعلا ، فهم فى هذا وسط بين الأزارقة والنجدات .

٣ ـ لم يقضوا بكفران أطفال المشركين ، ولهذا لم يبيحوا قتلهم ، فهم فى هذا كالنجدات والإباضية ، ومخالفون للأزارقة

٤ ـ الكبائر فى رأيهم نوعان: نوع يُحَدُّ مرتكبه كالسرقة والزنا والقذف ، ونوع لاحد فيه ، لعظم قدره ، مثل ترك الصلاة ، والفرار من الزحف .

أما النوع الأول فمرتكبه ليس كافرا ولا مشركا ، وإنما يسمى باسم الجريمة التى ارتكبها ، يسمى سارقا أو زانيا أو قاذفا .

وأما النوع الثانى فإن مرتكبه كافر مخلد فى النار

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/ ٥٧ .

(٢) الكامل للمبرد ٣/ ٢٩١ والملل والنحل ١/ ١٢٣ .

مذهب الخوارج السياسى

للخوارج مذهب سياسى أعلنوه ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه، منذ انشقوا على الإمام على .

وقد جاهدوا فى تحقيق هذا المذهب بأعز ما يمتلكون ، بدمائهم وأرواحهم وأموالهم ، وقاموا بالثورات الكثيرة التى أضعفتهم ، وزعزعت أركان الدولة الحاكمة نصف قرن .

وهذا المذهب السياسى قائم على عدة أصول :

١ ـ الخلافة حق لكل مسلم كفء يجتمع فيه العلم والعدل والزهد[١] ؛ فليس يشترط فى الخليفة أن يكون عربيا كما تذهب الأحزاب كلها ؛ لا يشترط أن يكون قرشيا كما يرى الزبيريون ، ولا من بنى هاشم كما يقول الشيعة ، ولا من بنى أمية كما يدعى الأمويون .

بل هم يفضلون أن يكون غير قرشى؛ ليسهل عزله أو قتله إذا انحرف ، لضعف عصبيته .

وقد طبقوا مذهبهم فولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وهو غير قرشى ، وعزلوا بعض رؤسائهم ، وقتلوا بعضهم .

٢ ـ الخليفة ينتخبه المسلمون انتخابا حرا .

وهم برأيهم فى اختيار الخليفة يمثلون الديمقراطية المتحررة ، ويمثلون التطور السريع مع الأحداث ، ذلك بأنهم كانوا فى أول الأمر ينادون بأن الخلافة حق لكل عربى حر ، فلما انضم إليهم كثير من المسلمين الأعاجم استغنوا عن العروبة والحرية بالإسلام والعدل ، ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم عادل ، سواء أكان حرا أم عبدا .

---

(١) الملل والنحل ١/١٠٧ ونقد العلم والعلماء ١٠٢

٣ — تتفق فرقهم على رأيين :

ا — الاعتراف بصحة البيعة لأبى بكر وعمر ، والثناء على أعمالهما ، والاعتراف بخلافة عثمان فى السنوات الست الأولى من حكمه ، والتبرؤ منه فى السنوات الباقية ، والإقرار بصحة البيعة لعلى ، والرضا بخلافته إلى أن قبل التحكيم . أما بعد التحكيم فيحكمون عليه بالكفر[١] ، كما حكموا على عثمان بعد سنواته الأولى ، وعلى معاوية ومن بعده ، وعلى طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص والسيدة عائشة ، وكانوا يعادون من يخالفهم فى هذه الفكرة ويعتبرونه خارجا على الدين .

ب — إذا جار السلطان وجب عزله ، فإن امتنع جاز قتله .

ومن خرج على الإمام العادل وجب قتاله ، وليس من حق الإمام الذى اختاره المسلمون أن ينزل عن الإمامة[٢] .

مذهبهم الدينى

كانت الصبغة العامة للخوارج سياسية إلى خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم خلط بعضهم بالمذهب السياسى مذهبا دينيا متطرفا ، كما سنبين فى حديثنا عن فرقهم، على أنهم جميعا يتفقون فى عدة أسس :

١ — الدين عقيدة وعمل ، فمن لم يقم بما يوجبه عليه الدين من صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها ، أولم ينته عما نهى عنه الدين ، فليس مؤمنا ، بل هو كافر أو ملحد .

ولم يخالف فى هذا الأصل إلا النجدات ، لأنهم جعلوا الإصرار على الذنوب ولو صغيرة هو المنافى للإيمان ، أما ارتكاب الكبائر من غير إصرار فلا ينافى الإيمان .

٢ — وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدفاع عن المحرمات .

٣ — البراءة من الكاذب ، ومن مرتكب المعصية الظاهرة ، لأنه كافر مخلد فى النار .

---

(١) لاتفرقة عندهم بين المعصية والكفر ، إذ أن المخالفة الجزئية مثل المخالفة الكلية . لهذا كفروا أهل الجمل وصفين والحكمين ومعاوية وأعوانه .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ٥٥ والملل والنحل ١/١٠٧ .

٤ — كفروا مرتكب الكبيرة ، محتجين بآيات كثيرة ، منها « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » فجعل تارك الحج كافرا . وبقوله تعالى : « إنه لاييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » لأن الفاسق لفسقه وإصراره عليه يائس من رحمة الله ، فكان كافراً . وبقوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » لأن كل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله . وهكذا تأولوا آيات كثيرة[1] .

٥ — الاستمساك بالقرآن الكريم ، والعمل بأحكامه ، والخشية الشديدة من عذاب الآخرة ، فهم أهل عبادة وصيام وصلاة وورع .

٦ — كثيراً ما تأولوا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ليبرروا مذهبهم ، كما تأولوا (إنِ الحُكْمُ إلا لله) بأن المراد لا حكومة إلا لله ، أى لا حاجة إلى إمام . وقد سمعهم على يقولون هذه العبارة فقال : كلمة حق يراد بها باطل .

ومن البديه أنه لابد للناس من حاكم يسوس شئونهم ، ويرعى صالحهم ، ويحميهم من العدو ، ويأخذ للضعيف من القوى .

٧ — وهم جميعا يتصفون بسذاجة آرائهم ، وغلبة البداوة على تعاليمهم .

أخلاقهم

قامت أخلاقهم العامة على دعامتين : التقوى والشجاعة .

تقواهم :

أما تقواهم فتتجلى فى شهرتهم بالعبادة ، وإطالة السجود ، والزهد فى متاع الدنيا ، والعكوف على تلاوة القرآن الكريم ، والتأثر بوعده ووعيده .

والأمثلة على هذا كثيرة .

١ — وجه إليهم على بن أبى طالب عبد الله بن عباس، فرحبوا به ،وأكرموه ، « فرأى منهم جباها قَرِحَةً لطول السجود ، وأيديا كثَفِنات الإبل ، عليهم قمص مُرْحَضة ، وهم مُشَمِّرُون »[2] .

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٣٠٧

(٢) تهذيب الكامل ١/٧٧ قرحة: مجروحة : ثفنات الإبل: ركبها. مرحضة : نظيفة مغسولة .

٢ — سئل مولى عروة بن أُدَيَّة عن صفته بعد أن قتل ، فقال : ما أتيته بطعام في نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط[1] .

٣ — قال عيسى بن فاتك الخَبَطيّ في رثاء مِرْداس بن أُدَيَّة وداود بن شَبَث ومن قتل معهما :

ألا في الله لا في الناس شالت بداود وإخوته الجذوعُ
مضوا قتلا وتمزيقا وصلبا تحُوم عليهمُ طير وُقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهمُ وهمُ ركوع
أطار الخوف نومهمُ فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

٤ — لما حبس مرداس بن أُدَيَّة أعجب السجان بحلاوة منطقه واجتهاده في عبادته ، فعرض عليه أن يتركه كل ليلة لينصرف إلى بيته ، ويعود في آخر الليل ، فكان يفعل ذلك .

ثم ضاق عبيد الله بن زياد بالخوارج ، وأقسم ليقتلن من حبسه منهم . وكان مرداس بمنزله ليلا ، فعلم الخبر . فلما كان السحر تهيأ للرجوع ، فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً . فرجع إلى السجان ، وقال له : لقد علمت ماعزم عليه صاحبك . فقال له : أعلمت ورجعت؟[2]

٥ — استنفر عبيد الله بن زياد الناس لقتال الخوارج ، واختار عَبَّاد بن علقمة المازني المشهور بابن أخضر لقيادة الجيش بفارس ، فالتقى بهم يوم جمعة .

وقبيل المعركة قال زعيم الخوارج أبو بلال لعباد : اخرج إلي ياعباد ، فإني أريد أن أحاورك .

فخرج إليه . فقال أبو بلال : ما الذي تبغي ؟ قال : أن آخذ بأقفائكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد .

قال أبو بلال : أو غير ذلك ؟. قال عباد : ما هو ؟

---

(١) الكامل للمبرد ٣/١٨١

(٢) المرجع السابق ٣/٢٤٨

قال أبو بلال : أن ترجع ، فإنا لانخيف سبيلا ، ولا نَذْعَرُ مسلما ، ولا نحارب إلا من حاربنا ، ولا نجبي إلا ماحَمَيْنا . فقال له عباد : الأمر ما قلت لك .

ثم نشبت المعركة ، ولم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة . فناداهم أبو بلال : يا قوم هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى نصلى وتصلوا .

قالوا : لك ذالك . فرمى القوم أجمعون أسلحتهم ، وعمدوا للصلاة . فأسرع عباد ومن معه ، ومالوا على الحرورية فقتلوهم جميعا ، وهم بين راكع وقائم وساجد وقاعد[1] ، فقتلوهم ، وأتى برأس بلال

وفى رثائه يقول عمران بن حِطان[2] :

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغْضا ... وحبًّا للخروج أبو بِلالِ
أحاذر أن أموت على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حَتْفِى ... كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يكُ همه الدنيا فإنى ... لها والله رب البيت قالى

شجاعتهم :

الخوارج أعظم الأحزاب شهرة بالبأس والصبر على حر القتال ، وفداء العقيدة بالدماء والأرواح والأموال ، لا يثنيهم عن نزال الخصم أنه أكثر منهم عددا ، وأعز نفراً ، وطالما انتصر عدد قليل منهم على جيش يزيد على عشرات أمثالهم .

وهم يرون الاستشهاد حلو المذاق ، فيتهافتون على القتال فى غير مبالاة .

ولهذا أقلقوا الدولة الأموية زمنا طويلا ، وكلفوها وكلفوا أنفسهم عشرات الألوف من الضحايا .

وكانت بطولتهم مبعث تقديرهم ، بغض النظر عن تعصبهم وشططهم .

فهم فى رأى نيكلسون يمثلون أعلى درجات الدفاع عن المذهب ، على حين أنهم

---

(١) الكامل ٣/٢٥٤ . (٢) تهذيب الكامل ١/١٠٧

لم يكونوا ذوى مآرب شخصية يريدون الحصول عليها ، كالأحزاب الأخرى(١) .

١ — فمنهم الذى آثر عقيدته على حياته ، وعلى شفاعة أبيه وابنه ، يذكرون أن معاوية أرسل إلى زعيمهم حَوْثرة بن وَدَاع بن مسعود الأسدى — بعد هزيمتهم فى النُّخَيْلة — أباه ، لعله يرده عن الحرب ، ولعله يرق حينما يكلمه أبوه . فناشده أبوه أن يكف ، وقال له : ألا أجيئك بابنك ، فلعلك إذا رأيته أن تكره فراقه ؟ فقال حوثرة : أنا إلى طعنة من يد كافر أَشْوَقُ منى إلى ابنى .

ومنهم الذى طُعن ، ونفذ فيه الرمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ، والرمح فيه . ويقول : « وعجلتُ إليك ربِّ لتَرْضى » .

وذكروا أن عبد الملك بن مروان أُتِىَ برجل منهم ، فوجد منه ماشاء علما وفهما ، ثم وجد ماشاء أدبا ، فرغب فيه ، واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصراً محققا ، فزاده فى الاستدعاء ، فقال له : لتُغنِك الأولى عن الثانية ، وقد قلتُ فسمعتُ فاسمع أقل . فقال له : قل . فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذاهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك — على معرفة — : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعتُ إلى ما ثبت الله علىَّ من الحجة ، وقرر فى قلبى من الحق .

ثم هدده عبد الملك بالقتل إن لم يطع ، وإذا بابنه مروان يدخل عليه باكيا ، لأن مؤدبه ضربه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى يقول : دعه يَبْكِ ، فإنه أرحب لشِدْقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه ، فاستدعى عَبْرَتها .

فتعجب عبد الملك وقال له : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ .

فقال الخارجى : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء .

فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال له : لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ما حبستك(٢)

(١) A Literary History of Arabs P. 211

(٢) الكامل للمبرد ٣/٢٢٢

٢ — وكانت نساؤهم مثل رجالهم شجاعة وصلابة ، وكن يشتركن مع الرجال في الزحوف ويتقدمن إلى الحتوف .

وكان ابن زياد شديد الغيظ منهن ، لأن اشتراكهن في الحروب يلهب حماسة الخوارج ، ويزيد شجاعتهم .

لذلك أقسم ابن زياد لئن ظفر بخارجية ليجعلنها نكالا وعبرة لغيرها .

من هؤلاء النسوة البَلْجاء ، كانت تقية عالمة مجاهدة ، علم أبو بلال أن ابن زياد يعتزم التنكيل بها ، فأخبرها أو نصحها بأن تهرب ، فقالت في رباطة جأش : إن يأخذني فهو أشقى بي . ثم أخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها ، وصلبها عريانة[١] .

ومنهن أم شَبيب بن يزيد الشيباني زعيم الصفرية ، وزوجته غزالة ، وكان لهما شأن في حروب الصفرية عظيم .

٣ — وإنا لنجد في أقوال خصومهم شهادة لهم بالبطولة .

قال البَرَاء بن قبيصة للمهلب : ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك .

وقال للحجاج لما عاد إليه : رأيت قوما لا يعين عليهم إلا الله . وشهد المهلب نفسه بشجاعتهم في قوله : كيف تقاتل قوما هذا طعنهم ؟

فلا عجب في أن كان خصومهم يَتَوَقَّوْن لقاءهم ، ولا عجب في أن انتصروا على الجيش الأموي مرات .

خرج قطري بن الفجاءة في بعض حروبه على فرس أعجف ، وبيده عمود من الخشب ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل من خصومه ، فحسر قطري عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هاربا ، فقال له قطري : إلى أين ؟ قال الرجل : لا يستحي إنسان أن يفر منك ،

---

(١) الكامل للمبرد ٣/٢٤٨ .

إخلاصهم لعقيدتهم

ولقد أخلصوا لعقيدتهم ، بل إنهم تشددوا إلى أقصى حد فى إخلاصهم لها ومغالاتهم فيها ، فلم يهادنوا خصمهم مهما تكن قوته ، ولم يجبنوا عن إعلان رأيهم والدفاع عنه مهما تكن تبعته .

وقد شهد لهم بذلك الإمام على نفسه فى قوله وهو فى آخر أيامه : لا تقتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه .

وقال عمر بن عبد العزيز فى مناظرته لرسولى شَوْذَب اليشكرى لما خرج عليه : إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها .

تعصبهم الممقوت

والذى يتبع أحداثهم وآراءهم ومناقشتهم لخصومهم يتبين أنهم متعصبون أشد التعصب لآرائهم ، متزمتون فى تطبيقها على أنفسهم وعلى غيرهم ، ويرى أنهم كثيرا ما ينفرون من الحجة الملزمة لهم ، وأنهم يتناقضون فى آرائهم وفى أفعالهم تناقضا يثير الدهشة والعجب .

ولعل ذلك راجع إلى بداوتهم ، وسذاجتهم ، وضيق ثقافتهم ، وقلة مرونتهم ، واعتدادهم بأنفسهم إلى حد الغرور ، وتمسكهم بظواهر النصوص ، ولهذا كان الخلاف بينهم كثيرا ، وتعددت فرقهم ، وحاربهم خصومهم بسلاح التفرقة ، فكان المهلب ابن أبى صفرة فى محاربته للأزارقة يدس بينهم من يثير الخلاف والشقاق .(١)
والأمثلة على تعصبهم المقيت أن على بن أبى طالب خطب فيهم ، فأبطل آراءهم ، لكنهم لم يستجيبوا له .

قال على : فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضلون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ١/٤٠٠.

سيوفكم على عواتقكم ، تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب .

وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله ،

وقتل القاتل ، وورث ميراثه أهله .

وقطع يد السارق ، وجلد الزانى غير المحصن ، ثم قسم عليهما الفىء ، ونكحا المسلمات .

فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله .

وبهذا ناقشهم علىّ بأعمال رسول الله ، لأن العمل لا يقبل تأويلات ، فلا مجال فيه للمناقشة ، والنظر السطحى ، والتفكير المتحيز إلى جانب الهوى ، لأنهم كانوا يتشبثون بظاهر النص .

ولكنهم استبدوا بآرائهم ، ولم يستجيبوا له .

ومن أمثلة ، تناقضم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم ، وتواصوا بالنصرانى ، فقالوا :

احفظوا ذمة نبيكم . فعصموا دم الذمى ، وأهدروا دم المسلم المخالف لهم .

ومنها أنهم لما التقوا بعبد الله بن خبّاب[1] وهموا بقتله ، وثب رجل منهم على رطبة فوضعها فى فمه ، فصاحوا به ، فلفظها تورعا .

---

(١) لقيهم وفى عنقه مصحف ، فقالوا له إن الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك ، فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان فى السنوات الست الأولى؟ فأثنى خيرا . قالو فما تقول فى التحكيم ؟ قال إن عليا أعلم بكتاب الله منكم وأحرص على دينه وأنفذ بصيرة . قالوا إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم ، ثم قربوه إلى شطى النهر وذبحوه

وعرض لأحدهم خنزير ، فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض . فقال عبد الله بن خباب : ماعلىّ منكم بأس إذن ، إنى لمسلم . ولكنهم ذبحوه . ثم ساموا نصرانيا نخلة له ، فقال : هى لكم ، فقالو : ما كنا لنأخذها إلا بثمن . فقال : ما أعجب هذا ؟ أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولاتقبلون منى ثمر نخلة (١) ؟

وقتل عبد الرحمن بن مُلْجَم عليا ، وبقى مع هذا يذكر الله عز وجل، فلما هموا بقطع لسانه شق ذلك عليه ، وجزع ، فسئل عن ذلك ، فقال : أحببت ألا يزال فى بذكر الله رطبا .

وسار واصل بن عطاء رئيس المعتزلة فى جماعة من أتباعه ، فلقيهم الخوارج ، فقال واصل لأصحابه : دعونى وإياهم، ثم خرج إليهم ، فقالوا : ماأنت وأصحابك ؟ قال مشركون مستجيرون ، لنسمع كلام الله ، ونعرف حدوده .

قالوا : قد أجرناكم . قال : فعلمونا . فجعلوا يعلمونهم أحكامهم وهو يقول: قد قبلنا . ثم قالوا له : امضوا فقد صرتهم إخواننا . فقال : ليس ذلك إليكم ، فإن الله تعالى يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا .

فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا ذاك لكم . وساروا معهم حتى أبلغوهم مأمنهم (٢).

ويذكرون أنه كان رجل من العجاردة اسمه شُعَيْب مدينا لآخر اسمه ميمون ، فاقتضى ميمون دينه، فقال شعيب . أعطيكه إن شاء الله. قال ميمون : قد شاء الله ذلك الساعة . قال شعيب : لوكان قد شاء ذلك لم أستطع أن أعطيكه . قال ميمون ، قد أمر الله بذلك ، وكل ما أمر به فقد شاءه ، وما لم يشأه لم يأمر به .

فافترق العجاردة بسبب هذا الخلاف فى الرأى إلى ميمونية وشُعَيْبِيَّة .

وكتبوا إلى رئيسهم عبد الكريم فقال : إنما نقول ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ولانلحق بالله سوءآ .

---

(١) الكامل للمبرد ٣/٢١٣

(٢) الكامل للمبرد ٣/١٦٤

فادعى كل من الفريقين أن الجواب يؤيده .

وخطب عبد الجبار إلى ثعلب ابنته — وهما من العجاردة — فسأله ثعلب أن يمهرها أربعة آلاف درهم . فأرسل الخاطب إلى أم الفتاة يسألها : هل بلغت وأقرت بالإسلام ؟ فإن كان ذلك لم أبال بمهرها .

فقالت الأم : ابنتي مسلمة ، بلغت أو لم تبلغ . فاختلف الخاطب وأبو الفتاة وأمها ، وتدخل عبد الكريم بن عجرد ، فاختار البراءة من الأطفال ، وبذلك زادهم خلافاً ، وبرئ بعضهم من بعض ، ونشأت فرقة الثعالبة [1] .

---

(١) ضحى الإسلام ٣/٣٣٣

الفصل الرابع

الزبيريون

— ١ —

هذا ثالث الأحزاب القرشية : الأمويين والشيعة والزبيريين .

ترجع نشأته الأولى إلى ما بعد مقتل عثمان ؛ إذ كان الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله[١] قد بايعا على بن أبى طالب ، ثم خرجا من المدينة بدعوى العمرة ، ونقضا بيعتهما ، وكانت السيدة عائشة بمكة ، فانضمت إليهما ، وثاروا على على بدعوى المطالبة بدم عثمان .

وكان عبدالله بن الزبير من أشد الدعاة إلى حرب علىّ ، إن لم يكن أشدهم ، فهو الذى ثنى خالته عائشة عن العودة إلى المدينة ، وهو الذى شجع أباه على القتال يوم الجمل[٢] .

وأغلب الظن أن عبد الله كان يطمع فى الخلافة ، أو على الأقل يطمع فى الاستقلال بولاية . وقد كشفت السيدة عائشة عن هـذا حينما لحق مروان ابن الحكم بطلحة والزبير وأعوانهما فى طريقهم إلى البصرة ، وقال لهما ـ على أيكما أسلمُ بالإمرة ، وأؤذن بالصلاة ؟ فبعثت إليه عائشة رسولا يقول له : مالك تريد أن تفرق أمرنا ؟ فليصلِّ بالناس ابن أختى . فكان يصلى بهم حتى قدموا البصرة[٣] .

(١) من تيم رهط أبى بكر شهد بدرا والمشاهد كلها مع النبى ودافع عن النبى يوم أحد ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين عينهم عمر للشورى .

(٢) ابن الأثير ٣/٢٠٦ . (٣) الطبرى ٥/١٦٩ وابن الأثير ٤/٨٨

— ٢ —

وقد اعتمد الحزب الزبيرى فى الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على عدة أسناد :

١ — الخلافة حق لقريش وحدها ، كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة ، ولكن لا بد من قصرها على الأكفاء ، وعبد الله أكفأ القرشيين المعاصرين له بعد أن مات معاوية ، بل إنه كان يرى نفسه أكفأ من معاوية ، لكنه لم يجد فى عهده بُدًّا من الصمت . وكان قد طمع فى الخلافة أيام على ، وكان من المحرضين على حربه ؛ والمشجعين على الاستبسال فى موقعة الجمل ، وهو الذى زين لخالته السيدة عائشة أن تخرج مع أبيه ومع طلحة لمحاربة على ، وقد سبق أنها رشحته للخلافة ، وآثرته على أبيه وعلى طلحة .

٢ — أمَّره عثمان بن عفان على داره حينما حاصرها الثوار(١) ، وهذا يشعر باستخلافه ، كما أناب رسول الله أبا بكر ليصلى بالناس فى مرضه الأخير ، فاستدل بعض المسلمين من هذا على الإيحاء باستخلافه ، وقالوا إنه أنابه عنه فى دينهم ، أفلا ينيبونه عنه فى دنياهم ؟

٣ — عبد الله يمت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بعدة صلات ، فأبوه ابن عمة النبي صفية بنت عبد المطلب ، وابن أخى خديجة أم المؤمنين ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، والمشهورين بالبأس والإقدام ، شهد مع النبي بدراً وسائر الغزوات ، وكان النبي يدعوه حَوارِيَّهُ فدعاه المسلمون حوارىَّ رسول الله . وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبي بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفته من بينهم .

وإذاً فعبد الله يتصل بالنبي من ناحية عمته صفية ، ومن ناحية خديجة ، وهو إلى ذلك ابن أسماء بنت أبى بكر ، ذات النطاقين ، وأخت عائشة ، وكثيراً ما كانت تدعوه بابنها .

---

(١) كان فى المدافعين عن عثمان أيام الحصار عبد الله بن عمر والحسن والحسين ومحمد بن طلحة .

٤ — اشتهر عبد الله بالتقوى والصلاح والعلم ، على حين أن يزيد بن معاوية اشتهر بالخلاعة والمجون .

٥ — جمهور المسلمين ساخط على بنى أمية ، لأنهم قتلوا الحسين بن على وآل بيته ، ولأنهم استباحوا المدينة ومكة ، ولأنهم يحكمون المسلمين حكما استبداديا عنيفاً ، ثم لأن معاوية حصر الخلافة فى بنى أمية ، إذ جعلها وراثية بعد أن كانت شورية ، فبدل نظام الحكم من شورىّ حر إلى ملكى موروث .

— ٣ —

كتم عبد الله أمره بعد قتل أبيه وطلحة يوم الجمل ، ولم يجد خيراً له من مصانعة معاوية ، ومشاركته فى حركته فى حرب أعدائه وفى الفتوح ، وكان معاوية يحاسنه ويغدق عليه .

فلما شرع معاوية يأخذ البيعة لابنه يزيد ، بدت معارضة عبد الله ، إذ رفض أن يبايعه ، كما رفض بعض أشراف الحجاز ، ثم اضطره معاوية إلى البيعة .

ولم يلبث عبد الله أن نقض بيعة يزيد ، ونقضها أنصاره ، بعد موت معاوية[1] ، ثم أعلنها ثورة فعلية بعد مقتل الحسين ، فهب يدعو إلى نفسه منذ سنة ٦١ هـ ٦٨٠ م ذلك بأنه لما علم بوفاة معاوية تنصل من البيعة ليزيد ، وهرب من المدينة إلى مكة ، ولما وصل إلى مكة قال إنما أنا عائذ . ولم يكن يصلى مع الناس ، ولا يفيض معهم ، وإنما يقف هو وأصحابه ناحية ، ثم يفيض بهم وحده ، ويصلى بهم وحده . وعلم يزيد بهذا ، فولى عمرو بن سعيد بن العاص على المدينة ، فنصب عمرو بن سعيد على شرطة المدينة عمرو بن الزبير أخا عبد الله ، وكان مبغضاً لأخيه ، ووجهه إلى مكة لقتال عبد الله ، فانهزم عمرو ، وسجنه عبد الله بسجن عارم بمكة .

---

(١) الأغانى ١/٢٣ .

ولم يظهر عبد الله الدعوة إلى نفسه جهرة إلا بعد مقتل الحسين ، وكان يبايع الناس سِرًّا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت ، ويحث أعوانه على التريث. ثم كاتبه أهل المدينة، وقالوا : أما إذ مات الحسين فليس أحد ينازعك[1] . ، ونقضوا بيعة يزيد ، وأشاعوا عنه أنه لا دين له ، وأنه سِكِّير وصاحب قيان وكلاب صيد وفُسّاق .

ثار أهل المدينة على واليهم — عثمان بن محمد بن أبى سفيان — فطردوه من المدينة ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بنى أمية سنة ٦٣ هـ وكانوا نحو ألف رجل ، فخرجوا بنسائهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصرهم الناس حصاراً ضعيفاً ، فأرسل الأمويون كتابا إلى يزيد ، فلما قرأه تمثل بقول الشاعر :

لقد بدّلوا الحلم الذى من سَجيَّتى فبدّلت قومى غلظة بِليَانِ

وقال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ؟ أما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ؟ .

وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرّى ، وقال له : إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش حُصَين بن نُمَير السَّكونى . وقال : ادع القوم ثلاثا ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإذا انتصرت عليهم فأبح المدينة ثلاثا ، فما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس .

وكان قتال شديد بالحرّة قرب المدينة آخر ذى الحجة سنة ٦٣ هـ قتل فيه كثير من بنى هاشم وسائر قريش ، وكثير من الأنصار ، وكثير جداً من الموالى[2] ، وانتصر مسلم بن عقبه ، ونهب المدينة ، واستباح جنده نساءها ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد على أنهم عبيده ، ومن أبى ضرب عنقه[3] .

---

(١) الطبرى ٦/١٨٨ — ١٩٤ ، ٢٧٤ .
(٢) من قريش ١٣٠٠ ومن الأنصار ١٤٠٠ أو ١٧٠٠ ومن الموالى ٣٥٠٠ (معجم البلدان مادة حرة) .
(٣) الطبرى ٧/٥ — ١٢ ومروج الذهب ٣/٧٨ ومعجم البلدان مادة حرة . ويذكر ياقوت أن ٨٠٠ امرأة حملن وولدن وكان يقال لأبنائهن أولاد الحرة .

بعد وقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة — وقد سموه المُسْرف بعد إيقاعه بأهل المدينة — إلى مكة ، ليوقع بابن الزبير وأهل مكة ، وكان ذلك فى أول سنة ٦٤ هـ فلما انتهى إلى الموضع المعروف بقُدَيْد مات ، واستخلف على الجيش الحُصَيْن بن نُمَيْر السَّكونى ، فسار حتى بلغ مكة ، وطوقها ، وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام ، وكان قد سمى نفسه العائذ ، وشهر بهذا .

ونصب الحصين المجانيق والعرادات على مكة والمسجد الحرام من الجبال والفجاج ، وتوالت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ، ورميت النار والنفط مع الأحجار ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البِنْيَةُ [١] . واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، وفى ذلك يقول أبو حُرَّة المدينى :

ابن نُمَيْر بئس ما تولّى قدْ احرق المقام والمصلى

ودامت الحرب بقية المحرم وصفر كله وثلاثة أيام من ربيع الأول ، وكان جند الشام يرتجزون ويقولون [٢] :

خطَّارة مِثْلُ الفَنيق المُزْبِدِ تَرْمِى بها أعوادَ هذا المسجد [٣]

وكان ذلك قبيل موت يزيد بنحو أحد عشر يوما [٤] ، فلما مات يزيد ارتد جيشه إلى الشام .

وكان عبيد الله بن زياد قد اشتد فى التنكيل بالخوارج ، وتتبعهم قتلا وتشريدا ، فأشار عليهم نافع بن الأزرق أن يرحلوا إلى مكة ، ليجاهدوا جيش بنى أمية مناصرين لعبد الله بن الزبير إن كان على رأيهم ، فإن لم يكن على رأيهم دافعوا عن البيت ما استطاعوا ، فقدموا على ابن الزبير ، فسُرَّ بمقدمهم . وقدم عليه جماعة

---

(١) الطبرى ١٠٢/٧ وأخبار مكة للأزرقى ٣٧ والمنتقى للفاكهى ١٨ .

(٢) الطبرى ١٤/٧ .

(٣) خطارة : مهتزة أو موجهة مرة بعد مرة أو موجهة يمينا وشمالا . الفنيق : الفحل المكرم لا يركب ولا يؤذى لكرامته على أهله . المزبد : القوى الذى يخرج الزبد على شدقه .

(٤) مروج الذهب ٩٥/٢ — ٩٧ .

منهم فيهم نجدة بن عامر الحنفي — وكان لم ينفصل عن نافع بعد — فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم أرادوا أن يتبينوا دخيلة ابن الزبير ، فجهروا بسبب عثمان والبراءة منه ، فرد عليهم ابن الزبير بأنه وليٌّ عثمان وولىّ أوليائه ، وعدو لأعدائه ، فغضبوا وتفرقوا إلى البصرة واليمامة(١) .

ولما مات يزيد خلفه ابنه معاوية ، وبايعه أهل الشام ، لكنه لم يعمر غير أربعين يوماً أو ستين ، أو ثلاثة أشهر (٢) .

فلما مات معاوية الثانى تطلع إلى الخلافة الوليد بن عقبة بن أبى سفيان ، لكنه طعن وهو يصلى على معاوية ، فأراد بنو أمية أن يبايعوا عثمان بن عتبة بن أبى سفيان ، فاشترط عليهم ألا يحارب ولا يباشر قتالا ، فأبوا ذلك عليه ، فسار إلى مكة ، وانضم إلى ابن الزبير .

وحينئذ غرب نجم آل حرب ، وتجافى الحكم عنهم ، إذ لم يكن فيهم من يروم الخلافة ، أو يتشوف إليها ، أو يرتجيه أحد لها(٣) .

— ٤ —

كادت الخلافة تئول إلى ابن الزبير ، إذ استجابت له الحجاز والعراق واليمن ومصر والشام ماعدا الأُرْدُنّ ، وآزرته قيس وسائر مضر ونزار . ونصب ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهرى زعيم القيسية والياً على دمشق ، فتزعم الجيش الداعى إلى ابن الزبير فى الشام .

وبايع ابنَ الزبير النعمانُ بن بشير بحمص ، وزفر بن عبدالله الكلابى بقِنّسرين . ودلت البوادر على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، حتى إن مروان ابن الحكم زعيم بنى أمية همّ بأن يبايعه ، لولا أن منعه عبيد الله بن زياد (٤) .

نهض مروان بالحفاظ على تراث معاوية ، وصبر ، واستمال إليه الأعوان من القبائل اليمنية ومن قبيلة كلب ، وكان زعيمها حسان بن بَحْدل الكلبي صهر

(١) الطبرى ٧/١٣ ، ٥٥   (٢) الطبرى ٧ / ١٧ .
(٣) مروج الذهب ٢ / ٩٨   (٤) الطبرى ٧/٣٤ والعقد الفريد ٣/١٤٥ ،

معاوية وعامله ، ثم عامل ابنه يزيد . ولقي جيش مروان جيش ابن الزبير في مرج راهط (٦٤ — ٦٥ هـ ٦٨٤ م) فقتل الضحاك ، وانهزم جيش ابن الزبير[١] ، فخلصت الشام لمروان ، ثم خلصت له مصر .

فلما خلف عبدالملك أباه حارب مصعب بن الزبير بالعراق وقتله ، ودخل الكوفة ، وولىّ عليها .

ثم بعث الحجاج إلى عبدالله بن الزبير [٢] ، فحاصر مكة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات ، فاحترقت [٣] (٧٣ هـ ٦٩١ م) فاضطر المكيون إلى طلب الأمان ، وتخلى عن ابن الزبير كثير من أقاربه وأنصاره ، ولم يبق معه إلا قلة من الأوفياء ، لكنه ثبت في بطولة ، واستبسل حتى قتل سنة ٧٣هـ ، وصلبه الحجاج بمكة .

— ٥ —

وعندئذ تخلص الأمويون من صراعه ، وخلا ميدان الهاشميين من منافسهم ، واستراح الخوارج من أحد الأحزاب المناوئة لهم ، إذ أنهم لايرون حصر الخلافة في قريش .

وأغلب الظن أن ابن الزبير لم يظفر بالأمويين لأسباب ، أهمها حرصه على المال وبخله بالعطاء على طلاب العطاء ، وانصرافه عن تأليف القلوب بالهبات[٤] ، على حين أن بني أمية كانوا أسخياء ، وكانوا يصطنعون الناس بالأموال ويشترون التأييد من القبائل والأفراد [٥] ، كما سأوضح هذا فيما بعد .

ثم إن العلويين لم يناصروه ، فقد امتنع محمد بن الحنفية عن مبايعته ، لأنه كان مواليا ليزيد بن معاوية ، أو كان يقف من الثائرين عليه موقفاً سلبياً ، فخصوم يزيد

---

(١) الطبري ٧/٣٦ . (٢) مروج الذهب ٢/١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٤٧ والطبري ٧/٢٠٢ وابن الأثير ٤/١٤٨ والأخبار الطوال للدينوري ٣٠٤

(٣) كان ابن الزبير قد عاذ بالكعبة وسمى نفسه العائذ . وخصومه يسمونه المحل لأنه أحل القتال في البيت الحرام (٤) مروج الذهب ٢/٩٩ .

(٥) مروج الذهب ٢/١٠٦

يتهمونه بالخمر وترك الصلاة ، وابن الحنفية يشهد أنه عاشره فلم يعرف فيه مايتهمونه به ، ويقول إنه رآه مواظبا على الصلاة ، متحريا للخير، كثير السؤال عن الفقه والسنة.

وكان ابن الحنفية في الوقت نفسه غير مقبل على عبدالله بن الزبير ، فعرض عليه أهل المدينة أن يولوه عليهم ، فلم يقبل ، ثم غادر المدينة ، فرأى ابن الزبير أن ينتقم منه في ابنه الحسن ، فحبسه في سجن غارم ، وعزم على قتله ، ففر من السجن حتى وصل إلى أبيه في منى[1] .

كذلك أضعفته فرقة الكَيْسانيّة بزعامة المختار بن أبي عُبَيْد ، وأقلقت أخاه مصعبا بالكوفة ، وترك عبدالملك بن مروان خصميه يتقاتلان ، ليضعفا معا، أو يقضي أحدهما على الآخر ، ثم يفرغ عبدالملك للقوى فيقضي عليه .

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٣ .

الفصل الخامس

المرجئة

- ١ -

نشأ هذا الحزب بعد منتصف القرن الأول للهجرة ، فهو أحدث نشأة من الشيعة والخوارج .

وهو حزب مغاير في رأيه لهؤلاء وهؤلاء ، معتمد على رأى محايد في الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان .

ويظهر أن رجاله الأولين كانوا من الغزاة الذين عادوا إلى المدينة إثر مقتل عثمان، فوجدوهم يتقاتلون ، فهالهم ما وجدوا ، فآثروا العزلة ، ولاذوا بالحيدة . يدل على هذا قول ابن عساكر : « إنهم قدموا المدينة ، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف ، فقالوا : تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كان علىّ أولى بالحق وأصحابه ، كلكم ثقة عندنا مُصَدّق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما إلى الله ، حتى يكون هو الذى يحكم بينهما »(١) .

ويذكر الطبرى أن أهل البصرة كانوا فرقا : فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع علىّ ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين . وجاءت عائشة رضى الله عنها، حتى نزلت فى مسجد الحُدَّان فى الأَزْد ، وكان القتال فى ساحتهم ، ورأس الأزد

(*) المرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة ، والمراد هنا الخالصة (الملل والنحل ١ /١٢٥) .

(١) تاريخ الشام لابن عساكر ١ .

صَبْرَةُ بن شَيْمان ، فقال له كعب بن سور : إن الجموع إذا تراءوا لم تستطع ، وإنما هي بحور تدفق ، فأطعني ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإني أخاف ألا يكون صلح ، فلم يطعه صبرة (١) .

ويذكر أبو الفرج أن خُرَيْمًا والد الشاعر أيمن كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصِفِّين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها (٢) .

ويقول النووي إن القضايا كانت مشتبهة ، حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ، ولم يقاتلوا ، ولم يتيقنوا الصواب (٣) .

وسأذكر أمثلة أخرى لهذا الاعتزال في دراسة المعتزلة .

وهذا يدل على أن المرجئة حزب سياسي محايد ، لا هو مع عليّ ولا مع بني أمية المطالبين بدم عثمان ، ولا يصوب أو يخطىء فريقا من الفريقين .

لهذا كان المرجئة يسالمون الخوارج والشيعة وبني أمية ، لأنهم ليسوا مع الخوارج في تكفير عليّ وعثمان ومعاوية وغيرهم من أهل صفين ، وليسوا مع الشيعة في تكفير أبي بكر وعمر وعثمان وبني أمية ، لأنهم انتزعوا الخلافة من عليّ ، وليسوا مع بني أمية في قتالهم للخوارج والشيعة وتكفيرهم .

— ٢ —

أما تسميتهم بالمرجئة فراجعة إلى سبب من ثلاثة :

١ — أنهم لزموا الحيدة ، ولم يقضوا على شيعي أو خارجي أو أموي بالخطأ ، وأرجأوا أمر هؤلاء إلى الله ، يقضي فيهم بما يعلم .

فالإرجاء هنا هو التأخير ، كما في قوله تعالى : «قالوا أَرْجِهْ وأخاه» أي أَمْهِلْهُ .

٢ — أو لأنهم لم يقضوا على مرتكب الكبيرة بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، وإنما أخروا الحكم عليه إلى يوم القيامة ، فهم بهذا يعطونه الرجاء

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٢٠١ . (٢) الأغاني ٢١/٥ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/١١ .

فى المغفرة ، لأنهم ذهبوا إلى أنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فهم يرجون لكل مسلم مغفرة من الله [١].

٣ — أو لأنهم يقولون إن الإيمان تصديق فحسب ، أو تصديق بالقلب وباللسان ، ولا حاجة إلى الأعمال ، فكأنهم قدموا القول وأرجأوا العمل أى أخروه ، فإن المؤمنين إن لم يصلوا ولم يصوموا نجاهم إيمانهم ، أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى [٢] .

٤ — أو هم سموا بذلك لأنهم أرجأوا أى أخروا عليا عن الدرجة الأولى إلى الرابعة ، فهم على نقيض الشيعة [٣] .

وقد رجح نيكلسون الرأى الثانى ، وهو إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة [٤] .

لكن الذى أستنبطه من نشأتهم ومن قصيدة شاعرهم ثابت بن قُطنة التى سأذكرها أن الرأى الأول والثانى متداخلان ، لأنهما راجعان إلى ارجاء الحكم على المتنازعين من أصحاب علىّ وأصحاب طلحة والزبير ومعاوية ، أو إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة ، بل هما تفصيل لرأى واحد ، وإذا فلا موجب لترجيح أحدهما على الآخر .

والذى أطمئن إليه أن اسمهم مشتق من الإرجاء بالمعنى الذى وضحته فى الرأى الأول والثانى والثالث ، أما الرأى الرابع فلا أراه مصدرا لهذه التسمية .

— ٣ —

كانت نظرة المرجئة إلى الإمامة والإمام ، أو إلى الخلافة والخليفة وسطا بين الخوارج والشيعة .

---

(١) الملل والنحل ١/١٢٥ ونقد العلم والعلماء ١٠٢ .
(٢) لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس مادة رجأ .
(٣) الملل والنحل ١/١٢٥ .
(٤) Literay History of the Arabs. P. 220

فقد نظر الخوارج إلى الخلافة على أنها منصب سياسى دنيوى لا منصب دينى ، حتى إن إحدى فرقهم — النجدية — رأت أنه لا حاجة إلى حاكم إذا ضبط الناس أمورهم ، وتناصفوا وعاشوا فى سلام ، فإذا احتاجوا إلى حاكم وجب أن ينتخب من ذوى الكفاءة ، بغير نظر إلى جنسه أو نسبه .

والخوارج كلهم يربطون بين الإيمان والعمل الصالح ، ويرون أنهما وحدة لا تنفصم ، ومرتكب الكبيرة فى رأيهم كافر مخلد فى النار . وبنوا على هذا أن بنى أمية مرتكبون للكبائر ، كفار ، يجب قتالهم وخلعهم .

أما الشيعة فذهبوا إلى أن الإمامة منصب دينى متوارث ، يعين فيه الإمام من يخلفه ، وقالوا إن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى ، وعلىٌّ أوصى لابنه وهكذا ، والإمام فى رأيهم معصوم من الخطأ ، وهو وحده مصدر التشريع ، ولا تجوز مخالفته ، ولا يجوز عزله ، وطاعته ركن من أركان الدين .

جاء المرجئة فخالفوا الخوارج والشيعة ، إذ فصلوا العقيدة الدينية عن الرأى السياسى ، فلم يدينوا بالثورة على الساسة والحكام الذين يخالفونهم فى مذهبهم ، لأن كل من أعلن إسلامه مسلم ، ولا يخرجه من إيمانه أنه عاص أو مرتكب للكبائر ، وهم ينفرون من المعاصى ، لكنهم لا يقضون على العصاة بدخول الجنة أو النار ، بل يرجئون الحكم فى ذلك إلى الله ، يفعل بهم مايشاء يوم القيامة .

— ٤ —

هذه الصبغة العامة لنشأة المرجئة توحى بأنهم حزب سياسى ، يسالم الجميع ، ويقف منهم موقف الحيدة ، فهم لم ينحازوا إلى فريق من المسلمين المتنازعين دون فريق ، لم يؤيدوا بنى أمية ، ولم يقضوا بتكفيرهم أو يثوروا عليهم كما فعل الخوارج والشيعة ، لأن بنى أمية فى نظرهم مسلمون ، يحاسبهم الله على أعمالهم يوم القيامة ، ومعنى هذا أن حكومتهم شرعية ، وأنهم أولو أمر ، طاعتهم واجبة .

كذلك سالموا الشيعة والخوارج والمعتزلة والزبيريين ، ولم يكفروا أحدا منهم ،

لأنهم وبنى أمية إما على حق ، وإما أن كلا منهم اجتهد أو تأول فأخطأ ، وخطأ المجتهد لا ينقص إيمانه .

على أن كثيرا من كبرائهم قد نهضوا سياسيا ودينيا لمحاربة بنى أمية ، وتقويض ملكهم ، فسعيد بن جُبَيْر ثار على عبد الملك وعلى الحجاج وقتل شهيدا . وغَيْلان ابن مروان صُلب وَمُثِّل به فى عهد هشام[١] . والحارث بن سُرَيْج خرج على هشام وواليه بخراسان . وكثير من الذين ناصروا يزيد بن المهلب فى ثورته على يزيد ابن عبدالملك كانوا من المرجئة .

وأبوحنيفة كان مؤيدا لزيد بن على فى ثورته ، وامتحن امتحانا قاسيا فى عهد الأمويين[٢] ، وهو فى رأى أبى الحسن الأشعرى من المرجئة[٣] .

لهذا حمل نصر بن سيَّار على المرجئة ، واتهمهم بالكفر والشرك ، فى قوله[٤] :

فامنح جهادك من لم يَرْجُ آخرةً ... وكن عدوا لقوم لا يُصَلُّونا
واقتل مُواليهم منا وناصرهم ... حينا تكفِّرهم والعنهمُ حينا
والعائبين علينا ديننا وهمُ ... شر العباد إذا خابرتَهم دينا
والقائلين سبيلُ الله بُغيتُنا ... لَبُعْدَ ما نكَبُوا عما يقولونا
فاقتلهمُ غضبًا لله منتصرا ... منهم به ودع المرتاب مفتونا

---

(١) سرح الميمون ١٦٧ .

(٢) كان غسان الكوفى زعيم إحدى فرق المرجئة يحكى عن أبى حنيفة مثل مذهبه ، ويعده من المرجئة ، ولعله كذب عليه ، أو لأن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يسمون مرجئة السنة . على أن كثيراً من أصحاب المقالات عدوا أبا حنيفة من جملة المرجئة ، ولعل السبب فى هذا أنه كان يقول إن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص ، فظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان ، وهم واهمون فى هذا ، لأنه لم يكن يفتى بترك العمل ، أو لعل السبب أنه كان يخالف المعتزلة ، وكان المعتزلة يلقبون من خالفهم فى القدر مرجئا ، وكذلك الوعيدية من الخوارج ، فلا يبعد أن اللقب لزمه من أحد الفريقين (الملل والنحل ١/١٢٧) .

(٣) مقالات الإسلاميين ١٣٨ للأشعرى .

(٤) الطبرى ٨/٢٢٣ .

إرجاؤكم لزَّكم والشِّركَ فى قَرَنٍ   فأنتمُ أهل إشراك ومُرْجونا
لا يُبْعد الله فى الأجداث غيرَكمُ   إذ كان دينكمُ بالشرك مقرونا
ألقى به الله رعبا فى نحوركمُ   والله يقضى لنا الُحسْنَى ويُعْلينا

— ٥ —

تطور الحزب بعد قليل من نشأته ، فجعل يبحث فى مسائل دينية توافق مذهبه السياسى ، وقد نشأ هذا كله من انفرادهم بتعريف الإيمان ، وبما يترتب على هذا التعريف من آثار .

فالإيمان فى رأى كثير منهم هو التصديق بالقلب وحده ، أى معرفة المؤمن لله بقلبه ، ولا عبرة لنطقه بالشهادتين بلسانه ، ولا عبرة لقيامه بالعبادات البدنية والمالية من صلاة وصوم وزكاة وحج ، لأن الإقرار باللسان والقيام بالعبادات ليسا أصلين من أصول الإيمان ، وإنما الأصل هو التصديق بالقلب . وإذاً فلا يضير المؤمن أن يظهر الشرك أو اليهودية أو النصرانية بلسانه ، ولا يضيره أن يعبد الوثن أو الصليب وهو فى دار الإسلام[1] . وفى رأى بعضهم أن الإيمان ركنان : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، ولا بد من اجتماعهما معاً ، فالذى يصدق بقلبه ويكذب بلسانه أو يعلن الإيمان بلسانه ، ويكذب بقلبه ، ليس مؤمنا .

ومعنى هذا أن المرجئة الذين حصروا الإيمان فى التصديق بالقلب ، والذين حصروه فى التصديق القلبى وفى الإقرار اللسانى ، لا يعتبرون العمل ركنا من الإيمان .

وهم بهذا ينفردون عن الفرق الأخرى ، لأنها ترى الإيمان قائما على الأركان الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، وأداء العبادات . فالخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويقضون بتخليده فى النار . والمعتزلة يضعونه فى منزلة

(١) الملل والنحل ١/١٢٥ والفصل ٤/٢٠٤ وهذا رأى جهم بن صفوان أحد زعمائهم .

بين الكفر والإيمان ، ويذهبون إلى تخليده فى النار . أما المرجئة فيقولون إنه مؤمن لكنه فاسق ، وبعضهم يقول إنه ليس فاسقاً بإطلاق ، بل هو فاسق فى الكبيرة التى ارتكبها .

وترتب على تعريف المرجئة للإرجاء قولهم إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن الإيمان سواء أكان تصديقاً قلبيا أم قلبيا ولسانيا ليس موضعا لزيادة أو نقصان . وخصومهم يخالفونهم فى هذا ، لأن الأعمال فى رأيهم جزء من الإيمان ، وهى تزيد وتنقص .

وترتب على هذا أيضا أن المؤمن الذى يرتكب كبيرة لا يقضى المرجئة بتخليده فى النار ، على حين أن الخوارج والمعتزلة يقضون بتخليده . وإذا كان هؤلاء قد استدلوا بقوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » . وبقوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » فإن المرجئة تأولوا الآية الأولى بأن الذى يعصى الله ورسوله ويكون مؤمناً فإنه تعدى بعض حدود الله ، أما الذى يتعدى حدوده كلها فهو الكافر ، وهو المعنى فى الآية ، وتأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمنا بسبب إيمانه ولا يقتل مؤمنا لإيمانه إلا كافر ، وإذاً فالكفار هم المخلدون فى النار ، أما المؤمنون العصاة فإما أن ينالوا عفو الله ، وإما أن يعذبهم على قدر ذنوبهم ، ثم يدخلهم الجنة ، وأهل السنة يوافقونهم على هذا .

وذهب المرجئة إلى أن الله لا يخلف وعده ، لكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله ، لا بد أن يفى به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً . أما العقاب فعدل ، ولله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس فى هذا الخلف نقص ، وهم بهذا يخالفون المعتزلة .

— ٦ —

تأثر المرجئة فيما بعد ببعض الآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية .

وجعل تأثيرهم فى التفكير الإسلامى يعظم ، ويظهر فى ألوان شتى .

ولعل من أبرز هذه الألوان أنهم أصول المعتزلة ، وآراؤهم من أسس الاعتزال .

وسنجد فى دراسة المعتزلة أنهم توقفوا عن الحكم على المتحاربين فى موقعة الجمل وصفين ، كما توقف المرجئة ، وأن مَعْبد الجُهَنِىَّ وغيلان الدمشقى وَالجَعْد ابن درهم قد سبقوا إلى القول بالقدر والاختيار ، ثم حاكى معبداً واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وهما مؤسسا الاعتزال . ثم طالعت المعتزلة مثل أبى الهُذَيل العلاف والنظام ومعمر والجاحظ كتب الفلاسفة فى زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ، وتشعبت مباحثهم وتعددت آراؤهم وحينئذ سميت مباحثهم بعلم الكلام(١) .

ولقد كان للمرجئة وللمعتزلة آثار بعيدة المدى فى التفكير ، واتساع آفاقه ، وتشعب مجاليه .

— ٧ —

وقد دان بعض الأدباء بمذهب المرجئة ، وتبين هذا فى إنتاجهم ، بالقدر الذى تسمح به طبيعة الأدب .

من هؤلاء أبو عاصم الليثى ، كان خارجيا ، ثم صار مرجئا ، وهو الذى يقول(٢) .

فارقت نَجْدَةَ والذين تَزَرَّقُوا وابن الزُّبَيْر وشِيعةَ الكذاب
والصُّفْرَ الاذان الذين تَخَيَّرُوا دينا بلا ثقة ولا بكتاب(٣)

(١) نقد العلم والعلماء ١٠٢ والفرق بين الفرق ١٠٩ .

(٢) تهذيب الكامل ١/١٢٢ . (٣) نجدة : زعيم فرقة النجدات إحدى فرق الخوارج: تزرقوا : إدانوا بمذهب الأزارقة وهم من الخوارج زعيمهم نافع بن الأزرق . ابن الزبير : عبدالله بن الزبير زعيم الحزب الزبيرى . الكذاب : المختار بن أبى عبدالله الثقفى زعيم الكيسانية إحدى فرق الشيعة . الصفر الآذان : بتخفيف الهمزة هم الصفرية أتباع زياد بن الأصفر إحدى فرق الخوارج .

ومنهم ثابت بن قُطْنة ، وهو الذى كشف عن مذهبهم فى قصيدة ، منها قوله(١) :

نُرجِى الأمور إذا كانت مشبَّهةً ونَصْدُقُ القول فيمن جارَ أو عَنَدَا
المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استووا فى دينهم قِدَدَا
ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحدا مِ الناسِ شِرْكاً إذا ما وحَّدوا الصمَدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جَدَدَا
من يتق الله فى الدنيا فإن له أجر التُّقَى إذا وفَّى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ردٌّ وما يَقْضِ من شىء يكن رَشَدا
كل الخوارج مُخْطٍ فى مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مُذْعَبدا
وكان بينهما شَغْبٌ وقد شهدا شَقَّ العصا ، و بعين الله ما شهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ولست أدرى بحق أيةً وردا
الله يعلم ماذا يَحْضُران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

والأبيات صريحة فى أنه إذا التبست الأمور واشتبهت وكفرت كل طائفة خصمها فإننا نرجىء أمرهم جميعاً إلى الله يقضى بينهم يوم القيامة بما يعلمه . أما إذا كانت الأمور واضحة فى أعمال لا شبهة فيها فإننا نجهر برأينا صريحا ، ونحكم بالصواب أو بالخطأ ، ونحن لا نقضى على مسلم بالكفر مهما يكن ذنبه عظيما ، لأن الذنب لا يذهب بالإيمان ، ولا نقاتل أحدا من المسلمين ، إلا دفاعا عن أنفسنا . ولسنا مع الخوارج فى تكفير على وعثمان ، لأنهما مسلمان لم يشركا بالله منذ أسلما ، ولأن النزاع الذى كان بينهما لم ينتقص من إيمانهما ، والله أعلم بحقيقة أمرهما ، وسيجزى كلا منهما على عمله جزاء وفاقا .

(١) الأغانى ١٣/ ٥٠ .

الفصل السادس

المعتزلة

— ١ —

طائفة دينية كالمرجئة ، غلب صبغها الديني على طابعها السياسي ، نشأت في العراق، ثم ذاعت تعاليمها هناك وفي دمشق .

وهي في نشأتها وفي تطورها امتداد لفرقة المرجئة ، وثمرة من ثمرات الاتصال بالثقافة الأجنبية .

ولقد يتبين تأثرهم بالمرجئة من مشابهتهم لهم في التوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، ومن قولهم إن مرتكب الكبيرة ليس كافرا . ثم إن بعض المرجئة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم قد سبقوا المعتزلة إلى القول بالقدر ، ودان بهذا الرأي واصل بن عطاء وعمرو ابن عُبَيْد، وهما مؤسسا فرقة المعتزلة .

أما تأثرهم بالمذاهب الأجنبية فيتبين من ضروب الخلاف والجدل الذي كان محتدا بين طوائف النصارى في الأقاليم التي فتحها المسلمون : الشام والعراق ومصر وشمالي إفريقية والأندلس ، كان النصارى يتجادلون في طبيعة المسيح ، ويتجادلون في رجعته قبل القيامة أيرجع أم لا ؟ ويختلفون في البعث أيكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ ويتحاجون في صفات الله أهي زائدة على ذاته أم هي ذاته ؟ ويختلفون في أعمال الناس أجبرية هي أم اختيارية ؟

وفي خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المتجادلون ، وكان كثير من رجال الدين فلاسفة ، كالأب أوغسطينوس (٢٥٤–٣٤٠م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية المُفَلْسَفَة أو الفلسفة المُتَنَصِّرَة .

وكانت الفلسفة اليونانية ذات سلطان على التفكير الراقى فى الشرق قبل أن يستهل الإسلام، وبخاصة فلسفة أفلوطين [١] (٢٠٥ — ٢٧٠ م) . وهو الذى يطلق العرب على فلسفته (مذهب الإسكندارنيين) ويسميه الشهرستانى الشيخ اليونانى . وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا .

فلما جاء جوستنيان ناصر المسيحية ، وأغلق مدراس الفلسفة فى أثينا ، واضطهد الفلاسفة ، ففر بعضهم إلى فارس ، فاستقبلهم كسرى أنو شروان ، وأ كرمهم ، فصاروا يعلمون فلسفتهم الأفلاطونية الحديثة ، وبعضهم تنصر وصبغ نصرانيته بفلسفته

على أن السريان كانوا ينشرون الأفلاطونية الحديثة فى العراق وما حوله ، وينقلون من اليونانية إلى السريانية ، وكانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وَحرَّان . ومن هؤلاء ابن ديصان (بارديصان المتوفى سنة ٢٢٢ م) وكان ينكر بعث الأجسام، ويدعو إلى آراء تأثر ببعضها الرافضة . ومن هؤلاء السريان من ألف فى القضاء والقدر . ولقد عاشت مدارسهم إلى العهد الأموى، واشتهر منهم فى العصر الأموى يعقوب الرهاوى (٢٠ — ٩٠ هـ — ٦٤٠ — ٧٠٨ م) الذى أباح لرجال الدين النصارى أن يعلموا أولاد المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء ترددوا فى تعليمهم.

كان من أثر هذا كله أن تطورت العقلية العربية ، وأن ظهرت ألوان جديدة من الثقافة ، تحمل طابع العرب وطابع الإسلام وطابع الفلسفة .

فلا عجب فى أن يشتهر خالد بن يزيد بن معاوية بالتأليف فى الطب والكيمياء ، لأنه درس على مريانوس الراهب [٢] ، وقد بقى من مؤلفاته كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه ، وقد رآها كلها ابن النديم [٣] .

---

(١) ولد بأسيوط وتعلم بالإسكندرية ، وأخذ من مؤسس المذهب (أمنيوس) وذهب إلى فارس ليتعرف علوم الهند والفرس ، وسافر إلى رومة ، وعاش من ٢٠٥ — ٢٦٩م وقد بنى مذهبه على فلسفة أفلاطون وأرسطو والرواقيين ، وامتاز بروحانيته .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٦ .

(٣) الفهرست ٣٥٤ .

وليس من شك فى أن بعض المسلمين ممن حملوا لواء التفكير فى هذا العصر كانوا على صلة وثيقة أو شبه وثيقة بهذه الثقافات والمجادلات ، وليس من شك فى أن بعض هؤلاء جادلوا بعض النصارى واليهود ، يدل على هذا أن يحى الدمشقى النصرانى (توفى سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م) ألف رسالة فى الردود على المسلمين ، جارية على هذا المنهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيرا من آرائه[1] فى حواره الذى ألفه دفاعا عن المسيحية ، وفى مذهبه فى القدر وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، والتاريخ يحدثنا أن بعض منافشاته كانت تدور فى مجلس الخليفة.

وإذاً فقد تسربت تيارات عدة من النصرانية المفلسفه ومن الفلسفة المنصرة ، ومن اليهودية ، إلى المسلمين الباحثين والمدافعين عن مذاهبهم ، والمدافعين عن الإسلام وهذا هو التعليل الذى « يجب أن يفسر به التشابه البيّن الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شىء له المقام الأول فى كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب . فأقدم علماء المسلمين يشغلون أنفسهم : إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية » [2] .

ويفصل فون كريمر رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشابهات بين الكنيسة الشرقية الإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية .

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، لهذا يقول

---

(١) كان فصيحا حتى سمى بصاحب اللسان الذهبى . وكان يكتب باليونانية ويتكلم بالآرامية والعربية . وكان نديما ليزيد بن معاوية ، ثم خلف والده سرجون فى الإشراف على شئون المال الحكومية لدمشق ، وظل بوظيفته إلى عهد هشام بن عبد الملك ، ثم اعتزل العمل الحكومى وانصرف إلى الزهد فى دير القديس سابا على مقربة من بيت المقدس . (تاريخ العرب ٣/٣١٤ حتى) .

(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ .

دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين »[١] .

ولقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر نصرانى من العراق ، أسلم ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه مَعْبد الُجهَنِىّ وغَيْلان الدمشقى[٢] ، وهما من المرجئة . ويذكر الإمام مسلم رواية تنتهى إلى يحى بن يعمر تدل على أن أول من قال بالقدر فى البصرة معبد الجهنى[٣] .

ويروى أن الجعد بن درهم مولى بنى الحكم أول من تكلم فى خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب فهرب حتى نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان ، وأبان كان تلميذا لطالوت ، وطالوت كان تلميذا لَخَتَنِه لبيد بن الأعصم اليهودى ، وكان طالوت يقول بخلق التوراة ، وكان زنديقا[٤] ، وهو أول من صنف فى ذلك . ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد القسرى بالكوفة فى عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل فى عهده غيلان الدمشقى ، لأنه كان قدريا[٥] ، وقد كان الجعد هذا من المرجئة ، وهم كما أسلفنا أسس الاعتزال .

— ٢ —

تعددت الأقوال فى سبب تسميتهم بالمعتزلة .

١ — ولعل أكثر الأقوال شهرة أن هذه التسمية ألصقها بهم غيرهم ، وكان سبب ذلك أن واصل بن عطاء الغزال خالف أستاذه الحسن البصرى فى وصف

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام . دى بور . ترجمة أبى ريده ٤٩ .
(٢) هو غيلان القدرى . سرح العيون لابن نباتة ١٦٦ .
(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان .
(٤) ابن الأثير ٧/٢٦ .
(٥) ابن الأثير ٥/١٩٦ ، ١٩٧ وسرح العيون ١٦٨ .

مرتكب الكبيرة ، إذ كان الحسن يرى أنه منافق[١] ، أما واصل فذهب إلى أنه ليس مؤمنا مطلقا ، وليس كافرا مطلقا ، بل هو فى منزلة بين منزلتين[٢] ، وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد[٣] .

وهنا لك روايات أخرى تنسب الانفصال إلى عمرو بن عُبَيْد لا إلى واصل[٤]

على أن الروايات لم تتفق على الذى سماهم ، فهو تارة الحسن البصرى كما تقدم ، وتارة قتادة حينما مر بعمرو بن عُبَيْد بن باب فقال : ماهذه المعتزلة[٥] ؟ .

٢ — والذى يبدو من هذا الاختلاف أن استقلال واصل أوعمرو عن أستاذهما الحسن البصرى لم يكن هو السبب فى التسمية ، وإنما ترجع التسمية إلى سبب أقدم من هذا وأقوى .

فهم الذين سموا أنفسهم أو سماهم غيرهم بهذا الاسم ، إذ زعموا أنهم اعتزلوا فئتى الضلالة فى نظرهم ، يريدون أهل السنة أوالجماعة والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلا[٦] .

---

(١) هو فى رأى المرجئة مؤمن ، وفى رأى الأزارقة كافر .

(٢) دخل واحد على الحسن البصرى فقال : ياإمام الدين لقد ظهرت فى زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ، ولاتضر مع الإيمان معصية ، كما لاتنفع مع الكفر طاعة ، هم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنافى ذلك ؟ فتفكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لاأقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

(٣) الملل والنحل ١/٥٢ والمعارف لابن قتيبة والأعلاق النفيسة لابن رسته ووفيات الأعيان فى ترجمة قتادة وتاج العروس مادة عزل .

(٤) عيون الأخبار ٢٤٣ والأعلاق النفيسة ٢٢٠ والأنساب للسمعانى ٥٣٦ وشرح المقامات الشريشى ١/٣٨٥ .

(٥) لسان العرب وتاج العروس مادة عزل .

(٦) لسان العرب و تاج العروس مادة عزل .

ويظهر من تتبع بعض الأحداث التاريخية أن هذه النزعة إلى الحيدة كانت مبكرة ، كما سبق فى المرجئة . يدل على ذلك أن أبا الفدا ذكر فى مبايعة على سنة ٣٥ أسماء بعض الذين لم يبايعوه ، وهم فى الوقت نفسه لم يكونوا من أنصار عثمان ، وعقب على هذا بقوله إن هؤلاء سموا المعتزلة ، لاعتزالهم بيعة على (١) .

وذكر أبو الفرج أن والد الشاعر أَيْمَن بن خُرَيْم كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدها من الأحداث ، فلم يحضرها (٢) .

وكان سعد بن أبى وقاص من الذين اعتزلوا الصراع بين على وطلحة والزبير ، وقال لا أقاتل حتى تأتونى بسيف يستطيع أن يعقل وينطق ويبصر ، ليخبرنى أن هذا أصاب وأن ذاك أخطأ .

وذكر أبو الفرج(٣) أن أَيْمَن بن خُرَيْم اعتزل النزاع الذى نشب بين عمرو بن سعيد وعبد العزيز بن مروان ، وشاركه فى الاعتزال رجل من قومه يقال له ابن كوز ، فعاتب المتنازعان أيمن ، فقال أبياتا منها :

فإنى تارك لهما جميعا ومعتزلٌ كما اعتزل ابن كُوزِ

وأيمن هذا هو القائل فى الدعوة إلى الفرار من القتال ، والمسارعة إلى نيل المال إذا كان عطاء(٤) :

إن للفتنة مَيْطاً عاجلا فرُوَيْدَ المَيْطِ منها تَعْتَدِلْ(٥)
فإذا كان عطاء فانتهزْ وإذا كان قتالٌ فاعتزِلْ
إنما يُوقِدُها فُرْسانُها حطبُ النار فدَعْها تشتعِلْ

وذكر الطبرى كثيرا كلمة اعتزال ومعتزل دالة على الحياد فى الخصومة الناشبة بين على وخصومه منها :

---

(١) الأخبار ١/١٧١ .
(٢) الأغانى ٢١/٥ .
(٣) الأغانى ٢١/٦ .
(٤) العقد الفريد ١/١١٠ .
(٥) الميط : الجور والشدة والقوة .

(ا) قبل موقعة الجمل قال جارية بن قدامة السعدى لطلحة والزبير : أما أنت يا زبير فحوارىُّ رسول الله . وأما أنت يا طلحة فوقيتَ رسول الله بيدك ، وأرى أمكما معكما — يريد السيدة عائشة — فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا : لا . قال : فما أنا منكما فى شىء ، واعتزل[١] .

(ب) ثم أقبل الأحنف من عند على ، فسئل عن رأيه فى النزاع القائم ، فقال : الاعتزال ، واتبعته بنو سعد ، فاعتزل بهم إلى وادع السباع . ونادى الأحنف : يالزيد اعتزلوا هذا الأمر ، فنادى المنجاب بن راشد : يا للرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر[٢] :

(ج) وكان زياد بن أبى سفيان ممن اعتزل ، ولم يشهد معركة الجمل[٣] .

(د) افترق أهل مصر فرقا فى أول ولاية قيس بن سعد على مصر من قبل على بن أبى طالب ، « فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا مع سعد ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتا ، وفرقة قالوا نحن مع علىّ ما لم يقد إخواننا ، وهم فى ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك »[٤] .

(هـ) ولما اتجه طلحة والزبير وعائشة من مكة إلى البصرة، لإثارة الناس على علىّ خرج معهم المغيرة وسعيد بن العاص مرحلة من مكة ، فقال سعيد للمغيرة : ما الرأى ؟ قال : الرأى — والله — الاعتزال ، فإنهم ما يفلح أمرهم ، فاعتزلا ورجعا إلى مكة[٥] .

(و) كتب قيس بن سعد والى علىّ على مصر ، يقول له بعد موقعة الجمل : إن قبلى رجالا معتزلين ، قد سألونى أن كف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم ، فقد رأيت أن أكف عنهم ، وألا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك[٦] .

---

(١) الطبرى ٥/١٧٦ .
(٢) الطبرى ٥/٢٠١
(٣) الطبرى ٥/٢٢٤
(٤) تاريخ الطبرى ٥/١٦١ .
(٥) الطبرى ٥/١٦٧ .
(٦) الطبرى ٥/٢٣٠

(ز) وقوله فى حوادث سنة ٣٧ إن جماعة من المسلمين شَكُّوا فى أمر القتال الدائر بين علىّ ومعاوية ، فرأوا أن يستأنوا ويتثبتوا حتى تجتمع الأمة ، فاعتزلوا .

(ح) وقوله . كان على بن الحسين قد اعتزل المدينة لما خلع أهلها يزيد بن معاوية، وحاصروا من فيها من بنى أمية بدار مروان بن الحكم ، اعتزلها كراهية أن يشهد شيئا من أمرهم [١]

٣ — كان لهذه الكلمة إذاً معنى سياسى خاص هو الابتعاد عن الصراع الناشب بين علىّ وخصومه ، والاستمساك بالحيدة العملية والقولية فى هذا الصراع ، فلاهم يناصرون فريقا على فريق ، ولا هم يبدون رأيا فى الحكم على الفريقين المتحاربين ، وهذا المعنى السياسى أسبق من المعنى الدينى الذى نشأ بعد ذلك ، لما خالف واصل أو عمرو أهل السنة والخوارج فى وصف مرتكب الكبيرة .

لهذا أرجح أن التسمية التى أطلقت على واصل وعمرو وغيرهما أو التى أطلقوها على أنفسهم ، امتداد للتسمية السياسية السابقة ، لأن الشبه قوى بين المعتزلة الأولين والمعتزلة اللاحقين ؛ فالأولون محايدون فى النزاع القائم بين المسلمين المتقاتلين على الخلافة ، واللاحقون محايدون فى حكمهم على مرتكب الكبيرة ، إذ وقفوا موقفا وسطا بين رأى أهل السنة ورأى الخوارج ، فكأنهم خلفاء للذين سبقوهم بمائة عام

وهم فى حيدتهم يشبهون أستاذهم الأول الحسن البصرى ، فقد سأله رجل عن رأيه فى الفتن التى كانت بين المسلمين ، فقال له الحسن : لاتكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، قال الرجل : ولا مع أمير المؤمنين ؟ قال الحسن : ولا مع أمير المؤمنين .

— ٣ —

١ — وهم يسمون أنفسهم أهل العَدْل ، لأنهم يقولون بحرية الإنسان فى اختيار أعماله ، فيثيبه الله عليها أو يعاقبه عادلا ، فلا جبر ولا اضطرار [٢] .

---

(١) الطبرى ٧/٧ .

(٢) كان معبد الجهنى وغيلان الدمشقى من أول الذين قالوا بحرية الإرادة . وكان معبد كما ذكر الذهبى فى ميزان الاعتدال تابعيا صدوقا لكنه سن سنة سوئة فكان أول من تكلم فى القدر . قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الأشعث . فهو إذاً من الساسة الخارجين على الحجاج ، وإن كان بعض المؤرخين يذكر أنه قتله لزندقته . وقال ابن نباتة : قيل إن أول =

٢ — ويسمون أنفسهم أهل التوحيد ، لأنهم نفوا الصفات القديمة عن الله تعالى، وقالوا هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، هى صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الألوهية (١) .

٣ — وأطلق عليهم خصومهم أحيانا القَدَرية ، لأنهم وافقوا القدرية — وكانوا قبلهم — فى القول بحرية العبد واختياره وقدرته وأطلقوا عليهم أحيانا الجهمية ، لأنهم وافقوا الجهمية فى القول بنفى الصفات وبخلق القرآن ، وإن خالفوهم فى الحرية والاختيار (٢) .

على أن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ بشر بن المعتمر أحد زعمائهم من الجهمية بقوله :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهــــم ولا همُ منـــــا ولا نرضاهمُ
إمامهمُ جَهْمٌ وما لجهم وصَحْب عمرو (٣) ذى التقى والعلم

— ٤ —

أما الأسس العامة لمذهبهم فقائمة على عدة أصول : العدل ، والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

= من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، أخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشق (سرح العيون ١٦٦) وأما غيلان فابن مولى لعثمان بن عفان ، كان يسكن دمشق ، وكان مفوها ، ثم أكثر الناس الوقيعة فيه والسعاية به بسبب رأيه فى القدر حتى أحفظوا عليه هشام بن عبد الملك ، فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه .

(١) الملل والنحل ٤٩/٢ .

(٢) الجهمية أتباع جهم بن صفوان ، كان يقول بالجبر ويجرد الإنسان من الاختيار والقدرة ، ويقول إن الإنسان يثاب أو يعاقب على أعماله جبرا. وكان جهم من موالى خراسان أقام بالكوفة ، ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيراً للحارث بن سريج ، فلما خرج الحارث على بنى أمية حاربوه وهزموه وأسروا جهما وقتلوه

(٣) عمرو بن عبيد أحد الرؤساء الأولين للمعتزلة

والتوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين [١] .

ولهم آراء شتى ، منها أن العقل قادر على معرفة الحسن والقبيح ، وإن لم يرد بها شرع ، لأن فى الشىء صفة ذاتية تجعله حسنا أو قبيحا .

— ٥ —

قد يتبادر إلى الذهن أن المعتزلة فرقة دينية صرف ، لا صلة لها بالسياسة ، على حين أن النظر الفاحص ينبىء عن صلة بالسياسة وثيقة .

١ — فهم يخالفون المرجئة والخوارج والأزارقة فى الحكم على مرتكب الكبيرة . إذ قال الخوارج إن الصلاة والصيام والصدق والعدل جزء من الإيمان ، فالذى يعتقد بالوحدانية وبالرسالة ، ولا يؤدى الفرائض الدينية ، أو يرتكب كبيرة ، كافر . بل إن نافع بن الأزرق كفر المسلمين ما عدا الأزارقة ، وعدهم كالمشركين لا تحل ذبائحهم ، ولا الزواج منهم ، ورأى أنهم مثل كفار العرب ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف . ولهذا حارب الخوارج بنى أمية ، لأنهم مرتكبون للكبائر ، كفار . ولم يعترفوا بخلافتهم ، ولم يطيعوا أمرهم .

أما المرجئة فإنهم قصروا الإيمان على الاعتقاد بالقلب ، وذهبوا إلى أن القيام بفرائض الدين من صلاة وصيام ليس جزءا من الإيمان ، فالذى يرتكب كبيرة

---

(١) مجمل التوحيد أن الله منزه عن المثيل ، فهو القديم الأزلى وما سواه محدث وليست له صفات أزلية منفصلة عنه ، لأن القول بها تعدد .

ومجمل العدل أن الله منزه عن الفساد وعن خلق أفعال العباد ، وإنهم يفعلون أفعالهم بالقدرة التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كره ، ولوشاء لأجبرهم على طاعته ومنعهم من معصيته لأنه القادر

ومعنى الوعد والوعيد أن الله صادق فى وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين العصاة النار ، وهو لا يخلف وعده ، فمن جاء بفعله استحق الثواب ، ومن خسر فبفعله استحق العقاب . والمسلم العاصى إذا مات قبل التوبة يخلد فى النار ، ولا تنفع فيه شفاعة .

وأما أصحاب الجمل وصفين وعثمان وقاتلوه وخاذلوه ، فأحد الفريقين مخطىء لا محالة ، لكنه غير معلوم .

وأما المنزلة بين المنزلتين فمعناها أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر لكنه مخلد فى النار . وأما وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فمعناه أن الواجب على المسلمين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر على قدر طاقتهم بالسيف فما دونه ، لا فرق بين مجاهدة الكافر ومجاهدة الفاسق (الملل والنحل ١/ ٤٨ ومروج الذهب ٢ / ١٩٠) .

لا يخرج عن إيمانه ، بل إن المعاصى لا تضر مع الإيمان ، كما أن الطاعة لا تنفع مع الـكفران ، ولهذا قالوا إن عليا وعثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأتباعهم والخارجين عليهم ليسوا كفارا . ومعنى هذا أن خلفاء بنى أمية مؤمنون ، وليس ينقص من إيمانهم أنهم يرتكبون الـكبائر ، وإذا فهم لا يوافقون الخوارج فى محاربتهم للأمويين بدعوى أنهم كفرة .

وأما أهل السنة فلم يروا ذلك ، فالفاسق فى رأيهم عضو فى الجماعة الإسلامية ، له مالها وعليه ما عليها ، وأصحاب الجمل وصفين مسلمون ، إلا أن عليا كان على الحق ، وكان خصومه على الباطل ، فهم ثائرون لا كفار

وأما المعتزلة فـكان رأيهم وسطا بين هؤلاء وأولئك . إذ قالوا إن مرتـكب الـكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر « لأن الإيمان خصال خير ، إذا اجتمعت سمى المرء مؤمنا ، وهو اسم مدح ، ومرتـكب الـكبيرة ـ الفاسق ـ لم يستـكمل خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمنا ، وليس بكافر مطلق ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، لا وجه لإنـكارها »(١) لـكنه مخلد فى النار . فهم يتفقون مع الخوارج فى تأييد عذاب العاصى ، لهذا يقول إسحاق بن سويدى القدرى

برئت من الخوارج لست منهـم من الغزّال منهم وابن باب(٢)

فيسميهم خوارج .

وربما رأى أن القضية لا تستحق هذا كله ، لـكنها بعد التروية تبدو خطيرة ، لأنها وثيقة الصلة بالحياة السياسية والحياة الاجتماعية . ذلك أن حكم الخوارج على مرتـكب الـكبيرة بالـكفر يقتضى الحـكم عليه بأنه خارج على الأمة الإسلامية ، فدمه هدر ، وماله مباح ، وزواجه بالمؤمنة باطل ، وشهادته مردودة . وإذ كان خلفاء بنى أمية وولاتهم عصاة لله فى نظر الخوارج ، فهم كفار يجب على المسلمين

---

(١) الملل والنحل ١/٥٢ .
(٢) الـكامل المبرد ٢/١٣٣ والفرق للبغدادى ٩٩ والبيان والتبيين ١/١١ الغزال كنية واصل وابن باب كنية عمرو بن عبيد

أن يثوروا عليهم ، ويخلعوهم . ويتصل بهذا حكمهم بالكفر على طلحة والزبير وعائشة ومعاوية ، لأنهم حاربوا عليا وهو على حق ، لكنه كفر بعد التحكيم .

أما أهل السنة فلم يذهبوا إلى هذا ، ولم يدعوا إلى الثورة على بنى أمية ، فالفريقان المتحاربان كانا مؤمنين ، وإن كان علىّ محقا وخصومه مبطلين ، فهم ثوار لكنهم غير كفار وغير فسقة ، لهذا تقبل شهادة كل منهما إن كان صادقا .

على حين أن واصل بن عطاء توسط ، فقال إن أحد الفريقين فاسق ، لكنه غير معين ، لهذا لم يجوز قبول شهادة علىّ وطلحة والزبير على باقة بقل ، وجوز أن يكون على وعثمان مخطئين[1] ، وتبرأ هو وأكثر المعتزلة من معاوية وعمرو ابن العاص ؛ لأنهما فاسقان[2] .

أما زميله عمرو بن عبيد فقد سبّ أبا هريرة ، وطعن فى روايته ، واتهم معاوية وعمرو بن العاص بالخيانة ، وأنهما سرقا مال الفىء ، وخالف واصلا فى توقفه عن الحكم على أصحاب الجمل ، فقال بفسقهم جميعا ، وأبطل شهادة على وعثمان وطلحة والزبير لو أن أحدهم كان شهد عنده على شراك نعل أو سواك ، أما معاوية فقد فسقه كما فسقه واصل[3]

ثم إن المعتزلة اتفقوا — إلا قليلا منهم — على أن بيعة أبى بكر صحيحة ، لأنها كانت بالاختيار لا بالتعيين من النبي صلى الله عليه وسلم . واختلفوا فى المفاضلة بين أبى بكر وعلىّ ، وتحاجوا فى ذلك ، وكان ابن كَيْسان الأصم يخطىء عليا فى كثير من أفعاله ، ويصوب معاوية فى بعض أعماله[4] .

٢ — أما رأيهم فى الإمامة والإمام فإن أكثرهم على أنه لا مندوحة للمسلمين عن حاكم يسوسهم ، وينفذ فيهم أحكام الله ، ويقيم حدوده ، وينصف المظلوم الخ .

وقليل منهم كأبى بكر الأصم وهشام الفُوَطى يوافقون النجدية من الخوارج فى أن الإمامة ليست واجبة فى الشرع ، بل هى حق للناس تابع لحالتهم ، فإن

---

(١) الملل والنحل ١/٥٢ (٢) المنية والأمل لابن المرتضى ٦ .
(٣) تاريخ بغداد ١٢ / ١٦٦ — ١٨٨ :
(٤) المنية والأمل ٣٣ .

أنصف بعضهم بعضا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، استغنوا عن الإمام ، وإلا ولوا عليهم إماما .

وهم مختلفون فى طريقة اختيار الإمام ، فبعضهم يوافق أهل السنة والخوارج فى تفويض الانتخاب إلى الشعب ؛ ليختار من يحكمه ، وينفذ فيه أحكام الله ، سواء أكان قرشيا أم غير قرشى ؛ لأن الإمام لايشترط فيه إلا الإسلام والعدل والكفاءة. وبعضهم يوافق الرافضة فى وجوب أن يكون الإمام من ذرية علىّ ، وآخرون يشترطون أن يكون من قريش ، عملا بالحديث « الأئمة من قريش » . وقد رد الآخرون على هؤلاء بأن الحديث غير متواتر ، لأنه لوكان متواترا ما نازع الأنصار المهاجرين يوم السقيفة ، وما تمنى عمر بن الخطاب أن يكون سالم مولى حُذَيْفَةَ حيا ليعهد إليه بالخلافة من بعده .

٣ — ولم يقتصروا على الآراء القولية ، بل شاركوا فى التنديد بخلافة الوليد ابن يزيد وتهتكه ، وآزر بعضهم — وفيهم زعيمهم عمرو بن عبيد — يزيد بن الوليد فى ثورته على ابن عمه الوليد ، فخلعه وقتله ، وكان يزيد على مذهبهم[١] .

وكذلك أيدوا الزيدية فى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبدالملك سنة ١٢١ هـ .

٤ — على أن الدولة الأموية لم تقاومهم كما قاومت الشيعة والخوارج ، لأنهم كانوا أقرب إلى مسالمتها من هؤلاء ، ولأنها وجدت فى مذهبهم السياسى مصلحتها ، إذهم فى الأعم الأغلب لا يتحيزون للشيعة وللأمويين ، وبحسب الأمويين منهم أن يجرحوا عليا كما يجرحونهم ، لأنهم بهذا يضعفون من الهيبة التى للشيعة . ولعل رضا بنى أمية عن مذهبهم وعن آرائهم كان الباعث لبعض خلفائهم المتأخرين على اعتناق الاعتزال ، كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، حتى إن مروان هذا لقب بالجعْدى لأنه سمع من الجعد بن درهم إذ كان مربيه وخاله ، وقد أخذ عنه مروان مذهبه فى الجبر وغيره[٢] .

---

(١) مروج الذهب ٢/١٩٣ .
(٢) سرح العيون ١٨٥ كان الجعد أستاذا أيضاً لجهم بن صفوان الذى قتل سنة ١٢٨ هـ.

— ٦ —

ولقد كان للمعتزلة آثار بعيدة المدى والعمق فى الأدب والعلم والفكر ، فهم الذين حملوا مشاعل الفكر الحر والبحث الدقيق والدرس العميق لمسائل كثيرة جديدة فى الإلهيات وغيرها .

وهم أساتذة المناظرة ، وجهابذة البلاغة والخطابة ، والرواد الأولون لمزج الفلسفة اليونانية بالدين، فى دفاعهم عن الإسلام ، وفى التدليل على آرائهم .

وهم أصحاب الإنتاج الغزير المتنوع فى شتى ضروب المعرفة والثقافة .

فلنرجىء الحديث عن هذا كله إلى فرصة أخرى ، لأن صلته بالسياسة فى عصرنا الذى ندرسه وفى العصر العباسى أبعد من صلته بالفلسفة والعلوم والآداب .

الباب الثانى

الشِّعْرُ

الفصل الأول

شعر الحزب الأموى

— ١ —

فى الاحتجاج لبنى أمية وبنى مروان

تردد فى الشعر المناصر لبنى أمية وبنى مروان وولاتهم أنهم خلفاء الله على الناس ، وأنهم سيوفه المسلولة لحماية الدين ونصرته ، وأنهم ينهجون فى حكمهم نهج النبي صلى الله عليه وسلم ونهج سابقيه من الرسل ، ولهذا ينصرهم الله على خصومهم .

١ — لحارثة بن بَدْر يمدح زيادا بأنه إمام عدل واستقامة وحزم ، ويقول إنه ينتصر بتأييد من الله ، وإنه لا يجور على حدود الله إذا جارت الرعية ، وإنه جاء فى زمن كثر خبثه ، وظهرت شروره ، لكنه — وهو سيف الله — رد إلى الدين سلطانه بحزمه ومضائه .

قال حارثة(١) :

ألا مَنْ مُبْلغٌ عنى زيادا فنعم أخو الخليفة والأميرُ

(١) تاريخ الطبرى ٦/١٢٦ .

فأنت إمام مَعْدِلة وقَصْدٍ   وحزم حين تحضرك الأمور
أخوك خليفة الله ابنُ حرب   وأنت وزيره نعم الوزير
بأمر الله منصورٌ مُعـانٌ   إذا جار الرعية لا تجور
يَدِرُّ على يديك لما أرادوا   من الدنيـا لهم حَلَبٌ غزير
وكنتَ حياً وجئت على زمان   خبيثٍ ظاهرٍ فيه شرور[1]
فلما قام سيفُ الله فيهم   زيادٌ قام أبلجُ مستنير
قوىٌّ لا من الحِدْثان غِرٌّ   ولا جَزِعٌ ولا فانٍ كبير[2]

٢ — ومدح العَجّاج[3] يزيد بن معاوية بأنه يقتفى أثر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبأنه سيف الله الباتر ، فهو إذاً حريص على الدين لا يحيد عن تعاليمه :

إنْ زُلزِل الأقوامُ لم تُزلْزَلِ   عن دين موسى والرسول المرسل
وكنت سيفَ الله لم يُفَلَّلِ   يَفْرَعُ أحيانا وحينا يَختَلِي[4]

٣ — وهذا النزوع واضح فى مدائح جرير لبنى أمية ولولا تهم ، فهو يصف عبد الملك بأنه ركن الدين ، والحفيظ على أحكام الشرع ، ولولاه ما اجتمع المسلمون فى صلواتهم بالمساجد فى الجمع ، ثم يصفه بأنه أمين الله ، والمبارك الذى يهدى به الله عباده ، ويقول إن أوامره ميمونة مطاعة ، وإن الله فضل بنى أمية على غيرهم من أهل البدع ، يريد الأحزاب المعادية لبنى أمية . قال[5] :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه   ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمينُ أمين الله لا سرِفٌ   فيما وَلِيتَ ولا هيّابةٌ ورِعُ[6]

---

(١) حيا : مطر وخير .
(٢) الحدثان : جمع حدث وهو الفتى .
(٣) شعراء النصرانية بعد الإسلام ٢٣٤ .
(٤) لم يفلل : لم يتثلم . يختلى : يقطع ويجز . يفرع : يعلو رءوس الناس .
(٥) ديوان جرير ٣٥٥ .   (٦) سرف : متجاوز الحد . ورع : جبان .

أنت المبارك يَهْدِى الله شيمتَه ... إذا تفرقت الأهواء والشِّيع
فكل أمر على يُمْنٍ أمرتَ به ... فينا مطاعٌ ومهما قلتَ يُستَمع
يا آل مروان إن الله فضّلكم ... فضلا عظيم على مَنْ دينه البِدَع

٤ — مدح العجاج الوليد بن عبد الملك[1] — وكان يكنى بأبي العباس — بأنه رأس الدين وابن رأسه ، وقال إن الله قد علم بأنه أولى إنسان بالملك :

رأس قِوام الدين وابنُ رأسه ... خليفةٌ ساس بغير فَجْس[2]
فى قِنْس مجد فات كلَّ قِنْس ... ملَّكه الله بغير نَحْس[3]
قد علم القُدُّوس ربُّ القُدْس ... أن أبا العباس أولى نفس
بمعدِن الملك كريم الكِرْس ... فروعِه وأصْله المُرَسِّى[4]

٥ — ودعا عدى بن الرقاع للوليد[5] بن عبد الملك ، أن يصلى الله عليه ، ودعا المسلمين أن يصلوا عليه فى صلواتهم وجمعهم ، لأنه أمير المؤمنين الذى وحد الله الأمة على يديه ، ولأنه ملاذهم وراعيهم ، ولن يستقيم أمرهم إذا رعاهم غيره :

صلَّى الذى الصلواتُ الطيباتُ له ... والمؤمنون إذا جمَّعوا الجُمَعا
على الذى سبَقَ الأقوامَ ضاحيةً ... بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذى جَمَع الرحمنُ أمَّته ... على يديه ، وكانوا قبله شِيَعا
عُذْنا بذى العرش أن نحيا ونفْقِدَه ... وأن نكون لراع بعده تَبَعا
إن الوليد أميرَ المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعان الله فارتفعا

٦ — احتج الفرزدق لبنى أمية بأنهم الخلفاء الذين اختارهم الله ، وكأنما

---

(١) شعراء النصرانية بعد الإسلام ٣٣٥ .
(٢) فجس : كبر وغطرسة . (٣) قنس : ذروة .
(٤) الكرس : الأصل . المرسى : الثابت المتأصل .
(٥) الأغانى ١/ ٢٩٧ .

لم يجد فى هذا الاحتجاج ما يقنع ، فقال إنهم ورثة عثمان ، الأولياء بالحكم بعده ، ونَدد بابن الزبير ، ووصفه بالفساد والمكر والتخريب والكذب والغدر .

قال فى مدح عبد الملك[1] :

فالأرض لله ولاَّها خليفته   وصاحبُ الله فيها غيرُ مَغْلوب
بعد الفساد الذى قد كان قام به   كذابُ مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة فى غَدْرٍ فأخطأهم   منها صُدورٌ وفازوا بالعراقيب
والناسُ فى فتنة عمياء قد تركَتْ   أشرافَهم بين مقتول ومَحْروب
دَعوْا ليستخلف الرحمان خيرهمُ   والله يسمع دعوى كلِّ مكروب
فأصبح اللهُ ولَّى الأمرَ خيرَهمُ   بعد اختلاف وصَدْعٍ غير مَشْعوب
تُراثُ عثمان كانوا الأولياء به   سربالُ مُلْكٍ عليهم غيرُ مسلوب

٧ — وفى مدحة الفرزدق ليزيد بن عبد الملك[2] تضخيم لدعوى أن الله اصطفى بنى أمية للحكم ، حتى إنه ليزعم أنه لو كان بعد النبي عليه الصلاة والسلام نبيٌّ ، لكان يزيد هو النبى ، ويناديه بأنه خليل الله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده   نبيٌّ لهم منهم لأمر العزائمِ
لكنتَ الذى يختاره الله بعده   لحمل الأمانات الثقال العظائم
ورثتم ـ خليلَ الله ـ كلَّ خزانة   وكلَّ كتاب بالنبوة قائم
وحبلك حبلُ الله من يعتصم به   إذا ناله يأخذْ به حَبْلَ سالم

٨ — حتى الأخطل النصرانى[3] لهج بأن بنى أمية أحق المسلمين بالخلافة ، وأن الله اصطفاهم لها ، فهم خلفاؤه على الأرض ، وهم العِصَم التى يستمسك بها المسلمون فيجتمع أمرهم :

---

(١) الديوان ١/ ٢٥ . (٢) ديوان الفرزدق ٢٩٨ .
(٣) ديوان الأخطل ١٧٢ .

تَمَّتْ جُدودهمُ والله فضلهم   وجَدُّ قوم ٍ سواهم خاملٌ نَكِدُ
ويوم صِفِّينَ والأبصار خاشِعة   أمدهم ـ إذ دعوا ـ من ربهم مَدَدُ
وأنتمُ أهل بيت لا يوازنهمْ   بيت إذا عُدَّتْ الأحساب والعَدد

٩ — ويقول فى مدح عبد الملك[1] :

إلى إمام تغاديـنـا فواضـلُه   أظفره الله فليهنـأ له الظَّفَرُ
الخائضِ الغَمْرَ والميمونِ طائرُه   خليفة الله يُسْتَسْقَى به المطر[2]
والمستمرِّ به أمرُ الجميع فما   يَغْتَرُّه بعد توكيدٍ له غَرَر[3]
أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرون به   لا جدَّ إلا صغيرٌ بَعْدُ مُحتَقَرُ

فهو يصفه بالكرم وسعد الطالع والشجاعة وتوحيد الأمة ، ثم يمدح بنى أمية كلهم .

١٠ — وأحيانا يحتجون لهم بأنهم الذين ثأروا لعثمان ، إذ هبَّ معاوية يطالب بدمه ، ويحارب عليا ، بدعوى أنه قصَّر فى حماية عثمان ، وقصر فى القصاص من قاتليه .

قال الأخطل :

ويوم صِفِّينَ والأبصار خاشعة   أمدَّهم إذا دَعَوْا من ربهم مَدَدُ
على الأُلَى قتلوا عثمان مظلمةً   لم ينههم نَشَدٌ عنه وقد نُشِدوا
فثمَّ قَرَّتْ عيون الثائرين به   وأدركوا كل تَبْلٍ عنده قَوَد
فلم تزل فَيْلَقٌ خضراء تحطِمُهم
تَنْعَى ابن عفان حتى أفرخ الصَّيدُ[4]

(١) الديوان ٩٨ .   (٢) الخائض الغمر : المراد أنه ركاب للشدائد .
(٣) غرر : هلاك ، أى أنه فى أمان من الانتقاض عليه بعد البيعه له .
(٤) ديوان الأخطل ١٧٤ نشد : طالب . نشدوا : طلبوا . تبل : ثأر . قود : قصاص . فيلق : المراد كتيبة ضخمة . خضراء : سوداء مما تلبس من حديد . أفرخ الصيد : سكن الكبر ، أى أن القتلة خضعوا وذلوا .

١١ — كثيراً ما كان الشعراء يحتجون لجدارة بنى أمية بالخلافة بما يصفونهم به من كفاية وحزم وكرم وحسب ومهارة ، كقول الأخطل فى مدح عبد الملك[1] :

فى نَبْعة من قريش يَعْصِبون بها ... ما إن يُوازَى بأعلى نَبْتها الشجرُ[2]

حُشْدٌ على الحق ، عيّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا[3]

وإن تَدَجَّتْ على الآفاق مُظْلِمةٌ ... كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَر[4]

أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرونَ به ... لا جَـدٌّ إلا صغيرٌ بَعْدُ محتقر

لم يأشِروا فِيهِ إذْ كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم أشِروا[5]

شُمْسُ العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا[6]

١٢ — من الدعاية لبنى أمية قول نابغة بنى شيبان فى قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز[7] إنهم معدن الخلافة ، بهم بدأت ، وإليهم انتهت ، والذى يطمح إلى الخلافة من غيرهم ضال مغرور :

مَعْشَرٌ مَعْدِنُ الخلافة فيهم ... بَدْؤُها منهمُ وفيهم تَحُور

لا يَرُومنَّ مُلْكَهم آدمىٌّ ... إن من رام ملكهم مغرور

— ٢ —

فى الحملة على خصومهم

كان كل حزب سياسى يزعم أنه حزب الله ، وأن الله ناصره ، وكان يصف خصومه بالكفر والضلال .

---

(١) ديوان الأخطل ١٠٤ . (٢) نبعة : شجرة جيدة تتخذ منها القسى والسهام . يعصبون بها : يحيطون بها ويلزمونها . (٣) عيافو الخنا : كارهون للفحش .
(٤) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ . (٥) لم يأشروا : لم يبطروا .
(٦) شمس العداوة : أشداء فيها . يستقاد لهم : يخضع لهم .
(٧) شعراء النصرانية بعد الإسلام ١٥٥ .

وهذا صريح فى كثير من الشعر الأموى ، وكثير فى شعر الأحزاب الأخرى . وسنجد فى الأمثلة الآتية تكفيراً للشيعة وللخوارج وللزبيريين .

١ — كان كعب بن جُعَيْل التغلبي أموى النزعة ، وقد حارب مع قومه فى يوم صِفِّين موالين لمعاوية .

وهو الذى صور حال أهل الشام وأهل العراق بقوله[١] إن كلا منهم يبغض الآخر ، ويحاربه ، وإذا كان أهل العراق يولون علياً إماما عليهم ، فإن أهل الشام يولون معاوية ، ولن يستجيب أهل الشام لعلىّ . ثم قال إننى لا أعيب علياً إلا بأنه ضم إليه الصغار وأهل المعصية ، وتهاون مع قتلة عثمان ، فلا هو أظهر رضاه عنهم ، ولا هو أظهر سخطه عليهم ، ويقول إنه لم يأمر بقتله ، ولم ينه عنه ، وإنه لم يحزن عليه ، ولم يفرح به ، ولكن المعقول أن يكون بعض هذا قد حدث . وإنه فى حملته على علىّ لماكر ؛ لأنه قد تأتى إلى انتقاصه فى لطف وحسن مدخل .

ذلك بأنه تحدث عن العداوة بين الإقليمين ، وبأن كلا منهما رضى حاكمه ، ثم تطرق من ذلك إلى أنه لا يعيب علياً إلا بأشياء ، وهو بهذا يخدع السامع أو القارئ ، إذ يحسب أنها أمور تافهة ، فإذا بها المعاول الهدامة التى كان يقوض بها الأمويون صرح علىّ ، وأهمها اتهامه بالتحريض على قتل عثمان . قال كعب[٢] :

أرى الشام تكره مُلْكَ العراق ... وأهـــل العراق لهم كارهينا
وكلاً لصاحبه مُبْغِضاً ... يرى كلٌّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهمُ ... ودِنَّاهمُ مثل ما يَقْرِضونا
وقالوا : علىٌّ إمامٌ لنـــا ... فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا له ... فقلنا لهم : لا نرى أن ندينا

---

(١) تجد فى نماذج الشعر الشيعى قصيدة للنجاشى ينقض بها قصيدة كعب .
(٢) تهذيب الكامل ١ / ٤٠ .

ومن دون ذلك خَرْط القَتـاد   وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونا
وكلٌّ يُسَر بمـــا عنده   يرى غَثَّ ما فى يديه سمينا
وما فى علىٍّ لمستَعْتِبٍ   مقالٌ سوى ضمه المحْدَثينا
وإيثـارِه اليومَ أهلَ الذنوب   ورفع القصاص عن القاتلينـا
إذا سيل عنه زَوَى وجهه   وعمّى الجواب عن السائلينـا
فليس براضٍ ولا ساخط   ولا فى النُّهـاة ولا الآمرينـا
ولا هو ســـاءٍ ولا سرَّه   ولا بد من بعض ذا أن يكونا

٢ — طلب يزيد بن معاوية — وهو ولىٌّ للعهد — من الأخطل أن يهجو الأنصار ، لأنهم ضالعون مع علىّ ، فاستجاب الأخطل ، وبدأ هجاءه بذم اليهود ، كأنما يريد أن يقرن بهم الأنصار ؛ لأنهم كانوا يساكنونهم بالمدينة ، وكثيراً ما كان بعض اليهود يحالف بعض الأنصار . ثم عاب الأنصار بأنهم أهل زرع وفلاحة ، فهم كاليهود فى هذا ، وحقر من شأنهم بأنهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم ، وادعى أنهم جبناء عند اللقاء . لأنهم من نسل الزراع الحقراء . ثم نسب المجد كله إلى قريش ، واللؤم كله إلى الأنصار فى كناية سافرة واخزة :

قال الأخطل [١] :

لعن الإله من اليهود عصابةً   بالجِزْع بين صُلَيْصِلٍ وصِرار [٢]
قوم إذا هَدَرَ العصير رأيتهم   حُمْراً عيونهم من المِسْطار [٣]
خلوا المكارم لستمُ من أهلها   وخذوا مساحيكم بنى النجار [٤]
إن الفوارس يعلمون ظهورَكم   أولادَ كلِّ مُقَبَّح أكّار [٥]
ذهبت قريش بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

---

(١) طبقات الشعراء ٣٩٧ .   (٢) أماكن قريبة من المدينة .
(٣) المسطار : الخمر الصارعة لشاربها .
(٤) مساحيكم : جمع مسحاة وهى الفأس ونحوها .   (٥) أكار : حراث .

٣ — كان كعب بن جابر الأزدى فى جند يزيد المحاربين للحسين بن على ، فلما رجع بعد مقتل الحسين ثارت امرأته أو أخته فى وجهه ، وقالت له : أَعَنْتَ على ابن فاطمة ، وقتلت سيد القراء[١] ، لقد أتيت أمراً عظيما ، والله لا أكلمك كلمة أبداً .

فجبه كعب امرأته أو أخته بأنه فعل أقصى ما يؤلمها من قتال للحسين وحزبه ، وقال إنه كان على بينة من أمره ، ويقين بصواب ما فعل ، وإنه حارب بسيفه ورمحه فرقة ليست على دينه ، وكان راضياً عما فعل قانعاً بنصره لمعاوية . ثم جعل ينصف جيش الحسين إذ شهد له بالبطولة ، وقال إنه لم يشهد مثلهم فى استماتتهم فى ماضيه وحاضره ، ولم ير أشباها لهم فى المقارعة والمجالدة وحماية الذمار ، وإنهم صبروا على ما نزل بهم من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، ورءوسهم عارية بغير خوذات ، وجاهدوا وجالدوا إلى نهاية ما استطاعوا ، ولكن لم ينفعهم جهادهم ، وهو بهذا أنصف خصومه إذ أشاد ببطولتهم . ثم وجه رسالة إلى قائد يزيد — عبيدالله بن زياد — بأنه سامع للخليفة مطيع ، وأنه قتل سيد القراء بُرَيْراً[١] ، وخَلَّصَ منه رضِيَّ بن منقذ .

قال كعب [٢] :

سَلِى تُخْبَرِى عنى وأنت ذميمة ... غداةَ حُسَيْنٍ والرماحُ شوارعُ
ألم آتِ أقصى ما كرهت ولم يُخَلْ ... علىَّ غَداةَ الرَّوْعِ ما أنا صانع[٣]
معى يَزَنِىٌّ لم تَخُنْه كعوبه ... وأبيضُ مَخْشُوبُ الغِرارين قاطع[٤]
فجرَّدتُه فى عُصْبَة ليس دينهم ... بدينى وإنى بابن حربٍ لقانع[٥]

---

(١) هو برير بن حضير القارىء الذى كان يقرىء الناس فى المسجد .
(٢) الطبرى ٦/٢٤٧ (٣) لم يخل على : لم يشتبه ولم يشكل من أخال الشىء إذا أشكل واشتبه . الروع : الحرب .
(٥) يزنى : رمح منسوب إلى ذى يزن أحد ملوك حمير . الكعوب : ما بين الأنابيب . أبيض : سيف . مخشوب الغرارين : مشحوذ الحدين مصقولها .
(٥) عصبة : جماعة وفرقة والمراد أعوان الحسين بن على . ابن حرب : معاوية .

ولم ترَ عينى مِثلَهم فى زمانهم ... ولا قبلهم فى الناس إذ أنا يافع (١)
أشدَّ قِراعا بالسيوف لدى الوغى ... ألا كلُّ مَن يَحمى الذِّمارَ مُقارع (٢)
وقد صبروا للطعن والضَّرب حُسَّراً ... وقد نازلوا لو أن ذلك نافع
فأبلغْ عبيد الله إما لقيتَه ... بأنى مطيعٌ للخليفة سامع
قتلتُ بُرَيْراً ثم حَمَّلْتُ نعمة ... أبا مُنْقذ لما دعا من يماصع (٣)

٤ — وكذلك قال أعشى همدان (٤) فى مدح الحجاج ـ مضطرا ـ لما قضى على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، ما يتضح منه أن خلفاء بنى أمية وولاتهم يحكمون بتفويض من الله ، وأن خصومهم فاسقون :

أبى الله إلا أن يُتمِّم نوره ... ويُطفِىء نور الفاسقين فيَخمَدا
ويَظْهَرَ أهلُ الحق فى كل موطن
ويُعْدِل وقع السيف من كان أصْيدا (٥)
ويَنْزِلَ ذلٌّ بالعراق وأهله ... لِما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بِدْعة وعظيمة ... من القول لم تَصْعد إلى الله مَصْعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمِنوها اليوم خاسوا بها غدا (٦)
فلا صِدقٌ فى قول ولا صَبْرَ عندهم ... ولكنَّ فخرا فيهمُ وتَزَيُّدا
فكيف رأيتَ الله فرّق جمعهم ... ومزّقهم عُرْضَ البلاد وشرّدا ؟

---

(١) يافع : غلام . (٢) القراع : المضاربة . (٣) يماصع : يقاتل ويجالد :
أبو منقذ . رضى بن منقذ العبدى كان قد حمل على برير واعتركا ساعة ؛ وقعد برير على صدره ، فقال رضى : اين أهل المصاع والدفاع ؛ فأسرع إليه كعب بن جابر (الطبرى ٦/٢٤٧) .
(٤) تاريخ الطبرى ٨/٣٢ لكن الحجاج ضرب عنق الشاعر لأنه كان من أنصار ابن الأشعث .
(٥) أصيد : متكبر . (٦) خاسوا : غدروا .

ففتلاهم قتلى ضلالٍ وفتنة | وحيهم أمسى ذليلا مُطرّدا
جنودُ أميرَ المؤمنين وخيله | وسلطانُه أمسى عزيزاً مُؤيّدا
فيهنى أمير المؤمنين ظهورُه | على أمة كانوا بُغاةً وحُسّدا
وجدنا بنى مروانَ خير أئمة | وأفضلَ هذى الناس حِلْما وسُؤْدُدا
وخير قريش فى قريش أرومةً | وأكرمهم إلا النبيَّ محمدا[1]
إذا ما تدبّرنا عواقب أمره | وجدنا أمير المؤمنين مسدّدا
سيُغْلَبُ قومٌ غالبوا الله جَهْرَةً | وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا
كذاك يضل الله من كان قلبُه | مريضا ومن والى النفاقَ وألحدا

٥ — أشاد الشعراء بالمهلب بعد قضائه على الخوارج ، ووصفوهم بالكفر ، كقول حبيب بن عوف من قواد المهلب[2] :

أبا سعيد جزاك الله صالحةً | فقد كفيتَ ولم تعنُفْ على أحد
داويتَ بالحلم أهل الجهل فانقمعوا | وكنت كالوالد الحانى على الولد

٦ — وقال الطفيل بن عامر بن واثلة[3] — لما هرب قطرى بن الفجاءة زعيم الأزارقة من المهلب بن أبى صُفْرة ، وهزم المهلبُ عبد ربه الكبير وقتله — قصيدة وصف فيها عبد ربه بالكفر والضلال :

لقد مسّ منا عبدَ ربٍّ وجُنْدَه | عقابٌ فأمسى سَبْيُهم فى المقاسم
وما قَطَرِىٌّ الكفر إلا نعامةٌ | طريد يُدَوِّى ليله غيرَ نائم
إذا فرَّ منا هاربا كان وجهه | طريقا سوى قَصْدِ الهُدى والمعالم

(١) أرومة : أصل .
(٢) تهذيب الكامل ١/٢١٥
(٣) الطبرى ٨/٢٧٤ .

فليس بمنجيه الفِرار و إن جَرَتْ ... به الفُلْكُ فى لُجٍّ من البحر دائم

٧ — وقال كعب الأشقرى(١) لما انتصر المهلب على الأزارقة فى كِرْمان، يمدح المهلب، ويشيد بنصره، ويصف الأزارقة بالكفر والحيدة عن الحق وابتداع دين جديد يغاير الأديان السماوية كلها :

واستسلم الناس إذ حل العدو بهم ... فما لأمرهم وِرْدٌ ولا صَدَرُ
كنا نُهوِّن قبل اليوم شأنهم ... حتى تفاقم أمرٌ كان يُحتقَر
لولا المهلّب للجيش الذى وَرَدُوا ... أنهار كرمان ـ بعدالله ـ ماصَدَروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جَحَدوا ... بالمحْكَمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصدوالإسلام واتبعوا ... دينا يخالف ما جاءت به النُذر

فهو يصم الخوارج بالضلال، وأنهم على دين يغاير الإسلام، لأنهم كفروا بالمحكمات، وهى المرادة فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا، وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب » .

٨ — كان أعشى بنى ربيعة الشيبانى ـ عبدالله بن خارجة بن حبيب ـ مروانى المذهب، شديد التعصب لبنى أمية، تردد على خلفائهم ومدحهم ونال صلاتهم، ولاسيما عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك(٢) .

دخل على عبد الملك وهو يتردد فى الخروج لمحاربة ابن الزبير ولا يجدُّ . فقال : يا أمير المؤمنين مالى أراك متلوِّما ينهضك الحزم، ويقعدك العزم، وتهم بالإقدام، وتجنح إلى الإحجام، انفُذْ لنصرتك، وأمض رأيك، وتوجه إلى عدوك، فجَدُّك مُقبل، وجَدُّه مُدْبِر، وأصحابه له ماقتون، ونحن لك

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٢٧١ . (٢) الأغانى ١٦/١٦٠ — ١٦٣ .

محبون ، وكلمتهم متفرقة ، وكلمتنا عليك مجتمعة . والله ما تؤتى من ضعف جنان ، ولا قلة أعوان ، ولا يثبطك عنه ناصح ، ولا يُحرِّضك عليه غاش . وقد قلت في ذلك أبياتا . فقال عبد الملك : هاتها ، فإنك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح . فقال[1] :

آل الزُّبَيْر من الخلافة كالتى ... عَجَل النِّتاجُ بحَمْلِها فأحالها[2]

أو كالضعاف من الُحمولة حُمِّلتْ ... مالا تُطيق فضيَّعتْ أحمالها

قوموا إليهم لا تنـــاموا عنهم ... كم للغُواة أطلتم إمهالهـا

إن الخلافة فيكُمُ لا فيهمُ ... ما زلتم أركانها وثِمالها[3]

أمسَوْا على الخيرات قُفلا مُغلَقا ... فانهضْ بيمنك فافتتح أقفالهـــا

فضحك عبدالملك وقال : صدقت يا أبا عبدالله ، إن أبا خُبَيْب — كنية عبد الله ابن الزبير — لقُفْل دون كل خير ، ولا نتأخر عن مناجزته إن شاء الله ، ونستعين الله عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وأمر له بصلة سنية .

فهو لا يرى ابن الزبير أهلا للخلافة ويحرض عبد الملك على قتاله ، ويؤكد أن الخـــلافة حق للأمويين لا للزبيريين ، ويصف ابن الزبير بأنه غاو مضل .

٩ — وقال عَدِىّ بن الرِّقاع العاملى[4] لما سار عبدالملك لقتال مصعب بن الزبير إن مصعبا منافق ، وإن عبد الملك مؤيد بنصر الله :

لعمرى لقد أصْحَرت خيلُنــا ... بأكناف دجلة للمُصْعَب[5]

---

١) الأغانى ١٦/١٦٣ .

٢) أحالها : صيرها حائلا أى لم تلقح سنة أو سنتين أو سنوات

(٣) ثمالها : الثمال الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) الطبرى ٧/١٨٠ ومروج الذهب ٢/١٢٠ .

(٥) أصحرت : برزت .

يَهُزُّون كلَّ طويلِ القنا مُعْتَدِلِ النَّصْلِ والثعْلب(١)
إذا ما منافقُ أهل العراق عُوتب ثُمَّتَ لم يُعْتَبِ
دَلَفْنا إليه لدى موقف قليل التفقُّد للغُيَّب
فقدَّمنا واضحٌ وجهه كريمُ الضرائب والمنصِبِ(٢)
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا به ومن ينصر الله لم يُغْلَب

١٠ — لما انتصر جيش مروان بن الحكم فى مرج راهط سنة ٦٤ هـ على جيش عبد الله بن الزبير وأعوانه من قيس وغيرهم ، وقتل من قيس عدداً كثيراً تفجع زفر بن الحارث(٣) ، وتوعد كلبا وغيرها .

فرد عليه جَوّاس بن القَعْطل الكلبى بقوله :

لعمرى لقد أبقَتْ وقيعة راهطٍ على زُفَرٍ داء من الداء باقيا
مُقيما ثوى بين الضلوع مَحَلُّه و بين الحشا أعيا الطبيبَ المداويا
تُبكِّى على قتلى سُلَيْم وعامر
وذُبيانَ معذورا وتُبكى البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى
سيوف جَنابٍ والطِّوالَ المذاكيا(٤)
عليها كأسْد الغاب فتيان نَجْدة
إذا شرعوا نحو الطِّعان العواليا(٥)

---

(١) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جبة السنان .
(٢) الضرائب : المراد الأصول . قدمنا : تقدمنا .
(٣) الطبرى ٦/ ٤١ ومروج الذهب ٢/ ١٠٧ .
(٤) الطوال المذاكى : الخيل الطويلة التى مضى على قروحها سنة أو سنتان .
(٥) العوالى : الرماح .

ورد عليه عمرو بن مِخْلاة الـكلبي بقوله :

بكى زُفَرُ القَيْسِىُّ من هُلْك قومه   بعَبْرة عَيْنٍ ما يَجِفُّ سُجومُها[١]
يُبَكِّى شِلَ قتلى أصيبت براهط   تَجاوبُهُ هامُ القفارِ وبومُها[٢]
يُبَكِّيهم حَرَّانَ تَجْرى دموعُه   يُرَجِّى نزارا أن تَثوب حلومُها
فَمُتْ كمدا أو عش ذليلا مُهَضَّما   بحسرة نفس لا تنام همومُها

١٢ — وقال نابغة بنى شيبان فى مدح عبد الملك[٣] ، والحملة على آل الزبير :

أزحتَ عنا آلَ الزبير ولو   كانوا هم المالكين ما صلَحُوا
آل أبى العاص آلُ مأثُرة   غُرٌّ عِتاقٌ بالخير قد نَفَحُوا
خير قريش وهم أفاضلها   فى الجِدّ جِدٌّ وإن همُ مَزَحوا
أما قريش فأنت وارثُها   تَكُفُّ من غَرْبهم إذا طمحوا[٤]

٣

فى ولاية العهد

جارى الشعراء السياسة فى تقلبها ودهائها ، فأيدوا الخليفة فى استخلاف من يليه ، وفى نقل البيعة من ولى إلى آخر .

---

(١) سجومها : سيلان دمعها .
(٢) الهام : جمع هامة وهى طائر من طير الليل .
(٣) الأغانى ٧/١٠٦ .
(٤) غربهم : حدتهم ونشاطهم .

١ — لما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد تهيب ، وخاف ألا يرضاه الناس ، لأن فيهم من هو خير منه ، وبلغه في ذلك كلام كرهه من سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم وعبدالله بن عامر ، فأوعز هو أو ابنه يزيد إلى مسكين الدارمي أن ينتهز اجتماعهم عند معاوية هم وأشراف بني أمية ، ويذكر بيعة يزيد ويؤيدها . فلما اجتمعوا في مجلس معاوية سنة ٥٦ هـ دخل مسكين الدارمي على معاوية ويزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه ، وقال[١] :

إن أُدْعَ مسكينا فانى ابن معشر ... من الناس أَحمِي عنهمُ وأَذُودُ

. . . .

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟
بنى خلفاء الله مهلا فإنما ... يُبَوِّئُها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربيُّ خلّاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجدُّ صاعدٌ ... لكل أناس طائرٌ وجُدود
فلا زلتَ أعلى الناس كعبا ولا تزلْ ... وفود تُساميها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا ... تُشَيِّد أطنابٌ له وعمود
قُدورُ ابن حرب كالجوابى وتحتها ... أثافٍ كأمثال الرِّئال ركود[٢]

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ؛ ونستخير الله . ولم يعارض أحد من الحاضرين . ثم وصل معاوية ويزيد مسكينا وأجزلا الصلة.

٢ — كذلك أراد عبد الملك أن يأخذ البيعة لابنه الوليد ، ويخلع من ولاية العهد أخاه عبد العزيز بن مروان ، فاستعان بالشعر كما استعان معاوية من قبل ، فأشار على نابغة بني شيبان أن يدعو لما يريد عبد الملك ، فقال من قصيدة[٣] :

---

(١) الأغانى ٨/٧١ .

(٢) الجوابى : جمع جابية وهي الحوض العظيم . الأثافى : جمع أثفية وهى حجر الموقد . الرئال : جمع رأل وهو ولد النعامة . (٣) الأغانى ٧/١٠٦ .

لَابنُكَ أولى بملك والده ... ونَجمُ مَنْ قد عصاك مُطَّرَحُ
داودُ عَدْلٌ فاحكم بسنَّته ... ثم ابن حرب فإنهم نَصَحوا

فقال عبد العزيز : لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقا ، فأوردها مورداً خطراً، ولله عليّ لئن ظفرتُ به لأخضبن قدمه بدمه .

٣ — استعان الوليد بن الملك بالشعر فى محاولة البيعة لابنه عبد العزيز ، وخلع أخيه سليمان ، كما استعان أبوه من قبل ، ولـكنه مات قبل أن تتم البيعة .

وفى هذا يقول جرير[(١)] :

إلى عبد العزيز سمَتْ عيون الرّ ... عية إذ تُخُيِّرَتْ الرِّعاء
إليه دعت دواعيه إذا ما ... عماد الملك خرت والسماء
وقال أولو الحكومة من قريش ... علينا البَيْعُ إذ بلغ الغَلاء
رأوا عبد العزيز ولىّ عهد ... وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزَحلِفها بأزْفَلِهـا إليه ... أميرَ المؤمنين إذا تشاء[(٢)]
فإن الناس قد مدوا إليه ... أكفهمُ وقد بَرِحَ الخلفاء
ولو قد بايعوه ولىّ عهد ... لقام الوزن واعتدل البناء

٤ — وقال جرير فى هذه البيعة[(٣)] :

إذا قيل أىُّ الناس خيرٌ خليفةً ... أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحقّ النـاس كلِّهمُ بهـا ... وما ظَلَموا إن بايعوه وسارعوا

٥ — وأيد جرير سليمان فى الترويج لولاية ابنه أيوب بدلا من أخيه يزيد[(٤)]

---

(١) ديوان جرير ٨ والنقائض ٣٥١ .
(٢) زحلفها : ادفعها . أزفلها : كلها .
(٣) الديوان ٣٥٧ .
(٤) الديوان ٣٤ .

— ٤ —

فى المهـــدية

عرفنا من دراستنا للشيعة أنهم يعتقدون فى رجعة المهــدى المنتظر ، ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، وأنهم يدينون بالرجعة منذبث عبد الله بن سبأ زعمه أن عليا لم يمت ، وأنه سيرجع ، ويكذبون موت بعض أئمتهم ، وينتظرون عودتهم .

وعرفنا أن عقيدة الرجعة لم تنحصر فى دوائر الشيعة ، بل تعدتهم إلى كثير من المسلمين ، حتى لقد راجت الفكرة عند كثير من أهل السنة ، وروج لدعوى مقابلة لها خالد بن يزيد ، إذ ادعى أن السفيانى سيظهر ويرد الحكم إلى البيت السفيانى ، لما سطا على الخلافة مروان بن الحكم ، فانتقلت الخلافة إلى البيت المروانى .

ولعل من الأسباب فى ذيوع العقيدة المهدية بين طوائف المسلمين أنهم استراحوا إليها ، لأنها تعزيهم عما ينزل بهم من مظالم الحكم ومعاطب الفرقة والثورات التى لا تخمد نارها .

وقد تأثر بعض شعراء البيت الأموى بعقيدة المهدية التى كانت من معالم الشيعة فى أول الأمر ، فوصف بعضهم الخليفة الأموى بأنه المهدى المنتظر ، وعزا إليه صفات روحية مثل التى عزاها الشيعة إلى أئمتهم

وقد يكون مرد هذا إلى أنه نوع من مقابلة الدعوى بمثلها ، فإذا كان شعراء الشيعة أو دعاة السفيانية يتوقعون مجىء إمام منهم يملأ الأرض عدلا ، فإن شعراء البيت المروانى الأموى لا يتوقعون مجيئه فحسب ، بل يقررون أنه هو الخليفة القائم ، وبهذا يوقعون اليأس فى قلوب الشيعة وقلوب الذين يميلون إلى عقيدتهم فى رجعة الإمام ، ويوئسون دعاة السفيانية ، فتضعف قوة هؤلاء وهؤلاء ، وتفتر حماستهم ، وتهدأ ثوراتهم .

١ — من ذلك قول الفرزدق[١] فى سليمان بن عبد الملك إنه المهدى الذى ذكرته التوارة ، وبشرت به القسس ، وإن خلافته خير ونعمة وعزة للإسلام والمسلمين :

أنت الذى نَعَتَ الكتابُ لنا — فى ناطق التوراة والزُّبُرْ
كم كان من قسٍّ يُخَبِّرنا — بخلافة المهدى أو حَبْرْ[٢]
جعل الإله لنا خلافته — بُرْءَ القروح وعِصْمةَ الجُبْر
كم حلَّ عنا عَدْلُ سُنَّته — من مَغْرَمٍ ثِقْلٍ ومن إصْر[٣]

٢ — وقول جرير[٤] فى سليمان أيضا يصفه بالعدل ، وبأنه المهدى الذى يجير من الظلم،وينفذ الشريعة :

سليمانُ المباركُ قد علمتم — هو المهدىُّ قد وضَحَ السبيل
أجرْتَ من المظالم كلَّ نفسٍ — وأدَّيتَ الذى عَهِدَ الرسول
صَفَتْ لك بيعةٌ بثبات عهد — فوزنُ العدل أصبح لا يميل

٣ — ولما أراد سليمان أن يعهد إلى ابنه أيوب بدلا من أخيه يزيد أيد جرير[٥] الفكرة ، ووصف سليمان وابنه بأنهما إمامان ، يستمدان الحكم من الله ، فهما خليفتاه فى الأرض كما يعرف أهل الزبور وأهل التوراة :

إن الإمام الذى تُرْجَى نوافُله — بعد الإمام ولىُّ العهد أيُّوبُ
الله أعطاكُمُ من عِلْمه بكُمُ — حُكْما وما بعد حكم الله تعقيب
أنت الخليفةُ للرحمن يعرفه — أهلُ الزَّبور وفى التوراة مكتوب
كونوا كيوسف لما جاء إخوته — واستعرفوا قال:ماف اليوم تثريب
الله فضّله والله وفّقه — توفيقَ يوسف إذ وصّاه يعقوب

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٢٧ . (٢) حبر : عالم أو صالح .
(٣) إصر : ذنب . (٤) الديوان ٤٣٢ (٥) الديوان ٣٤ .

٤ — وفى مدح جرير[١] لهشام بن عبد الملك تكرير للفكرة نفسها ، فقد وصف هشاما بأنه المهدى الذى يعتصم به الناس ، ويستمطرون ، وبأنه مؤيد من الله ، وبأن المسلمين أطاعوه راضين لأنه إمامهم ، وقد تباشروا بحكمه ، لأنه عزٌّ للدين وتنفيذٌ لتعاليمه:

إلى المهــــدىِّ نفزع إن فزعنا ونَسْتَسْقِى بغُرَّته الغـــماما
وحَبْلُ الله تعصمكم قواه فلا تخشى لعروته انفصـــاما
رضينا بالخليفـــة حين كنا له تَبَعًا وكان لنـــا إماما
تبـاشرت البـــلاد لـكم بحكم أقام لنـا الفرائض واستقاما

— ٥ —

مع الولاة

أقام بنو أمية فى الأمصار والأقاليم ولاة من قبلهم ، ينوبون عنهم فى الحكم ، ويقود بعضهم الجيوش فى الفتح ، وإخماد الثورات .

وقد عظمت مكانة بعضهم ، حتى قصدهم الشعراء ، فمدحوهم ، ونالوا جوائزهم . وأعجب الشعراء بالقواد الذين أرسَوْا قواعد الملك ، وحموه من الصَّدْع بانتصارهم على الثائرين ، وبتوغلهم فى الفتح .

١ — مدح حارثة بن بدر زيادا بأنه نعم أخو الخليفة ووزيره ، لأنه حاكم عادل حازم ماهر فى تصريف الأمور ، وقال إنه مؤيد بنصر الله ، وبأنه يلتزم حدود الله ، وإن حكمه خير على الناس ؛ لأنهم ينعمون فى عهده بالثراء والأمن والمساواة . ثم وصفه بأنه كالمطر الذى ينزل على الأرض العطشى فيحييها ، وقال إنه تولى الحكم فى زمن فسد ناسه ، وتفاقمت شرورهم ، فاستطاع أن يقر الأمن والعدل بسيفه . وسماه سيف الله ، ووصفه بأنه قوى ماض مجرب مبرأ من طيش الفتيان ومن ضعف الشيوخ :

---

(١) الديوان ٥٠٥ .

قال حارثة[١] :

ألا من مُبلغٌ عنى زيادا   فنعم أخو الخليفة والأمير
فأنت إمام مَعْدِلة وقَصْد   وَحزْم حين تحضرك الأمور
أخوك خليفةُ الله ابن حرب   وأنت وزيره نعم الوزير
تصيب على الهوَى منه ويأتى   محبّك ما يَجُنُّ لنا الضمير
بأمر الله منصور مُعانٌ   إذا جار الرعية لا تجور
يَدِرُّ على يديك لما أرادوا   من الدنيا لهم حَلَبٌ غزير
وتَقْسِم بالسَّواء فلا غنىٌّ   اضَيمْ يشتكيك ولا فقير
وكنتَ حيا وجئت على زمان   خبيثٍ ، ظاهرٌ فيه شرور
تقاسمت الرجالُ به هواها   فما تُخْفِى ضغائنهَا الصدور
وخاف الحاضرون ، وكلُّ بادٍ   يقيم على المخافة أو يسير
فلما قام سيف الله فيهم   زيادٌ قام أبلجُ مستنير
قوىٌّ لا من الحِدْثان غِرٌّ   ولا جَزِعٌ ولا فانٍ كبير[٢]

٢ — مدح الحطيئة والى المدينة لمعاوية سعيد بن العاص بهذه القصيدة، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، ثم أنشده قصيدة أخرى فأعطاه عشرة آلاف أخرى . وكان سعيد سيدا ماجدا كريما ، يقصده الشعراء وطلاب العطاء[٢] . والحطيئة فى مدحه لسعيد يذكرنا بمدائح الشعراء الجاهليين للأمراء والأشراف ، لأنه لم يعرض فى مدحه لأية فضيلة مما أكسبه الإسلام للناس ، أو مما يوجبه الإسلام على الولاة والحكام :

لعمرى لقد أمسى على الأرض سائسٌ   بصيرٌ بما ضرَّ العدوَّ أريبُ

(١) الطبرى ٦/١٢٦ (٢) الحدثان : جمع حدث وهو الفتى .
(٢) الأغانى ١٦/٣٩ .

جرىءٌ على ما يكره المرء صَدْرَه ... وللفاحشات المُنْدِياتِ هَيُوب[١]
سعيدٌ وما يَفْعَلْ سعيدٌ فإنه ... نجيبٌ فَلاه فى الرِّباط نجيب[٢]
سعيدٌ فلا تَغْرُرْكَ خفةُ لحمه ... تَخَدَّد عنه اللحم وهو صَليب
إذا خاف إصعادا من الأمر صدرُه ... عَلاه فبات الأمر وهو رَكوب
إذا غاب عنا غاب عنا ربيعُنا ... ونُسْقَى الغمامَ الغرَّ حين يئوب
فنعم الفَتَى نَعْشُو إلى ضوء ناره ... إذا الريح هبَّتْ والمكانَ جديب[٣]

٣ — كان العُدَيْل بن الفَرْخ قد هجا الحجاج ، ومدح يزيد بن المهلب ، فلج الحجاج فى طلبه ، فتوسط العديل ببكر بن وائل ، فشفعوا فيه ، فمدح الحجاج بأنه استل سيفه لنصرة الحق وحمايته ، وأهاب بأهل العراق أن يهبوا لنصرته على الثوار ، وقال إن الحجاج جبار على أهل الفتن ، يقظ لمؤامرات الثائرين ، فهم فى رهبة واضطراب، كأن بين ضلوع كل منهم قطاة تحاول أن تتخلص من حبالتها ، لأنهم يعلمون أن عينه ساهرة يقظة يرقبهم بها ، كالصقر الذى يرقب الطير وهو على نَشَز :

دَعُوا الجبن يا أهل العراق فإنما ... يُهان ويُسْبَى كلُّ من لا يقاتلُ
لقد جرَّد الحجاج للحق سيفه ... ألا فاستقيموا ، لا يَميلنَّ مائل
وخافوه ، حتى القوم بين ضلوعهم
كَنَزْوِ القطا ضُمَّتْ عليه الحبائل[٤]
وأصبح كالبازِى يُقلِّب طرفه ... على مَرْقَبٍ والطير منه رواحل[٥]

---

(١) يكره صدره : يكره لقاءه ومواجهته .
(٢) نجيب : كريم حسيب . فلاه : فطمه والمراد اختاره ورباه .
(٣) نعشو إلى ناره : نقصدها فى الليل من بعيد .
(٤) نزو القطا : وثوبها وقفزها . الحبائل : الشباك .
(٥) البازى : الصقر .

٤ — وقال أيضاً :

فلو كنتُ فى سَلْمَىْ أجاً وشِعابِها | لكان لحجاج علىَّ دليلُ[(١)]
بَنَى قبة الإسلام حتى كأنما | هَدَى الناسَ من بعد الضلال رسول
إذا جار حكمُ الناس ألجأ حُكْمَه | إلى الله، قاضٍ بالكتاب عَقول[(٢)]
خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه | لكل إمام صاحبٌ وخليل
به نصر الله الخليفةَ منهمُ | وثَبَّت مُلكاً كاد عنه يزول
فأنت كسيف الله فى الأرض خالدٍ | تصول بعون الله حين تصول
إذا ما أتتْ بابَ ابن يوسفَ ناقتى | أتتْ خيرَ مَنْزُولٍ به ونزيلِ
وما خفتُ شيئاً غير ربى وحده | إذا ما انتحيتُ النّفس كيف أقول
ترى الثقلَيْن الجنَّ والإنس أصبحا | على طاعة الحجاج حين يَصول

لقد كان الشاعر فيما مضى يستهين بصولة الحجاج ، لأن يده لن تناله كما قال . أما الآن بعد أن ضاقت به الأرض ، ونبا به كل مهرب ، فإنه مستسلم إلى أن الحجاج لن يفلت من يده هارب ، ويقول إنه لو فر إلى نجد واختبأ فى الجبل لكان للحجاج عليه دليل ، ثم يمدحه بفضائل شتى .

٥ — قال جرير فى مدح الحجاج[(٣)] إنه أخمد نار المنافقين ، وأقر العدل ، ومنع الرشا ، وقضى على اللصوص ، وآمن الحجاج فى طرقاتهم :

مَنْ سَدَّ مطْلَعَ النفاق عليكمُ | أم من يَصُولُ كصولة الحجاج ؟
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا | ماضى البصيرة واضحُ المنهاج
ماضٍ على الغَمَرات يُمْضِى هَمَّهُ | والليلُ مختلف الطرائق داجى[(٤)]

---

(١) سلمى أجا : أجا وسلمى جبلاطيء فى نجد .
(٢) ألجأ حكمه إلى الله : اسنده إليه وأستمده من أحكامه . عقول : كثير التعقل .
(٣) ديوان جرير ٩٠ (٤) الغمرات : الشدائد . داج : مظلم .

مَنعَ الرّشا وأراكمُ سبُلَ الهدى
والاصُّ نكّله عن الإدلاج[١]
ولقد كسرتَ سنانَ كل منافق ولقد منعتَ حقائب الحجّاج[٢]

٦ — وكذلك مدح الفرزدق[٣] الحجاج بمثل ما مدحه به جرير :

ولم أر كالحجاج عَوْنًا على التُّقَى ولا طالبا يوما طريدةَ تابلِ[٤]
بسيفٍ به لله تَضرب مَنْ عَصَى
على قَصَر الأعناق فوق الكواهل[٥]
شفيتَ من الداء العراقَ فلم تَدَعْ به ريبةً بعد اصطفاق الزلازل[٦]
وكنا بأرض يابن يوسف لم يكن يبالى بها ما يرتَشِى كلُّ عامل
وما تُبْتَغى الحاجاتُ عندك بالرشا
ولا تقتضى إلا بما فى الرسائل
وما الناس إلا فى سبيلين منهما سبيلٌ لحق أو سبيلٌ لباطل

٧ — لازم أيمن بن خُرَيم عبد العزيز بن مروان والى مصر مدة ، ثم دخل يوما نُصَيْب ، فأنشد عبد العزيز قصيدة امتدحه بها ، فأعجبته ، فأقبل على أيمن فقال : كيف ترى شعر مولاى هذا ؟ قال أيمن : هو أشعر أهل جلدته . قال عبد العزيز : هو أشعر منك . فاستأذنه أيمن ، وانصرف إلى بشر بن مروان ، ومدحه بقوله[٧] :

ركبتُ من المقطّم فى جمادى إلى بشر بن مروان البريدا

---

(١) الإدلاج : السرى .
(٢) منعت ... : حميت أموالهم من السلب .
(٣) ديوان الفرزدق ٦٩٥ .
(٤) طريدة تابل : هاربا من ثأر .
(٥) القصر : الأعناق .
(٦) اصطفاق الزلازل : اضطراب الفتن .
(٧) الأغانى ٢١ / ٨ .

ولو أعطاك بشرٌ ألف ألف رأى حقا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقِمْ بِبِشْرٍ عمود الدين إن له عمودا
ودَعْ بشرا يقوِّمهم ويُحْدِثْ لأهل الزَّيْغِ إسلاما جديدا

٨ — أشاد الشعراء بالقواد الفاتحين منذ عهد معاوية إلى أن تواكل المسلمون عن الفتح ، فنوهوا بمهارتهم وشجاعتهم وحسن بلائهم ، وتباهوا بالنصر وسعة الملك ، ووصفوا بعض ما شاهدوا فى البلاد المفتوحة ، فإذا كانت هزيمة حزنوا ، وإذا ما دبت فرقة بين العرب الفاتحين دعوهم إلى الوئام ، وحذروهم جرائر الانقسام. وفى كتب التاريخ ولا سيما الطبرى كثير من الأمثلة .

منها قول الأشقرى فى فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلى :

كلَّ يوم يحوى قُتَيْبَةُ نَهْبَاً ويزيد الأموال مالا جديدا
باهلىٌّ قد أُلبس التاجَ حتى شاب منه مفارقٌ كنَّ سودا
دوَّخ السُّغْدَ بالكتائب حتى ترك السُّغْدَ بالعراء قعودا
كلما حلَّ بلدةً أو أتاها تركتْ خيله بها أخدودا

— ٦ —

على الولاة

هنالك ضرب آخر من الشعر ، لا يشيد بولاة بنى أمية ، وإنما يحمل عليهم ، ويُقَبِّح سياستهم ، وبعضه شكوى للخليفة منهم ومن جورهم .

١ — فالعُدَيْل بن الفَرْخ هجا الحجاج ، واستهان بوعيده ، فى قوله(١) :

أُخَوَّف بالحجاج حتى كأنما يُحرَّك عظمٌ فى الفؤاد مَهيض(٢)

---

(١) الأغانى ٢٠/١١ وتهذيب الكامل ١/١٧٨ .
(٢) مهيض : مكسور .

وَدُونَ يد الحجاج من أن تنالنى   بساط لأيدى الناعجاتِ عريض[1]

مهامه أشباهٌ كأن سرابَها

مُلاء بأيدى الغاسلات رَحيضُ[2]

٢ — وحمل عليه فى قصيدة مدح بها يزيد بن المهلب[3] :

لئن أرْتَجَ الحجاج بالبخل بابه

فبابُ الفتى الأزدِىّ بالعُرف يُفتَحُ

وليس كعِلْجٍ من ثمودَ بكفِّهِ

من الجود والمعروف حزمٌ مُطَرَّحُ[4]

لكن هذا الشاعر آثر السلامة ، فاستشفع إلى الحجاج ببكر بن وائل ، ومدحه كما سبق .

٣ — وهنالك شعراء آخرون لم يكونوا من أصحاب المذاهب والأحزاب ، هجوا الحجاج وهربوا منه ، مثل مالك بن الرَّيْب المازنى القائل[5] :

إن تنصفونا يالَ مروانَ نقترب   إليكم وإلا فأْذَنُوا ببعادِ
فإن لنا عنكم مَزاحاً ومَرْحلا   بعيسٍ إلى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهبٌ   وكلُّ بلاد أو طِنَتْ كبلادى
فماذا ترى الحجاجَ يَبْلُغ جَهْدُه   إذا نحن جاوزنا حفير زياد؟
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف   كما كان عبدا من عبيد إياد

---

(١) الناعجات : النوق البيض السريعة .

(٢) مهامه : صحارى . رحيض : مغسول .

(٣) الأغانى ٢٠ / ١١ (٤) الفتى الأزدى : يزيد بن المهلب . العلج : العير والحمار وحمار الوحش السمين والكافر من العجم . من ثمود : راجع ترجمة الحجاج فى هذا الكتاب لتعلم أن فى نسبه أقوالا منها أنه من قبيلة ثمود .

(٥) تهذيب الكامل ١ / ١٨١

زمانَ هو العبد المقرُّ بذلة　　يراوح صبيان القرى و ينادى(١)

٤ — والراعى يشكو بلسان قومه بنى نمير إلى عبد الملك بن مروان من جباة الصدقات ، فى قصيدة(٢) ، منها :

أبلغْ أمير المؤمنين رسالة　　تشكو إليك مَضَلَّةً وعويلا
أخليفةَ الرحمان إنا معشر　　حُنفاء نسجد بكرةً وأصيلا
عُرْبٌ نرى للهِ فى أموالنا　　حق الزَّكاة مُنَزَّلا تنزيلا
إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم　　وأتوا دواهى لو علمتَ وغُولا(٣)
أخذوا العريفَ فقطّعوا حيزومه　　بالأَصْبَحِيَّة قائمـا مغلولا(٤)
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا　　لم يفعلوا مما أمرت فَتيلا(٥)
فادفع مظـالم عيَّلَتْ أبناءنا　　عنا وأنقِذْ شِلْونا المأكولا(٦)

٥ — قال كعب بن معدان الأشقرى لعمر بن عبد العزيز ، يحضه على ردع الظلمة من عماله(٧) :

إن كنت تحفظ ما يَليك فإنما　　عُمّـال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذى تدعو له　　حتى تُجلَّد بالسيوف رقاب(٨)
بأكفّ مُنْصَلِتِين أهل بصائر　　فى وقْعِهن مَزاجرٌ وعِقاب(٩)

---

(١) يراوح صبيان القرى : لأنه كان هو وأخوه أو أبوه معلمين بالطائف (راجع ترجمته) .
(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٥٥ .　　(٣) الغول : المهلكة والداهية .
(٤) العريف : شيخ القبيلة . حيزومه : وسطه . الأصبحية : جمع أصبحى وهو السوط نسبة إلى ذى أصبح وهو ملك يمنى .
(٥) الفتيل : خيط فى شق النواة والمراد أتفه شىء .
(٦) عيلت : أجاعت . شلو : عضو .　　(٧) البيان والتبيين ٣ / ٣٥٨ .
(٨) تجلد : تضرب وأصل الجلد والتجليد ضرب الجلد .
(٩) متصلتين : ما ضين فى الأمور . أهل بصائر : البصائر : جمع بصيرة ومن معانيها الثأر وكل ما يلبس من السلاح . وقعهن : الضمير عائد على السيوف .

٦ — وقال له شاعر آخر[1] :

إن الذين بعثتَ في أقطارها   نبذوا كتابك واستُحِلّ المحرَّمُ
طُلْسُ الثياب على منابر أرضنا   كلٌّ يجورُ وكلهم يتظلّم[2]
وأردتَ أن يلىَ الأمانةَ منهمُ   عَدْلٌ ، وهيهات الأمين المسلم

خواص شعر الأمويين

— ١ —

السياسة الدينية

أما موضوع هذا الشعر ومجاله فهو السياسة بمعناها الكامل .

فقد تناول الشعراء في قصائدهم ما يتصل بالصراع الناشب بين الأمويين وخصومهم ، وتناولوا أيضا ما يتصل بالسياسة الأموية نفسها .

ونستطيع أن نجمل المظاهر السياسية في عدة ضروب :

١ — حاول كثير من شعرائهم أن يضفوا على خلافتهم هالة من الدين ، فلهجوا بأنهم الحكام الذين اختارهم الله لخلافته على المسلمين ، وأيدهم بنصره ؛ لأنهم أفضل العرب وأجدرها بالحكم .

ووصفهم آخرون بأنهم يقتفون في حكمهم سنن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبأنهم القوام على حماية الإسلام ، وأيدهم آخرون بأنهم ورثة عثمان .

نجد هذا في قول العجاج يمدح يزيد بن معاوية :

إنْ زُلزِلَ الأقوامُ لم تُزَلْزَلِ   عن دين موسى والرسول المرسل
وكنت سيف الله لم يُفَلَّلِ   يفرع أحيانا وحينا يختلي

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٥٩ .
(٢) طلس الثياب : ثيابهم مغبرة ، يريد أنها قذرة كناية عن عدم العفة . يتظلم : يظلم .

وفى قول جرير :

يا آل مروان إن الله فضلكم فضلا عظيما على من دينُه البِدَعُ

وهو يريد بأهل البدع منافسى بنى أمية من شيعة وخوارج وزبيريين .

وفى قول الأحوص يمدح الوليد بن عبد الملك :

تخيَّره رب العباد لخلقه وليًّا وكان الله بالناس أعلما

وفى قول الأخطل :

وأنتمُ أهل بيت لا يوازنهم بيتٌ إذا عُدَّت الأحساب والعَدَدُ

وبالغ الفرزدق فزعم أن الله اصطفاهم للخلافة ، وأنه لو كان بعد النبى نبى لكان يزيد هو النبى ، ودعاه بأنه خليل الله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبىٌّ لهم منهم لأَمْرِ العزائم
لكنت الذى يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثِّقال العظائم
ورِثتم – خليلَ الله – كلَّ خِزانة وكلَّ كتابٍ بالنبوة قائم

٢ — وحملوا على خصومهم جميعا ، وكفَّروهم ، لأنهم — فى رأيهم — عصاة للحكام المختارين ، منشقون على الجماعة ، مقوضون للوحدة .

فأعشى همدان فى مدحه للحجاج يصف ابن الأشعث بالكفر :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ويطفئْ نور الفاسقين فَيَخْمُدا
ويَنْزِلَ ذلٌّ بالعراق وأهله لِما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
فقتلاهم قتلى ضـــلالٍ وفتنة وحيُّهمُ أمسى ذليلا مُطَرَّدا

والطفيل بن عامر يصف الخوارج بالكفر فى قوله :

وما قطرىُّ الكفرِ إلا نعامةٌ طريدٌ يدوِّى ليله غير نائم

وكعب الأشقرى يقول فيهم :

إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا دينا يخالف ما جاءت به النُّذُر

وأعشى ربيعة يصف الزبيريين بأنهم غواة :

قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغُواة أطلتمُ إمهالها

ويصفهم عدىّ بن الرقاع بالنفاق :

إذا ما منافق أهل العرا ق عوتب ثَمَّتَ لم يُعتَب

والفرزدق يقول إن ابن الزبير كذاب :

بعد الفساد الذى قد كان قام به كذاب مكة من مكر وتخريب

وكعب بن جابر الأزدى يقول إن الحسين وأتباعه على دين غير دين الشاعر وبنى أمية :

معى يَزَنِىٌّ لم تخنه كعوبه وأبيض مخشوب الغِرارَيْنِ قاطع
جَرَّدْته فى عصبة ليس دينهم بدينى وإنى بابن حرب لقانع

٣ — وشارك بعضهم فى السياسة الأموية نفسها ، فناصر أميرا على أمير ، وعضد الخليفة فى تنحية العهد عن ولى إلى آخر ، كما ترى فى ترويج مسكين الدارمى لبيعة يزيد ، وفى تأييد نابغة بنى شيبان لعبد الملك إذ أراد خلع أخيه وتولية ابنه ، وفى مؤازرة جرير للوليد بن عبد الملك فى خلع أخيه وتولية ابنه .

٤ — وفى شعر بعضهم ادعاء بأن الخليفة الأموى هو المهدى المنتظر الذى جاء لينشر راية العدل والسلام بين الناس ، إما لأنهم قد تأثروا بعقيدة الشيعة كما تأثر بها كثير من المسلمين ، وإما لأنهم يردون على دعوى الشيعة بمثلها ، ويوئسونهم ويوئسون من تأثروا بهم من رجعة إمام شيعى ، ليضعفوا حماسهم ، ويقوضوا أملهم ، ويستريحوا من ثوراتهم .

وقد سبقت أمثلة من ذلك للفرزدق وجرير .

٥ — على أن شعراء السياسة جالوا فى ميدان آخر يتصل بالولاة و قواد ،

فتارة يمدحونهم ويخايلون بهم ، كما سبق فى مدحة حارثة بن بدر لزياد ، وفى مدح كعب الأشقرى لقتيبة بن مسلم ، وفى مديح جرير للحجاج[1] .

وتارة يشكون منهم إلى الخلفاء ، أو يحملون عليهم ويهجونهم ، كما سبق فى هجاء العُدَيل بن الفرخ ومالك بن الرَّيْب للحجاج ، وفى نصح كعب بن معدان الأشقرى لعمر بن عبد العزيز أن يتدارك عماله الجائرين :

وفى ديوان الفرزدق هجاء مقذع لزياد والحجاج وغيرهما .

— ٢ —

غلبة المظهر السياسى على الدينى

ليس فى احتجاجهم تدليل على استحقاق بنى أمية للخلافة معتمدٌ على الدين أو المنطق ، كالذى نجد فى شعر الشيعة بخاصة .

لهذا جعلوا يشيدون بأن الله اختارهم وآزرهم ، وجعلوا يصفونهم بأنهم حراس على الدين ، وبأنهم أفضل قريش .

وهذه دعاوى خطابية ، لاسند لها من الدين نفسه ، ولا من المنطق .

ثم أكثروا من وصف الخلفاء وولاتهم وقوادهم بالمقدرة على سياسة الرعية ، والبراعة فى تدبير شئون الملك ، والقضاء على الفتن والثورات ، ووصفوهم بالشجاعة والكرم ، وأشادوا بمظاهر عظمتهم ومجدهم فى الجاهلية والإسلام .

وإذاً فالطابع العام لشعرهم يغلب فيه المظهر الملكى السياسى على المظهر الدينى .

ولعل السبب فى هذا أن بنى أمية لم يقيموا ملكهم على أساس دينى يستمدون منه حقهم فى الحكم ، كما فعل الشيعة والخوارج والزبيريون .

---

(١) ديوان جرير ١٦ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ٣٩٧ ، ٣٤٩ .

أما الشيعة فقد اعتمدوا على أن الرسول أوصى لعلىّ أن يخلفه وهم ورثة علىّ .

وأما الخوارج فقد احتجوا بأن الإسلام دين المساواة ، فلا يصح أن تنحصر الخلافة فى قريش .

وأما الزبيريون فقد ثاروا على معاوية ويزيد وعبد الملك ، لأن معاوية خالف الدين ، فعهد إلى ابنه ، وصير الخلافة كسروية أو قيصرية ، واستأثر بفىء المسلمين ، وآثر به أهله ، على حين أن ابن الزبير أولى بالخلافة من يزيد .

ويظهر أن ذلك كان أحد الأسباب فى أن خلفاء بنى أمية — ماعدا عمر بن عبد العزيز — أولوا الشئون السياسية والحربية والإدارية همهم ، ولم يحفلوا كثيرا بعلماء الدين .

نعم إنهم تركوا رجال الدين أحراراً فى تدريسهم وفى فتاواهم ، وتركوا القضاة أحرارا فى أحكامهم وفى قضاياهم ، لكنهم قلما قرّبوا العلماء إليهم ، ووثقوا صلتهم بهم ، كما فعلوا مع الزهرى ، حتى ليخيل إلى الدارس أن هناك سلطتين منفصلتين ، سلطة سياسية حاكمة تولاها الخلفاء وولاتهم ، وسلطة دينية نهض بها العلماء والقضاة

ولقد يزداد هذا وضوحا إذا ماخطونا إلى العصر العباسى ، ووازنا بين الحالين ، ذلك أن العباسيين أقاموا ملكهم على أساس دينى ، وصبغوا خلافتهم صبغة دينية ، فكان اتصال الخلفاء برجال الدين وثيقا ، فقد قرب أبو جعفر المنصور علماء الدين وأكرمهم ووصلهم ، وحمل المهدى على الزنادقة وجدّ فى تعقبهم والتنكيل بهم ، واصطفى الرشيد أبا يوسف للاستنارة بآرائه ، وأجهد المأمون نفسه فى مناصرة المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، واشتهر بمناقشاته للعلماء ومناظرتهم .

ومن هنا اصطبغت سياستهم بالدين ، وظهر أثرهم قويا فى التشريع « فنظام الرى ، ونظام الضرائب ، وحفر الترع ، وجباية الأموال ، ونظام الدواوين ، كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضى كتابه الخراج ، ويُستفتى فيها الفقهاء ، ويجتهدون فيها اجتهادا دينيا . وهكذا كل مادق من الأمور وعظم

مرجعه فتوى المفتين وقضاء رجال الدين . وهذا من غير شك يجعل مهمة الفقهاء شاقة واسعة النطاق » [١] .

— ٣ —

أصداء دينية :

صبغ بعض شعرائهم مدائحهم وحملاتهم على الخصوم بألوان دينية[٢] .

ولهذا وصفوا الخلفاء والولاة بأنهم القائمون على صياغة الإسلام ، ورعاية مصالح الشعب ، وتحقيق العدل والمساواة بين الناس ، والسهر على الأمن ، والضرب على أيدى المفسدين والثائرين واللصوص والمرتشين ، ومدحوهم بالتقوى وتلاوة القرآن والحفاظ على سنة الرسول ، والزهد فى متع الحياة .

ووصفوا خصومهم بالكفر والنفاق والضلال والكذب والإفساد فى الأرض ،

وهذا كله تجديد مبعثه الإسلام :

نجد هذا فى مدح حارثة بن بدر لزياد :

فأنت إمام مَمْدَلَةٍ وقَصْدٍ وحَزْم حين تَحْضُرك الأمور
بأمر الله منصور مُعـــان إذا جار الرعية لا تجور

وفى مدح العجاج ليزيد بن معاوية :

إن زُلزل الأقوام لم تُزَلْزَلِ عن دين موسى والرسول المرسل

وفى مدح جرير للمهاجر بن عبد الله [٣] .

ولقد حكمتَ فكان حكمك مُقْنِعا وخُلِقْتَ زَيْنَ منابرٍ ومساجدِ
وإذا الخصوم تبادروا أبوابَه لم يَنْسَ غائبهم لخصم شاهد

---

(١) ضحى الإسلام ٣/١٦٣

(٢) راجع النماذج .

(٣) ديوان جرير ١٢٥ .

والمعتدون إذا رأوك تَخَشَّعوا   يخشون صولة ذى لُبودٍ حارد
ترك العُصاةَ أذِلَّةً فى دينه   والمعتدين وكلُّ لص مارد
مستبصرٌ فيها على دين الهُدَى   أَبْشِرْ بمنزلة المقيم الخالد

فى هذه الأبيات مدح بفضائل إسلامية ، فالحاكم الممدوح عادل أرضى بعدله الناس ، خطيب يزين المنابر ، إمام صالح يؤم المسلمين فى المساجد ، أو يجلس فيها للفصل وقضاء الحاجات ، وهو قاض منصف لا يقضى لشاهد على غائب ، وحاكم حازم مرهوب من الثوار وأهل الفتن ، طالما ضرب على أيديهم ، فاستقر الأمن ، واطمأن الشعب ، وهو يسير فى حكمه على نهج الدين ويأخذ نفسه بتعاليمه .

وفى مدحه لعبد الملك :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه   ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين أمين الله لا سَرِفٌ   فيما وَلِيتَ ولا هَيَّابةٌ وَرِعُ

وفى مدحه لهشام بن عبد الملك :

رضينا بالخلافة حين كنا   له تبعاً وكان لنا إماما
تباشرت البلاد لكم بحكم   أقام لنا الفرائض واستقاما

وفى مدحه للحجاج :

مَنَعَ الرُّشا وأراكم سُبُل الهُدَى   واللصُّ نَكَّله من الإدلاج
ولقد كسرتَ سِنان كل منافق   ولقد مَنَعْتَ حقائب الحُجاج

وفى مدحه لعمر بن عبد العزيز(١) :

أنت المباركُ والمهدىُّ سيرته   تَعْصى الهوَى وتقوم الليلَ بالسُّوَرِ
أصبحت للمنبر المعمور مجلسُه   زَيْنا وزَيْنُ قباب المُلْك والحُجَر

(١) الديوان ٣٥٧ .

نال الخلافة إذ كانت له قَدَرا كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ
فلن تزال لهذا الدين ما عمروا منكم عمارةُ مُلْك واضح الغُرر

وتجده فى مدح الفرزدق لسليمان بن عبد الملك :

جعل الإله لنا خلافته بُرْء القُروح وعِصْمة الجَبْر
كم حَلَّ عنا عَدْل سنته من مَغْرَم ثِقْلٍ ومن إصْر

وفى مدحه للحجاج :

ولم أر كالحجاج عونا على التُّقَى ولا طالبا يوما طريدةَ تابِلِ(١)

والذى يظهر من هذا ونظائره أن المدح لم يعد مقصورا على الكرم والشجاعة والنجدة والبأس ، وإنما امتد إلى فضائل أخرى يدعو إليها الإسلام ويرتضيها .

فلولا الإسلام ما أشاد المادحون بهذه الصفات ، ولولا الإسلام مامدح كُثَيِّرٌ عمر بن عبد العزيز بأنه ورع ، تتعرض له الدنيا بمفاتنها فيزهد فيها ويجتويها ، لأنه يؤثر الآخرة عليها ، ويشترى ما يبقى بما يفنى .

قال كُثَيِّر(٢) :

وصدَّقْتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيتَ فأمسىَ راضيا كلُّ مسلم
وقد لَبِستْ لبسَ الهَلُوك ثيابَها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصم(٣)
وتُومِضُ أحيانا بعين مريضة وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنظَّم(٤)
فأعرضتَ عنها مشمئزا كأنما سقتك مَدُوفا من سِمام وعلقم(٥)
تركتَ الذى يَفْنى وإن كان مُونِقا وآثرتَ ما يبقى برأى مُصمِّم

(١) طريدة تابل : هاربا من ثأر . (٢) ديوان كثير ٢/١٢٣ .
(٣) الهلوك : المتهالكة على الرجل تريد أن تفتنه .
(٤) عين مريضة : عين ساحرة فاترة آسرة . الجمان : الفضة .
(٥) مدوفا : مزيجا مخلوطاً . سمام : سم .

— ٤ —

النفعية والاضطرار :

غلبت النفعية على شعرائهم ، فكان أكثرهم من طلاب المال ، والمتطلعين إلى الشهرة ، وإلى شرف الاتصال بالخلفاء والحاكمين ، وكان بعضهم من الراهبين الذين يريدون الاعتذار عن مناصرتهم لأحزاب أخرى .

لهذا لا نجد إلا قلة من الشعراء الذين يصح أن نصفهم بالوفاءالخالص لبنى أمية ، كأبى العباس الأعمى مولى بنى الدِّيْل ـ فارسى من أذربيجان ـ فقد أبدع فى مدحهم أحياء ورثاهم وتفجع عليهم أمواتا ، ولم يقبل عطاء من الخليفة العباسى المنصور ، وقال إن مروان بن محمد أغنانى عن السؤال بعده(١) .

ومن المخلصين لبنى أمية أبوصخر الهُذَلى ، فقدمدح عبد الملك بن مروان وأخاه عبد العزيز ، ولما وفد مع قومه على عبد الله بن الزبير أعطاهم وحرمه عطاءه ، لأنه أموى النزعة ، فرد عليه الشاعر مفضلا بنى أمية ، فسجنه ابن الزبير ، ثم شفعت فيه هذيل ، فأطلقه(١) .

أما طلاب المال فقد جهر بعضهم بالطلب كجرير .

من ذلك قوله لعبد الملك (٢) :

أغثنى يا فــداك أبى وأمى ... بسَيْبٍ منك إنك ذو ارتياح
سأشكر إن رددت علىَّ ريشى ... وأنبتَّ القــوادمَ فى جناحى

وقوله لعمر بن عبد العزيز(٤) :

إنى لآملُ منك خيرا عاجلا ... والنفسُ مولعةٌ بحبٍّ العاجل

---

(١) الأغانى ١٥/٥٩ .
(٢) الأغانى ٥/٦٥.
(٣) الديوان ٩٨ .
(٤) الديوان ٤١٥ .

والله أنزل فى الكتاب فريضةً　　لابن السبيل وللفقير العائل

وكذلك الفرزدق جهر بطلب المال ، فى مدحته[١] لهشام بن عبد الملك ، لكنه ألبس هذا الطلب دعوى ، هى أنه سيأخذ المال ليفرقه على الأقارب والأباعد ، لأنهم يرون أن لهم على الخليفة حقا واجب الأداء :

ومن أين أخشى الفقر بعْدَ الذى التَقى　　بكفيك من معروف ما أنا طالبُهْ

فإن ذَنوبا من سِجالك مالئ　　حياضى فأفرِغ لى ذَنوبا أنا هِبُه

أنا هِبُه الأدْنَيْنَ والأ بعَدَ الذى　　أتاك به من أبعد الأرض جَالبُه

وما منهمـا إلا يَرىَ أن حقه　　عليك له يابن الخـلائف واجبه

وكذلك طلب من الوليد بن يزيد [٢] ، ومن الوليد بن عبد الملك[٣] .

وشكر بعضهم بعد العطاء ، كقول بُكَيْرْ بن الأخْنَس فى آل المهلب[٤] :

نزلت على آل المهلب شـاتيا　　فقيرا بعيد الدار فى سنة مَحْل

فما زال بى إلطافهُـم وافتقادهم　　وإكرامهم حتى حسبتهُمُ أهلى

وقد أشاد بخلفاء بنى أمية وبولاتهم وقوادهم شعراء كانت لهم نحلة سياسية أخرى عرفوا بها .

بعضهم شيعى ، وبعضهم خارجى ، وبعضهم زبيرى .

١ — فمن الشيعة الكُمَيْت [٥] ، وهو شاعر الشيعة المقدم ، وصاحب ديوان (الهاشميات) .

---

(١) الديوان ١/١٠٠　　(٢) الديوان ١/٧
(٣) الديوان ١/٨٩ .　　(٣) البيان والتبيين ٣/٢٣٣ .
(٥) راجع ترجمة فى هذا الكتاب .

ومنهم أيمن بن خُرَيْم ، مدح والى مصر عبد العزيز بن مروان — من قبل أبيه مروان بن الحكم ثم من قبل أخيه عبد الملك — وغادره إلى العراق ، فمدح بشر بن مروان ، وكذلك مدح عبد الملك ، وعمه يحي بن الحكم .

ومنهم كُثَيِّر عَزَّة ، كان على تشيعه مداحا لخلفاء بنى أمية ، وكان يطربهم مدحه .

ومنهم الفرزدق ، مدح عبد الملك وأخاه بشرا ، ومدح سعيد بن العاص وغيرهم من بنى أمية .

٢ — ومن شعراء الخوارج عبد الله بن الحجاج .

٣ — ومن الزبيريين إسماعيل بن يَسَار ، وعبد الله بن قيس الرُّقَيَّات(١) ، فقد كان زبيرى الهوى ، خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك ، فلما قتل مصعب جعل عبد الملك يطلبه حتى قبض عليه ، ثم آمنه . وهو القائل فى مدح بنى أمية(٢) :

ما نَقَموا من بنى أمية إلا أنهم يَحْلُمون إن غَضِبُوا
وأنهم معدِن الملوك ولا تَصْلُح إلا عليهم العرب(٣)

فكيف مدح هؤلاء الشعراء بنى أمية ؟

هل كان مذهبهم السياسى عميق الأثر فى نفوسهم ؟ ثم كان ثناؤهم على بنى أمية صدى لعاطفة صادقة ؟

إن الجمع بين العاطفتين — حب بنى أمية وبغضهم — غير مستطاع .

وإذاً فلابد من تعليل آخر لهذه الظاهرة ، ولعلنا لا نعدو الحق إذا ماذهبنا إلى أن بعض هؤلاء قد اضطروا إلى مدح بنى أمية ، لتسلم لهم حياتهم المهددة ، ويقضوا بقية عمرهم فى أمن واستقرار ، وبعضهم كان طامعا فى العطاء وفى الزُّلْفَى .

فالكميت متشيع عميق الإيمان بمذهبه ، لكنه اضطر إلى مدح عبد الملك ،

---

(١) راجع ترجمته فى هذا الكتاب .

(٢) البيان والتبيين ٣/٣٦١ .   (٣) معدن الملوك : أصلهم .

بعد ماجدٌ فى طلبه للقضاء عليه . وما من شك فى أنه صادق فى حبه للشيعة ومناصرته لهم ، ومتكلف فى مدحه بنى أمية .

أما الشعراء الآخرون من الشيعة، فكانوا مدفوعين بالطمع ، أو مؤثرين للتقية، والتقية أساس من أسس المذهب الشيعى تجيز المراءاة .

وهذا الاضطرار الذى عللت به مدح الكميت لبنى أمية ينطبق على ابن قيس الرقيات .

على أنى أضيف إلى الاضطرار وإلى الطمع تعليلا آخر ، ينطبق على بعض الشعراء الحزبيين ، هو أنهم لم يكونوا قد أشربوا مذاهبهم السياسية كما أشرب الكميت مذهب الشيعة الزيدية ، أو كما اعتنق ابن قيس الرقيات مذهبه الزبيرى ، أو كما استمسك عمران بن حِطّان بمذهب الخوارج ، فقد آثر عمران أن يفر مختفيا على أن يشيد ببنى أمية ولو مضطراً ، وهو الذى مر على الفرزدق يوما ، فقال :

أيها المادحُ العبادَ ليعطَى إن لِله ما بأيدى العبـــاد

— ٥ —

المبالغة والافتنان :

لهذا كله اتسم شعرهم السياسى بالافتنان فى العبارة والخيال ، واتسم بالمبالغة فى المدح ، لأن أكثرهم استوحوا عقولهم لا عواطفهم ، ولأنهم أرادوا أن يُلوِّنوا صفات المدح التى سبقهم بها المادحون منذ الجاهلية ، فجاءت الألوان فى كثير من الأحيان خارجة على المألوف فى الصدق أو القرب من الصدق .

ثم إن كثيرا منهم كانوا يتبارون فى إرضاء الخلفاء ، ويتنافسون فى نيل عطاياهم ، وكان التفضيل لأجودهم مدحا ، وأعظمهم إشادة ، وهـذا جرهم إلى التزيد والتهويل والتجويد .

ولعل عبد الملك كان يحس بما نحسه الآن ، إذ قال لجماعة من الشعراء[١] : تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ، ومرة بالجبل الوعر ، ومرة بالبحر الأجاج ، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خُرَيْم فى بنى هاشم :

نهارُكمُ مكابدةٌ وصومٌ   وليلُكمُ صلاة واقتراء
وَلِيتُم بالقُران وبالتزكِّى   فأسرع فيكمُ ذاك البلاء
أأجعلكم وأقواما سواءً   وبينكمُ وبينهمُ الهواء ؟
وهم أرضٌ لأرجلكم وأنتم   لأرؤسهم وأعينهم سماء

وأرجح أن عبد الملك أعجب بما فى أبيات أيمن هذه ، وبما فى أبياته التى لم أذكرها ، من صدق فى القول ، ووصف للحال الواقعة ، إذ كان الشيعة كما وصفهم أيمن .

وذُكر بمجلسه زهير وهرم ، فقال : ما يضر من مدح أن يمدح بمثل قول زهير

على مُكثِريهم حقٌّ من يَعتريهمُ   وعند المُقِلِّين السماحة والبَذْل

على أن شعراء الحزب الأموى لم يقصروا شعرهم على السياسة ، بل لم يقتصر شاعر منهم على السياسة ، لأنهم تناولوا جميعا فنونا شتى ، على حين أن كثيراً من شعراء الخوارج وقفوا شعرهم على نصرة مذهبهم ، وما يتصل به ، ولم يتعدوه إلى غيره من فنون الشعر .

(١) الأغانى ٢١/٦ .

الفصل الثاني

شعر الشيعة

— ١ —

حب آل البيت

تعبد الشيعة بحب آل البيت ، وتمكن هذا الحب من قلوبهم ، فصار كأنه ركن من أركان الإسلام ، لأنهم اعتقدوا أن حب علىّ وآل علىّ مظهر من مظاهر حبهم لله تعالى ولنبيه عليه الصلاة والسلام .

١ — هذا أبو الأسود الدؤلى يعلن حبه للرسول ولعميه عباس وحمزة ولابن عمه علىّ ، ويعلل لهذا الحب بأنه تابع لحبه لله ، وهو حب متأصل فى نفسه منذ شرح الله صدره للاسلام ؛ ما انحرف يوما وما فتر ، وما اعوج وما نقص ، وإنه لمطمئن النفس إلى أنه سيبعث يوم القيامة على هذا الحب . ثم يعرج على بعض الشمانية الذين كانوا يلومونه فى حبه لعلىّ ، فيصفهم بالسماجة والخسة ، ويرد عليهم بأن أحب الناس كلهم إليه هم أبناء عم النبي وأقاربه ، وبأنه ثابت على حبه لهم ، موقن بصوابه فى اختياره، على أنه إذا كان حبه لآل البيت رشادا فى نظر لائميه فقد هدى إلى هذا الرشاد وأصابه، وإذا كان ضلالا فى نظرهم فإنه صواب ورشاد فى نظره .

١ — قال أبو الأسود الدؤلى(١) :

أحب محمدا حبا شديدا　　　وعباسا وحمزة والوصِيّا(٢)

---

(١) تهذيب الكامل ١ / ٢٩ .

(٢) الوصى : على بن أبى طالب .

أحبهمُ لحب الله حتى أجيء إذا بُعثتُ على هَوِيّا
هوًى أُعْطِيتُهُ منذ استدارت رحى الإسلام لم يَعْدِلْ سَوِيا[1]
يقول الأرذلون بنو قُشَيْرٍ[2] طَوالَ الدهر ، ما تنسى عليا ؟
بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهمُ إليا
فإن يك حبهم رَشَداً أُصِبْه ولست بمخطىء إن كان غَيّا

٢ — وهذا حرب بن المنذر بن الجارود ، يقنع من دنياه باليسير القليل من الطعام الذى يقيم أوده ، ويقنع من أخراه بكفن من الكتان ، وحسبه من دنياه وأخراه أنه يحب أقارب النبي ، استجابة للآية الكريمة : « قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

قال حرب بن المنذر بن الجارود[3] :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني وأثواب كَتَّانٍ أزورها قبرى[4]
وحُبِّي ذوى قُرْبَى النبي محمد فما سَالَنا إلا المودةَ من أجر[5]

٣ — قال كَثير بن كَثير[6] السَّهْمى — شاعر مُحَدَّث كان يتشيع — لما سمع عمال خالد القَسْرِى يلعنون عليا والحسن والحسين على المنابر :

لعن الله من يَسُبُّ عليا وحُسَيْنا من سوقة وإمام
أَيُسَبُّ المطَيَّبون جدودا والكرامُ الأخوال والأعمام[7]
يأمَنُ الظبيُ والحمامُ ولا يأ مَنُ آل الرسول عند المقام[8]

---

(١) لم يعدل : لم ينحرف . السوى : السواء الذى سوى الله خلقه .
(٢) بنو قشير : كانوا عثمانية وكان أبو الأسود نازلا فيهم ، وكانوا يرمونه بالليل .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ . (٤) كفاف : قوت على قدر الحاجة .
(٥) سالنا : سألنا التخفيف والهمز بمعنى واحد .
(٦) ديوان كثير بن كثير ١/٢٦٦ طبعة الجزائر ونسب قريش ٤٠٧ والتهذيب ٨/٤٢٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ٣٤٨ والمؤتلف والمختلف ١٦٩ والحيوان للجاحظ ٣/١٩٤ وفى البيان والتبيين ٣/٣٥٩ أن القائل عبد الله بن كثير السهمى .
(٧) المطيبون : المطهرون . (٨) المقام : الحرم كله أو الحجر الذى قام عليه إبراهيم عند بناء البيت ، وهو أسود وأكبر من الحجر الأسود .

طِبْتَ بيتا وطاب أهلك أهلا أهلُ بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم كلما قام قائمٌ بسلام

٤ — فلما عابوه بذلك الرأى قال (١) :

إن امرأ أمسَتْ معايبُه حُبّ النبي لغيْرُ ذى ذَنْبِ
وبنى أبى حَسَن ووالدِهم من طاب فى الأرحام والصُّلب
أيُعَد ذنبا أن أحبهم بل حبُّهم كفارة الذنب

٥ — مدح الحزين الكنانى — عمرو بن عبيد بن وُهَيب — على بن الحسين بقوله (٢) :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحَرَمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهمُ هذا التّقى النّقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
وليس قولك مَنْ هذا بضائره العُرْبُ تعرف من أنكرت والعجم
يُغْضى حياء ويُغْضَى من مهابته فما يكلّم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحه عَبِقٌ من كف أرْوَعَ فى عرنينه شَمَم
يكاد يُمْسكه عرفانَ راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشقُّ ثوب الدجا عن نور غُرّته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظُّلَم

---

(١) البيان والتبيين ٣/٣٦٠ .

(٢) وتروى القصيدة لداود بن سلم فى قثم بن عبد الله بن العباس وتروى للحزين الكنانى (عمرو بن عبيد) فى مدح عبدالله بن عبدالملك بن مرون ، وتنسب للعين المنقرى فى مدح على بن الحسين (زهر الآداب ١/٦٥ والأغانى ١٩/٤٠ ويقال إن هشام بن عبد الملك كان يطوف بالبيت ، فأراد أن يستلم الحجر فلم يقدر ، فنصب له منبر جلس عليه . وبينا هو كذلك أقبل على بن الحسين فطاف ، فتنحى له الناس هيبة وإجلالا ، فغاظ ذلك هشاما فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى أكرمه الناس وعظموه ؟ فقال هشام : لا أعرفه . لئلا يعظم فى نفوس أهل الشام . فقال الفرزدق — وكان حاضرا — هذه القصيدة .

من معشر حبهم دين و بغضهم　　كفرٌ وقربهم مَنْجًى ومُعْتصم
إن عُدَّ أهلُ التُّقَى كانوا أئمتهم　　أو قيل من خير أهل الأرض قيل هُمُ

٦ — كان السيد الحميرى (إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ الحميرى) متشيعا على مذهب الكيسانية ، يقول بإمامة محمد بن الحنفية ، ويسب السلف ، ولولا مافى شعره من سبهم ما تقدمه أحد من طبقته[1] ، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية . يقول[2] :

إنى امرؤ حميرىٌّ غيرُ مُؤْتَشَب
جَدِّى رُعَيْنٌ وأخوالى ذوو يزن[3]
ثم الولاء الذى أرجو النجاة به　　يوم القيامة للهادى أبى الحسن

— ٢ —

فى رثائهم ورثاء أنصارهم

فَقْدُ الأحباب فاجعة تنوء النفوس بآلامها ، فيجىء رثاؤهم ملتاع الزفرات ، ملتهب العبرات .

وكذلك كان رثاء الشيعة لأئمتهم وقادتهم وأنصارهم ؛ لأنه صدر عن حب ووفاء ، وكثيراً ما صدر عن الحب والوفاء والتفجع على القتلى ، والحزن على الحق المهضوم ، والنقمة على الغاصب المعتدى .

١ — رثى أبو الأسود الدؤلى على بن أبى طالب بقوله[4] :

ألا أبلغْ معاوية بن حرب　　فلا قَرَّتْ عيونُ الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا　　بخير الناس طُرًّا أجمعينا ؟

---

(١) الأغانى ٧ / ٢　　(٢) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٠ .
(٣) مؤتشب : بفتح الشين ليس صريح النسب . رعين : ذو رعين ملك من ملوك اليمن ، ورعين حصن له . ذو يزن : المراد أبناء ذى يزن والد سيف أحد ملوكهم ، وهو الذى استنقذ اليمن من حكم الحبش بمعاونة جيش كسرى أنو شروان .
(٤) مروج الذهب ٣ / ٤٤ .

قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبسَ النعال ومَنْ حَذاها ومن قرأ المثانى والمبينا
إذا استقبلْتَ وجهَ أبى حسين رأيت النور فوق الناظرينا
لقد عَلِمتْ قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسباً ودينا

٢ — كان حُجْر بن عَدِىّ من شيعة علىّ الأوفياء ، شهد معه موقعة الجمل وصفين والنهروان ، ولام الحسن فى صلحه لمعاوية . فلما كان الأمر لمعاوية بايعه حُجْر فيمن بايعوه ، ولكن حبه لعلى لم ينقص ، ومضى فى حياته كما كان مؤمنا تقياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان ينكر على بنى أمية شتمهم لعلى وأصحابه ، ويجهر بهذا ، ويحاول أن يرد المغيرة بن شعبة والى الكوفة لمعاوية عن هذا السب ، وكان المغيرة لا يؤاخذه .

فلما مات الحسن وقام الحسين بالحجاز ، تزعم حجر معارضة بنى أمية ، واستمر فى نهيه المغيرة عن شتم علىّ ، لكن المغيرة لم يؤاخذه .

وإذ تولى زياد الكوفة لم يكتم حجر أمره ، بل جعل يعارضه فيما يرى من انحراف عن الدين ، فقبض عليه زياد وعلى ثلاثة عشر من أتباعه ، واضطر زياد بعض أهل الكوفة على أن يشهدوا بأن حجرا وصحبه قد خلعوا طاعة معاوية وتأهبوا لحربه ، وذكر فى كتاب الشهادة أسماء نفر لم يشهدوا ، وأرسل حجرا وصحبه إلى معاوية ، فأمر بألا يدخلوا دمشق ، وحبسوا بمرج عذراء ، ثم عفا عن خمسة منهم ، وعرض على الثمانية أن يبرأوا من علىٍّ فأبوا ، فأخذ رجال معاوية يقتلونهم ، فطلب اثنان أن يحملا إلى معاوية ، وبرئ أحدهما من علىٍّ فلم يقتل ، وأما الآخر فأسمع معاوية ما يكره لنفسه ولعثمان ، فرده إلى زياد فدفنه حيا .

وكان لمقتل حجر وصحبه رنات أسى فى نفوس المسلمين ، حتى إن السيدة عائشة كادت تخرج لتقود الثورة لولا خشيتها أن تتجدد كارثة الجمل .

رثت هند بنت زيد بن مَخْرَمَه — وكانت تتشيع — حجـر بن عدى ، أورثته ابنته فقالت (١) :

---

(١) الطبرى ٦/١٥٧ ومروج الذهب ٢/٥٤ والأغانى ١٦/١٠ .

ترفَّعْ أيها القمر المنــير   تبصَّرْ هل ترى حُجْرا يسير ؟
يسير إلى معاوية بن حرب   ليقتله كما زعم الأمــير[1]
ويصلبه على بابَىْ دمشق   وتأكل من محاسنه الطيور
تَجبَّرتِ الجبـابر بعد حُجْر   وطاب لها الخوَرْنق والسَّدير
وأصبحت البلاد لها مَحُولا   كأن لم يُحْيِها مُزن مطير
ألا يا حُجرُ حُجْرَ بنى عدِىٍّ   تلقَّتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أرْدَى عَدِيًّا   وشيخا فى دمشق له زئير[2]
يرى قتلَ الخيار عليه حقًّا   له من شر أمّته وزير
ألا يا ليت حجرا مات موتا   ولم يُنْحَرْ كما نحر البعير
فإن تَهلك فكل زعيم قوم   من الدنيا إلى هُلْك يصير

٣ — وقال يرثيه عبد الله بن خليفة الطائى (٣) — وكان من أنصاره ، وقد طلبه زياد بن أبيه :

فدعْ عنك تذكارالشباب وفَقْدَه   وأسْآره[4] إذ بان منك فأقصرا
وبكِّ على الخلاَّن لما تُخُرِّموا   ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
وما كنت أهوى بعدهم مُتعَلَّلا   بشىء من الدنيا ولا أن أُعَمَّرا
أقول ولا والله أنسَى ادِّكارهم   سَجِيسَ الليالى أوأموتَ فأُقْبَرا[5]
على أهل عَذْراء السلامُ مضاعفا   من الله وليَسْقِ الغَمامَ الكَنَهْوَرا[6]

---

(١) الأمير : زياد والى الكوفة .   (٢) الشيخ : معاوية .
(٣) الطبرى ٦/١٥٨ :   (٤) أسآره : جمع سؤر والمراد بقايا .
(٥) سجيس الليالى : أبدا . ادكارهم : تذكرهم .
(٦) الكنهور : السحاب المتراكم .

ولاقى بها حُجرٌ من الله رحمة
فقد كان أرضى الله حُجْرٌ وأَعْذرا
ولا زال تَهْطالٌ مُلِثٌّ وديمةٌ على قبر حُجر أو ينادى فيُحْشَرا
فيا حُجْرُ مَنْ للخيل تُدْمى نُحورها والمَلِكِ المُغْزى إذا ما تَغَشْمرا؟(١)
ومَنْ صادعٌ بالحق بعدك ناطق بتقوى ، ومَنْ إن قيل بالجور غيَّرا؟
فنِعْمَ أخو الإسلام كنتَ وإننى لأطمع أن تؤتَى الخلودَ وتُحْبَرا
وقد كنتَ تُعْطِى السيف فى الحرب حقه
وتعرف معروفا وتُنْكِرُ منكرا

٤ — قال عُبَيْدة الكندى يعير محمد بن الأشعث تخليه عن حجر ابن عدى(٢)

أسلمتَ عمك لم تقاتل دونه فَرَقاً ، ولولا أنت كان منيعا
وقتلتَ وافدَ آلِ بيتِ محمد وسلبتَ أسيافا له ودروعا
لو كنتَ من أسَدٍ عرفت كرامتى ورأيت لى بيت الحُباب شفيعا

٥ — قال عبدالله بن الأحمر يرثى الحسين ويحض على الثأر له(٣) :

صحوتُ وقد صَحَّوا الصِّبا والعواديا وقلت لأصحابى : أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعا : لبَّيْك لبيك داعيا
ألا وانعَ خير الناس جَدًّا ووالدا حُسَيْنا لأهل الدين إن كنت ناعيا
وأضحى حسينٌ للرماح دريئةً وغودر مسلوبا لدى الطَّفِّ ثاويا(٤)

---

(١) المغزى : الحامل على حربه والثورة عليه . تغشمر : ظلم
(٢) الطبرى ٦/١٦٠ : (٣) مروج الذهب ٢/١١٠ :
(٤) دريئة : هدف. الطف : موضع قرب الكوفة

فيا ليتنى إذ ذاك كنتُ شهدتهُ   فضاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبرا ضُمِّن المجد والتقى   بغربية الطَّف الغمامَ الغواديا
فيا أمةً تاهت وضلت سفاهةً   أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

٦ — قال عبيدالله بن الحرّ وقد رأى مصارع القوم بكربلاء :[1] .

يقول أمير[2] غادرٌ حقّ غادر   ألا كنتَ قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا نَدَمى ألا أكون نصرتُه   ألا كلُّ نفس لا تُسدَّد نادمه[3]
وإنى لأنى لم أكن من حُماته   لذو حسرة ما إن تفارقُ لازمه
سقى الله أرواح الذين تأزَّرُوا   على نصره سُقْيا من الغيث دائمه
وقفتُ على أجداثهم ومَجَالهم   فكاد الحشا ينفضُّ والعين ساجمه
لعمرى لقد كانوا مَصَاليتَ فى الوغى   سراعا إلى الهيجا حماةً حضارمه[4]
تأسَّوْا على نصر ابن بنت نبيهم   بأسيافهم آسادَ غِيلٍ ضراغمه
فإن يُقتَلوا فكل نفسٍ تقية   على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهمُ   لدى الموت سادات ٍ وزُهْرا قماقمه[5]
أتقتلهم ظلما وترجو ودادنا   فدع خُطةً ليست لنا بملائمه
لعمرى لقد راغمتمونا بقتلهم   فكم ناقم منا عليكم وناقمه[6]
أهمُّ مرارا أن أسير بجحفل   إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه[7]
فكُفُّوا و إلا ذُدْتُكم فى كتائب   أشدّ عليكم من زحوف الديالمه[8]

---

(١) الطبرى ٦/٢٧٠ ومروج الذهب ٢/٢٣٣ . (٢) يريد عبد الله بن زياد :
(٣) لا تسدد : لاتسلك الصواب والسداد :   (٤) مصاليت : جمع منصلت وهو الماضى فى الأمور . حضارمة : جمع حضرم وهو السيد الجواد
(٥) قماقة : جمع قمقام وهو السيد   (٦) راغمتونا : عاديتمونا
(٧) جحفل : جيش كبير   (٨) الديالمة : الديلم

— ٣ —

الاحتجاج للشيعة

١ — سلك الكميت فى الاحتجاج لهم مسلك المعتزلة فى تفكيرهم وتدليلهم على آرائهم ، معتمدا على القرآن الكريم وعلى القياس المنطق .

فهو إذ يدعو إلى البيت الهاشمى ، يذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام خير بنى هاشم ، وأن أقرب الناس إليه — وهم بنو هاشم — أحق بوراثته ، ويدلل على هذا الحق بآيات من القرآن الكريم ، ومن نظام التوريث فى الإسلام .

ثم يعلن أن بنى أمية اغتصبوا هذا الحق ، وصاروا يتوارثونه ، وهذا منكر يجب على المسلمين رده ، لأن بنى أمية معتدون على حق غيرهم ، مستحقون لعذاب الله .

على أن بنى أمية يناقضون أنفسهم ، لأنهم إذ يزعمون أن النبى لايورث . يدعون أنهم ورثة الخلافة .

ثم يذهب فى تفنيد زعمهم مذهبا عقليا آخر ، إذ يقول إن النبى لو لم يورث لكانت الخلافة حقا مشاعا للمسلمين جميعا ، لاحُكْرة لقريش ، ولصار من حق القبائل العربية المختلفة أن تطالب بها من شريفها إلى وضيعها ، ولكان الأنصار أولى الناس بها ، لأنهم هم الذين آووا ونصروا .

لكن هذا لم يحدث ، وإذاً فالخلافة منصب موروث ، وبنو هاشم هم المستحقون لها .

قال الكميت [1] :

---

(١) الهاشميات ٤٢ .

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم ... فلم أر غصبا مثله يتغصّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميمَ آية ... تأوّلها منّا تقىٌّ ومُعرِب
وفى غيرها آياً وآيا تتابعتْ ... لكم نصبٌ فيها لذى الشكُ منصب (١)
وقالوا ورِثناها أبانا وأمّنا ... وما ورّثتهم ذاك أمٌّ ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجبا ... سَفاها وحقُّ الهاشميين أوجب
ولكن مواريثُ ابن آمنةَ الذى ... به دان شرقىٌّ لكم ومُغرّب
وتُستخْلف الأموات غيْرَك كلهم ... ونَعتِب لو كنا على الحق نُعتَب
يقولون : لم يورَثْ ولولا تراثه ... لقد شَرِكتْ فيه بكيلٌ وأرحبُ (٢)
وعكٌّ ولخمٌ والسَّكونُ وحميرٌ ... وكندةُ والحيان : بكر وتغلب (٣)
ولا تنشلتْ عُضوين منها يُحابرٌ ... وكان لعبد القيس عضو مؤرّب (٤)
وما كانت الأنصار فيها أذلةً ... ولا غُيّبا عنها إذ الناس غُيب
هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ... ويوم حُنين والدماء تَصبّب
فإن هى لم تصلح لحىٍّ سواهمُ ... فإن ذوى القرْبى أحقُّ وأقرب

وقد جرى على طريقته مروان بن أبى حفصة فى العصر العباسى (٥)

---

(١) نصب منصب : جهد متعب .
(٢) بكيل وأرحب : من همدان من كهلان القحطانية .
(٣) أسماء قبائل يمنية ونزارية .
(٤) انتشلت : نالت وأخذت . يحابر : بطن من مراد من كهلان. عبد القيس : من جديلة من أسد ربيعة . مؤرب: كامل .
(٥) فى العصر العباسى احتج مروان بن أبى حفصة بمثل هذا الدليل فى تأييده العباسيين على العلويين ، إذا استمد برهانه من نظام الوراثة فى الإسلام ، فقال إن بنى البنات لا يرثون كوراثة الأعمام ، يريد أن أولاد فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوجة على لا يرثون كالعباس ابن عبد المطلب عم رسول الله ، وإذا فالعباسيون هم الأولون بالخلافة . قال مروان فى مدحة للمهدى لما عقد البيعة لابنه الهادى .

٢ — وقال فى نقض مذهب الخوارج : (١)

إنى أدين بمـا دان الوصى به   يوم النُّخيلة من قتل المحلِّينا(٢)
و بالذى دان يوم النهر دنت به   وشاركتْ كفّه كفىٍّ بصفّينا
تلك الدماء معاً يارب فى عنقى   ومثلهـا فاسقنى آمين آمينا

٣ — مدح أيمن بن خُرَيْم(٣) بنى هاشم بأنهم عباد يقضون نهارهم فى جهاد وفى صوم ، ويقضون ليلهم فى صلاة ودراسة للقرآن الـكريم ، وقال إن التزامهم أحكام القرآن ، وحرصهم على تطهير أنفسهم من الآثام ، باعدا بينهم وبين الخداع والدهاء واستحلال الحرام وتأريث الفتنه والقتال ، وكل ما من شأنه أن يوطد سلطانهم ، فـكان هذا هو السبب فى ضياع حقهم ، ونزول الـكوارث بهم . ثم عجب من أن يسوى أحد بينهم وبين بنى أمية، لأن بنى أمية فى الحضيض ، وهؤلاء فى الأوج :

نهاركمُ مكابدة وصوم   وليلـكم صلاة واقتراء
وليتم بالقران وبالتزكى   فأسرع فيكمُ ذاك البلاء
أأجعلـكم وأقواما سواء   وبينكمُ وبينهمُ الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم   لأرؤسهم وأعينهم سماء

= يابن الذى ورث النبى محمداً   دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين البنات وبينـكم   قطع الخصام فلات حين خصام
ماللنساء مع الرجال فريضة   نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام

لـكن شاعر العلويين محمد بن يحيى التغلبى رد على مروان ببرهان مثل برهانه فقال إن بنى البنات يرثون كالأعمام ، لأن البنت ذات نصيب فى تركة أبيها يصل أحيانا إلى النصف ، وفى بعض الأحيان لايرث العم معها :

لم لا يكون — وإن ذاك لـكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامـل من ماله   والعم متروك بغـير سهام

(الأغانى ٩/٩٤)

(١) تهذيب الـكامل ١/٨٦ .

(٢) المحلين : المراد الخوارج لأنهم خرجوا من عهد كانوا عليه أو أحلوا ماحرم عليهم أو لأنه يحل قتالهم . يوم النخيلة : موقعة بينهم وبين على بعد موقعة النهروان .

(٣) الأغانى ٢١/٦

— ٤ —

حملة على خصومهم

لم يكن بد من الحملة على خصوم الشيعة ، واتهامهم بالجور والاغتصاب والظلم والحيدة عن الدين .

وفى شعر الشيعة حملات على طلحة والزبير ؛ لأنهما خدعا عليا ، ونكثا بعهدهما، وحملات على بنى أمية وبنى مروان ؛ لأنهم عادون على حق الشيعة ، وحملات على عبد الله بن الزبير ؛ لأنه بعد مقتل الحسين جعل يدعو إلى نفسه ، ويناهض الشيعة وبخاصة الكيسانية أنصار محمد بن الحنفية .

١ — سجل الشنّى نقض طلحة والزبير لعهدهما مع على ، إذ قال يحرضه على أن يسير إلى الشام ليقضى على معاوية بعد أن فرغ من موقعة الجمل[1] :

قل لهذا الإمام قد خَبَتِ الحر　　ب وتَمَّتْ بذلك النعماء
وفَرَغنا من حرب من نكث العهـ　　ـد ، وبالشام حية صماء[2]
تنفُثُ السم ، ما لمن نهشتـ　　ـه — فارمها قبل أن تعض — شفاء

٢ — فى موقعة الجمل قام عمار بن ياسر بين الصفين ، فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم ، حيث كففتم نساءكم ، وأبرزتم عقيلة النبي للسيوف . وكانت عائشة على جمل فى هودج ، فدنا عمار منها ونادى : إلى ماذا تدعيننى ؟ قالت : إلى الطلب بدم عثمان . فقال لها : قتل الله فى هذا اليوم الباغى ، والطالب بغير الحق . ثم قال : أيها الناس ، إنكم لتعلمون أينا المالئ فى قتل عثمان ، وأنشد[3]

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى ١٥٣

(٢) من نكث العهد : طلحة والزبير . حية الشام : معاوية . بعد موقعة الجمل هلك طلحة والزبير

(٣) مروج الذهب ٢/٩

فمنكِ البكاء ومنك العويل   ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام   وقاتله عندنا من أمر

٣ — فى موقعة صِفِّين قال عمار بن ياسر : أيها الناس ، هل من رائح إلى الله تحت العوالى ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله ، كما قاتلناكم على تنزيله ، وتقدم وهو يقول : (١)

نحن ضربناكم على تنزيلهِ   فاليوم نضربكم على تأويلهِ
ضربا يزيل الهام عن مَقِيله   ويذهل الخليل عن خليلهِ
أو يَرْجِعَ الحق إلى سبيلهِ

٤ — قال أيمن بن خُرَيم بن فاتك الأسدى فى لوم أبى موسى الأشعرى على خديعته بحيلة عمرو بن العاص :

لو كان للقوم رأى يَعْصِمُون به   عند الخطوب رموكم بابن عباسِ
لكن رموكم بوَغْدٍ من ذوى يَمَنٍ   لم يدر ماضربُ أخماس بأسداس

٥ — قال ابن عباس :

أبا موسى بُلِيتَ وكنت شيخا   قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صِفاتُك يابن قيس   فيالله من شيـــــخ يمانى
فأمسيتَ العشية ذا اعتذار   ضعيف الركن منكوب العنان
تَعَضُّ الكف من ندم وماذا   يَرُدُّ عليك عضك بالبنان ؟

٦ — كانت فى هذا العصر منذ بدايته نقائض سياسية بين شعراء الأحزاب ، متفقة فى الوزن والقافية .

وقد تقدمت فى الشعر الأموى قصيدة كعب بن جُعَيْل التغلبى فى الدعاية لبنى أمية والحملة على علىّ أيام النزاع بين علىّ ومعاوية .

---

(١) مروج الذهب ٢/٢١   (٢) مروج الذهب ٢/٣٣

فلما قرأ على القصيدة قال للنجاشي : أجب ، فقال النجاشي قصيدة ينقض بها قصيدة كعب ، وينذر معاوية بأن أهل العراق والحجاز مؤيدون لعلى ، ولن يطيقهم معاوية ، ووصف شجاعتهم ، وذكره ببسالتهم يوم الجمل ، وقد أقسموا ليذيقُنّ أهل الشام هزيمة مرة تشيب نواصى الشبان ، وتهلع منها الحبالى ، فتضع كل ذات حمل حملها .

ثم عبر عن رضا العراقين والحجازيين بتولية علىّ ، وبأن يكون العراق مقر الحكم الإسلامى ، واستنكر أن يسوّى معاوية بعلىّ .

قال النجاشي[١] :

دَعَنْ يامُعاوىَ مالن يكونا فقد حقّق الله ما تَحْذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
على كل جرْداء خَيْفانةٍ وأشْعَثَ نَهْدٍ ، تَسُرُّ العيونا[٢]
عليها فوارسُ تحسَبُهُم كأسد العرين حَمَيْن العرينا
يرون الطعانَ خلال العَجاج وضربَ القوانسِ فى النَّقْع دينا
همُ هزموا الجمعَ جمعَ الزُّبَيْر وطلحةَ والمعشر الناكثينا
وقالوا : يمينا على حَلْفةٍ لنُهْدِى إلى الشام حربا زَبونا
تُشيب النواصىَ قبل المشيب وتُلْقِى الحواملُ منها الجنينا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق فقِدْما رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعبٍ أخى وائل ومن جعل الغَثَّ يوما سمينا
جعلتم عليًّا وأشياعه نظير ابن هند أما تستحونا ؟

---

(١) تهذيب الكامل ١ / ٤٠ .
(٢) جرداء : قصيرة الشعر سباقة . خيفانة : جرادة والمراد الفرس الضامرة السباقة . نهد : فرس حسن جسيم مشرف ممتلىء .

٧ — قال يزيد بن مُفَرِّغ الحميرى لما استلحق معاوية زيادا بأبى سفيان[١] :

ألا أبلــغ معاوية بن حرب　　مُغَلْغَلةً عن الرجل اليمانى[٢]
أتغْضَبُ أن يقال أبوك عفٌ　　وتَرْضَى أن يقال أبوك زانى ؟
فأشْهَدُ أن رِحْمك من زياد　　كرِحْم الفيل من ولد الأتان[٣]

٨ — قال خالد النجارى فى هذا[٤] :

إن زيادا ونافعـــا وأبا　　بَكْرَةَ عندى من أعجب العَجَبِ
إن رجالا ثلاثة خُلِقُوا　　من رِحْم أنثى مخالفو النسب[٥]
ذا قرشىٌّ فيما يقول وذا　　مَوْلى ، وذا ابن عمه عربى

٩ — حمل عبد الله بن هشام السَّلُولى على بيعة معاوية لابنه يزيد فى قوله[٦] :

فإن تأتوا برَمْلة أو بهند　　نبايعهــا أميرةَ مؤمنينا[٧]
إذا ما مات كسرى قام كسرى　　نعــدُّ ثلاثة متناسقينا
فيا لَهْــفا لو ان لنا ألوفا　　ولــكنْ لا نَعُــود كما عنينا
إذاً لضُرِبتمُ حتى تعودوا　　بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا　　دماء بنى أمية ما رَوِينا
لقد ضاعت رعيتــكم وأنتم　　تصيدون الأرانب غافلينــا

١٠ — قال الكميت فى الحملة على بنى أمية :

---

(١) الطبرى ٦ / ١٧٧ . (٢) رسالة مغلغله : محمولة من بلد إلى بلد ، ذائعة .
(٣) الرحم : القرابة . وهو يشير بقرابة الفيل من الحمار إلى خرافة كانت معروفة ، فقد زعموا أن الحمار والفيل اجتمعا فى مرعى ، فطرد الفيل الحمار ، فقال له : لماذا تطردنى مع اشتباك الرحم بينى وبينك ؟ قال الفيل : من أين هذا الرحم ؟ قال الحمار : من أن فى ... شبها من خرطومك . فقبل الفيل هذه القرابة ، فسار بها المثل ، فقيل كرحم الفيل من الحمار .
(٤) مروج الذهب ٢ / ٥٧ (٥) الرحم بكسر الراء وفتحها بيت الولد .
(٦) مروج الذهب ٢ / ٧٠ (٧) رملة وهند : بنتا معاوية .

فقل لبنى أمية حيث حلُّوا ... وإن خفت المهنَّدَ والقَطيعا[1]
ألا أفٍّ لدهر كنتُ فيه ... هِداناً طائعاً لكمُ مُطيعا[2]
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبَعَ مَنْ بجوركم أجيعا
ويَلْعَنُ فذَّ أمتِه جهاراً ... إذا سَاسَ البريّة والخليعا[3]
بمرضِيّ السياسة هاشميٍّ ... يكون حياً لأمته ربيعا[4]
وليثاً فى المشاهد غيرَ نِكْسٍ ... لتقويم البرية مستطيعا[5]
يقيم أمورها ويَذُبُّ عنها ... ويترك جَدْبَها أبداً مَرِيعا[6]

١١ — كثيراً ما كان الكميت يمزج مدحه للهاشميين بحملته على الأمويين فيصف الشيعة بالعدل، ويصف بنى أمية بالجور، ويصف الشيعة بحسن السياسة وكمالها، ويصف الأمويين بأنهم ساسة جبارون، ينظرون إلى الشعب نظرة الراعى الغاشم لضأنه وإبله، لايبتغى منها إلا النفع لنفسه، فهو يشرب لبنها، ويأكل لحمها، ويجزصوفها، ومع ذلك يَعنُف عليها، ويكثر من صياحه الزاجر، كقوله[7].

القريبين من نَدًى والبعيدي ... ن من الجور فى عُرَى الأحكامِ
راجحِى الوزنِ كاملى العدل فى السِّيـ ... ـرة طَبِّين بالأمور الجسام[8]
ساسة لا كَمَنْ يرى رِعيةَ النا ... س سواءً ورِعْيةَ الأنعام[9]
لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بَعْدُ أو كهشام
رأيه فيهمُ كرأى ذوى الثلّـ ... ـةِ فى الثائجات جُنْحَ الظلام[10]

---

(١) المهند : السيف . القطيع : السوط . (٢) الهدان : الجبان .
(٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح والمراد معاوية أول خلفاء الأمويين . الخليع : المراد الوليد بن عبد الملك . (٤) حيا : مطرا وخيرا .
(٥) نكس : جبان . (٦) المريع : الخصب . (٧) الهاشميات ٣
(٨) الطب : الخبير . (٩) الأنعام : الإبل والشاء .
(١٠) الثلة : جماعة الغنم . الثائجات : جمع ثائجة وهى الصائحة من الغنم .

جَزُّ ذى الصوف وانتقاء لذى المُخَّـ ـةِ ، وانعَقْ ودَعْدِعًا بالبِهام[(١)]
فهمُ الأرأفون بالناس فى الرأ فة والأحلمون فى الأحلام
أخذوا القَصْدَ واستقاموا عليه حين مالت زوامل الآثام[(٢)]

١٢ — وقال الكميت حينما عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان ، وضمها إلى خالد القسرى [(٣)] سنة ١١٦ هـ ، فولاها خالد أخاه أسد ابن عبد الله :

ألا أبلِـغْ جماعة أهل مَرْوٍ على ما كان من نأى و بُعْدِ
رسالة ناصح يُهدى سلاما ويأمر فى الذى ركبوا بجدٍّ
وأبلغْ حارثا عنا اعتذارا إليه بأن مَنْ قِبَلى يجَهْد[(٤)]
ولولا ذاك قد زارتك خيل من المِصْرَيْن بالفرسان تَرْدِى[(٥)]
فلا تهِنوا ولا ترضوا بخَسْف ولا يغررْكم أسدٌ بعِهدٍ[(٦)]
وكونوا كالبغايا إن خُدِعتم وإن أقررتمُ ضيما لوعد
وإلا فارفعوا الرايات سُودا على أهل الضلالة والتعدى
فكيف وأنتمُ سبعون ألفا رماكم خالد بشبيه قرد[(٧)] ؟

١٣ — حمل كُثَيِّر عزة على عبد الله بن الزبير لما حبس محمد بن الحنفية وبعض شيعته فى سجن عارم بمكة ، حينما راجت الدعوة له فى العراق بزعامة المختار بن أبى عُبَيْد ، ولما علم أن جيشا من أنصار ابن الحنفية يستعد للهجوم على السجن وإطلاق

---

(١) ذو المخة : الذى بعظمه مخ كناية عن سمنه . انعق : صح بها وازجرها ، دعدع بالغنم : دعاها . البهام : أولاد الضأن والمعز .
(٢) زوامل الآثام : الزاملة التى يحمل عليها من الإبل وغيرها ، والمراد بميل زوامل الآثام ثقلها وكثرتها
(٣) الطبرى ٨ / ٢٢٢
(٤) الحارث بن سريج والى خراسان ، خلع وولى مكانه عاصم بن عبد الله .
(٥) تردى : تسرع
(٦) أسد بن عبد الله أخو خالد.
(٧) شبيه قرد : المراد أسد بن عبد الله الوالى .

السجناء ، أمر بأن يملأ السجن حطباً وتضرم فيه النار ، وما كادت النار تشتعل حتى وصل نفر من أنصار ابن الحنفية فاستنقذوه ومن معه .

قال كثير فى حملته :

فمن يَرَ هذ الشيخَ بالخيْف من مِنًى   من الناس يعلمْ أنه غير ظالم
سمىُّ النبى المصطفى وابنُ عمه   وفكاك أغلال ونفَّاع غارم
أبىَ فهو لا يَشْرِى هُدًى بضلالة   ولا يتقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه   حُلولا بهذا الخيْف خَيْفِ المحارم
بحيث الحمامُ آمِنُ الرَّوْع ساكن   وحيث العدو كالصديق المسالم
فما فَرَح الدنيا بباقٍ لأهله   ولا شدة البَلْوَى بضربة لازم
تُخَبِّر من لاقيتَ أنك عائذ   بل العائذ المظلوم فى سجن عارم[1]

١٤ — فى عهد هشام بن عبد الملك ، استعد زين بن على بن الحسين للثورة بالكوفة ، وكان واليها يومئذ يوسف بن عمر الثقفى ، فقتل زيدا سنة ١٢٢ ھ ثم نبش قبره ، وصلبة بالكُناسة ، وبعث برأسه إلى هشام ، فأمر به فنصب على باب دمشق ، ثم أرسل به إلى المدينة ، وبقى الجسد مصلوبا حتى مات هشام ، ثم أمر الوليد فأنزل وأحرق .

ولما وصل رأس زيد إلى المدينة سنة ١٢٣ ھ قام بحياله شاعر من شعراء الأنصار ، فقال[2] :

ألا يا ناقضَ الميثا   ق أبشرْ بالذى ساكا[3]
نقضتَ العهدَ والميثا   ق قِدْماً كان قد حاكا[4]
لقد أخلف إبليسُ الـ   ـذى قد كان منَّاكا

(١) عائذ: كان ابن الزبير يسمى العائذ ، لأنه عاذ بالبيت أيام ثار على يزيد بن معاوية

(٢) الطبرى ٨/٢٧١ — ٢٧٨   (٣) ساكا : ساءك .

(٤) حاك : تردد أى الغدر .

فقيل له ويلك ، أتقول هذا لمثل زيد ؟ فقال : إن الأمير غضبان ، فأردت أن أرضيه .

فرد عليه شاعر من الزبدية بقوله :

ألا ياشاعر السّوء لقد أصبحتَ أفّاكا
أتشتم ابنَ رسول الله وتَرْضى من تولاّكا ؟
ألا صبّحك الله بخزْيٍ ثم مسّاكا
ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا

١٥ — قال السيد الحميرى [1] فى لعن خِراش بن حَوْشب الشيبانى ، وهو فيما قيل كان من جند يوسف بن عمر ، وهو الذى نبش قبر زيد بن على بن الحسين وصلبه بالكناسة ، بعد هزيمته فى ثورته التى ثارها على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ :

بتُّ ليلى مُسَهَّدا ساهر الطرف مُقْصَدا
ولقد قلتُ قولةَ وأطلتُ التّبلّدا
لعن الله حَوْشَبًا وخِراشا ومَزْيدا
ويزيدا فإنه كان أعتَى وأعندا
ألف ألف وألف ألـ ـفٍ من اللعن سَرْمدا
إنهم حاربوا الإلـ ـهَ وآذوا محمدا
شرِكوا فى دم المطهّـ ـر زيدٍ تعنُّدا
ثم عالَوْه فوق جِذْ عٍ صريعا مجرّدا
ياخِراشَ بْنَ حَوْشبٍ أنت أشقى الورى غدا

---

(١) شاعر أدرك الدولتين ، عاش فى الأموية ٢٧ عاما .

١٦ — ومازالت الحملات على بنى أمية تتوالى ، حتى بعد زوال دولتهم وقيام دولة بنى العباس ، ولعل من أشدها قاله دِعْبِل بن على الخزاعى — ولد سنة ١٤٨ هـ — فى قصيدته التائية المذهبة التى قصد بها أبا على بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه بردة من ثيابه ، سامها أهل قُمّ بثلاثين ألف درهم ، فلم يبعها ، فقطعوا عليه الطريق ليأخذوها ، فقال لهم : إنها تراد لله عز وجل ، وهى محرمة عليكم . فدفعوا له ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها إلا إذا أعطوه بعضها ليكون فى كفنه ، فأعطوه كُمًّا واحدا منها ، فكان فى كفنه .

من قصيدتة قوله(١) :

مدارسُ آيات خلَتْ من تلاوة ... ومنزلُ وحْيٍ مقفر العرَصاتِ
لآل رسول الله بالخَيْفِ من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علىٍّ والحسين وجعفر ... وحمزة والسجّاد ذى الثّفِنات(٢)
قفا نسأل الدار التى خَفّ أهلها ... متى عَهْدُها بالصوم والصلوات؟
وأين الأولى شطّت بهم غربة النوى ... أفانينَ فى الآفاق مفترقات؟
همُ أهل ميراث النبى إذا اعتزَوْا ... وهمْ خيرُ قاداتٍ وخير حُماة
وما الناس إلا حاسدٌ ومكذِّبٌ ... ومضطغنٌ ذو إحْنة وتِرات
ملامَكَ فى أهل النبى فإنهم ... أحِبّاى ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرةً ... وزد حبّهم يارب فى حسناتى
أحبُّ قَصِيَّ الرَّحْم من أجل حبكم ... وأهجر فيكم أسرتى وبناتى
ألم تر أنى من ثلاثين حِجةً ... أرُوح وأغدو دائم الحسرات؟

---

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٠٣ والأغانى ١٨ / ٢٩ .

(٢) الثفنات : جمع ثفنة وهى من الإنسان الركبة ومجتمع الساق والفخذ ، يريد أن ركبتيه تأثرتا بالسجود الكثير ، والمراد بهذا الوصف على بن عبد الله العباسى لكثرة سجوده .

أرى فيئهم فى غيرهم متقسّما ... وأيديهمُ من فيئهم صفرات[1]
فآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومُهم ... وآل زياد حُفَّل القَصَرات[2]
بنات زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات

— ٥ —

رجعة الإمام

منذ نشر ابن سبأ دعواه فى أن عليا لم يمت ، وأنه سيعود إلى الأرض ليملأها عدلا ، تأصلت هذه العقيدة فى نفوس الشيعة ، ونقلت فرقة الكيسانية عقيدة الرجعة إلى محمد بن الحنفية ، فأنكروا موته ، وزعموا أنه يقيم بجبل رَضْوَى بالقرب من ينبع ، وأنه سيعود من هذا المكان لينشر ظلال العدل والخير على الناس .

ثم قالت جماعة منهم — الاثنا عشرية — إن الإمامة فى موسى بن جعفر ، ثم فى ابنه على ، إلى أن تصل إلى محمد بن الحسن العسكرى (المتوفى ٢٦٤ هـ ٨٧٨ م) وهو الإمام الثانى عشر ، الإمام المنتظر ، وهم يزعمون أنه اختفى بسرداب المسجد الجامع فى سامرا ، وأنه حى لم يمت ، وسيرجع فى آخر الزمان ، فيملأ الأرض عدلا[3] .

وقال آخرون إن الإمام المنتظر هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذى الجناحين[4] .

وقد سبق فى دراسة المذهب الشيعى أن مزاعم الشيعة صدى لعقائد يهودية ومسيحية[5] .

---

(١) الفىء : الخراج والغنائم . صفرات : خاليات .
(٢) القصرات : جمع قصرة وهى أصل العنق .
(٣) نقد العلم والعلماء ١٠٣ والفرق بين الفرق ٦٠
(٤) نقد العلم والعلماء ١٠٣ ... (٥) راجع ما تقدم فى دراسة الشيعة .

وما من شك فى أن الاضطهاد الذى حاق بالشيعة قد أرّث هذه المزاعم ، لأن وراءها أملا يريحهم ، وعزاء عما يلقون من حرمان وإعنات ، وتخففا من أثقال العسف السياسى ، وآلام المحن والحروب والثورات ، فقد كان الحكم استبداديا ، وكان البيت الأموى منقسما ، وكان العداء مشتعلا بين المضرية واليمنية ، والثورات تزلزل الولايات ، والشيعة والخوارج يثورون ماسنحت لهم الفرص .

١ — كان كُثَيِّر الشاعر كَيْسانىَّ المذهب ، يقول إن محمد بن الحنفية هو المهدى الذى سيملأ الأرض عدلا ، بعد ماملئت جورا ، ومن شعره فى هذا المذهب قوله فى الفخر بحفاوة ابن الحنفية به ، وثنائه عليه ، وسؤاله عن حاله وحال أولاده :

أقرّ الله عَيْنى إذْ دعانى ... أمينُ الله يَلْطُف فى السؤالِ
وأثْنىَ فى هواى علىَّ خيرا ... وساءل عن بَنِىَّ وكيف حالى
وكيف ذكرتُ حالَ أبى خُبَيْبٍ ... وزَلَّةَ فِعْلِهِ عند السؤال[1] ؟
هو المَهْدِىُّ خَبَّرَناه كعب ... أخو الأخبار فى الحِقَبِ الخوالى[2]

٢ — وقالَ كُثَيِّر فى أحقية علىّ وبنيه بالخلافة ، وأن ابن الحنيفة سيعود[3] .

ألا إن الأئمةَ من قريش ... وُلاةَ الحق أربعةٌ سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... همُ الأسْباطُ ليس بهم خفاء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمـان وبرّ ... وسبطٌ غَيَّبته كَرْبَلاء
وسبطٌ لا يذوق الموتَ حتى ... يقودالخيلَ يَتْبعُها اللواء[4]
تَغَيَّب لا يُرَى فيهم زمانا ... بِرَضْوَى عنده عسل وماء

---

(١) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير .

(٢) كعب الأخبار : يهودى أسلم . سئل كثير : هل لقيت كعبا ؟ وهل خبرك بهذا ؟ فقال : لا . قيل له : فكيف قلت خبرنا كعب ؟ قال : بالتوهم (الأغانى ٩/ ١٦)

(٣) الأغانى ٩/ ١٤ وديوان كثير ١/ ١٨٥ والملل والنحل ١/ ١٢٣ ومروج الذهب ٢ ١٠١ وعيون الأخبار ٢/ ١٤٤ .

(٤) المراد بسبط الإيمان والبر الحسن بن على ، وبسبط كربلاء الحسين ، وبالسبط الحى محمد ابن على المعروف بابن الحنفية .

٣ — كان السيد الحميرى[1] — إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ الحميرى — يدين بأن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه حى مقيم فى جبل رَضْوَى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وسيعود بعد غيبته فيملأُ الأرض عدلا وخيرا[2] .

يقول فى هذا[3] :

ألا قل للوصىِّ فَدَتْك نفسى ... أَطَلْتَ بذلك الجبلِ المُقاما
ألا حىِّ المقيمَ بشِعْب رَضْوَى ... وأَهْدِ له بمنزله السلاما
أضرَّ بمَعْشرٍ وَالَوْكَ منا ... وسموك الخليفةَ والإماما
وعادَوْا فيك أهلَ الأرض طُرًّا ... مَغيبُك[4] عنهم سبعين عاما
لقد أمسى بمُورق شِعْب رَضْوَى ... تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خَوْلَةَ طَعْمَ موت ... ولا وارت له أرضٌ عظاما[5]
وإن له به لَمَقِيلَ صِدْق ... وأندية تُحدِّثه كراما
هدانا الله إذْ جُرْتُم لأمر ... به ، ولديه نلتمس التَّماما
تمامَ مَوَدَّة المهدىّ حتى ... تروا راياتنا تَتْرَى نِظاما[6]

٤ — ويقول فى هذا [7] .

حلفتُ برب مكة والمصَلّى ... وبيتٍ طاهر الأركان فَرْدِ

---

(١) ولد السيد الحميرى سنة ١٠٥ وتوفى سنة ١٧٣ فأدرك الدولة الأموية والعباسية، وعاش فى الدولة الأموية ٢٧ عاما ولم يتنكر لمذهبه فى الدولتين ، لهذا أستدل بشعره فى العصر الأموى.

(٢) الملل النحل ١/١٣٤ (٣) مروج الذهب ٢/١٠١ والملل والنحل ١/١٩٦

(٤) مغيبك فاعل أضر (٥) خولة : أم محمد بن الحنفية .

(٦) نسب الدكتور طه حسين هذه القصيدة إلى كثير عزة (حديث الأربعاء ١/٢٧١) والصحيح أنها للسيد الحميرى ، لأن البيت الرابع يذكر أن ابن الحنفية تغيب سبعين عاما ، ومعلوم أن وفاته كانت سنة ٨١ هـ وإذا فإن قائل القصيدة كان يعيش سنة ١٥١ هـ ، ولا يمكن أن يكون هو كثير ، لأنه مات سنة ١٠٥ ، أما السيد فقد مات سنة ١٧٣ .

(٧) الأغانى ٧/٤ .

يَطوفُ به الحجيجُ وكلَّ عام ... يَحلُّ لديه وفدٌ بعد وَفدِ
لقد كان ابن خَوْلَةَ غيرَ شك ... صفاء ولايتى وخُلوصَ وُدِّى
فما أحدٌ أحبُّ إلىَّ فيما ... أُسِرُّ وما أبوح به وأُبدِى
سوى ذى الوحى أحمد أو علىّ ... ولا أزكى وأطيب منه عندى
ومن ذا يابنَ خَوْلَةَ إذْ رَمَتْنِي ... بأسهمها المنية حين وعدى
يُذبِّبُ عنكمُ ويَسُدُّ مما ... تَثَلَّم من حصونكمُ كَسَدِّى ؟
ومالى أن أُسر به ولكن ... أؤمل أن يُؤَخَّر يومُ فَقْدِى
فأدركَ دَوْلَةً لك لستَ فيها ... بجبَّار فتوصَفَ بالتَّعَدِّى
على قوم بَغَوْا فيكم علينا ... لتُعْدِى منهمُ ياخير مُعْد
لتَثْلُ بنا عليهم حيث كانوا ... بغَوْر من تهامة أو بنجد

٥ — ومازالت العقيدة ذات سلطان على الشيعة فى العصر العباسى ، لأننا نجدها فى شعر كثير من الشعراء ، مثل دِعْبِل الخزاعى ، فإنه فى إحدى قصائده رثى لحال الشيعة ، وندد ببنى أمية وبزياد ، ثم صَبَّرَ نفسه بأنه ينتظر المهدى الذى يرد إلى الشيعة حقهم ، ويسعد الناس بحكمه العادل ، قال[1] :

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد ... لقطَّع قلبى إثْرَهم حَسَراتى
خروجُ إمام لا محالةَ خارجٌ ... يقوم على اسم الله والبركات
يُمَيِّزُ فينا كلَّ حق و باطل ... ويَجزى على النَّعْماء والنَّقِمات
فيا نفسُ طِيبى ثم يانفس أبْشرى ... فغيرُ بعيد كلُّ ما هو آت
فإن قرَّبَ الرحمن من تلك مُدّتى ... وأخرَّ من عمرى لطول حياتى
شُفِيتُ ولم أترك لنفسى رزيَّةً ... ورَوَّيْتُ منهم مُنْصُلى وقناتى[2]

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٠٩ .
(٢) منهم : من بنى أمية . منصلى : سيفى . قناتى : رمحى .

٦ — وصف الحارث بن عبدالله بن الْحَشْرَج الجعدى[1] أحوال المسلمين التى جعلتهم يركنون إلى الأمل فى مهدى ينقـذهم من كربهم ، فقال إن الفتنة صارت عامة شاملة ، تجد آثارها بخراسان وبالعراق وبالشام ، وتجد أمارات الأسى هناك وهناك ، حـــتى صار المسلمون يخبطون فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وحتى استوى فى الفتنة السفيه والعاقل ، والعالم والجاهل ، وغدا الناس فى ضلالة وعماية ومعاطب مقدرة لهم :

أبيت أرعَى النجوم مُرتفقا ... إذا استقلتْ تَجْرى أوائلُها[2]
من فتنة أصبحت مُجَلِّلَة ... قد عم أهلَ الصلاة شاملها[3]
مَنْ بخراسان والعراق ومَنْ ... بالشام كلٌّ شجاه شاغِلُها[4]
فالناس منها فى لون مُظْلِمة ... دَهْماء مُلْتَجَّةٍ غياطلها[5]
يُمسِى السفيه الذى يُعَنَّف بالجه ... ل سواءً فيهـا وعاقلها
والنـاس فى كربة يـكاد لها ... تَنْبِذ أولادَها حوالمها
يَغدون منها فى كل مُبْهِمة ... عمياء تُمْنَى لهم غوائلها[6]
لا ينظرُ الناسُ منها فى عواقبها ... إلا التى لا يبين قائلها
كرَغوة البَـكْر أو كصيحة حُبْ ... لى طرّقتْ قوابلها[7]
فجاء فينـا أَزْرَى بوجهته ... فيها خطوبٌ حمرٌ زلازلها[8]

---

(١) الطبرى ٩/٣٨ .
(٢) مرتفقا : واقفا ثابتا أو متكئا على مرفق .
(٣) مجللة : عامة . شاملها : مايعم منها .
(٤) شجاه : أحزنه .
(٥) دهماء : سوداء . الغياطل : جمع غيطلة وهى الظلمة المتراكمة ، ملتجة الغياطل سوادها كثيف متداخل متتابع كأنه موج .
(٦) تمنى لهم : تقدر لهم ويبتلون بها . الغوائل : المهالك .
(٧) البـكر ولد الناقة : طرقت : عسر خروج ولدها . القوابل : اللاتى يتلقين المولود
(٨) جاء : اسم فاعل من جاء . أزرى : عاب . الزلازل : البلايا .

خواص شعرهم

— ١ —

السياسة الدينية :

دار شعرهم حول نصرة مذهبهم ، فجاء سياسيا وثيق الصلة بالحزب وآلامه وآماله .

١ — فهم يشيدون بحبهم لآل البيت ، ويجدون فى هذا الحب سعادة ومثوبة ، ولا يزيدهم اللوم إلا تماديا ، كما رأيت فى قول عبدالله بن كُثَيِّر :

أيُعَدُّ ذنبا أنْ أحبهمُ   بل حبهم كفارة الذنب

وفى قول أبى الأسود الدؤلى :

أحبهمُ لحب الله حتى   أجىء إذا بعثت على هَوَيَّا
فإن يك حبهم رَشَدًا أصِبْه   ولست بمخطىء إن كان غيًّا

٢ — ويتفجعون على موتاهم وقتلاهم ، ويرثون أنصارهم ، كما سبق فى رثاء أبى الأسود الدؤلى لعلى بن أبى طالب ، ورثاء عبدالله بن الأحمر للحسين ، ورثاء هند بنت زيد لحُجْر بن عَدِىّ .

٣ — احتجوا للشيعة ، فدللوا على أن الخلافة حقهم وحدهم بأدلة دينية وعقلية ، كما رأيت فى احتجاج الكميت .

ولا شك أن الكميت زعيمهم فى هذا الضرب من المقال ، فهو الذى مهد لشعرائهم طريق المحاجة ، وفتح لهم أبوابها ، وجهر بما كان يختلج فى نفوس كثير من الشيعة ، كقوله :

يقولون : لم يورَثْ ، ولولا تراثه   لقد شَرِكت فيه بَكيلٌ وأرْحَبُ
ولا نتشَلَت عُضْوين منه يُحابرٌ   وكان لعبد القيس عضو مُؤَرَّب

فإن هى لم تصلُح لحيٍ سواهم إذاً فذو والقرْبىَ أحقُّ وأقرب(١)

ومعنى هذا بالقياس المنطق أن بنى أمية يدعون أن النبى لا يورث ، فكيف استأثروا هم بالخلافة ؟ إن الخلافة إذاً حق لكل عربى مسلم ، فمن حق قبائل قحطان وقبائل عدنان أن تطالب بنصيبها منها .

والنتيجة المنطقية لهذا أن النبى يورث .

فإذا كانت وراثته هى الحق الذى لا محيد عنه ، فليس الأمويون هم الورثة ، وإنما العلويون هم الورثة ، لأنهم أقرب إليه .

وقد كان عماد هذا الحجاج القرآن الكريم وأحكام الإسلام ، ثم العقل والمنطق ، والجرى فى مضمار المعتزلة فى تفكيرهم وتدليلهم . أما الاستدلال المنطق فقد عرفته وأما الاستدلال القرآنى فمأخوذ من قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . وقوله : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

وهذا بيّنٌ فى نصوص الشعر الشيعى التى سلفت .

فلما آل الحكم إلى بنى العباس ، وانقسم بنو هاشم إلى علويين وعباسيين ، لم يعدم العباسيون من يحتج لهم ، ويرد على العلويين .

فهذا مروان بن أبى حفصة ، يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبى ، فهم ورثته ، وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، يقول فى مدح المهدى :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا دون الأرقاب من ذوى الأرحام

الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصامَ فلات حين خصام

---

(١) الهاشميات ٤٢ بكيل وأرحب : حيان من همدان وهى كهلانية قحطانية . يحابر : قبيلة من مراد وهى كهلانية . عبد القيس : من جديلة من أسد ربيعة وهى عدنانية . مؤرب : تام .

أنّى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام[1]
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ نزلت بذلك سورة الأنعام

ولغيره من الناصرين للعباسيين شعر كثير فى هذا المعنى .

وقد رد شعراء الشيعة على مروان ، كقول أحدهم :

لم لا يكون — وإن ذاك لكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
للبنت نِصْفٌ كامل من ماله والعم متروكٌ بغير سِهام
ما للطّليق وللتّراث وإنما صَلّى الطّليقُ مخافةَ الصّمصام[2]

على أن وقع بيت مروان :

أنى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام

كان شديدا على الشيعة ، فلعنوه وأبغضوه ، ولم يجد أحدهم وهو صالح بن عطية الأضجم شفاء نفسه إلا فى قتله ، فلزمه ، وجعل يلاطفه ويبره ، ويدون أشعاره ، حتى أنس به مروان ، وأنس به بنو حفصة جميعا ، ولم يزل يطلب غِرّةً من مروان ، حتى مرض ، وخلا البيت لهما ، فوثب عليه ، واعتصر عنقه حتى قتله .

٤ — وفى شعرهم حملات على بنى أمية بخاصة ، لأنهم خصومهم الذين انتزعوا حقهم ، وقسوا عليهم ، كما ترى فى حملة النّبْوىّ على طلحة والزبير ، وفى سخط أيمن بن خُرَيم على أبى موسى الأشعرى بعد أن خدعه عمرو ، وفى تهكم يزيد بن مُفَرِّغ بمعاوية لما استلحق زيادا بأبى سفيان ، وفى سخرية عبد الله بن هشام بمعاوية لما بايع لابنه يزيد ، ثم فى الحملات الثيرة التى حملها الكميت على بنى أمية .

كذلك حملوا على الزبيريين ، كما تجد فى حملة كُثَيِّر على عبد الله بن الزبير لما سجن ابن الحنفية بسجن عارم .

---

(١) وراثة الأعمام : وراثة مثل وراثة الأعمام .

(٢) هذا الرد قائم على أن البنت ترث نصف ثروة أبيها على حين أن أخاه لا يرثه فى حالات عدة ، وفى البيت الأخير تنديد بالعباس ، لأنه كان قد أسر مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه .

٥ — جهروا بعقيدتهم فى رجعة الإمام المنتظر ، لينشر على الناس لواء الأمن والسلام والعدل ، وليخلص المسلمين من مظالم بنى أمية ، ويرد إلى الشيعة حقهم المسلوب ، كما رأيت فى شعر كثير والسيد الحميرى .

— ٢ —

غلبة السياسة على شعرهم :

يغلب على شعرهم طابعهم المذهبى ، وهذا يتبين فى شعرهم السياسى ، ويبين أيضاً فى مدائحهم وأهاجيهم ومراثيهم ومناجاتهم لله ، لأن أكثر هذا المدح والهجاء . والرثاء يصل بهم إلى غرضهم المنشود ، وهو الدفاع عن حق الشيعة المسلوب .

ولم نحكم على شعرهم كله بأنه سياسى مذهبى ، لان بعض شعرائهم قرضوا الشعر فى أغراض أخرى .

فالكميت اضطر إلى مدح بنى أمية ، حفاظا على دمه كما يتبين من ترجمته .

وأيمن بن خُرَيْم الأسدى مدح الأمويين ، واتصل بعبد الملك بن مروان ، وشخص إلى مصر ومدح واليها عبد العزيز بن مروان ، ثم تركه مغضبا إلى الكوفة ، حيث مدح واليها بشر بن مروان (١) .

وكُثَيِّر عزة اشتهر بالغزل ، وكان يمدح بنى أمية ، وهو على مذهبه الشيعى الكيسانى (٢) . يناصر محمد بن الحنفية ، ويدين بالرجعة ، فكيف جمع ولاء الخصمَيْن ؟

---

(١) الشعر والشعراء ٢١٤ والأغانى ٢١/١١ .

(٢) الأغانى ٨/٢٦ — ٣١ والشعر والشعراء ٤٨٠ — ٤٩٩ .

أما إخلاصه لمذهبه الشيعى فلا جدال فيه ، لأن الشيعة كانوا يثقون بولائه لهم . ويظهر أن محمد بن الحنفية أراد أن يستوثق من إخلاصه فقال له : تزعم أنك من شيعتنا ، وتمدح آل مروان ؟ فقال : إنما أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب وآخذ أموالهم .

وأما مدحه لبنى أمية وبنى مروان فقد كان نفاقا وخدعة ورغبة فى عطائهم ، ولم يكونوا يجهلون ذلك ، وإنما كانوا يحتملونه منه ، لأنه كان بارعا فى مدحهم ، جليلا فى أعينهم ، لطيف المداخل إلى نفوسهم[١] .

ثم إنه كان يشيد بقريش وبنى هاشم وبنى أمية ، ويتجافى عن الزبيريين ويهجوهم ويحمل عليهم ، فيرضى الشيعة ، لأنه يحمل على الزبيريين خصومهم ، ويرضى بنى أمية ، لأنه ثائر على الزبيريين أعدائهم .

وهو بتشيعه لا يغضب الأمويين ، لأنه يمدحهم ، وينال عطاءهم وحباءهم ، ولا يشهر بهم كما يفعل غيره من شعراء الشيعة .

وهو بمدحه للأمويين لا يسخط الشيعة ؛ لأنهم واثقون من حبه لهم ، ومطمئنون إلى أنه على مذهبهم فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس . وإنما يمدح بنى أمية تقية من ناحية ، وجريا وراء الكسب من ناحية ، وزعماء الشيعة أنفسهم كانوا يصانعون بنى أمية إذا ما وجدوا المصانعة أولى وأجدى .

وأما السيد الحميرى[٢] فقد كان متشيعاً صادقاً فى تشيعه غالباً فيه على مذهب الكيسانية ، وكان يحب آل البيت حباً فيه إخلاص وفيه سذاجة ، ما فى ذلك شك .

ثم لم يحد فى العصر العباسى عن تشيعه ، أو يستره كله أو بعضه ، بل إنه كان يعلن حبه ، ويجهر به ، ويذيع الدعوة لآل على .

وكان فى الوقت نفسه مداحاً لبنى العباس ، ينال عطاياهم ، وينعم بالقرب منهم ؛

---

(١) الأغانى ٩/٤ .

(٢) من مخضرمى الدولتين ، عاش فى الأموية ٢٧ عاما .

ولا يجد فى تقريبهم له إنكارا لتشيعه ، أو محاولة لصرفه عنه .

وليس بعسير تعليل ذلك ، فإن السيد الحميرى كان مخلصا لآل على ، وكان مخلصاً لآل العباس معاً ، لكن إخلاصه للعلويين كان أعمق وأقوى وأشد . كان علوى المذهب أيام بنى أمية ، وكان يضيق أشد الضيق ، ويألم أشد الألم ، مما يلقى الشيعة من نكال بنى أمية ، ويتشوف إلى زوال ملكهم ، والقصاص منهم ، ويتلهف على أن يرث الشيعة سلطان بنى أمية ، لأنه حقهم الشرعى المغتصب . فلما أدال الله من بنى أمية ، وخلفهم بنو العباس لا بنو على ، أنكر كثير من الشيعة هذا المصير ، وانصرفوا عن الدولة الجديدة، وتربصوا بها وثاروا عليها ، ولم ينكر كثير منهم هذا المصير ، بل ارتضوه واطمأنوا إليه وأخلصوا له ، لأنه حقق ما كانوا يأملون ، إذ تقوض صرح بنى أمية ، وقام صرح بنى هاشم .

وقد كان السيد الحميرى من هؤلاء الراضين الذين اطمأنوا وأخلصوا لبنى العباس، فلم ينقم منهم أنهم استأثروا بالخلافة دون بنى علىّ الذين كان يهواهم ، ومازال على هواه إياهم ، ولم يبتهج بهم لأنهم غلبوا بنى علىّ على الخلافة ، واختصوا بها نفوسهم ، وإنما استبشر بقيام دولتهم ، لأنهم من بنى هاشم ، وقد فازوا على بنى أمية ، وما علىّ والعباس إلا فرعان من هاشم ، بل فرعان قريبان أشد القرب ، وأبناء هذا وأبناء ذاك يتنازعون فى أيهم أعظم قرابة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأيهم أحق بوراثته ، أعمه العباس أم ابن عمه وزوج ابنته علىّ ؟ فأيهم غلب على الملك، وفاز على بنى أمية كان جديرا بأن يرضى به السيد الحميرى ويخلص له .

ولقد يعزز هذا أنه كان شديد الحنق على أبى بكر وعمر وعثمان ، طالما لهج بثلبهم والانتقاص من قدرهم ، ولم يدع منقصة إلا وصم بها السلف الصالح من خيار الأمة ، حتى أبغضه كثير من الناس ، ونفروا من رواية شعره ، وكان هذا سبباً فى تأخيره عن منزلته الأدبية « ولولا ما فى شعره من سب السلف ما تقدمه أحد من طبقته »[1] .

---

(١) الأغانى ٧/٢

فلماذا حمل على أبى بكر وعمر وعثمان ؟ لم يحمل عليهم إلا لأنهم تولوا الخلافة وليسوا من بنى هاشم ، ولو أنهم كانو من بنى هاشم ما حمل عليهم أو لكان رأيه فيهم أقرب إلى اللين والعتاب .

على أن هذا التعليل لا يتنافى مع رغبته فى عطاء بنى العباس ، فلو أن الأمر قد صار إلى بنى على ، لكان له من أموالهم نصيب ، ولصار المال الذى يناله منهم غير صالح لأن يعلل به وحده إقباله على مدحهم والدعاية لهم ، لأنه من شيعتهم والسلطان ليس لهم ، ومن شيعتهم وليس فى يده من أموالهم شىء .

— ٣ —

حرارة العاطفة :

شعرهم حار ملتهب لأنه تعبير عن عواطف قوية صادقة ، وتنفيس عن نفوس مهتاجة ثائرة .

فهم غضاب ساخطون ، لأن بنى أمية سلبوهم حقهم ، وغصبوهم مكانهم ، فصوروا غضبهم فى شعر حانق على الأمويين .

وهم حزناء كثيرو البكاء مما حل بهم من اضطهاد وعسف وتنكيل وتقتيل ، شديدو الحسرات على حقهم المغضوب ، وملكهم المسلوب . لهذا برعوا فى تصوير مانزل بهم من نكبات وأهوال . وبرعوا فى الموازنه بين حالهم — وهم أصحاب الحق الشرعى — وحال بنى أمية وولاتهم — وهم غاصبون للحكم — ليستثيروا بذلك العزائم إلى الثورة .

وهم يحبون آل البيت أقوى الحب وأصدقه ، لا يبتغون من حبهم مالا ولاجاها ولا عرضاً من أعراض الدنيا ، وإنما يجدون فيه زلفى إلى الله ، وأملا فى ثوابه ، ويصبرون على ما ينزل بهم من شدائد ومظالم عقابالهم على هذا الحب ، فلم يزدهم اضطهاد بنى أمية إلا تماديا فى حبهم لآل البيت وتشيعا لهم .

وعن هذا الولاء الخالص صدرت مدائحهم لزعمائهم من آل البيت ، كما رأيت فى نماذج شعرهم .

— ٤ —

ملاءمة الأسلوب للباعث :

يختلف أسلوبهم باختلاف البواعث .

فإذا حملوا على بني أمية جاء أسلوبهم قويا مهتاجا ، لأنه يصور حنقهم وغضبهم وثورة نفوسهم ، كما تجد في حملات الكميت وفي قصيدة عبد الله بن هشام السلولي .

وإذا جنحوا إلى المحاجة والتدليل على استحقاق الشيعة للخلافة ، أو التبشير برجعة الإمام ، كان أسلوبهم هادئاً ، كما تجد في نماذج الكميت وكثيِّر والسيد الحميرى .

وإذا صوروا نكباتهم ، وبكوا آلامهم . وتحسروا على حقهم المسلوب ، جاء أسلوبهم حزينا باكيا ، كما تجد في قصيدة الحارث بن عبد الله الجعدى .

وإذا مدحوا آل البيت جاء مدحهم جزلا فخما متدفقا ، كقول الكميت[1] :

بل هواى الذى أجُنُّ وأُبْدِى ... لبنى هاشم فُروع الأنام[2]
القريبين من ندًى والبعيديـ ... ـن من الجَوْر فى عُرَى الأحكام[3]
والمصيبين بابَ ما أخطأ النا ... س ومُرْسِى قواعدِ الإسلام
والحماةِ الكفاةِ فى الحرب إن لفـ ... ـفَ ضِرامٌ وقودَه بضرام[4]
والغيوثِ الذين إن أمحل النا ... سُ فمأوَى حواضن الأيتام[5]

(١) الهاشميات .
(٢) أجن : أستر وأضمر . فروع الأنام : أعلى الناس .
(٣) ندى . كرم . عرى الأحكام : شئون الحكم ومقابضه .
(٤) الضرام : الوقود المشتعل .
(٥) الغيوث : جمع غيث وهو المطر والمراد هنا الكرماء . أمحل الناس : أجدبوا واحتاجوا . حواضن الأيتام : المراد النساء الأيامى اللاتى يربين أبناءهن اليتامى .

— ٥ —

بين شعرهم وشعر الأمويين :

وإذا ما وازنا بين شعرهم وشعر الأمويين انتهينا إلى عدة نتائج :

١ — شعر الأمويين يمثل القوة والاعتداد بالسلطان والإشادة بمظاهر العظمة، على حين أن كثيرا من شعر الشيعة يمثل الحزن على ما فاتهم من حق، ويصور الحسرة على سلطانهم المغصوب، والوجيعة من النكبات النازلة بهم .

٢ — شعراء الشيعة أكثر إخلاصا لمذهبهم من شعراء بنى أمية ؛ لأن الأكثرين من الشيعة حبسوا إنتاجهم على السياسة ، ولم يتنقلوا من حزب إلى حزب ، وقليل منهم تناولوا فنونا أخرى غير السياسة ، بينما كان شعراء بنى أمية يتناولون مع السياسة فنونا أخرى ،وكان كثير منهم طالب عطاء أو راجى سلامة، أو دخيلا على الأموية من حزب آخر .

ومن هنا نجد العواطف فى شعر الشيعة أصدق وأحر من العواطف فى شعر الأمويين.

٣ — شعراء الشيعة يحتجون لحقهم فى الخلافة بآيات من القرآن الكريم ومن القياس المنطقى ، أما شعراء الأمويين فلم يفعلوا ذلك ، لأن الدولة لم تقم على أساس دينى أو حق شرعى .

الفصل الثالث

شِعر الخوارج

— ١ —

شجاعتهم وتقواهم

١ — لما قتل عبيد الله بن زياد عُرْوة بن أُدَيَّة ، وجعل ينكل بالخوارج ، ويخالف أحكام الإسلام ، خرج أخوه أبو بلال مرداس بن أُدَيَّةَ في أربعين من أصحابه ، كراهية للإقامة بالبصرة ، واتجهوا إلى الأهواز ، وتعاهدوا على الدعوة إلى العدل والإصلاح ، ألا يبدأوا أحداً بقتال ، وألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا . فأرسل ابن زياد في إثرهم أَسْلَمَ بن زُرْعة بن حصن التميمي في ألفين من الجند ، فلحقوا بهم عند آسك ، وقاتلوهم ، فشدّ أبو بلال وصحبه عليهم شدة المستميت ، حتى هزموهم ، ورجع أسلمُ إلى البصرة كسيفا ، وعنفه ابن زياد ، وعيره الناس ، فقال عيسى بن فاتك في قصيدة له[1] :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجُرْد العِتاق مُسَوَّمينا[2]
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يُقتَلونا[3]
بقيــة يومهم حتى أتاهم ... سوادُ الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لمــا أتاهم ... بأن القوم ولوا هاربينا
أألفــا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا ؟[4]

(١) الطبري ٦/١٧٤ وتهذيب الكامل ١/١٠٥

(٢) الجرد العتاق : الخيل الجياد الكريمة . مسومين : معلمين ، دلالة على بأسهم وعدم مبالاتهم . (٣) ذوو الجعائل : جنود بني أمية المأجورون .

(٤) آسك : موضع بهمذان كانت الموقعة فيه .

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غيرَ شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

٢ـ وصفهم الطِّرِمَّاح بأنهم يقومون الليل ، ويكثرون من الحنين إلى الجنة ، ويكثرون الأنين خوفا من النار ، حتى لتكاد قلوبهم تنطلق من صدورهم ، ثم قال إنهم تهافتوا على الحرب ففنوا ، وإنهم حراص على مذهبهم ، ومطمئنون به إلى حسن عاقبتهم وعظيم ثوابهم .

قال الطِّرِمّاح[1] :

لله درُّ الشُّراة إنهم إذا الكرى مال بالطُّلا أرِقُوا[2]
يُرَجِّعون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفا تبيت القلوبُ واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أُرَجِّى الحياة بعدهمُ وقد قَضَى مُؤْنِسِيَّ فانطلقوا
قوم شِحاحٌ على اعتقادهمُ بالفوز مما يُخاف قد وثِقوا

٣ — وقال الطرماح فى الخوف من عذاب النار :

لقد شقيتُ شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزةً تُنْجِى من النار
والنار لم يَنْجُ من رَوْعاتها أحدٌ إلا المنيبَ بقلب المخلص الشارى

٤ — من وصف عمرو بن الحُصَين مولى تميم ، لتقوى الخوارج وشجاعتهم :

متأوِّهون كأن جَمْرَ غَضًا للخوف بين ضلوعهم يَسْرِى
تلقاهمُ إلاّ كأنهمُ لخشوعهم صَدَرُوا عن الحشر[3]

(٢) ديوان الطراح ١٥٧ والأغانى ١٠/١٥٢ .
(٢) الكرى النوم : الطلا : الأعناق جمع طلية وطلاة .
(٣) ألا : من أل يئل أى أن وحن ورفع صوته بالدعا .

وهم مساعرُ فى الوغى رُجُحٌ   وخيارُ من يمشى على العَفْر[1]
حتى وَفَوا لله حيث لقُوا   بعهودِ لا كذبٍ ولا غَدْرِ

٥ — يتشوق الطرماح[2] إلى أن يموت فى ميدان الجهاد مع إخوانه المجاهدين الذين ألف بينهم هدى الله ، ويصفهم بالتقوى والشجاعة والاستهانة بالدنيا المليئة بالشر ، والرغبة فى الآخرة الحافلة بالخير ، ويرسم صورة مثيرة للميتة التى يودها الشراة ، ويودها الطرماح لنفسه : أن يقتل بسيف الأعداء ، وتترك جثته فى العراء ، فتنهشها النسور ، وتبعثر عظامه فى الصحراء ، كما تبعثر قبضة الكلأ فى خلاء عاصف :

أَذَا العرش إن حانت وفاتى فلا تكن
على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضْرِ المَطارف[3]
ولكن أَحِنْ يومى سعيدا بعُصبة   يصابون فى فجٍّ من الأرض خائف
عصائبُ من شتَّى يؤلِّف بينهم   هُدَى الله ، نزّالون عند المواقف
فوارسُ من شَيْبانَ ألَّف بينهم   تُقَى الله نزّالون عند التزاحُف
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى   وصاروا إلى مَوْعود مافى المصاحف
فأُقْتَلَ قَعصاً ثم يُرْمَى بأعظُمى
كضِغْثِ الخَلا بين الرياح العواصف[4]
ويصبحَ لحِى بين طير مَقيلُه   دُوَيْنَ السماء فى نسورٍ عواكف[5]

٦ — صورة قطرى بن الفجاءة شجاعته فى قوله[6] :

---

(١) مساعر : جمع مسعر وهو الشجاع . رجح : المراد أنهم أهل رزانة . العفر : التراب .
(٢) ديوان الطرماح ١٥٥ والأغانى ١٠/١٥٢ .
(٣) شرجع : نعش . خضر المطارف : ما يغطى به النعش من أغطية خضر .
(٤) القعص : الموت السريع ، أو موت الرجل بضربة فى مكانه . ضغث الخلا : قبضة الكلأ .   (٥) مقيله : مكانه ظهرا .
(٦) شرح حماسه أبى تمام للتبريزى ١/٥٠ .

أقول لها وقد طارت شَعاعا من الأبطال ويحك لن تُراعى[١]
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبرا فما نَيْلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عِزّ فيُطْوَى عن أخى الخَنَع اليراع[٢]
سبيلُ الموت غايةُ كل حىٍّ وداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يُغْتَبَط يَسأم ويَهْرَم وتسلمه المنونُ إلى انقطاع[٣]
وما للمرء خيرٌ فى حياة إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع

— ٢ —

حض على الثورة

١ — حبس المغيرة بن شعبة جماعة من الخوارج سنة ٤٣ هـ وحض أهل المصر على من بقى منهم ، فقال معاذ بن جُوَيْن الخارجى[٤] :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شَرَى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالةً وكل امرىء منكم يصاد ليُقْتلا
فشدوا على القوم العُداةِ فإنما إقامتكم للذبح رأيا مُضَلَّلا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى إذا ذُكِرَتْ كانت أَبَرّ وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح
شديد القُصَيْرَى دارعا ليس أعزلا[٥]

---

(١) شعاعا : متفرقا . لن تراعى : لن تفزعى .
(٢) أخو الخنع . الذليل . اليراع : الجبان .
(٣) يمتبط : يموت من غير علة
(٤) الطبرى ٦/١٠٧ .
(٥) القصيرى : أسفل الأضلاح أو آخر ضلع فى الجنب .
وضعت ليس بدلا من غير كما فى الأصل ليسلم البيت من الإقواء .

ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأس المنية أولا
يعز علىّ أن تُخافوا وتُطرَدُوا ولما أُجَرِّدْ فى المُحلِّين مُنْصُلا[1]
ولما يُفرِّقْ جَمْعهم كلُّ ماجدٍ إذا قلتُ قد وَلّى وأدْبَرَ أقبلا
مُشِيحاً بنَصْل السيف فى حَمَس الوغَى
يَرَى الصبرَ فى بعض المواطن أمثلا
وعزّ علىّ أن تُضاموا وتُنْقَصُوا وأصبحَ ذا بثٍّ أسيراً مُكبَّلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم أثرتُ إذاً بين الفريقين قَسْطلا[2]
فيارُبَّ جمعٍ قد فَلَلْتُ وغارةٍ شهدتُ وقِرْنٍ قد تركتُ مُجدَّلا[3]

٢ — قال أبو بلال مرداس بن أُدَيَّة[4].

أبعد ابن وَهْبٍ ذى النزاهة والتُّقَى
ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا[5]
أحبُّ بقاءً إذا رجّى سلامةً
وقد قتلوا زيد بن حصنٍ ومالكا
فيارَبِّ سَلِّمْ نيّتى وبصيرتى
وهبْ لى التُّقَى حتى ألاقى أولئكا

٣ — قال عمران بن حِطّان فى رثاء أبى بلال مرداس لما قتل هو وبعض الصفرية[6].

---

(١) المحلين : المراد بنو أمية لأنهم انتهكوا الحرمات وأحلوا ما حرم الله ، أو لانهم يحل قتالهم فى رأى الخوارج لانهم لا عهد لهم ولا حرمة :
(٢) القسطل : الغبار .
(٣) فلك : هزمت . قرن : مثيل . مجدلا : المراد صريعا .
(٤) الكامل للمبرد ٣/ ٢٥٠ .
(٥) ابن دهب ة عبدالله بن دهب الراسبى الذى كان زعيم الخوارج .
(٦) الكامل للمبرد ٣ / ١٦٨

٣ — قال عِمْران بن حِطَّان فى رثاء أبى بلال مرداس لما قتل هو وبعض الصفرية(١) :

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغضاً   وحبا للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت على فراشى   وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حَتْفى   كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى   لها والله رب البيت قالى

٤ — قال الرُّهَيْن المُرادى(٢) :

يانفس قد طال فى الدنيا مراوغتى   لا تأمَنَنَّ لصرف الدهر تَنْغيصا
إنى لبـائعُ ما يَفْنَى لباقيةٍ   إن لم يَعُقْنى رجاءالعيش تربيصا(٣)
واسأل الله بَيْعَ النفس محتسبا   حتى ألاقى فى الفردوس حُرْقوصا
وابن المنيح ومرداسا وإخوته   إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا(٤)

٥ — كتب قطرى بن الفجاءة المازنى إلى أبى خالد القَنَانى ، وكان من قعدة الخوارج(٥) :

أبا خالد إنفِرْ فلستَ بخالد   وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهُدَى   وأنت مقيم بين لص وجاحد ؟

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحيـاة إلىَّ حبا   بناتى إنهن من الضعاف

(١) الكامل للمبرد ٣/١٦٨
(١) الكامل للمبرد ٣/٢٦٢ .
(٢) التربيص : الإمهال :
(٣) حرقوص : هو ذو الثدية .
(٤) مخاميص : جمع مخماص وهو الضامر البطن
(٥) الكامل للمبرد ٣/١٦٧ .

أحاذر أن يَرَيْن الفقر بعدى ... وأن يشربن رَنْقا بعد صاف
وأن يَعْرَيْنَ إن كُسى الجوارى ... فتنبو العين عن كَرم عجاف
ولولا ذاك قد سوَّمت مهرى ... وفى الرحمن للضعفاء كاف

— ٣ —

رثاء القتلى

١ — قال عمران بن حطان فى رثاء أبى بلال مرداس بن أُدَيَّة[(١)] :

ياعين بكِّى لمرداسٍ ومَصْرعه ... يارَبَّ مرداسٍ اجعلنى كمرداس
تركتنى هائما أبكى لمَرْزئتى ... فى منزل موحشٍ من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفهُ ... ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شَرِبْتَ بكأس دار أولها ... على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يَذُقْها شاربٌ عَجِلاً ... منها بأنفاس وِرْدٍ بعد أنفاس

٢ — وقال عيسى بن فاتك الحبطى فى رثاء مرداس ومن قتلوا معه[(٢)] :

ألا فى الله لا فى الناس شالتْ ... بداود وإخوته الجُذوعُ
مَضَوْا قَتْلاً وتمزيقا وصَلْبا ... تَحُوم عليهمُ طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوع
أَطار الخوف نومهمُ فقاموا ... وأهل الأمْنِ فى الدنيا هجوع

---

(١) الكامل للمبرد ٣/١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ٣/٢٥٥ .

٣ — لما قتل مَسْلمة بن عبد الملك شَوْذبا الخارجى (بسطام البشكرى) وصحبه سنة ١٠١ هـ رثاهم حسان بن جعدة بقوله[1] :

يا عين أَذْرِى دموعامنك تَسْجاما وابكى صحابة بَسْطام و بَسْطاما
فلن تَرَى أبدا ما عشتِ مِثْلهمُ أَتْقَى وأكمل فى الأحلام أحلاما
بسِيِّهِمْ قد تأسَّوْا عند شدتهم ولم يريدوا عن الأعداء إحجاما
حتى مَضَوْا للذى كانوا له خرجوا فأورثونا منـارات وأعلاما
إنى لأعلم أن قد أُنْزِلوا غُرَفاً من الجنانِ ونالوا ثَمَّ خُدّاما
أَسْقَى الإله بلادا كان مصرعهم فيها سحابا من الوَسْمِىِّ سَجّاما

٤ — قُتل عبد الله بن الماحوز فى موقعة سِلَّى وسِلَّبْرَى[2] بين المهلب والخوارج ، فقال خارجى فى رثائه[3] :

بسِلَّى وسِلَّبرى مصارع فتية كرام وعَقْرَى من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ[4]

وقال آخر :

بسِلّى وسلّبرى جماجم فتية كرام وصَرْعَى لم تُوَسَّدْ خُدودها[5]

وقال ثالث :

فإن تك قتلى يوم سِلّى تتابعت فكم غادرتْ أسيافنا من قماقم
غداة نكر المشرفيَّة فيهم بسُولافَ يوم المأزق المتلاحم[6]

(١) تاريخ الطبرى ٨/١٤٤ .
(٢) موضع بالأهواز بالقرب من جند يسابور . (٣) شرح نهج البلاغة ١/٣٨٧
(٤) كميت : فرس فى لونه سواد إلى حمرة . ورد : أحمر
(٥) لم توسد خدودها : لم يألفوا الفراش
(٦) المشرفية : السيوف . سولاف : موقعة بين الخوارج وخصومهم

— ٤ —

تكفير مخالفيهم

١ — من اتهام الخوارج لمخالفيهم بالكفر والإلحاد قول أم عمران بن الحارث الراسبي فى رثائه لما قتل(١) :

اللهُ أيَّد عمرانا وطهَّره ... وكان عمران يدعو الله فى السَّحَرِ
يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه ... شهادةً بيَدَىْ مِلْحادةٍ غُدُرِ(٢)
ولى صحابته عن حَرِّ مَلْحمةٍ ... وشَدَّ عمرانُ كالضرغامة الهَصِرِ(٣)

٢ — ومن اتهامهم لخصومهم بالكفر قول قطرى بن الفجاءة فى يوم دولاب(٤) :

لعمرك إنى فى الحيــاة لزاهد ... وفى العيش مالم ألق أم حكيم

. . . .

فلو شهدَتنا يوم ذاك وخيلُنا ... تبيح من الكفار كلَّ حريم
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسَهم ... بجنات عَدْنٍ عنده ونعيم

— ٥ —

ألم من الفرقة

دبت عقارب الخلاف بين الأزارقة ، فخلع بعضهم قطرىَّ بن الفُجاءة ، وولوا عبد ربه الصغير ، وجعل المهلب يقاتلهما ، فقال الصَّلت بن مُرَّة أو زيد ابن جندب(٥) :

---

(١) تهذيب الكامل ١/١٣٠ .
(٢) ملحادة : مغال فى كفره .
(٣) حرملحمة : معركة شديدة حامية . الضرغامة : الأسد . الهصر : القتال .
(٤) تهذيب الكامل ١/١٣٠ والأغانى ٦/٥ يوم دولاب : موقعة بخارج البصرة بين نافع بن الأزرق وأتباعه من الخوارج وبين البصريين .
(٥) تهذيب الكامل ١/٢٠٦ وفى البيان والتبيين ١/٤٢ نسبة الابيات لزيد بن جندب .

قل المُحِلّين قـد قرّت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب[١]
كنا أناسا على دين ففرّقنا ... طول الجدال وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب
إنى لأهوَنكم فى الأرض مُضْطرباً ... مالى سوى فرسى والرمح من نشَب

خواص شعرهم

— ١ —

السياسة الدينية :

مجال هذا الشعر وميدانه السياسة ، فقد جال شعراؤهم فى فلكها ، ولم يتجاوزوه .

١ — ففيه دعوة إلى مذهبهم ، واحتجاج له ، ودفاع عنه ، ونقض لمذهب خصومهم .

٢ — وفيه تصوير صادق لشجاعتهم وبطولتهم واستهانتهم بلقاء الأبطال ، كقول عمرو بن الحُصَيْن[٢]

وهم مساعرُ فى الوغَى رُجُحٌ ... وخيارُ من يمشى على العَفَر

وقول الطرِمّاح[٣] :

عصائبُ مِن شتى يؤلِّف بينهم ... هُدَى الله ، نزّالون عند المواقف
فوارسُ من شَيْبان ألّف بينهم ... تُقَى الله ، نزّالون عند التّزاحُف

---

(١) المحلون: المرادهنا المهلب وبنو أمية ،أو الفرقة المنشقةعلى الأزارقة ، لأنهم استحلوا الحرم ، وكان الخوارج يطلقون هذا الوصفعلى خصومهمويطلقهعليهم خصومهم . الهرب: لأن قطريا هرب لما قتل المهلب بن أبي صفرة زعيم الخوارج الآخر عبد ربه .

(٢) النموذج ٤ من نماذج الشجاعة . (٣) النموذج ٥

وقوله فى تمنى الموت بميدان الجهاد كما مات إخوانه :

ولكن أحِنْ يومى سعيدا بعُصبة يصابون فى فَجٍ من الأرض خائف
فأقتَلَ قَعْصاً ثم يُرْمَى بأعظمى كضِغْثِ الخلا بين الرياح العواصف
ويُصْبِح لحمى بين طير مَقِيلُه دُوَيْن السماء فى نسور عواكف

٣ — وفيه تصوير لتقواهم وصلاحهم وزهدهم ، كما رأيت فى قصيدة عيسى بن فاتك ، وفى قول عمرو بن الحصين[1] :

متأوِّهون كأن جمر غضاً للخوف بين ضلوعهم يَسْرِى
تلقاهم ألاَّ كأنهم لخشوعهم صَدَرُوا عن الحشر

٤ — وهم يحضون على الثورة ، وإسقاط خصومهم ، كما سبق فى قصيدة مُعاذ بن جُوَيْن ، كقوله :

فشُدُّوا على القوم العُداةِ فإنما إقامتكم للذبح رأيا مُضَلَّلا

٥ — وفى شعرهم وصف لمخالفيهم بالكفر والإلحاد ، كما تجد فى قول أم عمران ابن الحارث[2] ، وفى قول قطرى بن الفجاءة[3] .

٦ — وكثيرا ما رثوا قتلاهم ، وتفجعوا على فقدهم ، وأشادوا بتقواهم وشجاعتهم ، وودوا لو يلحقون بهم .

— ٢ —

جزالة الأسلوب وقوته :

يتسم أسلوبهم بالجزالة والقوة ، ففيه من صلابتهم وحماستهم واندفاعهم ووضوحهم .

وهذا هو المتوقع من حزب بدوىٍّ ، لم تفسده الحضارة ، ولم يضعفه الترف ، وهو إلى ذلك صاحب مذهب متميز فى الحكومة والحاكم يغاير مذهب الأمويين .

---

(١) نموذج ٤ من الشجاعة . (٢) نموذج ١ من التكفير . (٣) نموذج ٢ .

والشيعة والزبيريين ، لم يقتصر في الدعوة إليه على القول ، وإنما دعا إليه وصانه بالسيف واللسان معاً ، فجاء تعبير الشعراء عن مذهبهم ودعايتهم له صدى لعاطفة صادقة .

ثم إن الخوارج كانوا أعظم الأحزاب السياسية إقبالا على حفظ القرآن الكريم، ومدارسته والتأثر به .

سأل الحجاج سَبْرة بن الجَعْد — من الخوارج — : هل قرأت القرآن ؟ فقال سبرة : حفظته في صدري[١] .وكان نافع بن الأزرق مقدما في فقه الخوارج ، وبينه وبين عبد الله بن عباس مسائل كثيرة[٢] .

وكان الرُّهَيْن المرادي الشاعر الخارجي الذي لا يرى القعود عن الحرب، وكان عمران بن حطان شاعر الصفرية ورئيسهم وخطيبهم ، عليمين بالشعر والفقه ، ولهما مسائل كثيرة في العلم بالقرآن والآثار والسير والسنن والغريب[٣] .

وكانت غَزَالة زوجة شبيب الخارجي قد نذرت إن دخلت الكوفة لتصلين بالمسجد ركعتين ، تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران[٤] .

وذكر أبو الفرج أن عبيدة بن هلال الخارجي كان إذا تهادن الفريقان — في حرب المهلب والخوارج — ينادي جماعة المهلب ، فيخرج إليه فتيان من العسكر ، فيقول لهم :أيما أحب إليكم ، أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر فيقولون : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، ولكن تنشدنا . .

فيقول لهم : يافسقة ، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن . ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا .

---

(١) مروج الذهب ٢/١٣٨ .
(٢) الكامل للمبرد ٣/٢٨٤ وشرح نهج البلاغة ١/٣٨١ .
(٣) الكامل للمبرد ٣/٢٦٢ .
(٤) مروج الذهب ٢/١٤٠ شبيب الخارجي حارب الحجاج وانتصر عليه ، ودخل الكوفة ، فتحصن منه الحجاج بدار الإمارة بالكوفة . ثم بعث إليه عبد الملك مددا من الشام فانتصر الحجاج وقتل أم شبيب وزوجته غزالة ، ثم قتل شبيب بعد ذلك .

— ٣ —

حرارة العاطفة وصدقها :

شعرهم حار ملتهب متدفق ، يُشِيع حرارة الإيمان بالمذهب وفداء العقيدة ، والاستهانة بالحياة المهضومة ، والإسراع إلى الموت فى ميدان الجهاد ، لأن الغاية التى يصبون إليها أن يُعْلوا كلمة الله ، ويذودوا عن محارمه وحماه ، ويمكنوا للإسلام .

ثم كان من عوامل هذه الحرارة أن شعراءهم كانوا من أساطين الدعاة إلى مذهبهم ، وكان بعضهم من أرباب السيف ، فجاء شعرهم حارا قويا ، على حين أنا نجد كثيرا من شعراء المذاهب الأخرى بعضهم من المؤيدين المخلصين الذين يقنعون بموقف التأييد ، وبعضهم من المتكسبين أو الراهبين الذين يجارون ويمالئون ، فليس لشعرهم من القوة ما لشعر الخوارج .

وقد أحس خصومهم بقوة بيانهم ، وتغلغل قولهم إلى القلوب ، وشهدوا لهم بذلك ، وتخوفوا من تأثيرهم على الناس .

شفع بعض المسلمين فى الخوارج الذين حبسهم عبيد الله بن زياد ، فأبى ، وقال : إنى أَقْمع النفاق قبل أن يَنْجُم ، إن كلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع [1] .

وقد سبق فى شعرهم أن بعضهم يدين بأنه لعين ، معذب فى النار ، إن لم ينافح عن عقيدته بدمه وروحه .

وتبين فى شجاعتهم أنهم كانوا يتهافتون على القتال فى حماسة وبطولة وشوق إلى الاستشهاد .

حتى لقد تغالى الأزارقة ، فاستحلوا قتال المسلمين الذين يخالفونهم فى العقيدة ، لأنهم فى رأيهم كفار ضلوا سبيل الهدى ، إما لاستئثارهم بالحكم على نظام لا يقره

(١) الكامل للمبرد ٣/٢٤٨ :

الإسلام ، وإما لأنهم يساندون الغاصبين للخلافة ، ويمكنون لهم ، وإما لأنهم راضون بهؤلاء الحكام ، مستكينون لا يغيرون ما يرونه من منكراتهم .

فكان هؤلاء جميعا عداة الأزارقة ، وكان الأزارقة وغيرهم من الخوارج لا يدينون بالخلافة الأموية ولا بالخلافة الزبيرية ولا بالشيعية ، حتى لقَّب شاعرهم نافع بن الأزرق بأمير المؤمنين ، فى رثائه له يوم دولاب[1] :

والموت حتمٌ لا محالةَ واقع ... من لا يُصَبِّحْهُ نهارا يَطْرُقُ
فلئن أميرُ المؤمنين أصابه ... رَيْب المنون ، فمن يُصبه يَعْلَقُ

لهذا لم يتذبذبوا معهما اضطروا ، على حين أن شعراء المذاهب الأخرى لم يحبسوا فنهم على مذهبهم ، فالكميت شاعر الشيعة اضطر إلى مدح بنى أمية أخذا بالتقية ، وابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين اضطر إلى مدح عبد الملك وبنى أمية ليسلم من القتل ، وكثير من شعراء الأحزاب الأخرى كانوا يتعاطون فنونا غير السياسة .

ولقد يحيد الخارجى عن مذهبه ، ثم لا يلبث أن يرجع إليه ، على ما فى الحال الأولى من نعيم وسلامة ، وعلى ما فى الثانية من شقاء وتهلكة .

لقى الحجاج رجلا أعجبه ، فاستدعاه إلى قصره ، وسأله عن اسمه ، فعرف أنه سَبْرة بن الجَعْد ، فاتخذه سميرا .

وكان سبرة على رأى الخوارج ، فعلم قطرى بن الفجاءة بمكان سبرة من الحجاج ، وكان قطرى حينئذ يقاتل المهلب ، فكتب ، إلى سبرة بأبيات ، منها[2] :

لشتّانَ ما بين ابن جعد وبيننا ... إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهرِ
نجاهد فرسان المهلب ، كلُّنا ... صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخزَّ عند أميره ... أميرٍ بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى ... وميراث آباء كرام العناصر ؟

(١) تهذيب الكامل ١/١٣١ .
(١) مروج الذهب ٢/١٣٨ .

ألم تر أن الموت ـ لاشك ـ نازل ... ولا بد من بعث الألى فى المقابر ؟
حفاة عراة والترابُ لديهم ... فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نِلتَ يفنى وإنما ... حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولا تكُ مُغضَبا ... على ظُلْمة أعْشَتْ جميع النواظر
وتُبْ توبة تُهْدِى إليك شهادة ... فإنك ذو ذنب ولستَ بكافر
وسِرْ نحونا تلقَ الجهاد غنيمة ... تُفِدْك ابتياعا رابحا غير خاسر
هى الغاية القصوى الرغيبُ ثوابُها ... إذا نال فى الدنيا الغِنى كل تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ، ولحق بقطرى ، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه ، ولم يرعه إلا كتاب قطرى ، وفى أسفله أبيات من سبرة إلى الحجاج :

فمن مُبْلغُ الحجاج أن سميره ... قَلَى كلَّ دين غيرِ دين الخوارج ؟
رأى الناس إلا من رأى مِثْل دينه ... ملاعينَ ترَّاكين قَصْدَ المخارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقا ... وما كُرْبَتى غيرُ الإله بفارج
إلى عصبة أما النهار فإنهم ... هم الأُسْدُ أُسْدُ الغِيلِ عند التهايجُ
وأما إذا ما الليل جنَّ فإنهم ... قيام بأنواح النساء النواشج

— ٤ —

خلوه من العصبية :

ليس فى شعرهم أثر العصبية الجنسية أو القبلية ؛ لأن مذهبهم السياسى وحد بينهم وطبعهم بطابعه ، فهدفهم إسلامى خالص لا إيثار فيه للعرب على غيرهم ، ولا تفضيل لقبيلة على قبيلة .

لهذا كان بنو تميم ـ من مضر ـ والأزد ـ من اليمن ـ يحاربون إخوانهم الناصرين لبنى أمية ، ويهجونهم ، وكان عمر بن الحصين ـ الفارسى ـ عربياً خارجياً فى شعره ، لا أثر فى قوله لجنسه ، ولا أثر لجنسه فى مذهبه السياسى .

أما شعراء الأحزاب الأخرى ، فلم يسلم شعرهم من عصبية جنسية أو قبلية ، فالنزعة القرشية ظاهرة فى شعر ابن قيس الرقيات ، والنزعة الفارسية واضحة فى شعر ابن يسار ، وهما شيعيان .

والنزوع القبلى بَيِّن فى كثير من شعراء الحزب الأموى ، حتى إن بعضهم كان يؤثر قبيلته على الصالح الحكومى ، وكان آخرون يستجيبون لمنفعتهم الشخصية فتطغى على نزعتهم الحزبية .

فالقطامى الشاعر التغلبي النصرانى أشاد بقومه ، ثم لما أسرته قيس فى حرب بينها وبين تغلب ، وأطلقه زفر بن الحارث ، وأعطاه مائة ناقة ، جعل يمدحه ، ويندد بما بين قيس وتغلب من ثارات وإحن ، ويتلهف على أن يظلهما السلام برايته[1] .

والأخطل شاعر تغلب كان على أمويته حفيا بقومه ، فلما أوقع بهم الجُحَّاف القيسى هبَّ يشكو إلى عبد الملك ، ويحرضه على الثأر من قيس ، ويتوعده بتخلى قبيلة تغلب عن مؤازرة بنى أمية[2] .

والراعى كان حريصاً على مصالح قيس قومه ، ولما قسا عليهم جابى الخراج ، مدح عبد الملك بن مروان ، ورجاه أن يرأف بهم[3]

وكان الفرزدق أحرص على سلامة تميم ومنافعهم من حرصه على المصلحة السياسية الأموية[4] .

وكان جرير يشيد بقبيلة قيس خصوم قومه تميم ، متأثرا بعطاياهم ، متناسياً أنهم خصوم الدولة التى يمدح خلفاءها ، مع إغداق الخلفاء والولاة عليه ، وقد عيره الفرزدق أنه تخلى عن قومه وناصر أعداءهم[5] .

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٧ والأغاني ٢١ / ١١٨ .
(٢) الشعر والشعراء ١٨٩ والأغانى ٧/١٦٩ .
(٣) الأغاني ٢٠ / ١٦٨ والشعرو الشعراء ١٥٦ .
(٤) الأغانى ٩ / ٣٢٤ والشعر والشعراء ١٨٣ .
(٥) الشعر والشعراء ١٧٩ والأغانى ٨ / ٣ .

— ٥ —

وحدة الموضوع :

الطابع العام لشعرهم الحماسة ، ووحدة الموضوع ، وهذا بعض ما يميزهم من معاصريهم ؛ إذ كان النظام السائد فى أكثر القصيد محاكاة الجاهليين فى تعدد الموضوعات ، والبدء بالغزل أو بكاء الأطلال ووصف الرحلة .

على أن قليلا من قصائدهم مستهل بالغزل أو بالحديث إلى المرأة ، لكنه حديث سريع إلى الزوجة ، وحديث ينتهى إلى المباهاة بالجهاد ، والحرص على الاستشهاد ، كقول قطرى فى يوم دولاب[1] :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد   وفى العيش ما لم ألق أمَّ حكيم
من الخفرات البيض لم يُرَ مثلها   شفاء لذى بثّ ولا لسقيم

. . . .

وقول يزيد بن حَبْناء من الأزارقة [2] :

دعى اللوم إن العيش ليس بدائم   ولا تَعْجَلى باللوم يا أم عاصم

وقول قطرى[3] :

فيا كبدا من غير جوع ولا ظما   ووا كبدا من وجد أم حكيم

— ٦ —

تشابه شعرهم :

جاء شعرهم متشابها إلى حد كبير فى موضوعه ومعانيه وأسلوبه . لأنهم جميعاً يستقون من ينبوع واحد ، ويتغنون بعاطفة واحدة ، ويقصدون إلى غرض واحد ، ولأن ثقافتهم قائمة على اللغة ومدارسة القرآن الكريم ، ومن هنا نسب شعر بعضهم إلى بعض ، واختلف القدماء فى نسبة القصيدة الواحدة إلى عمران بن حِطّان أو قطرى ابن الفُجاءة أو خالد القنانىّ أو عيسى الحَبَطى[4] .

(١) تهذيب الكامل ١ / ١٣٠ .
(٢) تهذيب الكامل ١ / ١٩١ .
(٣) تهذيب الكامل ١ / ٢٠٨ .
(٤) تهذيب الكامل .

— ٧ —

قلمّا وصلنا منه :

ثم إن شعرهم قليل ، وإنتاجهم تغلب فيه المقطعات ، لأن الشعر لم يكن عندهم فنا تمارسه طائفة خاصة تنقطع لإنتاجه أو تـكاد ، وتتنافس فى تجويده والبراعة فيه ، وإنما كان تعبيرا عن المشاعر فى أحوال خاصة .

هذا إلى أن حياتهم القائمة على الجهاد والحرب والعبادة لم تفسح لهم من الوقت مايكفل الإكثار من القصائد وإطالتها .

فهم من هذه الناحية أشبه بالصعاليك فى العصر الجاهلى[1] .

تأثرهم بالقرآن الكريم :

فى شعرهم ملامح دالة على تفهمهم القرآن الـكريم واستمدادهم منه ، كقول عيسى بن فاتك :

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الـكثيرة ينصرونا

إشارة إلى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين[2] » . وإلى قوله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون[3] » .

وقد علمنا من دراسة مذهبهم أنهم يدينون بالمساواة بين المسلمين ، فلا تفاضل بالأحساب والأنساب والقرابة من رسول الله ، وإنما التفاضل بالتقوى والصلاح .

---

(١) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف ٢٩٤ — ٣٠٦ .
(٢) سورة البقرة ٢٤٩ . (٣) سورة الأنفال ٥٦

لهذا رفضوا دعوى قريش أنها أحق بالحكم .

وفى هذا يقول عمران بن حطان :

ونحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر[١]

وهذا معنى الآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٢]

— ٩ —

بين شعرهم وشعر الأمويين :

فإذا ما وازنا بين شعر الخوارج وشعر الحزب الأموى تبين لنا :

١ — أن الخوارج أصدق عاطفة ، وأشد حرارة ، وأعظم ثباتاً على مذهبهم

٢ — وأنهم جروا على وحدة القصيدة ، أما شعراء الأمويين فإنهم عددوا موضوعات القصيدة ، ولم يخرجوا على النظام القديم .

٣ — وأنهم قصروا شعرهم على مذهبهم وما يتصل بحياتهم من حروب وثورات ، على حين أن شعراء بنى أمية لم يقصروا شعرهم على السياسة .

٤ — الخوارج أعظم تأثراً بالقرآن الكريم من شعراء الأمويين ، لأنهم عكفوا على تلاوته وحفظه وفهمه .

٥ — ليس فى شعرهم نزوع قبلى أو تعصب جنسى ، لأنهم جميعاً أشربوا عقيدة واحدة سوت بينهم على تعدد قبائلهم واختلاف جنسهم ، أما شعراء الأمويين فكانوا أصحاب عصبية جنسية وقبلية واضحة المعالم

٦ — وقد كان شعر الخوارج قليلا ، والمقطعات فيه أكثر من القصائد ، على حين أن شعر الأمويين كثير غزير ، تغلب فيه القصائد على المقطعات .

---

(١) تهذيب الكامل ١/١٨٤ . (٢) سورة الحجرات ١٣ .

— ١٠ —

بين شعرهم وشعر الشيعة :

والموازنة بين شعرهم وشعر الشيعة تفضى إلى أن شعراء الشيعة يتفقون وشعراء الخوارج فى الحملة على بنى أمية ، لأنهم عادون على الخلافة ، وهى فى نظر الشيعة حق بنى هاشم ، وفى نظر الخوارج حق المسلمين .

لكنهم يخالفون شعراء الشيعة فى عدة أمور :

١ — شعراء الشيعة لم يقصروا شعرهم على مذهبهم كما فعل شعراء الخوارج .

٢ — ولم ينافح شعراء الشيعة عن عقيدتهم بدمائهم وسلاحهم كما فعل شعراء الخوارج .

وحسبنا للتدليل على هذا أن ثلاثة من شعرائهم نكلوا عن الحرب لما جَدَّتْ بهم الحرب .

فكُثَيِّر كان فى جند مصعب بن الزبير لما خرج للقاء عبد الملك ، فرآه عبد الملك يمشى مطرقاً كأنه حزين ، فدعاه واستحلفه بأبى تراب — على بن أبى طالب — أن يَصْدُقه إذا نبأه بما فى نفسه ، فحلف له كثير أن يصدقه . فقال له عبد الملك تقول فى نفسك : رجلان من قريش يلقى أحدهما الآخر لحربه فيقتله ، والقاتل والمقتول فى النار ، ولست آمن أن يصيبنى سهم فيقتلنى ، فأدخل النار معهم . قال كثير : ما أخطأتَ يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك : فعد من قريب . وأمر له بجائزة ، فعاد كثير .

ولم يختلف أيمن بن خُرَيْم عن كُثَيِّر فى إيثاره سلامة نفسه على المنافحة عن مذهبه ، فهو القائل فى تجنب القتال واعتزال المتقاتلين ، والمسارعة إلى المال إذا كان عطاء :

إن للفتنة مَيْطا بيننـا ... فرُوَيْدَ الميطِ منها تعتدِل[1]
فإذا كان عطاء فارْتَهِمْ ... وإذا كان قتـال فاعتزل[2]
إنمـا يُسْعِرها جاهلها ... حطبَ النار فدعْها تشتعل

ولما قال له عبد الملك : خذ هذا المال ، وانطلق فقاتل ابن الزبير ، أبى ، وقال :

ولستُ بقاتلٍ رجلا يُصَلِّى ... على سلطان آخر من قريش
له سلطانُه وعلىَّ وزرى ... معاذ الله من سفهٍ وطيش
أأقتُلُ مسلما وأعيش حيًّا ... فليس بنافعى ما دمتُ عيشى

وأيمن بتجنبه القتال دفاعا عن مذهبه يشبه أباه ، فقد اعتزل أبوه حرب الجمل وصفين وما تلاهما .

كذلك فعل الكميت حينما ثار زيد بن علىّ على هشام بن عبد الملك ، وكتب إلى الكميت ليثور معه ، وذكره بقوله :

ما أبالى إذا حُفِظْتَ أبا القا ... سم فيهم ملامةَ اللُّوَّام
فهمُ شيعتى وقِسْمِى من الأمّـ ... ـة حَسْبِى من سائر الأقسام
إن أُمتْ لا أمتْ ونفسى نفسا ... ن من الشك فى عمىً أو تعامى

فلم ينشط الكميت للخروج ، ولم يتأهب لحمل السلاح نصرة لزعيمه ، بل كتب إليه يقول :

تجود لـكم نفسى بما دون وَثْبة ... تظل لها الغِرْبانُ حولى تَحْجِل

٣ — لم يعكف شعراء الشيعة على العبادة ، ولم ينهمكوا فى الورع والزهادة ، ولم يزدروا الدنيا وما تخدع به من مال ، كما كان شعراء الخوارج يفعلون .

---

(١) الميط: الشدة والقوة
(٢) ارتهم : اطلب .

٤ — شعر الشيعة لم يتسم أكثره بالقوة والحرارة التى اتسم بها شعر الخوارج ، ولعل السبب فى هذا أن الشيعة كانوا يدينون بالتقية والمداراة إن لم تكن الفرص مواتية للإعلان عن مذهبهم والدعاوة له ، على حين أن الخوارج وخاصة الأزارقة كانوا يدينون بالصراحة والمجازفة ، ولا يجيزون التقية مهما يكن من أمر .

وقد كان لهذا أثره فى إنتاج الشعراء من شيعة وخوارج ، وفى جهرهم أو كتمانهم مايدور بنفوسهم .

٥ — على أن شعراء الشيعة كانوا أكثر إنتاجا ، كالكميت وَكُثَيِّر والسيد الحميرى .

ولعل سبب هذا أن الخوارج شغلوا بالحروب أكثر مما شغل الشيعة ، وأن كثيرا من شعر الخوارج عَفَّى عليه الإهمال والنسيان ، فلم يصل إلينا .

الفصل الرابع

شعر الزبيريين

— ١ —

إشادة بهم

١ — من مدح ابن قَيْس الرُّقَيَّات لمصعب بن الزبير[1] :

إنما مصعب شِهـابٌ من الـلـــه تجلت عن وجهه الظَّلْماء
ملـكه مُلكُ قوة ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـــلح من كان همَّه الاتقاء

٢ — اشتدت الحاجة بالنابغة الجعدى فقصد ابن الزبير ومدحه[2] بأنه من طراز أبى بكر وعمر وعثمان ، وبأنه موئل المحتاجين ، ومسوٍّ بين الناس :

حكيتَ لنـا الصدِّيقَ لما وليتَنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِم
وسوَّيتَ بين الناس فى العدل فاستووا فعـاد صباحا حالكُ اللون مظـلم
أتاك أبو ليـلى يشقُّ به الدُّجَى دجَى الليل جوَّابُ الفلاة عَثَمْثَم[3]
لِترفَعَ منه جانبـا ذَعْذَعَتْ به صروفُ الليـالى والزمان المصمِّم[4]

---

(١) ديوان قيس بن الرقيات ١٧٦ . (٢) تهذيب الكامل ١/٢٢٥ :
(٣) عثمثم : جمل محكم الخلق شديد .
(٣) ذعذعت : أذهبت ماله وفرقت حاله . المصمم : المؤذى القاطع .

فقال له ابن الزبير . هوّن عليك أبا ليلى ، فأيسرُ وسائلك عندنا الشعر ، أما صفوة أموالنا فلبنى أسد ، وأما عَفْوتها(١) فلآل الصّديق ، ولك فى بيت المـــال حقان : حق بصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقٌ بحقك فى المسلمين . ثم أمر له بسبع قلائص وراحلة قوية ، وأن توقر له حبا وتمرا .

٣ — قصد أبو وَجْزة الأسلمى المعروف بالسّعدى عبد الله بن الزبير فأعطاه ستين وسقا ، فمدحه ، وعرض بإبراهيم بن هشام والى المدينة لهشام بن عبد الملك وكان قد وفد عليه أبو زيد الأسلمى مادحا فضربه بالسياط ، لأنه قال فى مدحه « يابن هشام ياأخا الـكرام » فقال له : كأنى لست منهم . قال فى مدح عبد الله ابن الزبير :

راحت رَواحا قَلُوصى وهى حامدةٌ آلَ الزبير ولم تَعْدِل بهم أحدا(٢)
راحت بستين وَسْقا فى حقيبتها ما حُمِّلَتْ حِملها الأدنى ولا السَّددا(٣)
ما إن رأيت قلوصا قبلها حَمَلَتْ ستين وسقا ولا جابت بها بلدا
ذاك القِرَى لا قِرَى قوم رأيتهم يَقْرون ضيفهم المَلْويَّة الجُدُدا(٤)

— ٢ —

الاحتجاج لهم

١ — من مدح ابن قيس الرقيات لعبد الله بن الزبير .

وابن أسماء خير مسح الرُّ كن فعالاً وخيرهم بنيانا

---

(١) العفو : ماتبقى وزاد (٢) القلوص : الناقة الشابة

(٣) الوسق . ستون صاعا أو حمل بعير . السدد : الحمل الـكامل المعتاد

(٤) القرى : الـكرم . الملوية : المراد السياط . الجدد : الحديثة الصنع

وإذا قيل مَنْ هِجانُ قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[1]

فهو يصفه بأنه خير الأتقياء فعالا ومجداً ، وبأنه أعظم قريش حسبا وشرفا ، ولاشك أنه يقصد معاصريه ، ويفضله عليهم بأعماله وبنسبه ، فهو إذاً أجدر بالخلافة .

٢ — وهو يردد هذه المعانى ونظائرها فى كثير من قصائده ، كقوله إنك ياعبد الله سليل الأشراف الذين كانوا يعمرون مكة ، وبخاصة أعظم أما كنها وإنك من صميم قريش ومن معدنها الخيِّر الوفى ، وأنت اليوم أرفعها شأنا ، وأعدلها حكما وقضاء ، وأعلمها بما آلت إليه حالها من فرقة وعداء ، وأسلمها من هذا الداء الذى أصابها ، وأنت أشرف معاصريك من قريش نسبا ، وخيرهم سياسة وحكما :

أنت ابن مُعْتَلَج البِطا ح كُدَيِّها فكَدَائِها[2]
فالبيت ذى الأركان فالـمُسْتَنِّ من بَطْحائِها[3]
فمحلُّ أعلاها إلى عرفاتها لخرائِها
مِنْ سِرِّها فيها ومعـدن بِرِّها ووفائِها
أوْفَى قريش بالملا فى حكمها وقضائها
ولأنت أعلمها بها وأصحُّها من دائِها
وأتمُّها نسبا إذا نُسِبَتْ إلى آبائِها
إن البلاد سوى بلا دك ضاق عرض فضائها
فاجمع بَنىَّ إلى بنيـك فأنت خير رُعائها[4]
نُشْهِدْكَ منا مَشْهَداً ضَنْكا على أعدائها

---

(١) الهجان : الحسيب الرفيع .

(٢) كدى : جبل بأسفل مكة وكداء جبل بأعلى مكة . معتلج البطاح : ملتقاها والمراد أنه سليل الأشراف الذين كانوا يقيمون ببطاح مكة .

(٣) المستن : المطروق المسلوك . البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصا .

(٤) الرعاء بضم الراء وكسرها جمع راع وهو من يلى أمور القوم

نحن الفوارسُ من قريـــــش يوم جِدٍّ لقائها

— ٣ —

حملة على خصومهم

من أمويين وخوارج وكيسانية

١ — لما قتل إبراهيم بن الأشتر عُبَيْدَ الله بن زياد ، ابتهج سراقة بن مرداس البارقى ، وقال[1] :

أتاكُمُ غلام من عَرانين مَذْحِجٍ ... جرىء على الأعداء غير نَكولِ[2]
فيـابنَ زيادٍ بُؤْ بأعظم مالك ... وذقْ حدّ ماضى الشَّفرتين صقيل[3]
ضربناك بالعَضْب الُحسام بِحدّةٍ ... إذا ما أبأْنا قاتلا بقتيل[4]
جزى الله خيرا شُرْطةَ الله إنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلى

٢ — حزن زفر بن الحارث الكلابى[5] على هزيمة جيش ابن الزبير فى مرج راهط سنة ٦٤ ﻫ وكان زفر وقومه والقيسية فى جيش ابن الزبير ، وكانت كلب بزعامة حسان بن مالك الكلبى حاكم الأردن فى جيش مروان بن الحكم فقال :

أرينى سلاحى لا أبالك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه ... مُقيدٌ دمى أو قاطعٌ من لسانيا[6]

---

(١) الطبرى ١٤٦/٦ .
(٢) عرانين مذحج : أشرفها وأعلاها . نكول : جبان
(٣) بؤ بأعظم مالك : مت فداء له . ماضى الشفرتين صقيل : سيف حاد مصقول .
(٤) العضب : القاطع . أبأنا : نأرنا وعاقبنا .
(٥) الطبرى ٤١/٦ ومروج الذهب ١٠٧/٢ .
(٦) مقيد دمى : مهدرله .

فنى العِيس مَنْجاةٌ وفى الأرض مَهْرب ... إذا نحن رفّعنـا لهن المثـانيا[١]
فلا تحسبونى إن تغيبتُ غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد يَنْبُتُ المرْعَى على دِمَن الثّرى ... وتبقى حَزازاتُ النفوس كما هيا[٢]
أتذهب كلْبٌ لم تَنَلْها رماحُنا ... وتُتْرَكَ قتلى راهطٍ هى ما هيا ؟
لعمرى لقد أبْقَتْ وقيعة راهط ... لحسّان صَدْعا بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرٍو وابن مَعْنٍ تتابعا ... ومقتل هَمّام أُمَنِّى الأمانيا ؟
فلم تُرَ منى نَبْوةٌ قبل هذه ... فِرارى وتركى صاحِبَىَّ ورائيا[٣]
عشيّةَ أعدو بالقِران فلا أرى ... من الناس إلا مَنْ علىَّ ولا لِيا[٤]
أيذهب يومٌ واحد إن أسأته ... بصالح أيامى وحُسْنِ بلائيا ؟
فلا صُلْحَ حتى تَنْحِط الخيل بالقَنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا[٥]
ألا ليت شعرى هل تصيبَنّ غارتى ... تَنُوخًا وحَيَّىْ طيّىء من شفائيا ؟

٣ — قال زفر بن الحارث فى الموقعة نفسها[٦] :

أفِى الله أما بَحْدَلٌ وابن بَحْدل ... فيحيا وأما ابن الزبير فيُقتَل[٧] ؟
كذبتم — وبيت الله — لا تقتلونه ... ولما يكن يوم أغرُّ مُحَجّل[٨]

---

(١) العيس : النوق أو البيض المخالطة بشقرة . المثانى : المراد هنا الأرسان .
(٢) دمن الثرى : أماكن الأنعام وحظائرها .
(٣) نبوة : رجعة عن الحرب وفرار .
(٤) القران : اسم فرسه . (٥) تنحط : تئن من الثقل . (٦) الطبرى ٦/٤٢
(٧) بحدل : أبو ميسون الكلبية زوجة معاوية .
(٨) يوم أغر محجل : المراد نصر عظيم عليكم .

ولما يكن للمَشْرِفيّة فوقكم
شُعاعٌ كقَرْنِ الشمس حين تَرَجّلُ(١)

٤ — من الدعوة إلى الثورة على بنى أمية قول ابن قيس الرقيات(٢) :

كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشامَ غارةٌ شَعْواء ؟(٣)
تُذْهِل الشيخَ عن بنيه وتُبْدِى عن بُراها العقيلةُ العَذْراء(٤)
أنا عنكم بنى أمية مزورٌ وأنتم فى نفسى الأعــــداء
إن قَتْلَى بالطّفِّ قد أوجعتنى كان منكم ـ لئن قُتلتم ـ شفاء

٥ — من حملاتهم على فرقة الكيسانية التى تزعمها المختار بن أبى عبيد الثقفى(٥) تكذيب شعرائهم لدعاواه أنه يوحى إليه ، وأنه كان يمخرق على أتباعه ، إذ اتخذ كرسياً غطاه بالديباج ، وكان يضعه فى مقدمة الجيش ، ويقول لجنده : قاتلوا عليه ، فهو لكم كالتابوت لبنى إسرائيل ، وكان يرسل فوق جيشه حمامات بيضا حين القتال، ويزعم لهم أنها ملائكة منزلة من السماء(٦)

قال سُرَاقه البارقى(٧) :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البُلْقَ دُهْمًا مصْمَتاتِ(٨)
أرِى عينَىَّ ما لم تُبْصراه كلانا عالمٌ بالترّهات(٩)

---

(١) المشرفية : السيوف . شعاع : ضوء . قرن الشمس:شعاعها . ترجل: تترجل وترتفع
(٢) الأغانى ٥/٧٨ . (٣) شعواء : كبيرة متفرقة .
(٤) البرى: البرة الخلخال جمعها براة ، والمراد أن الحرائر يبدين سيقانهن ليظن أنهن إماء فلا يسبين . (٥) راجع ماتقدم عن هذه الفرقة فى فرق الشيعة .
(٦) الطبرى ٦/١٤٠
(٧) الطبرى ٧/١٢٣ وطبقات الكامل الشعراء ٣٧٦ للمبرد ٢/١٦٩ .
(٨) أبو إسحاق : كنية المختار . البلق :جمع أبلق وهو الفرس فيه سواد وبياض وتحجيل الى الفخذين . دهم : جمع أدهم وهو الفرس الشديد السواد ، وأدهم مصمت : أسود خالص لا يخالطه لون آخر . رأيت : علمت .
(٩) الترهات: الأباطيل .

إذا قالوا أقول لهم : كذبتم وإن حَرِجُوا لَبِسْتُ لهم أداتى[١]
كفرتُ بوحيكم وجعلتُ نَذْرا علىَّ قتالكم حتى المات

فهو يتهكم بالمختار ، ويقول إنى أعلم أن البلق غير الدهم ، فالبلق فيها سواد وبياض ، والدهم سود خالصة السواد .

لكنى كذبت على وعلم الناس ، وقلت إنها دهم ، لأنى أحمقك ، وأجارى دعاواك الباطلة .

٦ — وقال المتوكل الليثى[٢] فى تكذيب كرسى المختار :

أبلغْ أبا إسحاق إن جئتَه أنِّى بكرسيكمُ كافرُ
تنزو شِبامٌ حول أعواده وتحمل الوَحْىَ له شاكر[٣]
محمَّرةً أعينهم حوله كأنهن الحِمَّص الحادر[٤]

٧ — وقال أعشى همدان فى الكرسى[٥] :

شهدتُ عليكم أنكم سبئية وأنى بكم ياشُرْطة الشِّرك عارفُ
وأقسم ما كرسيُّكم بسكينة وإن كان قد لُفَّت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سَعَتْ شِبام حواليه ونَهْدٌ وخارف[٦]
وأنى امرؤٌ أحببتُ آل محمد وتابعتُ وحْياً ضُمِّنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شُمطُها والغطارف[٧]

٨ — ندد ابن قيس الرقيات بالقبائل التى تخلت عن نصرة مصعب بن الزبير ، وخذلته حتى قتله عبد الملك[٨] :

(١) حرجوا : حاروا
(٢) الطبرى ٦/١٤١
(٣) شبام : حى . شاكر : حى
(٤) الحادر : النافخ الورم
(٥) الطبرى ٦/١٤١
(٦) أسماء لأحياء من العرب
(٧) الشمط : جمع أشمط وهو الذى غلب بياض رأسه على سوادها ، والمراد الكبراء . الغطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف السخى .
(٨) الطبرى ٧/١٨٧

لقد أورث المِصْرَيْنِ خِزْيا وذلة ... قتيلٌ بَديْرِ الجاثليق مقيمُ(١)
فما نَصَحَتْ لله بكر بن وائل ... ولا صَبَرَتْ عند اللقاء تميم
ولو كان بكريًّا تعطّف حوله ... كتائب يَغْلى حَمْيُها ويدوم
ولكنه ضاع الذِّمامُ ولم يكن ... بها مُضرِىٌّ يوم ذاك كريم
جزى الله كُوفيًّا هناك ملامةً ... وبَصْرِيَّهم إن المليم مُليم
وإن بنى العَلاّت أَخْلَوْا ظهورنا ... ونحن صريح بينهم وصميم
فإن نُفْنَ لا يُبْقُوا أولئك بعدنا ... لذى حُرْمةٍ فى المسلمين حريم(٢)

خواص شعرهم

— ١ —

السياسة الدينية :

جال الشعراء الزبيريون فى ميدان السياسة ، داعين إلى مذهبهم ، منافحين عنه ، منوهين بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وكثيراً ما حملوا على خصومهم .

١ — فتارة يشيدون بعبد الله ، ويفاخرون بعدالته فى حكمه ، وبتقواه وصلاحه ، ورعايته للفقراء والضعفاء ، ومشابهته لأبى بكر وعمر ، ويثنون على كرمه ، كما ترى فى النماذج التى تقدمت من شعر ابن قيس الرقيات والنابغة الجعدى ، وأبى وَجْزة

٢ — وتارة يحتجون لعبد الله بن الزبير وجدارته بالخلافة ، فيتحدثون عن شرف نسبه وعراقة حسبه ، ويفضلونه على معاصريه من قريش جميعاً فى النسب والعلم والكفاءة ، كما ترى فى احتجاج ابن قيس الرقيات .

---

(١) المصران : البصرة والكوفة . ديرالجاثليق : المكان الذى قتل فيه مصعب على نهر اسمه الدجيل .
(٢) هكذا (حريم) وصوابها (حريما) .

٣ — ولقد يحملون على خصومهم ؛ ويتهمونهم بالكفر ، ويتوعدونهم ، ويتداعون إلى الانقضاض عليهم .

لهذا استبشر سُراقة البارقى بمقتل عبيد الله بن زياد ، وتفجع زفر بن الحارث على هزيمة جيش الزبيريين فى مرج راهط ، وأنذر بنى أمية وأعوانهم بأنه لا صلح حتى يذيقوهم هزيمة مثلها ويثأروا منهم ، وذكر حسان وقبيلة كلب وتنوخ وطيء بخاصة ، وتهكم ببحدل الكلبى صهر معاوية ، وتوعد هؤلاء جميعا بغارة شعواء .

وكذلك أنذرهم ابن قيس الرقيات بغارة طاحنة تذهل الأب عن بنيه ، وترغم الحرائر على أن يتظاهرن بأنهن إماء حتى لا يُسْبَيْنَ .

ولقد حمل الشعراء على فرقة الكيسانية ، وسخروا من زعيمها المختار ومن ضلالاته ، كما رأيت فى الأمثلة لسراقة البارقى والمتوكل الليثى وأعشى همدان .

— ٢ —

قلة إنتاجهم :

نلاحظ أن هذا الحزب لم يكن له شعراء كثير ، كما كان للأمويين والشيعة والخوارج ، وكان إنتاج هؤلاء الشعراء القلة غير كثير .

١ — ولعل من أسباب هذا أن الحزب كان قصير العمر ، لم يُعَمَّر تعمير هذه الأحزاب ، فكان الزمن القصير الذى عاش فيه الحزب غير كفيل بتأصل نظريته السياسية وتميزها وجريانها فى نفوس الشعراء ، حتى يدينوا بها ، ويناضلوا دونها .

٢ — ثم إن عبد الله بن الزبير لم يكن يغدق على الشعراء مثلما كان يغدق بنو أمية ، ولم يكن يصطنع القبائل والأشراف بالهبات كما كانوا يفعلون ، إذ كان حريصا على مال المسلمين حرصاً أذاع عنه البخل الشديد .

يدل على هذا أن أخاه مصعبا لما قتل المختار بن أبى عبيد الثقفى وفد عليه

ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، جئتك بوجوه أهل العراق ، لم أدَعْ بها لهم نظيرا ، لتعطيهم من هذا المال . فقال له : جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ، والله لا فعلت[١] .

وقد وفد عليه أبو صخر الهذلى فى جماعة من قومه ليقبضوا عطاءهم ، فأعطاهم وحرمه ، لأنه أموى الهوى .

فقال له أبو صخر : علام تمنعنى حقا لى ؟ وأنا امرؤ مسلم ، ما أحدثت فى الإسلام حدَثا ، ولا أخرجت من طاعة يدا . قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم عطاءك .

فجعل أبو صخر يثنى عليهم ويفضلهم على ابن الزبير وهو فى مجلسه ، فشتمه ابن الزبير وسجنه ، ثم شفعت فيه هذيل وبعض قريش ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما ولى عبد الملك أمر له بما فاته من العطاء ، وبمثله صلة من ماله ، وكساه وحمله[٢] .

ومن حوادث بخله أن الشاعر عبدالله بن الزَّبير (على وزن أمير) الأسدى وفد عليه فقال[٣] : يا أمير المؤمنين إن بينى وبينك رحما من قبل فلانة . فقال ابن الزبير : نعم ، هذا كما ذكرت ، وإن فكرت فى هذا أصبت ، الناس بأسرهم يرجعون إلى أب واحد وإلى أم واحدة . فقال : يا أمير المؤمنين إن نفقتى نفدت . قال : ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم . قال : يا أمير المؤمنين ، ناقتى قد نقِبَتْ . قال : أنجد[٤] بها تبرد خفَّها ، وارفعها بسِبْت[٥] ، واخفضها بِهُلْب[٦] ، وسِرْ عليها البَرْدَيْن[٧] . قال : يا أمير

(١) العقد الفريد ١/٢٠٩ . (٢) الأغانى ٢١/٩٤ .
(٣) تاريخ الخلفاء ٢١٣ للسيوطى . (٤) أنجد بها : عد بها إلى بلدك نجد .
(٥) السبت : الجلد المدبوغ ، والمراد هنا السوط ، أى إذا أردت منها السرعة فاضربها بسوط . (٦) الهلب : الشعر أو شعر الذنب والمراد هنا إذا أردت منها سيرا بطيئا فلا تستعمل غير هذا الشعر الذى لا يضطرها إلى السرعة .
(٧) البردان : الغداة والعشى .

المؤمنين ، إنما جئتك مستحملا ، ولم آتك مستوصفا ، لعن الله ناقة حملتنى إليك .
فقال ابن الزبير : إنَّ[1] وراكبها ، فخرج الأسدى يقول :

أرى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْبٍ[2] نَكِدْنَ ، ولا أميةَ فى البلاد
من الأعياص[3] أو من آل حرب[4] أغرَّ كغُرة الفرس الجواد
وقلتُ لصُحْبتى : أدنُوا ركابى ، أفارقْ بطنَ مكة فى سَواد
ومالى حين أقْطَعُ ذات عِرْق[5] إلى ابن الكاهلية[6] من مَعاد

ويتندر مولاه أبو حُرة ببخله ، فيقول :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحَرَبا
ماذا علينا وماذا كان يَرْزَؤنا أى الملوك على ما حولنا غَلَبا ؟

ويقول أيضا بعد أن فارقه ، أو القائل أبو العباس الأعمى[7] :

ما زال فى سُورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخزِّ فى اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبعتَ وقد أفضلْتَ فضلا كثيرا للمساكين
إن امرأ كنتُ مولاه فضيعنى يرجو الفلاح لعمرى حَقُّ مغبون

وهو بهذا يتهكم من قول ابن الزبير : إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ؟ وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب يريد أنه ثائر على بنى أمية لصالح الأمة لا لمطامعه[8]

كذلك يتهكم به الضحاك بن فيروز الديلمى :

---

(١) إن : نعم . (٢) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير .
(٣) الأعياص : أولاد أمية بن عبد شمس وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص .
(٤) آل حرب : ابن أمية .
(٥) ذات عرق : ميقات العراقيين بالبادية .
(٦) ابن الكاهلية : عبد الله بن الزبير ، لأن أحد أجداده لأبيه كاهل وهو ابن أسد بن خزيمة ، فهو يعيبه هنا من جهة جداته لأبيه .
(٧) الأغانى ١ / ٢٢ دار الكتب . (٨) الأغانى ١ / ٢١ .

تُخَبِّرنا أن سوف تكفيك قبضة ... وبطنك شبر أو أقلُّ من الشبر
وأنت إذا ما نِلْت شيئاً قَضَمْتَه ... كما قضمت نارُ الغَضا حَطَبَ السِّدْر
فلو كنت تُجْزِى أو تُثِيبُ بنعمةٍ ... قريبا ، لردَّتك المُطُوف على عمرو

فهو يتهكم ببخله ، وبأنه أقام أخاه عمرا بباب المسجد الحرام مجرداً من ثيابه ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات ، إذ كان عمرو منحرفا عنه ، وكان قد أرسله الوليد بن عتبة بن أبي سفيان — والى المدينة من قبل يزيد بن معاوية إلى مكة — على رأس جيش ليحارب عبد الله بن الزبير ، فلما التقى الجمعان انهزم رجال عمرو وأسلموا ، فظفر به أخوه(١) .

٣ — على أن ابن الزبير مع حرصه على الخلافة ، ومع بخله ، لم يحسن الوسيلة في اصطناع كثير من أقاربه الأدنين ، ولم يستطع أن يستغل الشيعة .

وقد عرفت ما كان من مولاه أبي حُرَّة ، ومن أخيه عمرو ، وعرفت رده أشراف العراق الذين قدموا عليه مع أخيه مصعب .

أما إخفاقه في استرضاء الشيعة فيكفي منه ثلاثة أحداث .

أولها أنه بعد موت معاوية بن يزيد ، واضطراب الملك الأموى ، بايع أهل العراق عبد الله بن الزبير ، فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوى ، فجاء المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى ابن الزبير ، وأشار عليه بأن ينتصر بشيعة بني هاشم بالكوفة ، فوكل إليه الأمر ، وجعل المختار يظهر الحنين والجزع ويحث على الثأر لقتلاهم ، فمالت الشيعة إليه ، فسار إلى قصر الإمارة ، وطرد عبد الله بن مطيع ، وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه دارا واتخذ فيها بستانا ، وأنفق عليهما من بيت المال نفقات عظيمة ، وفرق الأموال على الناس ، وكتب إلى ابن الزبير يخبره

---

(١) مروج الذهب ٢/٩٩ .

بأنه عزل ابن مطيع لعجزه ، ويطلب منه أن يقره على ما أنفق، فأبى ابن الزبير ، فخلع المختار طاعته ، وجحد بيعته ، ومال بقوته إلى مؤازرة محمد بن الحنفية[1] .

وإذا كان ابن الزبير مُحِقاً في رفضه ماطلب المختار ، وفي غضبه لأنه عزل واليه ، فإنه قد أخطأ من أول الأمر إذ جعل في الكوفة رجلين ، وال رمى من قبله ، والآخر شبه رسمى ، ثم أخطأ إذ لم يصبر على المختار حتى يتمكن منه .

أما الآخر فإنه حبس الحسن بن محمد بن الحنفية في سجن عارم ، وهو سجن موحش مظلم ، وكان يريد قتله ، لكن الحسن هرب حتى أتى إلى مِنىً ، وبها أبوه ، وهو بهذا أوغر صدر كثير من الشيعة .

وقد ذكر كُثَيِّر هذا الحادث في قوله :

تُخَبِّر من لاقيتَ أنك عائذٌ ... بل العائذ المظلوم في سجن عارم
وَمن يرَ هذا الشيخ بالْخَيف من مِنًى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
سميُّ نبيٍّ الله وابنُ وَصِيِّهِ ... وفكَّاك أغلال وقاضى مغارم

وذكره أبو حمزة الذى كان مولى لابن الزبير . فقال :

فيا راكبا إما عرضتَ فبلغَنْ ... كبير بنى العوام إن قيل مَن تعنى
تُخَبِّرُ من لاقيت أنك عائذ ... وتكثر قتلا بين زمزم والركن

وأما الثالث فإنه كان قد حصر بشِعْب مكة من فيها من بنى هاشم وفيهم محمد بن الحنفية ، وجمع حولهم حطبا عظيما ، لو سقطت فيه شرارة من نار لم يسلم من الحريق أحد ، وكان يريد بهذا — كما قال أخوه عروة — أن يرهبهم ليبايعوه ، فقدم إلى مكة آلاف من فرسان الشيعة الكيسانية ، وباغتوا عبد الله ، فلما رأى تنمرهم وعلم حنقهم لاذ بأستار الكعبة ، وقال : أنا عائذ بالله واستخرج الشيعة من الشِّعب بنى هاشم[2]

— ٣ —

أصداء دينية :

في شعرهم ملامح دينية كثيرة . تتجلى في مظهرين :

---

(١) مروج الذهب ٢/٩٨ .

(٢) مروج الذهب ٢/١٠٠ .

١ — وصف عبد الله ومصعب بصفات دينية .

فابن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير بأنه نور من الله ، وبانه تقى مفلح .

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
يتقى الله فى الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

والنابغة الجعدى يصف عبد الله بن الزبير بأنه يسير على سنة أبى بكر وعمر وعثمان ، وبأنه يسوى بين الناس :

حكيت لنا الصِّديقَ لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِم
وسوّيت بين الناس فى العدل فاستووا فعاد صباحا حالك اللون مظلم

ويكرر ابن قيس الرقيات مدح عبد الله بن الزبير بالتقوى كقوله :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا

ولم يستطع مولاه أبو حُرّة أن يجحد هذه التقوى ، فى تهكمه به بعد أن فارقه :

مازال فى سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الْخَزِّ فى اللين

٢ - تسمية الحزب بأنه حزب الله ، ووصف أتباعه بأنهم شرطة الله . وقد سبق أنهم وصموا خصومهم بالكفر ، كما رأينا فى حملاتهم على الكيسانيين وزعيمهم المختار ، وفى تنديدهم بالأمويين .

أما وصفهم أنفسهم بأنهم حزب الله ، والحراس على دينه ، فواضح فى قول أعشى همدان :

وأنى امرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيا ضُمِّنَتْهُ المصاحف

وقول سُراقة البارقى :

جزى الله خيرا شُرْطة الله إنهم شفوا من عُبَيدْ الله أمس غليلى

وقوله لأتباع المختار :

كفرت بوحيكم وجعلت نذرا علىّ قتالكم حتى الممات

— ٤ —

قوة شعرهم وحرارته :

وإذ كانوا أصحاب عقيدة ، لا طلاب مال — لأن عبد الله بن الزبير لم يكن كثير العطاء — جاء شعرهم قويا متدفقا ، وبخاصة إذا حملوا على خصومهم وتوعدوهم ، أو شمتوا فيهم .

اقرأ قول سراقة البارقى لما قتل عبيد الله بن زياد :

فيابن زياد بُؤْ بأعظم مالك وذق حدّ ماضى الشَّفْرتين صقيل

ضربناك بالعَضْب الحسام بحدّه إذا ما أبانا قاتلا بقتيل

وقول زفر بن الحارث :

فلا صلح حتى تَنْحِط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا

وقوله يخاطب الأمويين بعد مرج راهط ، يؤنبهم من قتل ابن الزبير :

كذبتم — و بيت الله — لا تقتلونه ولما يكن يومٌ أغر مُحَجّل

ولما يكن للمَشْرَفيّة فوقكم شُعاع كقَرْن الشمس حين ترَجّل

وقول ابن قيس الرقيات :

كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشامَ غارةٌ شعواء ؟

تُذْهلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدِى عن بُراها العقيلةُ العذراء

اقرأ هذه النصوص ومثيلاتها تجد القوة والحرارة والتدفق والوعيد الملتهب .

— ٥ —

غزل كيدى .

كان فى أخريات العصر الجاهلى ضرب من الغزل ، تَقَدَّم به بعض قصائد الفخر والهجاء ، وهو غزل تمهيدى يصطنعه الشاعر فى شريفة من شريفات خصومه وخصوم قومه ، لا عن حب وعاطفة ، بل عن تصنع وتكلف وادعاء ، يريد أن يغيظهم ، ويشهر بهم ، وهذا الضرب من الغزل الهجائى هو الذى سميته الغزل الكَيْدِى(١) .

فلما جاء الإسلام توارى هذا الغزل ، لأنه يتنافى وتعاليم الإسلام .

ثم ابتعثه فى العصر الأموى عبد الرحمن بن حسان ، إذشبب برملة بنت معاوية فى قوله :

رَمْلَ هل تذكرين يوم غَزَال   إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى ؟
إذ تقولين : عَمْرَكَ الله هل شىء   وإن جلَّ يُسْليكَ عنى ؟
أم هل طمعتَ يابن حسان فى ذا   كَ كما قد أراك أَطْمَعْتَ منى ؟

وجاء شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، فاصطنع الغزل بامرأة الوليد بن عبد الملك ، بنت عبد العزيز بن مروان المعروفة بأم البنين ، فأغضب الوليد وأباه وأباها ، وأحنق بنى أمية ، فأهدر عبد الملك دمه ، وتوعد من يؤويه ، ولم ينجه إلا شفاعة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ووساطة أم البنين نفسها ، فصفح عنه عبد الملك ، لكنه حرمه العطاء من بيت المال ، ولعل الشفاعة فيه تذرعت بأنه ذكر فى قصته الغزلية أنها رؤيا حالم .

---

(١) راجع (الغزل فى العصر الجاهلى) ٢٧٣ للمؤلف .

من هذه القصيدة قوله[1] :

ألا هزئت بنا قرشيّـــةٌ يهتزُّ موكبُها
رأت بي شيبةً في الرأ س منّي ما أغيّبها
ومثلكِ قد لهَوْتُ بها تمامُ الحُسْنِ أعْجَبُها
لها بَعْلٌ غيور قا عدٌ بالباب يَحْجُبُها
يراني هكذا أمشي فيُوعدها ويضربها
ظلْلت على نمارقها أفدِّيها وأخْلُبهـا
أحَدِّثُها فتؤمِنُ لي فأصْدُقُها وأكذبها
فدعْ هذا ولكنْ حا جةٌ قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يُقرِّبُها مقرِّبُها ؟
أتتني في المنام فقلـــتُ : هذا حين أُعتِبُها
فلما أن فرحتُ بها ومال عليّ أعذبُها
شربتُ بريقها حتى نهلْتُ وبتُّ أشربُها
وبتُّ ضجيعَها جذْلا نَ تُعْجبني وأعْجبُها
فكانت ليلةً في النو م نَسْمُرها ونَلْعبُها

ثم جعل بعد هذا يمدح مصعب بن الزبير .

وهو بهذا المسلك يحاكي بعض شعراء العصر الجاهلي في غزلهم الكيدي ، لكنه يخالفهم في أمرين : أنه قدم بغزله الكيدي للمدح ، وهم كانوا يقدمون به للفخر والهجاء ، وأنه أبعد غزله عن الحقيقة إذ زعم أنها رؤيا لا حقيقة ، وهم لم يفعلوا ذلك .

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ٢١٩ .

وقد حاكى العرجى ابن قيس الرقيات ، فتغزل غزلا كيديا فى أم محمد بن هشام المخزومى والى مكة لهشام بن عبد الملك بقوله(١) :

عُوجى علينـا ربة الهوْدَج إنك إن لا تفعلى تُحْرَجى
إنى أتيحت لى يمـانية إحدى بنى الحارث من مذحِجِ
نلبث حولا كاملا كله ما نلتقى إلا على مَنهج
فى الحج إن حجت وماذا مِنًى وأهْلُه إن هى لم تحجج ؟

وتغزل فى زوجة هذا الوالى جَبْرة المخزومية بقوله(٢) :

عُوجى علينا فسلّمى جَبْرُ فيم الصدود وأنتمُ سَفْر ؟
ما نلتقى إلا ثلاثَ مِنًى حتى يُفَرِّقَ بيننا النَّفْر ؟
الحول بعد الحول يَتْبَعُهُ ما الدهر إلا الحول والشهر

وكان غزله هذا موغرا لصدر الوالى عليه ، لكنه أملى له حتى جنى جناية ، فضربه وحلق رأسه وصب عليه الزيت ، وعرضه على الناس ، وسجنه ولبث فى سجنه تسع سنوات حتى مات فيه(٣) .

هذا الغزل الكيدى نَهَجَ فى العصر الأموى طريقه فى العصر الجاهلى ، ولم يحدث فيه تطور كبير ، لهذا كان تعبير الأستاذ الدكتور طه حسين دقيقا فى قوله : « هذا الغزل الهجائى الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية ، فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون » (٤) .

وحينما أصف عبارة الدكتور طه بالدقة فإنى أعنى ما تحتمله هذه الكلمة من معنى ، لأن ابن قيس الرقيات لم يكن مبتدع هذا الغزل ، ولكنه يوشك أن يكون مبتدعه ، إذا نظرنا إلى أنه اصطنعه مقدمة لقصائد المدح ، وقد كان سابقوه يصطنعونه مقدمة لقصائد الفخر والهجاء ، ثم إذا راعينا أنه صور فى غزله ما زعم أنه حدث فى أحلامه ورؤاه ،

(١) الأغانى ١/٤٠٧ (٢) الأغانى ١/٤٠٨ (٣) الأغانى ١/٤٠٦ — ٤١١ .
(٤) حديث الأربعاء ١/٢٤٧ .

على حين أن سابقيه قصوا فى غزلهم أحداثا زعموا أنها حقائق واقعة ، ليست من الأحلام فى شىء .

وهؤلاء السابقون الذين جدد ابن قيس الرقيات مناهجهم هم قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وكعب بن الأشرف وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فإن لهم جميعا غزلا كيديا سبقوا به ابن قيس الرقيات ، فهو إذاً ليس مبتدعه ، ولكنه يكاد يكون مجدد هذا اللون من ألوان الهجاء الذى توارى حيناً ، ثم ظهر لما سنحت الفرصة لظهوره .

الفصل الخامس

نهضة الشعر

تمثّل الشعر فى هذا العصر فى ينابيع ثلاثة : ينبوع قديم مسته أيدى التعديل مسا رفيقا لم يغير شكله العام ، هو الموضوعات القديمة من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف ، وينبوع كان فى العصر الجاهلى ضيق السعة قريب الغَوْر ، وصار فى العصر الأموى رحبا متباعد النواحى عميق الغور ، وصار ماؤه أعذب وأصفى وأغزر ، هو الغزل العذرى[1] .

أما الينبوع الثالث فإنه جديد فى العصر الأموى ، وهو على جِدّته ثَرٌّ متدفق ، كأنما كان مطمورا منذ عهد قريب ، ولم تكد الأيدى ترفع ماغطاه من رمال وأحجار حتى انبجس ماؤه يزيل الرمال والأحجار ، أريد بهذا الينبوع الجديد الشعر السياسى .

ولقد ازدهر الشعر كله فى العصر الأموى ، لكنا نريد أن نتبين العوامل الفعالة فى ازدهار الشعر السياسى بخاصة ، وإن كان بعضها يمتد إلى غيره .

— ١ —

تعدد الأحزاب

ليس من شك فى أن تعدد الأحزاب ، وتصارعها بالسيوف والأقلام والألسنة ، واعتماد كل حزب على شعرائه فى الدعاية لنفسه والحملة على خصومه ، كان من أقوى

---

(١) راجع كتابى (الغزل فى العصر الجاهلى) لتجد الردود على القائلين بنشأة الغزل العذرى فى الإسلام ، والتدليل على نشأته فى الجاهلية .

العوامل فى نهضة الشعر بعامة ، وكان أشد هذه العوامل قوة فى نهضة الشعر السياسى بخاصة .

فقد كان الخوارج والشيعة والزبيريون ثائرين على الحكم الأموى ونظامه ، وكان الأمويون من بنى سفيان ومن بنى مروان حراصا على الحكم ونظامه .

وكانت هذه الأحزاب السياسية تختلف فى الأسس التى قامت عليها ، وتتباين فى أهدافها ومناهجها ووسائلها ، وكان لكل منها شعراؤه الذين ينافحون عنه ويلاحون دونه ، ويستلون ألسنتهم وأقلامهم فى تقويض خصومه .

فالخوارج يعلنون أن الخلافة حق لكل مسلم كفء ، سواء أكان عربيا أم عجميا ؛ وسواء أكان قرشيا أم غير قرشى ، ويجهرون بأن الخليفة لابد أن يكون مختارا من الشعب ، ويستمسكون بعقيدتهم هذه ، ويفدونها بأرواحهم ، ويجاهدون أعنف الجهاد فى تحقيقها ، فيقلقون الدولة الأموية زمنا طويلا بثوراتهم وحروبهم ، ويقلقون ابن الزبير أيضا ، ويضطرونه إلى حربهم .

والشيعة يستمسكون بأن الإمامة حق العلويين وحدهم ، لا ينازعهم فيه منازع ، ويثورون على بنى أمية وعلى ابن الزبير ، ويسترون أمرهم أحيانا بالتقية حتى تسنح الفرصة المواتية للثورة .

والزبيريون يلتفون حول عبد الله بن الزبير منذ مات معاوية الأول إلى أن قتل ابن الزبير فى عهد عبد الله الملك بن مروان ، ويؤثرون عبد الله على يزيد وابنه وعلى مروان وابنه ، ويحاربون الدولة مرات ، ويحاربون الشيعة والخوارج مرات.

والأمويون يعتمدون على أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، لأنهم أولياء عثمان ابن عفان وورثته ، ولأنهم أكفأ القرشيين للحكم ، ويجدّون فى محاربة خصومهم ، ويتعقبون الثائرين عليهم ، ليقروا الأمن حيثما خفقت لهم راية .

وقد عاصرت هذه الأحزاب السياسية الخالصة أحزاب دينية أو فرق دينية ، لم تصطبغ بالسياسة كما اصطبغت الأحزاب السياسية ، فلم تؤيد بنى أمية تأييد الحريص على بقاء الحكم فى أيديهم ، ولم تثر عليهم ثورة الشيعة أو الخوارج أو الزبيريين ،

ولم تناصر حزبا من الأحزاب المعارضة مناصرة الأتباع الأوفياء ، ولم تناوئه مناوأة المخالفين الثائرين الأشداء ، وإنما كانت لها فى السياسة آراء ، وكان لبعضها أحيانا نصيب ضئيل من المشاركة فى ثورات ، ولكن هذا لم يخرجها عن طابعها المذهبي الديني إلى طابع سياسى عملى ، أريد بهؤلاء المرجئة والجبرية المعتزلة .

أما المرجئة فإنهم لزموا الحيدة فى الصراع السياسى ، ووقفوا من المتصارعين جميعا بنجوة ؛ لأنهم لم يستيقنوا أى الأحزاب على الحق وأيها على الباطل ، فكل منها يزعم الحق لنفسه ، وينسب الباطل إلى غيره ، ويدلل على صوابه وخطأ سواه .

وأما الجبْرية فقد ذهبوا إلى أن كل شىء بقضاء وقدر ، ولا مفر مما قضى الله وقدر ، وفى دعواهم هذه تأييد ضمنى لبنى أمية ، لأنها توحى بأن حكمهم مقدور ، فليس يصح للمسلمين أن يقاوموهم أو يعصوهم .

وأما المعتزلة أو القدَرية فإنهم يُفَنِّدون هذا الرأى ، وينسبون إلى العباد الاختيار والحرية والإرادة ، فكأنهم لا يعضدون بنى أمية ، ولا يقعدون بالمسلمين عن مجاهدتهم أو مجاهدة غيرهم من الحكام الظالمين .

قال عطاء بن يسار ومعبد الجهنى للحسن البصرى – أستاذ واصل وعمرو ابن عبيد قبل أن يعتزلا مجلسه – : إن هؤلاء الملوك – يعنيان بنى أمية – على قضاء من الله وقدر . فقال الحسن : كذب أعداء الله[1] .

ولقد كان هذا الخلاف السياسى والمذهبى عظيم التأثير فى الأدب ، وينبوعا ثرًّا للشعر السياسى ، بل إن الأحزاب السياسية وصراعها الدموى واللسانى هو الذى فجّر هذا الضرب من الشعر ، ولو لم تكن الحزبية والصراع ما كان الشعر السياسى الذى ندرسه .

---

(١) المعارف ٢٢٥ .

— ٢ —

تقدير الحكام للشعراء :

ولقد حرص الأمويون على استغلال الشعر ، واجتذاب الشعراء إلى قصورهم ، ليتخذوا منهم ألسنة منافحة عن حكمهم ، داعية إلى تقبله وتأييده ، فصار الشعر السياسى أعلى ضروب الشعر صوتا فى عهدهم ، وتبوأ مكانة فى عصرهم لم يتبوأها من بعد .

وكان السبب فى هذا أن الحكم كان يدور على محور واحد هو الاحتفاظ بالملك لبنى أمية والقبض عليه ، مخافة أن يئول إلى سواهم ، فلم يجد الخلفاء بدا من إعداد الجيوش ، والاستناد إلى العصبيات ، والإغداق على المنافسين والطامعين ، ولم يجدوا مندوحة عن اصطناع الشعراء ، ليتقووا بشعرهم كما يتقوون بالسلاح .

ولم تكن ثمة صحف يومية يعتمد عليها أصحاب الآراء وأرباب المذاهب فى نشر الدعاية لأنفسهم ، وإبطال ما يقوله خصومهم ، بل كان ثمة ما يقوم مقام الصحف ، ويوائم حالة العصر ، ويتغلغل فى أعماق النفوس أقوى وأسرع مما تتغلغل مقالات الصحف ، أريد بهذا الخطابة والشعر .

وكان معاوية مؤسس الدولة أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسة ، بل لقد انتهجها قبل أن تئول إليه الخلافة ، إذ اصطفى كعب بن جُعَيْل التغلبى ، وسماه شاعر الشام ، واستعان بشعره فى صراعه لعلىّ ، فاضطر علىٌّ أن يلقاه بشاعر من شيعته هو النجاشى شاعر العراق(١) .

ثم أراد معاوية البيعة لابنه يزيد ، فأوعز إلى مسكين الدارمى أن يروج لها ، وأن يرد على معارضيها ، فقال قصيدته التى رد فيها على عبدالله بن عامر ومروان ابن الحكم وسعيد بن العاص ، وهم بعض معارضى البيعة أو المتلكئين فيها ، منها قوله :

---

(١) راجع شعرها فى النماذج الأموية والشيعية .

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟[1]

وفى عهده طلب ابنه يزيد من شاعر الشام أو شاعر بنى أمية — كعب بن جُعَيْـل — أن يهجو الأنصار ، لأنهم شيعة على وبنيه — وكان الهجاء حينئذ مشتعلا بين شاعر العلويين عبد الرحمن بن حسان وشاعر آخر من شعراء الأمويين هو عبد الرحمن بن عبد الحكم — فأبى كعب ، وقال :

أرادٌّى أنت إلى الشرك بعد الإيمان ؟ودل يزيد على غلام نصرانى ، هو الأخطل ، فأرسل إليه يزيد ، وأغراه بالأنصار ، فهجاهم[2] . فغضب الأنصار ، وذهب النعمان بن بشير إلى معاوية ، وشكا إليه الأخطل ، فتظاهر معاوية بالغضب على الأخطل ، لـكنه لم يعاقبه ، ولم يمكن النعمان منه .

والناس هم الناس ، يَمْشُوْن إلى بريق الذهب ، ويسعون إلى الثراء ، ويلوذون بصاحب الجاه والسلطان ، ويخشون بأس الحـكام .

لهذا تزاحموا على قصور بنى أمية ، وعلى قصور ولاتهم ، فـكان لهم فى كل مصر شعراء .

وحسبنا أن نذكر من شعرائهم بالجزيرة الأخطل والقطامى وأعشى تغلب ، وبالشام عدىّ بن الرقاع العاملى والأخطل ، وبالبصرة جريرا والفرزدق ، وبالـكوفة عبد الله الأسدى ، وبالمدينة الأحوص ، وبمـكة أبا العباس الأعمى .

على أننا نضم إلى هؤلاء شعراء آخرين كالعجاج وحارثة بن بدر ونابغة بنى شيبان وكعب الأشقرى وكعب بن جعيل التغلبى ومسكين الدارمى .

وانتهج ولاة بنى أمية وقوادهم نهجهم ، فشجعوا الشعراء على الإشادة بهم ، فرحل الشعراء إليهم ومدحوهم ، ونالوا عطاياهم . فحارثة بن بدر مدح زيادا ، وجرير والفرزدق وغيرهما مدحوا الحجاج ، وحبيب بن عوف والطفيل بن عامر وكعب الأشقرى مدحوا المهلب بن أبى صُفْرة ، وجميـل وكُثَيِّر وابن قيس

(١) راجع نماذج شعر الامويين .
(٢) راجع هجاءه فى شعر الحزب الاموى .

الرقيات ونُصَيب وأيمن بن خُرَيْم رحلوا إلى مصر ومدحوا واليها عبد العزيز ابن مروان من قبلَ أخيه عبد الملك ، وجرير والفرزدق وكُثيِّر وأعشى بنى شيبان ارتحلوا إلى العراق ، ومدحوا بشر بن مروان .

ولعل خير مثال نسوقه للدلالة على مكانة الشعراء عند الخلفاء هو الأخطل .

فقد اصطفاه يزيد بن معاوية طوال خلافته ، فكانا يشربان معا ، ويسافران معاً ، وكان يزيد يستدعيه إلى قصوره للمنادمة وسماع الغناء ، بل إن بعض الروايات تذهب إلى أنه رافق يزيد فى حجه[1] .

ثم قرّبه عبد الملك بن مروان ، حتى لقد كان يدخل عليه بغير استئذان ، وعليه جبة خَزٍّ ، وفى عنقه سلسلة من ذهب ، يتدلى منها صليب من ذهب ، والخمر تقطر من لحيته[2] .

وكان عبد الملك عظيم الإعجاب به ، والمكافأة له ، أنشده قصيدته التى مطلعها :

خفَّ القطين فراحوا منك أو بَكَروا وأزعجتهم نوًى فى صَرْفها غِيَرُ

فقال عبد الملك لغلامه : خذ بيده يا غلام ، وألق عليه من الخلع ما يغمره ، وأحسن جائزته ، ثم قال : إن لكل قوم شاعراً ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل[3] .

ويذكر الأصمعى أن عبد الملك كان يتطاول وهو ينشده قصيدته الرائية ، وأنه قال له : ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟

قال الأخطل : أكتفى بقول أمير المؤمنين . ثم أمر بجفنة كانت بين يديه ، فملئت دراهم ، وألقى عليه خلعا ، وخرج معه مولى لعبد الملك يقول للناس : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب .

---

(١) الأغانى ٧/١٧٠ . (٢) الأغانى ٧/١٧٧ . (٣) الأغانى ٧/١٦٧ .

وقد مدح بنى أمية ، ومدح كبار رجالاتهم ، كالحجاج ويزيد بن المهلب وبشر بن مروان ، وهم جميعا كانوا يقربونه .

كذلك كان أعشى بنى تغلب مقربا إلى الوليد بن عبد الملك ، وكان الوليد يجزل عطاءه .(١)

— ٣ —

ازدهار الثقافة الأدبية :

كانت الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخبار قد خطت خطوات فسيحة متلاحقة فى هذا العصر ، إذ كان الشعب يحرص عليها ويعتز بها ، والأمويون يشتدون فى صبغ دولتهم بالصبغ العربى الخالص ، وكان هؤلاء الحكام وكثير من السراة والكبراء والعلماء يعتزون بما خلف العرب من تراث أدبى ولغوى ، ويحتفون بما ينشىء معاصروهم من شعر ، وكان كثير منهم أصحاب ذوق ، يطربون للقول الرائع ، ويقدرون صاحبه .

وقد تجلى هذا فى مظاهر عدة :

١ — عقد الخلفاء مجالس لاستماع المديح ، والإغداق على الشعراء ، كما قدمنا .

وعقدوا مجالس للسمر بالشعر ، والإصغاء إلى روايته ونقده ، وكثيرا ماأجزلوا الحباء للرواة كما أجزلوه للمادحين ، وكان بعضهم يروى الشعر ، ويستشهد به فى المناسبات الطارئة استشهاد الحاذق الخبير .

حدَّث معاوية قال : لقد رأيتنى يوم صِفِّين ، وقد أُتيتُ بفرس أغرَّ محجَّل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حمانى على الإقامة إلا أبيات لعمرو بن الإطنابة (٢) .

أَبَتْ لى همتى وأَبَى بلائى وأخذى الحمدَ بالثمن الرَّبيح

---

(١) الأغانى ١٠ / ٩٨ . (٢) العمدة ١ / ١٠ .

وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المُشيح(١)
وقولى كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحْمَدِى أو تستريحى(٢)
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمِى بَعْدُ عن عرض صحيح

وقال عبد الملك لولده وأهله : أى بيت ضربته العرب ووصفته أشرف وأعظم ؟ فأجابوا ، ولم يصيبوا ما بنفسه ، فقال لهم : إنه بيت طُفَيْل الذى يقول فيه :

وبيت تَهُبُّ الريح فى حَجَراته ... بأرض فضاء بابُهُ لم يحجَّب

وسأل جلساءه (٣) : أى المناديل أفضل ؟ فقال أحدهم : مناديل مصر كأنها غِرْقِىء البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن كأنها نَوْر الربيع ، فقال : بل مناديل عَبَدَة بن الطبيب حيث يقول :

لما نزلنا نصبنا ظلّ أخبية ... وفار للقوم باللحم المراجيلُ(٤)
وَرْدٌ وأشْقَرُ ما يأنيه طابخُهُ ... ما غيَّر الغَلْىُ منه فهو مأكول(٥)
ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ ... أعرافُهن لأيدينا مناديل(٦)

وذكر يوما لجلسائه قول نُصَيْب:

أهيمُ بدعد ما حييت فإن أمت ... أُوَكِّلْ بدعد من يهيم بها بعدى

وعابوه جميعا ، فقال عبد الملك : لو كان إليكم فماذا كنتم قائلين ؟ فقال أحدهم كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فواحَزَنا من ذا يهيم بها بعدى

---

(١) المشيح : الجاد فى الأمر .
(٢) جشأت نفسه وجاشت : اضطربت من الرعب.
(٣) العقد الفريد ١ / ١٢٤ والكامل للمبرد ٢ / ١٤٩ .
(٤) المراجيل : جمع مرجل وهو القدر
(٥) ورد : أحمر . أشقر : تعلو بياضه حمرة .
(٦) جرد : جمع أجرد أو جرداء وهو الفرس الجيد القصير الشعر . مسومة : معلمة .

فقال عبد الملك : ماصنعت شيئا . فقيل له : كيف كنت قائلا فى ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : كنت أقول :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خُلَّة بعدى

فقالوا : أنت والله أشعر الثلاثة .

وكان بصيراً بما يسمع من مدح ، فقد وفد عليه ذو الرمة ، ومدحه بقصيدة ، لكنه أطال فى وصف ناقته ، ولم يذكر عبدالملك إلا فى بيتين اثنين ، فقال له عبدالملك : ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك ، فخذ منها الثواب(١) .

وكان هشام بن عبد الملك شديد الكلف بالشعر ، حتى إنه كان يأرق ، فيطلب من الأعراب من يحدثه ، وقد جىء له ليلة بأبى النجم ، فحدثه ، وروى له ، فأعطاه ثلاث مئة دينار كانت هى الباقية من النفقة آنئذ .

وكتب إلى عامله بالعراق أن يدفع إلى حماد الراوية خمس مئة دينار ، ويرحله إلى دمشق ، فلما وصل بعد اثنتى عشرة ليلة استدناه ، وقال له : بعثت إليك لبيت خطر ببالى ، ولم أدر قائله . قال حماد : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

ودَعَوْا بالصَّبوح يوما فجاءت قَيْنة فى يمينها إبريق

فقال حماد : إنه من قصيدة لعدى بن زيد . قال هشام : فأنشدنيها . فأنشده إياها ، فطرب ، وأجزل عطاءه ، وأعاده إلى العراق .

وقد اجتمع عند مسلمة بن عبدالملك بعض سماره ، وكان فيهم عبد الله بن عبدالأعلى الشاعر ، فقال مسلمة : أى بيت قالته العرب أوعظ وأحكم ؟ فقال له عبد الله : قول الشاعر :

صَبا ما صَبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاه قال للباطل ابْعَدِ

فقال مسلمة : والله ماوعظنى شعر قط كما وعظنى شعر ابن حِطَّان حيث يقول :

(١) الأغانى ١٠ / ١٥٠ .

فيوشك يوم أن يقارن ليلة   يسوقان حَتْفاً راح نحوك أو غَدَا

فقال بعض من حضر : أما والله لقد سمعته أجَلَّ الموت ثم أفناه ، وما صنع هذا غيره . فقال مسلمة : وكيف ذاك ؟ قال إنه قال :

لا يُعجزُ الموتَ شيء دون خالقه   والموتُ فانٍ إذا ماناله الأَجَلُ
وكل كرب أمام الموت مُتَّضِعٌ   للموت ، والموت فيما بعده جَلَل

فبكى مسلمة حتى اخضَلَّت لحيته ، ثم قال : ارددها عليَّ ، فردهما حتى حفظهما مسلمة [1]

وروى أن هشام بن عبد الملك كان يقترح على الشعراء أن يصفوا شيئاً ، وكان يجيز الجيد منهم[2]

٢ — على أن الخلفاء كانوا حراصا على فصاحة أبنائهم ، فجعلوا ينشئونهم بالبادية ، ثم يعهدون بتربيتهم وتعليمهم إلى طبقة من العلماء هم المؤدبون ، وكان هؤلاء المؤدبون يثقفون تلاميذهم باللغة والشعر والتاريخ والأنساب .

وقد أوصى معاوية باتخاذ الشعر وسيلة من وسائل التربية فى قوله : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم[3] »

وأوصى عبد الملك مؤدب ولده بقوله : « أدِّبْهم برواية شعر الأعشى ، فإنه — قاتله الله — ما كانت أعذب بحره ، وأصلب صخره » .

وأشار على مؤدب ولده أن يحفظهم مثل شعر المُجَيْر السَّلولى :

يَبيتُ الجار حين يبين عنى   ولم تأنس إلىَّ كلاب جارى
وتَظْعَنُ جارتى من جنب بيتى   ولم تُستَرْ بستر من جدارى
وتَأمَنُ أن أطالعَ حين آتى   عليها وهى واضحة الخمار

---

(١) الأغانى ١٦/١٠١
(٢) الأغانى ٩/٨٠
(٣) العمدة ١/١٠

كذلك هدْى آبائى قديما توارثه النِّجار عن النِّجار(١)
فهديى هَدْيُهم وهم افتلَوْنى كما افتُلِىَ العتيقُ من المَهارى(٢)

فهو يؤثر هذ الشعر لأنه يربى مكارم الأخلاق .

وإذ كان الناس كلفين بمحاكاة ملوكهم وكبرائهم ، حرص كثير منهم على تثقيف أنفسهم وتثقيف أبنائهم بهذه الثقافة الأدبية ، كما حرص آخرون على تزويد أنفسهم وبنيهم بالشطر الآخر من الثقافة الذائعة حينئذ ، وهى الثقافة الدينية .

فقد كان عَقِيل بن عُلَّفة فى سفر ، ومعه ابناه علفة وجثامة وابنته الجرباء . فقال عقيل (٣) :

قَضَتْ وطَرا من دَيْر سعدٍ وطالما على عُرُض ناطَحْنَه بالجماجم(٤)
إذا هبطَتْ أرضا يموت غُرابُها بها عطشاً أعطينهم بالخزائم(٥)

ثم قال : أنفِذْ يا عُلَّفة . فقال علفة :

فأصبحْنَ بالمَوْماة يحملن فتيةً نشاوَى من الإدلاج مِيلَ العمائم(٦)
إذا عَـــلَمٌ غادرنه بتَنُوفة تذارعْنَ بالأيدى لآخر طاسم(٧)

ثم قال : أنفذى ياجرباء فقالت :

كأن الكرى سقَّاهمُ صَرْخَدِيَّةً عُقارا تمشَّى فى المطا والقوائم(٨)

---

(١) النجار : الأصل .

(٢) افتلونى : المراد ربونى . المهارى : جمع مهرى وهو الجمل العتيق نسبة إلى مهرة ابن حيدان .

(٣) الأغانى ١١ / ٨٢ والأشربة لابن قتيبه ٥٩ مخطوط .

(٤) على عرض . . . . . : أى طالما مررنا بالدير ولم نقم :

(٥) أعطينهم بالخزائم : انقادت الإبل لراكبها بالخزائم وهى البراة التى فى جوانب مناخيرها

(٦) الموماة : الصحراء . الإدلاج : سير الليل

(٧) علم : جبل . تنوفة : صحراء لا ماء بها ولاأنيس . تذارعن : أسرعن . طاسم : منطمس .

(٨) صرخدية : خمر . عقار : خمر شديدة التأثير . المطا : الظهر:

فغضب عقيل وهاج ، وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد ثمرتها ، ثم أخذ يضربها ، فصده عنها أخواها .

وكان خلف الأحمر يدرب تلاميذه على قرض الشعر ، فيذكر لهم البيتين ، ثم يغير قافية أولها ، ويطالبهم بتغيير قافية الثانى لتلائم الأول ، ونجد تفصيل هذا فى حكاية عنه(١) .

وذكر رؤبة أن الكميت والطرماح كانا يقصدانه ليسألاه عن الغريب فيخبرهما به ، ثم يراه بعد فى أشعارهما(٢) .

٣ — كثر رواة الشعر فى هذا العصر ، واشتهر منهم أئمة أعلام ، مثل عامر الشَّعْبِى وحماد وأبى عمرو بن العلاء والأصمعى وأبى ضَمْضَم

وكان رواة الشعر يحرصون على جمعه وحفظه وتدوينه ، كما يحرص رواة الحديث على جمعه وحفظه وتسجيله ، وكان بعضهم يشافه الأعراب ، ويسجل ما يروى ، وبعضهم يحفظ من مدونات ، وبعضهم يلازم الشعراء ويذيع عنهم ، ويدون ما يروى . وسأذكر فى نهضة الكتابة أن محمد بن الحسين كان بمدينة الحَدِيثة وكان جماعاً للكتب ، وأن ابن النديم رأى فى مكتبته مقادير من جلود وقراطيس ، بعضها يرجع إلى صدر الإسلام ، وبعضها يرجع إلى العصر الأموى(٣) .

وكذلك كان أبو عمرو بن العلاء قد ملأ حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، ثم عاد إلى علمه ، فصار يعتمد على ما حفظ(٤) .

ولقد كان بعض هؤلاء الرواة عجيبا فى كثرة ما روى ، من هؤلاء حماد ، سأله الوليد بن يزيد : بم استحققت أن تسمى راوية ؟ فقال : بأن أروى لكل

---

(١) رسالة الغفران ١٤٦ ونزهة الألباء ٦٩

(٢) الأغانى ١٠ / ١٤٩ .

(٣) الفهرست ٦٦ .

(٤) وفيات الأعيان ٣ / ١٣٦

شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشد أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له : فكم مقدار ما تحفظه من الشعر ؟ قال : كثير ، أستطيع أن أنشدك على كل حرف من حرف المعجم مئة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال الوليد : سأمتحنك في هذا . ثم أمره بالإنشاد ، فأنشد حتى ضجر الوليد ، فوكل به من يسمعه ، ويستوفى عليه ، فأنشد ألفين وتسع مئة قصيدة من الشعر الجاهلى ، وعلم الوليد بذلك فكافأه بمئة ألف درهم[1] .

ومنهم أبو ضَمْضَم ، كان يروى لمئة شاعر كل منهم اسمه عمرو ، على حين أن الأصمعي وخلفا الأحمر لم يقدرا أن يعدا أكثر من ثلاثين من هؤلاء[2] :

وذكروا أن الأصمعى كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[3] .

ولست على يقين من صدق هذه الأخبار ، فإنى لا أشك فى أنها لم تسلم من التزيد والمبالغة ، لكنها على مبالغاتها ترسم صورة تقريبية لكثرة الرواية وحفظ الرواة وعنايتهم وعناية الناس بما خلف العرب من أشعار .

٤ — كذلك انعقدت مجالس للشعر والغناء به فى غير قصور الخلفاء والولاة ، فتأنق بعض الشعراء فى شعرهم ، ليرضى النقاد والمتذوقين ، وليحمله الرواة ، ويتغنى به المغنون .

وحسبى أن ألم على عجل بطرف من هذه المجالس ، التى اشتهرت بها بعض النساء الأمويات .

---

(١) الأغانى ١٥ / ١٦٥ ووفيات الأعيان ١ / ٤٤٨

(٢) الشعر والشعراء ٦ والعقد الفريد ٣ / ١٠٧

(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٣٤٤

أما إحداهن فهى عائشة بنت طلحة ، وقد كانت أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، أنشدها أبو عمرو قصيدة قيس بن الحُدادية التى مطلعها :

أجِدَّكَ إن نُعْمٌ نأتْ أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع

فاستحسنتها . وكان بحضرتها جماعة من الشعراء ، فقالت لهم : من قدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحدا يشبهها ويدخل فى معناها فله حُلَّتِى هذه ، فلم يقدر أحد منهم على ذلك(١) . وقد أسمعها الغريض قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها ، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب ، ثم استزادته من شعر الحارث واستزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، ثم طلبت منه أن يغنيها فى شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبى ربيعة ، فضحكت ، وأعطته خمسة آلاف ثالثة (٢) .

وأما الأخرى فسُكَينة بنت الحسين ، كانت ذات صيت طائر فى حب الشعر وتذوقه ونقده ، حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت صاحبة ندوة أدبية ، وكان يهفو إليها الشعراء ، فيسمعونها ويسمعون رأيها ونقدها .

ولها فى ذلك أخبار شتى ، منها أنها أُنْشِدَتْ قول الحارث بن خالد فى وصف حسان يطفن بالبيت :

ففرغن من سَبْع وقد جَهَدَتْ أحشـاؤهن موائلَ الخُمُرِ

فقالت : أحسن عندكم ماقال؟ قالوا : نعم . فقالت: وما حسنه ؟ فو الله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشاؤها (٣) .

ولما أنشدها الغريض قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

ألِمْ بزينب إن البَيْنَ قد أفِدَا قل الثَّواء لئن كان الرحيل غدا

طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت . أحسنت والله ، وأحسن عمر ، وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك (٤) .

---

(١) الأغانى ١٣/٧ .
(٢) الأغانى ٣/٣٢٠ .
(٣) الأغانى ٣/٣٢٧
(٤) الأغانى ٢/٣٧٦ .

وزارها بالمدينة الفرزدق ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تجنُّبه عزيزٌ علىَّ ومن زيارته لِمامُ
ومن أُمسى وأصبح لا أراه ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد ، فسألته عن أشعر الناس ، فقال : أنا ، فقالت : جرير أشعر منك ، وذكرت بعض شعره ، وكذلك فعلت فى اليوم الثالث[١] .

وهى التى نقدت قصيدة لعمر[٢] .

ولها أخبار أخرى فى النقد وتذوق الشعر[٣] .

وأما الثالثة فامرأة تحدث عنها نُصيب ، ولم يذكر اسمها ، وقد ذكر أبو الفرج حديثه مفصّلا[٤] ، وموجزه أن نصيباً وكثيراً والأحوص التقوا يوما فى العقيق بنسوة بارزات ووصائف ورجال من الموالى ، وكان فيهن امرأة بَرْزة ، استضافت الشعراء الثلاثة ، وأمرت جارية لها أن تغنيهم ببيتين من شعر نصيب ، ثم أمرتها أن تغنى أبياتاً أخرى له ، ثم اقترحت عليها أبياتاً أخر من شعره ، ثم أشارت عليها بأبيات من شعره غير هذا كله ، فَزُهِيَ نصيب حتى خُيِّل إليه زهوه أنه من قريش ، وأن الخلافة له .

أما كثير والأحوص فقد غضبا ، وعاتبا المرأة على استخفافها بشعرهما وتقديمها شعر نصيب ، فقالت لهما : على مَعْرفة كلُّ ما كان منى ، ثم ذكرت بعض شعرهما وعابته ، فخرجا من المجلس مغضَبين ، وأمرت لنصيب بثلاث مئة دينار ليعطيها صاحبيه ، فإن قبلاها ، وإلا فهى له . أما الأحوص فقبل نصيبه ، وأما كثير فرفضه ولعن نصيباً والمرأة وجائزتها .

---

(١) الأغانى ٧/٥٠ (٢) الأغانى ٣/٣٠٧ (٣) وفيات الأعيان ٢/١٣١
(٤) الأغانى ١/٣٥٦ .

٥ — على أن كثيرا من شعراء العصر كانوا قارئين وكاتبين ، فكان عمر ابن أبي ربيعة يكتب [١] وكذلك عدى بن الرقاع [٢] وجرير [٣] والأحوص [٤] وغيرهم .

وكان ذو الرمة يقول لعيسى بن عمر : اكتب شعرى فالكتابة أحب إلى من الحفظ [٥] .

وكان الكميت لا يكتب فحسب ، بل كان يعلم الكتابة [٦] ، وكذلك كان الطِّرِمَّاح [٧] .

— ٤ —

ازدهار الثقافة الدينية

كان للمسلمين شقٌّ آخر من الثقافة قد تفتحت آفاقه ، وكثر رجاله ، وساعد على نهوض الأدب ، ولوَّن الشعر السياسى ببعض ألوانه ، نعنى بهذا الشق الثقافة الدينية .

١ — فقد عنى العلماء فى هذا العصر بحفظ القرآن الكريم ، وعنوا بتفسيره ، واحتفوا بالحديث وروايته ، وبدأوا يضعون أسس التشريع والفقه ، واشتهر فى كل مدينة كبيرة جماعة من الفقهاء والمفسرين والمحدثين [٨]

٢ — وكان هؤلاء الفقهاء كثيرا ما يجادل بعضهم بعضاً ، وكثيرا ما يجادلهم تلاميذهم .

فالشَّعبي كان يناظره أصحابه فى الفقه [٩] ، والزُّهْرى وقتادة تناظرا فى مجلس سليمان بن عبد الملك [١٠] ، وابن شُبْرُمَة سأل إياس بن معاوية عن نيف وسبعين

(١) الأغانى ١/٢٣٥ (٢) الشعر والشعراء ٣٩٢ (٣) الأغانى ٣٢/٨
(٤) الأغانى ٢٤٧/٤ (٥) الحيوان ٤١/١ (٦) الشعر والشعراء ٣٦٨
(٧) البيان والتبيين ٣٢٣/٢ .
(٨) تجد أسماء كثير منهم فى أسباب نهضة الكتابة .
(٩) البيان والتبين ٣٢٢/٢ (١٠) البيان والتبيين ٢٤٣/١

مسألة كان قد أعدها ، ولم يختلفا إلا فى ثلاث أو أربع ، رده فيها إياس إلى رأيه[1] .

٣ — ولم يكن الجدل محصورا فى مسائل الفقه ، بل تعداها إلى مسائل تعد من الأصول الأولى لعلم الكلام .

فقد سبق فى دراسة المرجئة والجبرية والمعتزلة والشيعة والخوارج أنهم اختلفوا فى مسائل كثيرة ، وأن تدليل كل منهم على آرائه ينبيء عن نظر عقلى كان قد نضج ، حتى إن كلا منهم كان يحتج لرأيه بنصوص من القرآن يوجهها التوجيه الذى يراه .

وكأنما كان الجدل قرين السلام وأثرا للهدنة ، فقد ذكر الطبرى أن الخوارج فى حرب المهلب بن أبى صفرة كانوا يضعون السيوف حينا بعد حين ، ويجادلون خصومهم ، ويدعونهم إلى مذهبهم .

٤ — وكان الجدل كثيرا ما يحدث بين المسلمين وغيرهم .

فقد تجادل جهم بن صفوان مع بعض السُّمَنِية[2] ، فقالوا له : نكلمك ، فإن غلبناك دخلت فى ديننا ، وإن غلبتنا دخلنا فى دينك ، ثم قالوا له : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال : بلى . قالوا : هل رأيت إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أشممت له رائحة ؟ قال : لا ... قالوا فما يدريك أنه إله ؟

فقال جهم : ألستم تزعمون أن فيكم روحا ؟ قالوا : بلى .
قال . فهل رأيتم روحكم ؟ قالوا : لا . قال : فهل سمعتم كلامه ؟ قالوا : لا . قال . فكذلك الله لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا تشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى ٧ — ٢/٥ .
(٢) طائفة هندية تقول بتناسخ الأرواح
(٣) الرد على الجهمية والزنا دقة ١١ لابن حنبل

٥ — ولم يكن الشعراء والخطباء والكتاب فى عزلة عن هذا التفكير الفقهى ، ولم يكونوا فى عزلة عن ذلك الجدل العقلى ، فإن ثابت بن قُطْنة اعتنق مذهب الإرجاء بعد أن سمع جدال المرجئة مع الخوارج فى خراسان .

وكان ذو الرمة قدرياً سنياً [١] ، وكان رؤبة جبرياً [٢] وقد اختصما يوماً ، فقال رؤبة : والله مافحص طائر أفحوصاً [٣] ، ولا تقرمص سبع قُرموصاً [٤] إلا بقضاء الله وقدره . فقال ذو الرمة : ماقدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك [٥] . فقال رؤبة : أفبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب . فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب العالمين [٦] .

وأغلب الظن أن ذا الرمة لم يكن قدرياً فحسب ، بل كان على دراية دقيقة بمذهب القدرية ، يدل على هذا أنه أنشد إسحاق بن سُوَيْد :

وعينان قال الله : كونا ، فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقال له إسحاق : هلا قلت (فعولين) ؟ فقال ذو الرمة : لو قلت سبحان الله والحمد لله ، كان خيراً لك [٧] .

ومعنى هذا أن ذا الرمة لو قال (كانتا فعولين) بالنصب لجعل المنصوب خبراً لكان ، فيكون إذاً جبرياً ، أما رفع الكلمة فيجعلها خبراً للمبتدأ (عينان) وهذا يبعد المعنى عن الجبر ، لأن العينين إذاً مؤثرتان بطبيعتهما لا بقسر من الله .

كذلك كان جرير يجلس فى حلقة ابن سيرين ، والفرزدق يجلس فى حلقة الحسن البصرى [٨] .

---

(١) يقول بحرية العبد وكسبه (٢) يقول بالجبر والاضطرار .

(٣) الأفحوص : مجثم الطائر فى التراب .

(٤) القرموص والقرماص حفرة ضيقة الرأس واسعة الجوف .

(٥) حلوبة : شاة أو ناقة تحلب . عيايل : جمع عيال ، وهذه جمع عيل وهو الولد الذى يعوله غيره . ضرائك : جمع ضريك وهو السيىء الحال أو الضرير .

(٦) سرح العيون ١٦٧ .

(٧) الأغانى ١٦ / ١٢٢ (٨) العقد الفريد ٣/١٦٩

وفى مدائح جرير والفرزدق لبنى أمية نزوع دينى كما سبق فى دراسة النصوص .

على أنى أذكِّرُ بما سبق أن زيد بن على بن الحسين إمام الزيدية كان تلميذا لواصل بن عطاء ، وأن الكميت شاعر الشيعة كان زيديا .

ويظهر أن الجدل كان يحتد ويشتد بين الطوائف ، ويكاد يبلبل الخواطر ، لهذا أنحى زيد بن جندب على الأزارقة باللوم ، لأنهم أكثروا من الجدل فانقسموا وضعفوا :

ما كان أغنى رجالا ضلّ سعيهمُ   عن الجدال وأغناهم عن الخطبِ
كنا أناساً على دين ففرّقنا   طولُ الجدال وخَلْطُ الجد باللعب (١)

والكميت شاعر الزيدية كانت نشأته بالكوفة موئل الشيعة ، فاستقى من معارفهم ، حتى صار من فقهائهم وشعرائهم .

وعمران بن حطان الشاعر الخارجى تلقى الحديث والفقه من عائشة وابن عباس وابن عمر وأبى موسى الأشعرى ، فكان فى أول أمره فقيها ومحدثاً ، وكان على مذهب الجماعة ، ثم تزوج قريبة له من الخوارج ليصرفها عن مذهبها ، فصرفته هى عن مذهبه .

ولقد بينت فى خصائص الشعر السياسى لكل حزب ما فيه من أثر قرآنى أو فقهى أو جدلى ، ووضحت فى النصوص نفسها هذه الآثار .

— ٥ —

التحريض على التهاجى :

كان كثير من الأمويين وولاتهم يغرون بعض الشعراء ببعض ، ويحضون بعضهم على هجاء بعض ، يريدون بهذا أن يثأروا من قبائل غير موالية لهم ، أو يضعوا من شأن شعراء لم يناصروهم ، ولعل بعضهم كان يريد اللهو بهذا العبث ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٢ .

وكان الدهاة منهم يبتغون أن يشغلوا الشعراء بالتهاجي والتفاخر ، ويشغلوا قبائل هؤلاء الشعراء ، ويشغلوا كثيراً من الناس أيضاً بهذا الصراع الأدبي ، وهم يحتالون بذلك لصرف هؤلاء جميعاً إلى الصراع الأدبي ، ليبتعدوا عن المشاركة فى السياسة ، ولئلا يفرغوا للثورات .

وربما كان يزيد بن معاوية أسبق بنى أمية إلى هذا التحريض ، فهو الذى أراد كعب بن جُعَيْل شاعر الشام على أن يهجو الأنصار ، فأبى ، فحرض الأخطل على هجائهم نكاية فى شاعرهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقبل .

واشتهر بعد يزيد بتحريض بعض الشعراء على بعض بشر بن مروان .

فقد كان بشر بن مروان والى العراق ذا نجدة وسخاء ، وكان ممدحا ، مدحه جرير والفرزدق والأخطل وكثير وأعشى بنى شيبان ، وهو الذى أغرى بين الأخطل وجرير فتهاجيا[١] .

وذكر أبو الفرج أن الحجاج سأل جريراً عن السبب فى ولعه بهجاء الناس ، فاعتذر جرير بأنه يدافع عن نفسه ، لأن الشعراء يهجونه ، وجاء فى إجابته أن بشر بن مروان حرض سراقه البارقى على هجائه ، وأنه بعث إلى جرير يحرضه على الرد عليه[٢] .

كذلك لم يكن عبدالملك يكره أن تقع الخصومة بين الشعراء ، فقد دخل جرير على عبد الملك ، والأخطل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم يلتقيا ، فقال جرير للأخطل : من أنت ؟ فقال : أنا الذى منع نومك ، وهضم قومك . فقال له جرير : ذاك أشقى لك . ثم أقبل جرير على عبد الملك فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك وقال : هذا الأخطل ياأبا حَزْرَة . فقال جرير : ائذن لى يا أمير المؤمنين فى ابن النصرانية . فقال : لا يكون ذلك فى مجلسى . فوثب جرير مغضبا ، فقال عبدالملك : قم ياأخطل ، واتبع صاحبك ، فإنما قام غضبا علينا فيك . فنهض الأخطل ،

---

(١) الأغانى ٢/١٧٦ وطبقات الشعراء ٤٠٨

(٢) طبقات الشعراء ٤٠٨ والأغانى ٧/٤٢

فقال عبدالملك لخادم له : انظر ماذا يصنعان إذا برز الأخطل [1] .

وقال عبدالملك للعجاج : بلغنى أنك لاتقدر على الهجاء . فقال : ياأمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تخريب الأخبية قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لناعزا يمنعنا من أن نُظلَم ، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظْلِم ، فعلام الهجاء [2] ؟

فى هذا التحريض من عبد الملك دليل على أنه كان يريد استغلال العجاج فى الهجاء ، لكنه لم يجد عنده ماأراد .

— ٦ —

الحرية :

ومهما يكن من عسف بعض الحكام ، وتعقبهم للثوار والداعين إلى الثورة ، أو الناقدين للخلفاء والولاة ، فقد كان كثير من الشعراء يستطيعون أن يجهروا بما فى نفوسهم من سخط ومن تحريض .

ذلك أن شعراء الأحزاب المعادية للحكومة إما ثائرون محاربون ، فهم لا يرهبون جريرة المقال ، لأن الذى يشهر سيفه لا يتردد فى أن يشهر لسانه ، وإما مؤيدون لأحزاب ينتمون إليها ، وهم فى الأعم الأغلب بمأمن من أن تنالهم بسوء أيدى الحكام .

ولقد يجهر بعض الشعراء — الذين لا يعجز الحكام عن القصاص منهم — بما يختلج فى أنفسهم ، من تنديد وسخط وهجاء ، فيحلم عليهم بعض الخلفاء ، ليطفئوا ما بهم من موجدة ، ولعل هذا الحلم يردهم عن البغضاء ، ولعله يكفى الحاكم وخزات ألسنتهم ، وألسنة مشايعيهم من الناس .

وأغلب الظن أن معاوية هو الذى استن هذه الخطة ، وتأثره فيها مَن بعده .

---

(١) الأغانى ٧/٦٥ (٢) الأغانى ٢/٤٥

فقد كان معاوية يحلم على الشعراء حيث لا ينتظر حلم ، لأنه أخذ نفسه بسياسة استَنَّها فى قوله : أنا لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها(١) .

وله فى هـذا أخبار شتى ، منها أنه سمع بأن عبد الرحمن بن حسان شبَّب بابنته رملة فى قوله :

رَمْلَ هل تذكرين يوم غَزال إذ قطعنا مسيرنا بالتَّمَنِّى ؟
إذ تقولين : عمرَكَ اللهَ هل شى ء وإن جلَّ يُسْليك عنى ؟
أم هل طمعتَ يابن حسان فى ذا ك كما قد أراك أُطْمِعْتَ منى ؟

فقال له معاوية . أين أنت من أختها هند(٢) ؟

وأما ابنه يزيد فغضب ، وحرض الأخطل على هجاء الأنصار .

ولما ندد يزيد بن مُفَرِّغ بنسب زياد من أبى سفيان فى شعر كثير قاله فى هجاء زياد وأبنائه ، حبسه عبَّاد بن زياد ، فغضبت اليمانيـة ، ودخلوا على معاوية وشفعوا فى ابن مفرغ ، فبعث إلى عباد يطلب منه إخراج الشاعر من محبسه . ثم قدم ابن مفرغ على معاوية ، فقال له معاوية : اذهب فقد عفوت عن جرمك ، واسكن أى أرض شئت . فلما قدم البصرة دخل على عبيد الله بن زياد واعتذر إليه ، وسأله الصفح والأمان ، فصفح عنه وأمنه(٣)

ودخل أبو بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى على معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن عتبة الأسدى قال فيك :

معاويَ إننا بشر فأَسْجِحْ فلسنا بالجبـــال ولا الحديد
أكلتم أرضنا وجرَّدْتُموها فهل من قائم أو من حَصيد ؟

---

(١) العقد الفريد / ١٠ وتاريخ اليعقوبى ٢/٢٨٣ :
(٢) الأغانى ١٤/١١٩ (٣) الأغانى ١٧/٥٩

فهبنـا أمةً هلـكتْ ضياعا يزيد أميرها وأبو يزيد
أتطمع بالخلود إذا هلـكنا وليس لنا ولا لك من خلود ؟
ذرُوا خَوَل الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد

ثم قال أبو بردة : ما يمنعك ياأمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه ؟
قال معاوية : أفلا خير من ذلك ؟
قال : أبو بردة : وماهو ياأمير المؤمنين ؟
قال معاوية : نجتمع أنا وأنت ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه .

وأراد معاوية أن يأ كل ميراث عم للفرزدق ، فغضب الفرزدق ، وخاطب معاوية فى خشونة وتهديد ، وجهر بأن الإسلام هو الذى اضطره وقبيلته إلى الخضوع لحكم معاوية ، ولو أن عمله هذا حدث فى الجاهلية لـكان لهم معه شأن[1] :

أبوك وعمى يامعاوىَ أوْرثا تُراثا فيحتازُ التراثَ أقاربُه
فما بال ميراث الحتات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبه ؟
فلو كان هذا الأمر فى جاهلية علمتَ من المرء القليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر فى غير مُلـككم لأبديته أو غص بالمـاء شاربه
وكم من أب لى يامعاوىَ لم يكن أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

كذلك عفا عبد الملك بن مروان عن ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ، وشريك مصعب فى محاربه عبد الملك ، وعفا عن الـكميت شاعر الشيعة بعد أن أهدر دمه .

---

(١) الديوان ٤٦ والطبرى ٤/١٨٠ وابن الأثير ٢/٢٢٣ كان الأحنف بن قيس وبشر (الحتات) بن يزيد المجاشعى وفدا على معاوية ، فأعطى الأحنف أربعين ألفاً والحتات عشرة آلاف ، وكان الأحنف علويا والحتات عثمانيا ، فلما صارا بالغوطة متوجهين إلى العراق سأل الحتات زميله عن مقدار صلته ، فأخبره فعاد إلى معاوية ، وعاتبه ، فأمر له بثلاثين ألفا تمام الأربعين ، لـكنه مات بدمشق قبل أن يبرحها ، فرد معاوية المال إلى بيت المال . فأرسل الفرزدق هذه الأبيات إلى معاوية أو شخص إليه وألقاها ، فبعث معاوية إلى أهل الحتات بالأربعين ألفاً .

وعفا يزيد بن عبدالملك عن الأحوص ، ورده من منفاه ، ومنحه حللا سنية وأدناه وقربه ، وقال له : لو لم تَمُتّ إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا قولك :

وإنى لأستحييكمُ إذ يقودنى إلى غيركم من سائر الناس مَطْمَعُ

لكفاك ذلك عندنا[1] .

ويتصل بهذه الحرية وبالتغاضى عن بعض الحملات والعفو عن بعض الشعراء الهاجين ما أسلفت من حملات الشعراء على بعض الولاة ، أو شكايتهم إلى الخلفاء ، وتقبيح سياستهم ، فلولا الحرية ماهجوا وما شكوا وما بصروا الخلفاء بما يعانى الشعب من سوء الحال ، ولولا جرأة هؤلاء الشعراء ما أقدموا على معاداة الولاة .

فقد صفح الحجاج عن العُدَيْل بن الفرخ ، وتناسى هجاءه له ، واستهانته بوعيده[2] ، وعفا عبيد الله بن زياد عن ابن مُفَرِّغ ، وصفح عن هجائه الكثير المقذع الذى رماه به[3] .

---

(١) الأغانى ٨/٥٧   (٢) راجع نصوص الشعر الأموى .

(٣) الأغانى ٧/٦٠ — ٦٨ .

الباب الثالث

الخطابة

الفصل الأول

خطب أموية

— ١ —

خطبة معاوية بالمدينة

خطب معاوية بالمدينة سنة ٤١ هـ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[١] :

«أما بعد ، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مَسَرَّة بولايتى ، ولكنى جالدتكم[٢] بسيفى هذا مجالدة .

ولقد رُضْتُ[٣] لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة[٤] وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سُنَيَّات[٥] عثمان ، فأبَتْ علىّ . فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة : مُؤاكلةٌ حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم ، فإنى خيرٌ لكم ولايةً .

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن إلا مايستَشْفِى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ[٦] أذنى ، وتحت قدمى . وإن لم تجدونى

(١) العقد الفريد ٢ / ١٤٠ (٢) جالدتكم : حاربتكم
(٣) رضت : مرنت (٤) أبو بكر (٥) سنوات حكمه القصار .
(٦) دبر أذنى : وراءها ، أى لم أصغ إليه .

أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد (١) يثرى ، وإذا قل أغنى .

وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة » .

فهو يكاشف أهل المدينة بأنه يعلم أنهم يبغضونه ، وبأنه تولى الخلافة على كره منهم ، ثم يعلمهم أنه راود نفسه فى أن يحكمهم على طريقة أبى بكر وعمر وعثمان ، فأبت نفسه ذلك ، ولهذا سيسلك فى الحكم طريقا جديدا . لم يوضحه إلا بأن فيه منفعة لهم وله .

ثم يلين ويستميل بقوله إنه إن لم يكن خيرهم علما وفضلا ودينا ، فإنه خير من يصلح للخلافة ، ويعدهم أنه لن يحارب من يسالمه ، ولن يحفل بالأقاويل والشتائم التى ربما يلوكها بعضهم ، شفاء لما فى نفسه من موجدة . وكأنما يشعر أنهم سيتطلعون إلى منافع كثيرة يبتغون منه أن يحققها لهم ، فيقول لهم إن لم أقم بحقوقكم كلها فاقبلوا منى بعضها ، فإن فى هذا البعض غنى .

ثم يحذرهم الفتنة وعواقبها .

والخطبة كلها مرسلة موجزة ، فيها لين أكثر مما بها من شدة وتهديد ، وهى مبدوءة بالحمد .

— ٢ —

خطبة معاوية فى مبايعة يزيد

أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، فطلب أن تفد إليه وفود من الأمصار فوفدت سنة ٥٩ هـ ، وكانت خطب شتى منها خطبة معاوية .

قال معاوية :

« الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا ، كما أنعم

---

(١) جاد : كثر .

علينا كثيرا ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمد عبده ورسوله .

أما بعد فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أُدْعَى فأجيب. وقدرأيت أنأستخلف عليكم بعدى يزيد،ورأيته لكم رضاً ،وأنتم عباهلة[1] قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسناً وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما، وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله » .

فىهذهالخطبة مهد لإعلانالبيعة بأسباب توهم أنه لايبتغى منها إلا صالح الشعب ، لأنه قد ضعفوأحس أن أجله قريب ، ولا يريد أن يترك المسلمين بغير أن يستخلف عليهم ابنه يزيد،وسبق بالرد علىمن قد يسأله لماذا لم تدعُ إلىالحفل الحسنوالحسين ؟ فقال إنه يعلم أنهما ولدا علىّ ، ولن تطيب نفسهما بهذه البيعة، وليس من الحصافة أن يدعوهما لهذا الشأن ، مع أنه يحبهما ويثق بهما . وختم خطبته بمطالبتهم أن يوافقوا.

والخطبة كسابقتها موجزة مرسلة ، مبدوءة بحمد الله والثناء عليه وبالشهادتين

— ٢ —

خطبة الضحاك بن قيس

خطب الضحاك بن قيس الفهرى فى مبايعة يزيد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمْتَع به . إنا قد بَلَوْنا الجماعة والألفة ،فوجدناها أحْقَنَ للدماء ، وآمن للسُّبُل وخيرا فى العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُتْرَك سُدًى ، والأيام عُوَّج[2] رواجع ، والأنفس يُغْدَى عليها ويُراح ، والله يقول : « كلَّ يوم هو فى شأن » ولسنا ندرى مايختلف به العصران [3] .

(١) عباهلة . المراد سادة مقرون على سيادتهم
(٢) عوج : جمع عائجة وهى الراجعة أى أنها ترجع فتسلب ماأعطت .
(٣) العصران : النهار والليل .

وأنت ياأمير المؤمنين ميتٌ كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه، فسأل الله تعالى بك المتاع .

وقد رأينا من دَعَة يزيد أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقَصْد[1] سيرته ، وَيُمْن نَقيبتِه[2] ، مع ماقسم الله له من المحبة فى المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته وشيمته المرضية ، مادعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا . فليُوَلِّه أمير المؤمنين — أكرمه الله — عَهْدَه ، وليجعله لنا ملجأ وَمَفْزَعا بعده ، نأوى إليه إن كان كَوْن[3] ، فإنه ليس أحد أحقَّ بها منه ، فاعزم على ذلك عَزمَ الله لك فى رشدك ، ووفقك فى أمورنا » .

فى هذه الخطبة تأييد للبيعة وتعليل لضرورتها .

وفيها ثناء على يزيد ، وتزكية لولايته ، واستبشار بحكمه ،

والغالب على جملها القصر ، وعلى أسلوبها القوة . وفيها آية من القرآن الكريم .

— ٤ —

خطبة عتبة بالموسم

خطب عتبة بن أبى سفيان بالموسم سنة إحدى وأربعين ، والناس حديثو عهد بالفتنة ، فاستفتح ثم قال[4] .

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا ، ورُبّ متمنٍ حَتْفُهُ فى أمنيته . اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم . وإياكم و لوًّا فقد أتعبتْ من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، فاسألوا الله أن يعين كلاًّ على كل » .

---

(١) قصد : استقامة (٢) النقيبة : المشورة والنفس والعقل
(٣) إن حدث حدث . (٤) تهذيب الكامل ١ /١٧ والبيان والتبيين ٣/ ٢٣٠ .

فهو يوحى إلى الناس بأنهم أحق بالخلافة ، والذى يشرئب إليها من غيرهم يعرض حياته للهلكة ، ثم يحضهم على الطاعة ، ونبذ التمنى.

والخطبة مرسلة لا سجع فيها ، وفيها طباق بين محسن ومسىء وأجر ووزر . وبها كناية فى قوله (لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا).

— ٥ —

خطبة عتبة بمصر

خطب عتبة بن أبى سفيان بمصر[1] فقال[2] :

« ياحاملى الأم أنوف ركبت بين أعين ، إنى قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقيا عليكم . فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فو الله لأفطن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت أدواءكم ، وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم . ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية ، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صبرتم إلى التى هى أبر وأتقى » .

هى خطبة ترعد بالتهديد والشتم والوعيد ، اشبه بخطبة زياد البتراء وبخطبة الحجاج فى الكوفة .

فقد وصم المصريين بأنهم الأم الناس ، وذكرهم بأنه حكمهم باللين ليستقيموا ، فإذا فسادهم يستشرى ، فلا علاج لهم إلا تقطيع السياط على ظهورهم ، فإذا نجح اكتفى به ، وإلا فلا مندوحة عن السيف .

ثم وبخهم بأنهم لم يعوا المواعظ ، وهددهم بأنه لن يتردد فى عقابهم على

---

(١) تولى مصر سنة ٤٣ هـ بعد وفاة عمرو بن العاص .

(٢) تهذيب ١ / ١٧ .

جرائمهم ، ثم ختم خطبته بدعوتهم إلى الطاعة التى لم ييأس منها .

وهى حافلة بالطباق الذى تجده بين صلاح وفساد ، وبطون وظهور ، وأبخل وجدتم .

وبها كناية فى قوله : يا حاملى الأم أنوف . . ، وقوله : وقلمت أظفارى عنكم ليلين مسى لكم .

— ٦ —

خطبة أخرى لعتبة بمصر

ومن خطبة أخرى قوله[١] :

يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا ، فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان .

لاتصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السُّنَن ، فأطأكم لله وطأة لا رَمَق[٢] معها ، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون .

— ٧ —

خطبة زياد فى الميل إلى معاوية

لما بدأ زياد يجنح إلى معاوية(٣) ، أراد أن يُعِدَّ الناس فى فارس ليجنحوا معه ، فخطب فيهم خطبة مرنة تدل على دهاء وخبرة بنفوس البشر ، مهّد بها لتحوله فى غير تصريح ولا كشف ، وقد وصفها هو نفسه فى كتابه إلى معاوية بأنها « يعيا بها الخطيب المِدْرَه ، تركْتُ من حضَر ، لا أهْلَ وِرْدٍ ولا صَدَر ، كالمتحيرين بِمَهْمهٍ ضلَّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير »

من الخطبة قوله :

---

(١) العقد الفريد ٢/١٥٩ (٢) الرمق : بقية الروح .

(٣) كان واليا لعلى على فارس ، ثم تولى لمعاوية على البصرة من سنة ٤٥ ثم عليها وعلى الكوفة سنة ٥١ بعد المغيرة بن شعبة .

أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم كالأضاحى ، فى كل عيد يُذبحون .

ولقد أفنَى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين مايُنيفُ على مئة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة .

كلا . . ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .
وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئ بسلامة دينه ؟

وقد نظرت فى أمر الناس ، فوجدت أحْمَدَ العاقبتين العافية، وسأعمل فى أموركم ماتحمدون عاقبته ومَغَبّته ، فقد حَمِدْتُ طاعتكم إن شاء الله .

— ٨ —

من خطبة زياد بالبصرة

قدم زياد البصرة سنة ٤٥ والفسق بها فاش ، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها (وقيل بل حمده) منها[١] :

« أما بعد . فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والفَجْر[٢] الموقد لأهله النار الباقى عليهم سعيرها ، مايأتى سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولايتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآى الله ، ولم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمد[٣] الذى لايزول .

أتكونون كمن طرَفت عينَه الدنيا ، وسدَّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الذى لم

---

(١) الطبرى ٦/١٢٤
(٢) الفجر : الفجور والتمادى فى المعاصى
(٣) السرمد : الدائم .

تُسْبَقوا به ، مِنْ تَرْكِكم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، فى النهار المبصر ، والعددُ غير قليل ؟

ألم تكن منكم نهاة تمنع الغُواةَ عن دلج الليل ، وغارة النهار ؟

قرَّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغطُّون على المختلس ، كل امرىء منكم يَذُبُّ عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف عقابا ولا يرجو مَعادا .

ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يَزَلْ بهم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الرِّيَب (١) .

حرامٌ علىّ الطعام والشراب حتى أُسَوِّيها بالأرض هَدْما وإحراقا .

إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لينٌ فى غير ضعف ، وشدة فى غير جَبْرِيَّة وعنف .

وإنى أقسم بالله لآخُذَنَّ الولىّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سُعَيْد (٢) ، أو تستقيم لى قناتكم .

إن كذبة المنبر بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلَّت لكم معصيتى .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد غرَّق أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرَّق قوما غرقناه ، ومن حرَّق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى . لا يظهر من أحد منكم خلافُ ما عليه عامتكم إلا ضربتُ عنقه .

وقد كانت بينى وبين أقوام إحنٌ ، فجعلت ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان مسيئا فلينْزِع عن إساءته .

---

(١) أى مختبئون فى مخابىء المعصية والفساد . (٢) مثل قديم (مجمع الأمثال ١/١٣٣).

إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بُغْضِى لم أكشِفْ له قناعا ، ولم أَهْتِكْ له سترا ، حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل لم أناظره .

فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مُبْتَئِسٍ بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خَوَّلَنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمنا صحتكم لنا .

واعلموا أنى مهما قصرت عنه فإنى لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبّانه ، ولا مُجَمِّراً لكم بعثا(١) .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى تَصْلُحوا يَصْلُحوا. ولا تُشْرِبوا قلوبكم بُغْضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم كان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كُلاًّ على كل .

وايمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعاى » .

(١) الراجح أن زيادا لم يبدأ خطبته بالصيغة التقليدية التى جرى عليها الخطباء من قبله ومن بعده ، وهى حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، لهذا أطلقوا عليها البَتْراء .

ولم يكن باعثه على ذلك أنه يتهدد ويتوعد فحسب ، فكم من خطب قيلت فى العصر الإسلامى للتهديد والوعيد ، وهى مبدوءة بالحمد والثناء والصلاة على الرسول.

---

(١) لا أبقيه فى بلاد الأعداء زمنا طويلا .

وإنما كان الباعث أيضاً على ترك الحمد أن زيادا — كما يبين من خطبه ورسائله — لم يكن من الذين أشربت قلوبهم الدين ، وامتزج بنفوسهم القرآن ، ولم يكن حريصاً على أن يقتفى ما سنه المسلمون من قبله فى الافتتاح بما يشعر بالانقياد لله .

على أنه لا يمنع من أن الشذوذ فى هذا الافتتاح المفاجئ المفاجىء يوحى للسامعين بالصرامة والغلظة ، ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد ، الذى لا يتورع من التنكيل والتقتيل .

وإذا فالخطبة موضوع وخاتمة .

(٢) أما الموضوع فينقسم إلى ثلاثة أجزاء .

فى الجزء الأول عرض عام لأخلاق سكان البصرة ومسلكهم ، من ضلال وفساد ومعصية الله ، واستهانة بما أعد لعباده الطائعين من ثواب ، ولعباده العاصين من عقاب ، وكأنما وجد فى هذا التعميم مسارب للشك ، فجعل يخصه بضرب الأمثال ، فهم يتركون الضعفاء يقهرهم الأقوياء ، ويسلبهم اللصوص ، وهم يسترون العصاة والمختلسين ، ويحمون السفهاء والخارجين على القانون ، وهم يرون أماكن الفسوق تنتشر بينهم ولا يقاومون ولا ينكرون .

وفى الجزء الثانى أعلن منهجه العام الذى سيسلكه فى سياستهم ، وهو منهج قائم على الصرامة فى العقوبة للمخالفين ، لكن زيادا أراد أن تكون عقوبته من نوع جديد ، فلم يقصرها على الطغاة وحدهم الظنة ، بل مدها إلى شركائهم ولو من بعيد ، ومدها إلى من يجوز أن تحوم حولهم الظنة ، أو من يصح أن يتهموا بالرضا عن المجرمين ، والتستر عليهم ، أو المعرفة بهم ، أى أنه مد عقابه إلى الجماعة لا إلى الفرد ، لذلك سيعاقب السيد بما جناه عبده ، وسيعاقب المقيم بجريمة الراحل ، والمقبل بذنب المدبر ، سيأخذ المطيع بجريرة العاصى .

وكأنما شعر زياد بأن فى وعيده هذا مسارب للشك . فأعلن أنه لا يرتضى لنفسه فى موقفه هذا أن يكذب ؛ وسيرونه بفعل ما يقول .

وفى سنهجه وعد بحماية الرعية وصيانة أموالها .

أما الجزء الثالث من الخطبة فقد تناول عدة أمور :

الأمر الأول ألا يثير الناس نعرة العصبية ، وأن يكفوا عن واليهم ألسنتهم وأيديهم ، ولا يكون هذ إلا بالطاعة ، وأن يجتنبوا مواقف الريب والظنون .

الأمر الثانى بيان لما يجب أن يكون بينهم وبينه ، بوصفهم رعية وبوصفه راعياً .

فلهم عليه أن يعدل ، ولهم عليه ألا يحتجب عن صاحب الشكوى وإن طرق بابه ليلا ،وألا يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها ، وألا يدع المحاربين منهم زمناً طويلا فى بلاد الأعداء .

وله عليهم السمع والطاعة ، وقد أراد زياد أن يضفى على الولاية هالةمن الدين ، فقال لهم إنه يستمد سلطانه من الله ، وإن الله هو الذى اختار الحكام ليسوسوا رعيتهم ، ويذودوا عنهم ، وحكام الشعب هم حصونه التى يحتمى بها ، وإذا صلحوا صلح الشعب .

(٣) ثم كانت الخاتمة قصيرة جامعة للغرض العام من الخطبة ، إذ ذكرهم بالعقاب الشديد فى صراحة وتأكيد « وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ أن يكون من صرعاى » .

(٤) يكثر فى هذه الخطبة السجع في جمل قصار ، ويكثر بها التخييل كقوله : أطرقوا كنوسا فى مكانس الريب ، وقوله : جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى وقوله : لم أكشف له قناعا . وقوله : هم كهفكم الذى إليه تأوون .

كما يكثر بها الطباق الذى تجده فى قوله : الولى والمولى ، والمقيم والظاعن . والمقبل والدبر ، والصحيح والسقيم .

وكذلك مراعاة النظير فى قوله : « من غرق قوما غرقناه ، ومن حرّق على قوم حرقناه ... » لتكون العقوبة مجانسة للجريمة .

هذا إلى القوة والجزالة والعناية بموسيقى الجمل.

● — والخطبة تنبيء عن اجتراء على عقوبات لم يسنها الدين ، لأن زيادا كما قلنا لم يكن من المتدينين ، ولأنه ينطبق عليه ما قاله على بن أبى طالب لأنصاره لما رفع جند الشام المصاحف يوم صفين : إن القوم ليسوا أهل قرآن ولا دين . فهو ينذر أهل البصرة بأنواع من العقاب غريبة عجيبة ، كأنما هو المشرِّع ، أو كأنما هو غير مقيد بأحكام الإسلام ؛ ذلك أن الإسلام لا يعاقب بالإحراق من حرق دارا كما توعد زياد ، ولا يجزى بالإغراق من غرق ناسا كما هدد زياد ، ولا يجيز دفن المسلم حيا فى القبر الذى نبشه كما أوعد زياد ، ولا ينقب قلب الذى ينقب جداراً للسرقة مثلما أنذر زياد ، ولا يأخذ السيد بجرم عبده ولا البرىء بالمتهم ، ولا يعاقب على الظنة والشك ، كما تهدد زياد ، وإنما شرع الإسلام عقوبات معينة لهذه الجرائم وأمثالها ، وحرص على العدالة ودرء العقاب بالشبهة . لهذا اعترض على زياد أبو بلال مِرْداس بن أُدَيَّة الخارجى ، وقال له : الله تعالى يقول : « وإبراهيم الذى وَفَّى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »[1].

(٦) وفى الخطبة ترفع على المحكومين ، وصبغة استبدادية ، وادعاء سلطة سياسية لا يقرها الإسلام ، فهو يعلن لهم أنه سيسوسهم بسلطة من الله خَوَّلها بنى أمية ، وسيدافع عنهم بأموال الدولة التى أعطاهم الله إياها ، وهو يعلم والسامعون يعلمون أن الله لم يخول بنى أمية سلطاناً ، ويعلم ويعلمون أن الله لم يملك بنى أمية أموالا ، وإنما دعا الإسلام إلى الشورى ، وجعل مال المسلمين للمسلمين ، وما الحاكم إلا خازن أمين على هذا المال ، وقَيِّمٌ على إنفاقه فى وجوه الخير ونفع الشعب .

(١) سورة النجم ٣٧ — ٣٨ .

— ٩ —

خطبة عبد الملك فى السخط على أهل العراق

علم عبد الملك بثورة ابن الأشعث (١) على الحجاج وعلى الخليفة ، فخطب فى الناس هذه الخطبة(٢) :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدَرى .

اللهم سلّط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك .

— ١٠ —

خطبة الحجاج بالكوفة

ولى عبد الملك الحجاج على العراق سنة ٧٥ فلما دخل الكوفة خطب فى الناس خطبته المشهورة (٣) .

وقد برع فى الموقف التمثيلى الذى مهّد به لخطبته .

ذلك بأنه أراد أن يضفى على نفسه هيبة إلى هيبته ، وأراد أن يغرب فى موقفه الخطابى ، ليهيج شوق الناس إلى تعرف الغامض المحجب ، وليمتلك انتباههم .

فماذا فعل ؟

---

(١) كان قائدا من قواد الحجاج ، أرسله ليحارب رتبيل ، ثم لامه الحجاج ، فاعلن خروجه عليه وعلى عبد الملك ، ودعا لنفسه ، وكانت بينهما مواقع تزيد على الثمانين ، آخرها دير الجماجم بالقرب من الكوفة ناحية البصرة ، وقد انتصر عليه الحجاج سنة ٨٣ . وقد سمى المكان دير الجماجم ، لأنه كانت تصنع به الجماجم وهى قداح من الخشب .

(٢) الطبرى ٨/١٠.

(٣) تهذيب الكامل ١/١٧٠ وتاريخ الطبرى ٧/٢١٠ .

دخل المسجد معتما بعمامة ، قد غطى بها أكثر وجهه ، وقد تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وصعد المنبر ، وصمت زمناً لا يتكلم . فقال بعض الناس : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق . وقال أحدهم : ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا : امهل حتى ننظر .

فلما رأى الحجاج عيون الناس شاخصة إليه ، وأيقن أنه هاج فضولهم ، وأثار دهشتهم ، وبلغ منهم ما أراد ، حسر اللثام عن فمه ، ونهض فقال :

أنا ابن جَلاً وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامةَ تعرفونى(١)

ثم قال . يا أهل الكوفة إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى . ثم قال :(٢)

هذا أوان الشدّ فاشتدى زِيَمْ قد لفَّها الليل بسوّاقٍ حُطَم

ليس براعى إبلٍ ولا غنم ولا بجزار على ظهر وَضَمْ .(٣)

ثم قال :

قد لفَّها الليل بعصلبىٍّ أَرْوَعَ خرّاج من الدوّىِّ

مهاجرٍ ليس بأعرابى(٤)

قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحى . ابن جلا : المنكشف الأمر ولم يصرف كلمة جلا لأنه أراد الفعل فحكاه . الثنايا : جمع ثنية وهى الطريق فى الجبل ، يريد أنه جلد يصعد الثنايا مع ارتفاعها وصعوبة السير فيها . العمامة : المغفر والبيضة ، وهى تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم ، وإذا فالمعنى : متى أخلع عمامة الحرب ينكشف لكم شخصى ، أو المعنى متى أخلعها تعلموا أنى الشجاع الذى لا ينام على ثأره ، لأن الرجل كان إذا قتل له قتيل يلوث على رأسه عمامة ليستر بها رأسه ، ويخرج لطلب الثأر متلثما حتى يثأر ، فإذا ثأر وضع أدوات حربه وخلع عمامته .

(٢) الشعر لرويشد بن رميض العنبرى أو للحطم القيشى

(٣) زيم : اسم ناقته . الشد : العدو . حطم : مجتهد لا يبقى من السير شيئاً . وضم : ما يقطع عليه اللحم .

(٤) عصلبى : قوى شديد . أروع : شجاع رائع المنظر . الدوى : الفلاة الشديدة والصحراء .

والقوس فيها وترٌ عُرُدٌ مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بدٌّ[١]

إنى والله يا أهل العراق ما يُقَعْقَع[٢] لى بالشِّنان[٣] ، ولا يغمز جانبى كتَغماز التِّين . ولقد فُرِرْتُ[٤] عن ذكاء ، وفُتِّشْت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — نثر كنانته[٥] بين يديه ، فعجَم[٦] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عودا وأصلبها مَكْسِرا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم[٧] فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال

والله لأحْزِمنكم حَزْمَ السَّلمة[٨] ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٩] ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رَغَدا[١٠] من كل مكان ، فكفرتْ بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وإنى والله ما أقول إلا وفَيت ، ولا أهمُّ إلا أمضيت ، ولا أخْلُق[١١] إلا فَرَيْت[١٢] .

وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ..

---

(١) هذا الشعر لا يعرف قائله . وترعرد : صلب . البكر : الفتى من الإبل .
(٢) يصوت .
(٣) الشنان : جمع شن وهو القربة الخلق أو الجلد اليابس إذا قعقع نفرت منه الإبل الصغيرة .
(٤) فررت : من فر الدابة إذا كشف عن أسنانها ليعرف سنها .
(٥) الكنانة : جعبة السهام (٦) عجم العيدان : عضها للخبرة .
(٧) أوضعتم : أسرعتم .
(٨) السلم : نوع من الشجر كثير الشوك ، كانوا يعصبون أغصانه ويخبطونها بالعصى ليتساقط الورق فتأكله الماشية .
(٩) تضرب بشدة إذا هربت أو خالطت غيرها أو وردت الماء لتشرب .
(١٠) رغدا : طيباً كثيراً (١١) أخلق : أقدر وأهم وأعزم .
(١٢) فريت : من فرى الشيء يفريه إذا شقه ، وفرى المزادة خلقها وصنعها ، وفرى الأرض قطعها وسار فيها ، أى نفذت وأنجزت .

وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام ، إلا ضربت عنقه » .

فى هذه الخطبة عدة ظواهر :

فهى مبدوءة بالشعر المنبئ عن فخر وعن تهديد ، وهى غنية بالخيال ، كما تجد فى قوله : إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وقوله : مايقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغمار التين ، وقوله : نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها . . . ، وقوله : والله لأحزمنكم حزم السلمة ...

وفيها اقتباس من القرآن الكريم « كأهل قرية كانت آمنة ... »

على أنها قصيرة الجمل ، جزلة ، بعضها مرسل وبعضها مسجوع .

— ١١ —

خطبة الحجاج بالبصرة

خطب الحجاج بالبصرة بعد خطبته بالكوفة فقال [١] .

« أيها الناس ، من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلىّ أن أعجِّله ، ومن ثَقُل عليه رأسه ، وضعتُ عنه ثِقْله ، ومن استطال ماضِىَ عمره ، قصَّرت عليه باقيه إن للشيطان طَيْفاً [٢] ، وللسلطان سَيْفا ، فمن سقمَتْ سريرتُه ، صحَّتْ عقوبتُه ، ومن وضعه ذنبُه ، رفعه صَلْبُه ، ومن لم تَسَعْه العافية ، لم تضق عليه الهَلَكة ، ومن سبقته بادرةُ فمه ، سَبَق بدنَه بسفك دمه [٣] .

إنى أُنْذِر ثم لا أُنْظِر [٤] ، وأحذِّر ثم لا أُعْذِر ، وأتوعَّد ثم لا أعفو .

إنما أفسدكم تَرْنيق [٥] وُلاتكم ، ومن استرْخَى لَبَبُه [٦] ساء

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٢٢٠ (٢) طيف : مس .

(٣) البادرة ما يخرج من الفم عن قصد فى غضب أو شبهه والمراد أنه يقتل سريعا فيكون بدنه أسرع إلى الموت من خروج الكلمة من فمه .

(٤) لا أنظر : لا أمهل . (٥) ترنيق : تسامح وضعف .

(٦) اللبب : مايشد فى صدر الدابة ليمنع استرخاء الرحل .

أدبه . إن الحزم والعزم سلباني سوطي ، وأبدلاني به سيفي . فقائمه في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابه[1] قلادة لمن عصاني .

والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه » .

وهذه الخطبة كسابقتها في الشدة والتخييل والتعبير ، وتزيد عليها المطابقات بين سقمت وصحت ، ووضعه ورفعه ، ولم تسعه العافية ولم تضق عليه الهلكة . وسجعها أكثر من سابقتها ، وجملها القصار غالبة عليها .

— ١٢ —

خطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب

استطاع عبد الملك بن مروان أن يهزم جيش مصعب بن الزبير ويقتله سنة ٧١ ، بعد أن وجه عدة جيوش كان يهزمها مصعب ، فلما طال ذلك عليه ، واشتد غمه ، أمر الناس فعسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما أراد الركوب قامت إليه زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأى . فقال ما إلى ذلك من سبيل . فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فلما يئست منه رجعت ، فبكت وبكى حشمها معها . فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال : وأنت أيضاً ممن يبكى ، قاتل الله كثيرا ، كأنه يرى يومنا هذا حيث يقول .

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ همَّه ... حَصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها[2]
نَهَتْه فلما لم تَرَ النهىَ عاقه ... بكت ، فبكى مما شجاها قطينها[3]

ثم خرج إلى الحر ، فلما قتل مصعبا دخل الكوفة ، فصعد المنبر ، وخطب هذه الخطبة[4] .

---

(١) ذبابه : حده . (٢) حصان : عفيفة . (٣) قطينها : خدمها وأتباعها .
(٤) الأمالى ١/١١ .

حمد الله وأثنى عليه . ثم قال .

أيها الناس ، إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السلم أَمْنٌ ومَسَرَّة ، وقد زَبنتْنا الحرب ، وزَبنّاها[1] ، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهى أمُّنا .

أيها الناس ، فاستقيموا على سُبل الهُدى، ودعوا الأهواء المُرْدية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم .

ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا ، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة . فمن شاء منكم أن يعود بَعْدُ لمثلها فليَعُدْ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

من يَصْلَ نارى بلا ذنب ولا تِرةٍ   يَصْلَ بنارِ كريم غير غدّار[2]
أنا النذير لكم منى مجاهرةً   كى لا ألام على نَهْى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليومَ فاعترفوا   أن سوف تَلْقون خِزيًا ظاهرَ العار
لترجِعُنّ أحاديثا مُلَعّنةً   لَهْوَ المقيم ولَهْوَ المدلج السارى[3]
من كان فى نفسه حَوْجاء يطلبها   عندى فإنى له رَهْنٌ بإِصحار[4]
أُقيم عَوْجته إن كان ذا عِوج   كما يقوِّمُ قِدْحَ النَّبعة البارى
وصاحبُ الوِترِ ليس الدَّهْرَ مُدْرِكَه   عندى ، وإنى لَدَرّاكٌ لأوتار

هذه الخطبة تمتاز بعدة أمور .

١ — أنه جهر بشناعة الحرب ومرارتها ، وجهر بحلاوة السلم ونعمته ، لكنه عقب على هذا بأنه مغرم بالحرب ودود لها مشتاق ، كأنها أمه وهو ابنها .

---

(١) زبنتنا وزبناها : دفعتنا ودفعناها . (٢) ترة : ثأر (٣) المدلج : السارى ليلا .
(٤) حوجاء : حاجة . رهن بإصحار : كفيل بلقائه والظهور له

٢ — وكذلك وبخهم فى غير تعنيف إذ يطلبون من حكامهم أن يكونوا كأبى بكر وعمر وهم ليسوا كالناس فى عهد أبى بكر وعمر .

٣ — ثم فى الخطبة سجع ، وتوازن تقصير فى الجمل وطباق ، ومقابلات ، واستشهاد بشعر كأنه صيغ لهذا الغرض .

— ١٣ —

خطبة عبد الملك بعد قتل عمرو بن سعيد

لما قتل عبد الملك بن مروان عمر بن سعد الأشدق بدمشق خطب خطبة قال فيها(١) .

ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر منكم(٢) . عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حشن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات(٣) ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات(٤) . وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة . وتترككم همدا رفاتا(٥) . وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً . فإيادى من قول قائل . ورشقه جاهل فإنما بينى وبينكم أن أسمع النغوة(٦) . فأصمم تصميم الحسام المطرور(٧) ، وأصول صيال الحنق الموتور ، وإنما هى الصافحة والمكافحة بظبات(٨) السيوف ، وأسنة الرماح ، والمعادة لكم بسوء الصباح . فتاب تائب ، وعدل(٩) خائب . والتوب مقبول ، والإحساس مبذول ، لمن عرف رشده ، وأبصر حظه .

---

(١) الطبرى ١٧٥/٧ كان مروان قد وعد عمرو بن سعيد بن العاص بالخلافة بعده ، لكن عبد الملك أخذها بعد أبيه فى وقت كانت فيه العراق نصيرة لابن الزبير ، وكانت فيها ثورة . فلما خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير بالعراق ثار عمرو بن سعيد بدمشق ، فحاصره عبد الملك ثم صالحه على أن يخلفه ، لكنه غدر به وقتله .

(٢) غبر : بمعنى بقى هنا (٣) جائحة السطوات . العقابات المستأصلة .

(٤) بوادر النقمات : العقوبات السريعة .

(٥) همدا : باليا . رفاتا : مابقى من الحطام .

(٦) النغوه : الخبر الأول الذى لم يثبت (٧) المطرور : المشحوذ .

(٨) الظبات : جمع ظبة وهى حد السيف (٩) هدل : ضعف

فانظرو الأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم . وليكن أهل الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغه ، وأمدكم بحسن معونه وحفظه .

انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرة عليكم » .

١ — فى هذ الخطبة حض الناس على الطاعة ، وحذرهم المعصية ، وخوفهم الانتقام ، وصارحهم بأنه شديد فى عقوبته ، حتى ليطأ رقابهم فيتركهم حطاماً بالياً .

ثم تقبل منهم توبة التائب ، وإنابة المخدوع ، ودعا أهل الطاعة إلى مراقبة أهل المعصية والضرب على أيديهم واستمالهم بإحسانه وبذله الموعود للطائعين ، وبثواب الله المدخر للذين يخلصون لولى الأمر .

ثم دعا الله أن يجنبهم وساوس الشيطان ، ومضايق الفتنة ، وأن يوفقهم إلى ما فيه خيرهم ، وأرند أن يحقق لهم ما وعد ، فدعاهم إلى أخذ أعطياتهم بعد الخطبة .

٢ — الصبغة العامة للخطبة أن عباراتها المتوعدة تبعث الرهبة ، لما فيها من عنف وقوة وصرامة ، أما عباراتها المستميلة فلينة مغرية بالطاعه والثواب .

٣ — وفى التهديد تخييل يضخم الصور ، ويزيد الرعب ، كقوله « تنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، وتتركم همداً رفاتا » فالهلاك المستأصل ينزل بهم كالصواعق ، والنكال العاجل يجوس خلال دورهم ليصيد العصاة ، كأنه شرطى أو جاسوس ، والعقوبة الصارمة الثقيلة تدق أعناقهم .

وكذلك قوله إنه يصمم تصميم السيف المشحوذ .

٤ — وأسلوب الخطبة مسجوع حيناً ومزدوج حينا . وهو فى الحالين قصير الجمل

حتى لتكون الجملة كلمتين مثل قوله « فتاب تائب ، وهدل جائب ، والتوب مقبول ، والإحساس مبذول » لأن الخطيب يتوخى التأثير والاستمالة والسيطرة على الأهواء أكثر من توخيه البسط والشرح والتدليل .

— ١٤ —

خطبة يزيد بن الوليد

تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة ، فاستمر فيما كان فيه من لهو وشراب واستهتار باللذات ، وأساء إلى كبراء بنى أمية ، فاجتمعوا عليه هم وأكابر المسلمين وقتلوه سنة١٢٦ وكان زعيمهم يزيد بن الوليد بن عبدالملك، وهو الذى تولى الخلافة بعد الوليد ، ولقب بالناقص ، لأنه نقص عشر أعطيات الجند[١] .

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[٢] :

« أيها الناس ، والله ما خرجت أشَرًا ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، وما بى إطراء نفسى ، وإنى لظلوم لها إن لم يرحمنى الله، ولكن خرجت غضباً لله ودينه ، داعياً إلى الله وإلى سنة نبيه ، لما هُدِمَتْ معالمُ الهدى، وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبَّار العنيد[٣] ، المستحل لكل حُرْمة والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب .

وإنه لابنُ عمى فى النسب ، وكفيئى فى الحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره ، وسألته ألا يكلنى إلى نفسى ، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهل ولايتى ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهّر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولى وقوتى .

---

(١) الأغانى ٦/١٢٥ وابن الأثير ٥/٢٢٠ واليعقوبى ٢/٤٠١ وحلية الكميت ٩٨

(٢) العقد الفريد ٢/١٤٤ وعيون الأخبار ٢/٢٤٨ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٥٢

(٣) إشارة إلى ما قيل إن الوليد بن يزيد استفتح فألا فى المصحف ، فوجد قوله تعالى « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فنصب المصحف هدفاً للنشاب ، ورماه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد ... فهــا أنذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر ... فقل يارب مزقنى الوليد

أيها الناس ، إن لكم علىّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكْرِى[1] نهرا ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيه زوجاً ولا ولدا ، ولا أنقله من بلد إلى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخَصاصة[2] أهله ، فإن فَضَل فضْل نقلته إلى البلد الذى يليه ، ولا أجَمِّركم[3] فى بعوثكم ، فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابى دونكم ، فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم ، وأقطع به نَسْلهم .

ولكم علىّ إدرار العطاء فى كل سنة ، والرزق فى كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكون أفضلكم كأدناكم .

فإن أنا وفَيْتُ لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحُسْنُ المؤازرة والمكانفة ،[4] وإن لم آف لكم ، فلكم أن تخلعونى إلا أن تستتيبونى ، فإن أنا تبت قبلتم منى ، وإن عرفتم أحدا يقوم مقامى ، ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل الذى أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ، ودخل فى طاعته .

أيها الناس ، إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

١ — فى هذه الخطبة نغمة جديدة يستميل بها يزيد قلوب الناس ، فهو يقسم لهم أنه لم يثر على ابن عمه طمعا فى الملك ، وإنما ثار ليخلصهم من حاكم طاغية فاجر فاسق . وهو لا يجحد فضل الذين آزروه فى ثورته وانتصاره ، ولا يستبد به الغرور ، فينسى أن الله هو الذى نصره ، أو يزعم أنه خير من يصلح للخلافة « وما بى إطراء نفسى ، وإنى لظلوم لها إن لم يرحمنى الله » .

٢ — على أنه يعلن لهم منهجه فى الحكم ، وهو منهج يتوخى صالح كل بلد ،

---

(١) أكرى : أحفر
(٢) خصاصة : فقر
(٣) لا أحبسكم فى أرض العدو
(٤) المكانفة : المساعدة .

ويحبس خيراته على أهله ، حتى تستكمل مرافقه ، فإن اكتملت نقل من خيراته إلى غيره . ومن هذا المنهج أنه لا يترك الجيوش فى البلاد النائية زمنا طويلا ، وأنه لن يحتجب عن شعبه ، ولن يرهق أهل الذمة حتى لا يضطرهم إلى الجلاء عن بلادهم ، وأنه سيمنح الناس عطاءهم فى عدل ومساواة .

٣ — ثم يجهر بما لم يجهر به أموى من قبل ، وهو أن على الشعب أن يطيعه ما قام بسياسته أحسن قيام ، وللشعب أن يخلعه إذا قصر ، بعد أن يبصره ويستتيبه، ويبيح للشعب أن يخلعه ويبايع غيره إذا وجد من هو أكفأ منه .

٤ — والخطبة مرسلة هادئة أقرب ماتكون إلى عهد يقطعه على نفسه حاكم عادل واثق من صلاحيته ورضا الناس عنه .

— ١٥ —

خطبة خالد القَسْرى بمكة

خطب خالد بن عبدالله القسرى (١) بمكة خطبة تهديدية شديدة الشبه بخطبة زياد وخطبة الحجاج ، حض فيها على الطاعة والوحدة ، وحذر من المعصية والفتنة ، إذ كان والياً على الحجاز للوليد بن عبد الملك .

قال فيها (٢) :

أيها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهى التى اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حَجَّهُ ، من استطاع إليه سبيلا .

أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإنى والله ما أوتَى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته فى الحرم .

---

(١) ولاه الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ وتولى العراقين فى عهد هشام
(٢) تاريخ الطبرى ٨/٨٠

إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت .

إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه[١] . واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يَقْدَمون عليكم ، ويقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا من تنزلون فى منازلكم . وعليكم بالجماعة والطاعة ، فإن الفرقة هى البلاء العظيم ».

— ١٦ —

خطبة يوسف بن عمر

لما قتل يوسف بن عمر زيد بن على سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة ، فصعد المنبر ، وخطب هذه الخطبة[٢] :

« يا أهل المَدَرة الخبيثة ، إنى والله ما تقرن بى الصعبة ، ولا يُقَعْقَع لى بالشِّنان، ولا أُخَوَّف بالذئب .

هيهات . حُبيت بالساعد الأشد . أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان ، لا عطاء لكم عندنا ولا وزن .

ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، وأحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت منبرى إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه ، فإنكم أهل بغى وخلاف ، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله .

ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لى فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم ، وسبيت ذراريكم »

---

(١) إمضاؤه : تنفيذه .

(٢) الطبرى ٨/٢٧٨

الفصل الثاني

خطب شيعية

— ١ —

خطبة لعلى بن أبى طالب

قال على لأنصاره حينما انخدعوا برفع المصاحف وطلبوا تحكيم كتاب الله :

«أيها الناس إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى مُعَيْط وابن أبى سَرْح وابن مسلمة ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى أعْرفُ بهم منكم صَحِبْتهم صغارا ورجالا ، فكانوا شر صغار وشر رجال . وَيْحَكُمْ ، إنها كلمة حق يرادبها باطل ، إنهم مارفعوها لأنهم يعرفونها ، ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة . أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يُقْطَعَ دابر الذين ظلموا[1] ».

— ٢ —

خطبة له بعد التحكيم

خطب على بالكوفة بعد أن بلغه قرار التحكيم فقال .[2]

«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١/١٨٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٨٢ .

أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، وَنَخَلْتُ لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير أمر[١] ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضَنَّ الزَّند بقَدْحه[٢] ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[٣] :

أمرتكمُ أمرى بمُنعرَج اللِّوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحا الغد

— ٣ —

من خطبة للحسن بن على

لما دخل معاوية الكوفة خطب ، ونال من علىّ ومن الحسن ، وكان الحسن والحسين جالسين تحت المنبر ، قام الحسن فرد عليه بقوله[٤] :

« أيها الذاكر عليا ، أنا الحسن وأبى على ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَة بن ربيعة ، وجدتى خديجة ، وجدتك قُتَيْلة .

فلعن الله ، أخملنا ذِكْرا ، وألأمنا حسبا ، وشرّنا قديماً وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا » .

هنا يجهر الحسن بأنه أفضل من على حسبا ، ولا يقنع بالتفضيل فى صورته العامة ، فيفصل القول .

---

(١) هو قصير صاحب جذيمة الأبرش الذى كانت بينه وبين الزباء قصة مشهورة ، ويضرب به المثل فى الناصح الذى لا يطاع .
(٢) يريد أن عقله بخل بالرأى الثاقب بعد معاندتهم له
(٣) هو دريد بن الصمة
(٤) شرح نهج البلاغة ٤/١٦ .

ثم يرد على لعن معاوية لعلى ، فيدعو الله أن يلعن ألأم الاثنين حسبا ، وأقدمها كفرا .

ومعنى هذا أن معاوية هو الملعون .

وأسلوب الخطبة مُرْسَل ، موجز ، قصير الفقرات ، خال من ألوان الخيال .

— ٤ —

خطبة للحسن بن على

في ميله إلى صلح معـاوية

نزل الحسن بن على مدينة ساباط ، بعد أن سار معاوية بجيوشه نحو العراق ، واستعد الحسن بأعوانه للقائه ، ثم مال الحسن إلى الصلح فقال[١] :

« الحمد لله كلما حَمده حامد ، وأشهد أن لا إله الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله .

أما بعد ، فو الله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومَنّه وأنا أَنصَحُ خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة[٢] . ألا وإن ما تـكرهون فى الجماعة خير لـكم مما تحبون فى الفرقة . ألا وإنى ناظر لـكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولـكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » .

الخطبة مبدوءة بحمد الله وبالشهادتين ، ومختومة بالدعاء ، وهى كسابقتها خالية من الخيال والتأنق .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤/١٤ .
(٢) غائلة : شر

وإذ كانت تمهيدا لإعلان الصلح جاءت موحية به ، في إخبار عام بأن الوحدة خير من الانقسام ، وإن كرهوا ملابسات هذه الوحدة ، وبأن الحسن أعرف بخير حزبه من معرفة الحزب لنفسه ، فعلى أتباعه أن يطيعوه فيما أمر به .

— ٥ —

خطبة للحسن في تبرير صلحه مع معاوية

استنكر كثير من الشيعة الصلح الذى تم بين الحسن ومعاوية ، فخطب الحسن فيهم بقوله[١] :

« أما بعد ، فإنكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نَعْرِفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنتُ بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصَبُ ، ما كان معاوية بأبأسَ منى وأشد شكيمة ، ولكان رأيي غير ما رأيتم . لكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أُرِدْ بما رأيتم إلا حَقْنَ دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم .

فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلِّموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برٌّ ، أو يُسْتَرَاح من فاجر .

مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سيَلِى الأمر ، فو الله لو سِرْنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه .

وأما قولك : « يا مُذِلَّ المؤمنين »[٢] فوالله لأن تَذِلوا وتُعافَوْا أحبُّ إلى من أن تِعزوا وتُقتلوا ، فإن ردَّ الله علينا حقنا في عافية ، قَبِلْنا وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرفه عنا رضينا ، وسألنا الله أن يبارك في صَرْفه عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْساً[٣] من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حيا . فإن يَهْلِكْ

(١) الإمامة والسياسة ١/١٢١ :

(٢) دخل سليمان ابن صرد ، وكان سيد العراق ، فقال للحسن : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، ثم خطب (الإمامة والسياسة ١/١٢٠)

(٣) حلسا : ملازما ، والحلس في الأصل بساط البيت .

ونحن وأنتم أحياء ، سالنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون »

الخطبة توكيد للباعث على الصلح ، وهو الحرص على دماء الشيعة ، ودعوة للرضا به ، وتيئيس من التشبث بالحرب ، وإن كان الراجح أن تكهن عليّ بنصرة معاوية دخيل على الخطبة .

وفيها اقتباس من القرآن الكريم « لا معقب لحكمه » ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

— ٦ —

خطبة للحسين بن على فى أصحابه

خطب الحسين بن على فى أصحابه وأصحاب الحُرّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[١] :

« أيها الناس ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لُحرَم الله ، ناكثا بعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى عباده بالإثم والعُدْوان ، فلم يُغَيِّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقا على الله أن يُدْخِله مُدْخَله .

ألا وإن هؤلاء[٢] قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء[٣] ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غَيَّر .

وقد أتتنى كتبكم ، وقدِمَتْ علىّ رسلكم ببيعتكم ، أنكم لا تُسْلِمونى[٤]

---

(١) الطبرى ٦/٢٢٩ الحر : هو ابن يزيد التميمى القائد الذى بعثه عبيد الله بن زياد ليقبض على الحسين . (٢) إشارة إلى ابن أمية (٣) المراد الخراج
(٤) لا تسلمونى : لا تخذلونى .

ولا تَخْذُلونى ، فإن تَمَمْتُم علىّ بيعتكم ، تصيبوا رُشْدكم .

وأنا الحسين بن على ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نَفْسى مع أَنْفُسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فىّ أُسْوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بَيْعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بنُكْر[1] . لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مُسْلِم[2] . والمغرور من اغتربكم ، فحظَّكم أخطأتمُ ، ونصيبكم ضيَّعتم . ومن نكث فإنما ينكُث على نفسه ، وسيُغْنى الله عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ذكر سامعيه بالحديث الشريف الداعى إلى الثورة على الحاكم الباغى ، وتطرق من هذا إلى الحكم على بنى أمية بأنهم بغاة ، ولم يصرح بالنتيجة التى يريدها ، اعتمادا على أنهم قد أدركوا ما يريد . ثم حذرهم أن يخذلوه كما خذلوا أباه وأخاه وابن عمه ، وبين لهم أن خيرهم فى أن يناصروه ، وأنه سيشاركهم فى الحرب .

وفى الخطبة جمل مسجوعة ، واقتباس من القرآن الكريم فى قوله « من نكث فإنما ينكث على نفسه » ، وجملها قصيرة .

— ٧ —

خطبة عبد الله بن جعفر

لما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد طلب أن تفد إليه وفود الأمصار ، فوفدت ، وألقيت خطب ، بعضها يعارض فى صراحة ، وبعضها يؤيد .

من خطب المعارضة خطبة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

---

(١) نكر : منكر

(٢) يريد أنهم خذلوا عليا والحسن ، وخذلوا مسلم بن عقيل بن أبى طالب لما بعثه الحسين إليهم ليستوثق من صدقهم فى دعوتهم للحسين أن يقدم إليهم ، فانفضوا عنه لما حاربه جيش ابن زياد .

قال بعد الحمد :

« إن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأي الناس أفضلُ وأكملُ وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟

وايم الله لو ولوه بعد نبيهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقّه وصدقه ، ولأطيع الله ، وعصي الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان . فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيتك ، فإنك مسئول عنها غدا .

وأما ما ذكرتَ من ابنَيْ عمي، وتركك أن تحضرهما، فوالله ماأصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما مَعْدِنُ العلم والكرم ،فقل أودَعْ . وأستغفر الله لي ولكم » .

— ٨ —

خطبة المسيَّب بن نجَبة الفزارى

لما قتل الحسين بن على ، اجتمعت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ واتفقوا على أن يجتمعوا بالنُخَيْلة ، ليسيروا إلى الشام مطالبين بدم الحسين .

وكانوا بعد قتل الحسين قد تلاوموا وندموا ، لأنهم هم الذين دعوه وواعدوه أن ينصروه ، ثم خذلوه ، فلزمهم الإثم والعار ، ولم يجدوا لأنفسهم خلاصا من إثمهم إلا بأن يقتلوا قاتليه ، ويتوبوا مما فرط منهم ، فسموا « التوابين » .

وقداجتمع رؤساؤهم وبعض أنصارهم المقربين، فخطب فيهم المسَيب هذه الخطبة[1]، يحرضهم على الثأر للحسين .

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٥٠

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنا قد ابتُلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا : « أو لم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ..وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله خيارنا ، فوجدنا كاذبين فى موطنين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره ، عَوْداً وبدءا ، وعلانية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا .

فما عُذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

وقد قُتِلَ فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله . لا والله ، لا عذر دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه ، أو تُقْتَلوا فى طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن . أيها القوم ، ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، وراية تَحُفُّون بها .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

الخطبة كسابقتها مرسلة ، قصيرة الفقرات ، خالية من الخيال .

وبها آية من القرآن الكريم ، وختامها استغفار للخطيب وللسامعين .

— ٩ —

خطبة ابن صُرَد فى التحريض على الثأر للحسين

ثم خطب سليمان بن صُرَد خطبة ، منها قوله :

. . . .

« ألا فانهضوا ، فقد سخط ربكم . ولا ترجعوا إلى الحلائل[١] والأبناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبِيروا[٢]

ألا لا تهابوا الموت، فو الله ما هابه امرؤ قطُّ إلا ذلَّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل ، إذ قال لهم نبيهم : « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

فما فعل القوم ؟ جَثَوْا على الركب والله ، ومَدُّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل .

فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دُعى القوم إليه ؟

اشْحَذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط[٣] الخيل ، حتى تُدْعَوْا وَتُسْتَنْفَرُوا » .

هنا آيتان من القرآن الكريم ، وترسُّل ، وبعد عن التخييل .

— ١٠ —

خطبة ابن الحنفية فى جمع من الكيسانية

خطب محمد بن على بن أبى طالب ، المشهور بابن الحنفية فى جمع من أصحاب المختار ابن أبى عُبَيْد[٤].

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ، ثم قال :

« أما بعد ، فأما ما ذكرتم مما خَصَّنا الله به من فَضْل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،

---

(١) الحلائل : الزوجات (٢) تبيروا : تهلكوا
(٣) جمع ربيط وهو المربوط ، أو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله
(٤) الطبرى ٧/٩٧ .

والله ذو الفضل العظيم ، فلله الحمد . وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحُسَيْن ، فإن ذلك كان فى الذكر الحكيم[١] ، وهى مَلْحمة كتبت عليه[٢] ، وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قَدَرًا مقدوراً .

وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خَلْقه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

---

(١) أى أن قضاء الله سبق به (٢) ملحمة : موقعة شديدة

الفصل الثالث

خطب الخوارج

— ١ —

خطبة عُبيدة بن هِلال

وفدت الخوارج من العراق إلى مكة لمناصرة ابن الزبير — وجيش الشام يحاصره — إن كان على رأيهم ، فإن لم يكن على رأيهم دافعوا عن البيت . فلما مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكة ، أراد الخوارج أن يتبينوا حقيقة ابن الزبير ، فاجتمعوا واجتمع أنصار ابن الزبير ، وخطب عبيدة بن هلال هذه الخطبة(١).

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:

« أما بعد ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عبادة الله وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجابه المسلمون ، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه . واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عملا بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القُربَى ، واستعمل الفَتَى ، ورفع الدِّرة ، ووضع السوط ، ومَزّق الكتاب ، وحقر المسلم ، وضرب منكرى الجور ، وآوى طريد رسول الله ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيّرهم وحرَمهم ، ثم أخذ فىء الله الذى أفاءه عليهم ، فقسمه بين فساق قريش ومُجّان العرب ، فسارت إليه

---

(١) الطبرى ٧/٥٦ كان فى الخوارج الوافدين إلى مكة نجدة بن عامر الحنفى (الطبرى ٧/١٤) .

طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون فى الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه برآء ، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ »

— ٢ —

خطبة أبى حمزة بالمدينة

بلغ أبا حمزة الشارى [١] أن أهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فخطب فيهم خطبة ، منها :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال [٢] :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتنى مقالتكم لأصحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم ، وقلة عقولكم ، لأحسنت أدبكم .

وَيْحَكم . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب ، وبُيِّن له فيه السُّنن ، وشُرِع له فيه الشرائع ، وبُيِّن له فيه ما يأتى وما يَذَر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يحجم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدّى الذى عليه ، وعلم المسلمين معالم دينهم ، ولم يَدَعْهم من أمرهم فى شبهة .

وولَّى أبا بكر صَلاتَهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاه رسول الله أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردة ، وشمَّر فى أمر الله حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمه الله . ثم وُلِّى بعده عمر بن الخطاب ، فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجَنَّد الأجناد ، ومصَّر

---

(١) هو المختار بن عوف الأزدى أحد زعماء الإباضية ، بايع بالخلافة عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨ هـ فوجهه عبدالله إلى مكة فغلب عليها ، ثم غلب على المدينة سنة ١٣٠ .

(٢) الأغانى ٢٠/١٠٤ والبيان والتبيين ٢/٦١ وشرح نهج البلاغة ١/٤٥٩ .

الأمصار ... حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته .

ثم وُلِّى من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه — وكان دونهما — ثم سار فى الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ، واضطرب حبل الدين بعدها ، فطلبها كل امرئ لنفسه ، وسرَّ كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك .

ثم ولى علىّ بن أبى طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله .

ثم وُلِّى معاوية بن أبى سفيان ، لَعِين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه (١) ، وحِلْف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خوَلا ، ومال الله دُوَلا ، وبَغَى دينه عِوجا ودَغَلا ، وأحل الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله، فالعنوه لعنه الله .

ثم وُلِّى بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفُهُود ، ويزيد الصُّيود ، ويزيد القرود ، الفاسق فى بطنه(٢) ، فخالف القرآن ، واتبع الكهان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشتهيه ، حتى مضى على ذلك ، لعنه الله ، وفعل به وفعل .

ثم وُلِّى مروان بن الحكم ، طريد ولعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن لعينه (٣) ، فاسق فى بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداول بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله

---

(١) روى أن أبا سفيان كان على جمل ومعاوية يسوقه وعتبة يقوده ، فقال رسول الله اللهم العن الراكب والسائق والقائد .

(٢) هنا عبارات مفحشة حذفتها

(٣) كان رسول الله قد نفى الحكم وأهله من المدينة ، ولم يعد إليها إلا فى عهد عثمان هو وأبناؤه

أكلا ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يُوَرِّث ذلك الأكبرُ منهم الأصغرَ ، فيالها أمّة ماأضيعها وأضعفها !

ثم مضوا على ذلك من سيء أعمالهم ، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، وقد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون . وقد وُلى منهم عمر ابن عبد العزيز فبلغ ولم يكد ، وعجز عن الذى أظهره ، حتى مضى لسبيله . (ولم يذكره بخير ولا شر) .

ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده ، ولم يؤنس رشده ... ... (واستمر فى تجريحه والحملة على أخلاقه) وعاد إلى الحملة الجارحة على بنى أمية . ثم قال :

وأما إخواننُا من هذه الشيعة — وليسوا بإخواننا فى الدين — فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنَتْ الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ، ولا عقل بالغ فى الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب . قد قلدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه ، وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم ، غيا كان أو رشدا ، ضلالة أو هدى ، ينتظرون الدول فى رجعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق.

فأى هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تتبعون ؟ أم بأى مذاهبهم تعتقدون ؟

وقد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى . قلتم : هم شباب أحداث ، وأعراب جُفاة . ويحكم ياأهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله المذكورون فى الخير إلا شبابا أحدثا ؟

أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم . ماتركت الأخذ فوق أيدكم .

شباب والله مكتهلون (١) فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن

(١) مكتهلون : بلغوا مبلغ الكهول فى عقلهم .

الباطل أرجلهم ، أنضاء[١] عبادة ، وأطلاح[٢] سهر ، باعوا أنفسا تموت غدا ، بأنفس لا تموت أبدا .

قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه .

قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال[٣] الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله .

حتى إذا رأوا سهام العدو قد فُوِّقَتْ[٤] ، ورماحهم وقد أُشْرِعَتْ[٥] ، وسيوفهم وقد انْتُضِيَتْ[٦] ، وبرقت الكتيبة ، ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا[٧] الأسنة ، وشائك السهام ، وظُبات[٨] السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه[٩] ، اختَضَبَتْ محاسن وجهه بالدماء ، وعفر جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى[١٠] لهم وحسن مآب .

فكم من عين فى منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا . وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق[١١] ، قد فُلِقَ بعَمَد

---

(١) أنضاء جمع نضو وهو المهزول (٢) أطلاح : جمع طلح وهو المهزول .
(٣) كلال الليل : جهده وتعبه (٤) فوقت : أعدت للرمى .
(٥) أشرعت : سددت (٦) انتضيت : أخرجت من أغمادها
(٧) شبا . جمع شباة وهى حد السنان .
(٨) ظبات : جمع ظبة وهى حد السيف .
(٩) المراد أنه لشجاعته يقدم وهو على حصانه فينزلق إلى الأمام حتى تتصل رجلاه وتختلفا . (١٠) طوبى لهم : الخير لهم (١١) عتيق : كريم .

الحديد . ثم بكى وقال : آه آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان » .

١ — بدأ الخطبة بحمد الله ، على الطريقة التى كانت سائدة فى الإسلام .

ثم جهر بالموضوع فى إيجاز ، وهدد بالعقاب .

ثم عرض لأعمال رسول الله وخلفائه من بعده ، تمهيدا للحملة على بنى أمية .

وجعل يعدد مساوىء معاوية وابنه يزيد وبنى أمية .

ثم انتقل إلى الشيعة ، فندد بهم وبضلالهم ، ثم عاد إلى الموضوع فى تفصيل ، فدافع عن أنصاره من الشباب بعدة أدلة :

(ا) كان أصحاب رسول الله من الشباب .

(ب) وهؤلاء الذين يعيبهم أهل المدينة شباب ، لكن لهم عقول الرجال .

(ج) وهم أتقياء أعفاء عباد عاكفون على تفهم القرآن ، والشوق إلى ثواب الله . وفصل القول فى وصف عبادتهم وحبهم لله .

(د) وهم شجعان مغاوير ، يشترون رضوان الله بحياتهم ، لا يبالون بالسلامة فى لقاء أعدائهم أعداء الدين .

(ه) ثم رسم صورا مثيرة لقتلاهم من العباد .

(و) وختم الخطبة بالتأوه لفقدهم وبالدعاء لهم .

(ز) ولم ينس أن يكرر التهديد فى نصف الخطبة ، ويعتذر بأنه مشغول بغيرهم .

٢ — أما الخطبة فتعتمد على قصر الجمل ، والموازنة بينها بالسجع أو الازدواج ، والخيال المثير المستميل ، والكناية المشخصة للمعانى ، والتصوير البارع فى الاستمالة والأسلوب الجزل المختار .

انظر الخيال فى مثل قوله : « شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه » و « برقت الكتيبة » .

وانظر الكناية فى مثل قوله : « أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم » و « لقوا شبا الأسنة بنحورهم » و « اختلفت رجلاه على عنق فرسه » .

وانظر براعة تصويره فى مثل قوله : « فكم من عين فى منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله » .

٣ — وهى كلها دافقة بالعاطفة الحارة ، متدفقة التعبير فى قوة وتأثير .

٤ — وتأثرها بالقرآن الكريم واضح فى بعض معانيها ، وفى بعض عباراتها ، كقوله : طوبى لهم وحسن مآب ، وقوله : نبذوه وراء ظهورهم .

٥ — أما السب والشتم والتجريح فقد ذكرت أقله ، وحذفت أكثره ، لأن فيه فحشا .

— ٣ —

خطبة حيان بن ظبيان فى الحض على الجهاد

خطب حَيَّان بن ظَبْيان فى جمع من الخوارج سنة ٥٨ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن الله عزّ وجلّ كتب علينا الجهاد ، فمنا من قَضَى نَحْبَه ، ومنا من ينتظر ، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم ، ومن يكن منا ينتظر فهو من سلفنا القاضين نَحْبَهم ، السابقين بإحسان . فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله مع المحسنين »

الخطبة موجزة ، متأثرة بالقرآن الكريم فى معانيها وفى بعض تعابيرها ، مثل : كتب علينا الجهاد ، منا من قضى نحبه ومنا من ينتظر ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله مع المحسنين .

— ٤ —

خطبة عبد ربه الصغير فى الحض على الجهاد

خطب عبد ربه الصغير فى أصحابه ليلة الموقعة التى دارت بينه وبين المهلب[١] ، وقتل فيها عبد ربه ، فقال :[٢]

« يا معشر المهاجرين ، إن قَطَريا وعبيدة[٣] هربا ، طلبَ البقاء ، ولا سبيل إليه .

فالقَوْا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلبُنَّكم على الموت . . فتلقَّوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا يَهَبْها لكم فى الآخرة » .

— ٥ —

خطبة صالح بن مسرح فى الحض على الجهاد

خطب صالح بن مُسَرِّح فى جمع من الصُّفرية خطبة[٤] منها :

(١) تصدع الأزارقة ، فخلع نصفهم قطرى بن الفجاءة ، وولوا عبد ربه الصغير ، ونشبت الحرب بينه وبين المهلب . أما قطرى فقد ارتحل بأتباعه إلى طبرستان ، وبعث الحجاج وراءه جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد ، فتفرق عن قطرى أصحابه ، وقتل سنة ٧٨ هـ وبمقتله انتهت حروب الأزارقة .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/٤٠٥

(٣) عبيدة بن هلال اليشكرى من زعماء الأزارقة .

(٤) شرح نهج البلاغة ١/٤٠٩ والطبرى ٧/٢١٧ .

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون .

. . . .

ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، وزكاهم وطهرهم ، وفَقّهم فى دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيما .

ثم ولى الأمرَ من بعده التقى الصِّدِّيق ، عَلَى الرِّضا من المسلمين ، فاقتدى بهَدْيه ، واستَنّ بسنته ، حتى لحق بالله ، رحمه الله .

واستخلف عمر ، فولاه الله أمرَ هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يخف فى الحق لومة لائم ، حتى لحق به ، رحمة الله عليه .

ووَلِى من بعده عثمان ، فاستأثر بالفىء ، وعطّل الحدود ، وجار فى الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزّز المجرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين .

وولى أمرَ الناس من بعده على بن أبى طالب ، فلم يَنْشَبْ أن حكّم فى أمر الله الرجال ، وشك فى أهل الضلال ، ورَكَن وأَدْهَن ، فنحن من علىّ وأشياعه بَراء .

فتيَسّروا — رحمكم الله — لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة .

ولا تجزعوا من القتل فى الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم ، فمفرِّق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم .

جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يَهْدُون بالحق وبه يَعْدِلون» .

هذه الخطبة تشبه خطبة أبى حمزة فى عرض الحكم منذ النبى صلى الله عليه وسلم .

والطابع القرآنى بارز فيها ، ففاتحتها آيات من القرآن الكريم ، وفى ختامها آية منه ، وفيما بين الفاتحة والخاتمة آيات أو معان كقوله : « بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيما » .

وفى الخطبة براءة من عثمان وعلى ، ودعوة إلى مجاهدة بنى أمية والشيعة ، وتسميتهم أئمة الضلال . وعباراتها كلها قصيرة ، قليل منها مسجوع .

— ٦ —

خطبة سليمان بن صُرد

« فى سنة ٦٥ هـ اتفق كثير من الشيعة على الخروج للمطالبة بدم الحسين ، وسموا التوابين ، لأنهم ندموا على خذلانه ، وكان يتزعمهم سليمان بن صرد ، وعسكروا بالنُّخَيْلة قرب الكوفة ، وخطب فيهم سليمان ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه[1] .

«أما بعد ، أيها الناس فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون . وإن للدنيا تجارا وللآخرة تجارا . فأما تاجر الآخرة فساع إليها ، متنصب بتطلابها ، لا يشترى بها ثمنا ، لا يُرَى إلا قائما وقاعدا وراكعا وساجدا ، لا يطلب ذهبا ولا فضة ولا دنيا ولا لذة . وأما تاجر الدنيا فمكبٌّ عليها ، راتع فيها ، لا يبتغى

(١) الطبرى ٧/٦٩ .

بها بدلا . فعليكم — يرحمكم الله فى وجهكم هذا — بطول الصلاة فى جوف الليل ، وبذكر الله كثيرا على كل حال ، وتقربوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو والمحلّ القاسط[١] فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثوابا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء . وإنا مدلجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله » .

— ٧ —

خطبة عبد الله بن يحيى

خطب عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على اليمن سنة ١٢٩ هـ ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال[٢] :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما . الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا . رضينا بالحلال حلالا ، لا نبغى به بديلا ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ، ونبذناه وراء ظهورنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعول . من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك فى أنه كافر فهو كافر .

ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات محكمات ، وآثار مقتدى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد

---

(١) يريد عبيد الله بن زياد لأنه استحل قتل الحسين .
(٢) الأغانى ٢٠/ ٩٩ .

والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس ، إن من رحمة الله أن جعل فى كل فترة بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون على الألم فى جنب الله تعالى ، يُقْتلون على الحق فى سالف الدهور شهداء ، فما نسيهم ربهم ، وما كان ربك نَسِيًّا .

أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبلوا لله بلاء حسنا فى أمره وذِكْرِه .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

الفصل الرابع

خطب الزبيريين

— ١ —

خطبة عبد الله بن الزبير في معارضة البيعة ليزيد

استقدم معاوية وفوداً من الأمصار إلى الشام ، ليسمع رأيهم في البيعة لابنه يزيد ، لكن المعارضين بالحجاز لم يقدموا إلى الشام ، فوفد معاوية إلى الحجاز ليثنيهم عن رأيهم ، فلم يفلح .

وكان فيهم عبد الله بن الزبير ، فخطب هذه الخطبة[1] :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذه الخلافة لقريش خاصة ، فاتق الله يامعاوية ، وأَنْصِفْ من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله ابن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله ابن الزبير ، ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليٌّ خلَّف حَسَنا وحُسَيْنا ، وأنت تعلم من هما .

فاتق الله يامعاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

هذه الخطبة أشبه بحديث موجز لاتأنق فيه ولا إعداد له .

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦٣ والأمالي ٢/٧٣ وذيل الأمالي ١٧٧ والعقد الفريد ٢/٢٤٧

وفكرتها العامة رفض البيعة ليزيد ، لأن فى الأحياء من قريش من هم أولى منه وأكفأ .

— ٢ —

خطبة عبدالله بن الزبير لما قتل الحسين

خطب عبدالله بن الزبير فى أهل مكة لما قتل الحسين ، فعاب أهل العراق والكوفة بخاصة .

قال [١] بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله :

«إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرار أهل العراق ، وإنهم دعوا حُسَينا لينصروه ، ويُوَلّوه عليهم ، فلما قدِم عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا ، فنبعثَ بك إلى ابن زياد بن سُمَيَّةِ سِلْمًا ، فيُمْضِي فيك حكمه ، وإما أن تُحارَب .

فرأى والله أنه — وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يُطْلِعْ على الغيب أحدا — مقتول ، ولكنه اختار المِيتة الكريمة على الحياة الذميمة .

فرحم الله حسينا ، وأَخْزَى قاتلَ حسين .

لعمرى لقد كان من خِلافهم إياه وعصيانِهم ما كان فى مثله واعظٌ وناهٍ عنهم ، ولكنه ماحُمَّ [٢] نازل ، وإذا أراد الله أمرا لن يُدْفَعْ .

أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ، ونُصدِّقُ قولهم ، ونَقْبل لهم عهدا ؟ لا . ولا نراهم لذلك أهلا .

أما والله لقد قتلوه ، طويلا بالليل قيامُه ، كثيرا فى النهار صيامُه ، أحقَّ بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل .

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/٢٧٣ .

(٢) حم : قدر .

أما والله ما كان يُبَدِّل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الُحداء ، ولا بالصيام شُرْبَ الحرام ، ولا بالمجالس فى حَلَق الذكر الرَّكْضَ فى تَطْلاب الصيد [١] . فسوف يَلْقَوْن غيًّا » .

كانت هذه الخطبة بعد مقتل الحسين ، وقبل أن يدعو ابن الزبير إلى نفسه جهرا [٢] .

العاطفة فى هذه الخطبة جياشة ، سواء فى السخط على أهل العراق أم فى رثاء الحسين ، أم فى الحملة على يزيد بن معاوية .

وفى عباراتها قوة وتوازن وموسيقى وقليل من السجع ، وخاتمتها آية من القرآن الكريم .

— ٣ —

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب

قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ وانتهى خبر مقتله إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، فخطب فقال [٣] :

« الحمد لله الذى له الخَلْق والأمر ، ومَلِكِ الدنيا والآخرة، يؤتى الملكَ من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

أما بعد . فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طُرًّا [٣] ، ولم يُذِل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفا .

ألا وإنه قد أتانا خبرٌ من العراق ، بلد الغَدْر والشِّقاق ، فساءنا وسرَّنا . أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذى أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعةً ولوعةً يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوِى من بَعْدُ ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء .

---

(١) هذا كله تعريض بيزيد بن معاويه

(٢) تاريخ الطبرى ٧/ ١٩ وتهذيب الكامل ١/١٨ ومروج الذهب ٢/١٢٣ .

(٣) طرا : جميعاً .

وأما الذى سرّنا منه ، فإنا قد علمنا أن قتله شهادةٌ له ، وأنه عز وجلّ جاعلٌ لنا وله فى ذلك الخيرَة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطَّغامُ[1] الصُّمُّ الآذان ، أهل العراق ، إسلامَ النَّعَمِ المخَطَّمة[2] ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يُقتَل فقد قتل أبوه وأخوه[3] ، وكانوا الخيار الصالحين .

إنا والله لانموت حَتْفَ آنافِنا[4] ، ولكنْ قَعْصاً[5] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان .

والله ما قُتِل منهم رجل فى زَحْفٍ فى جاهلية ولا سلام قط

ألا وإنما الدنيا عاريةٌ من الملك القهّار الذى لايزول سلطانه ، ولا يَبيدُ مُلكُه ، فإن تُقبِل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشر البطر[6] ، وإن تدبِر عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِق[7] المَهين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

١ — افتتح الخطبة بحمد الله .

ثم عرّض بعبد الملك بن مروان ، وبين أن قوته وكثرة أتباعه لن تكفل له نصر الله ، وأن ضعفه هو وقلة أتباعه لن تحرمه تأييد الله .

ثم عبر عن حزنه وسروره بمصرع أخيه . أما حزنه فمن لوعة الفراق، لكنه صبور ، وأما سروره فلأنه استشهد فى سبيل الله .

وذم أهل العراق الذين خذلوه .

---

(١) الطغام : الأوغاد . (٢) المخطمة : التى فى أنوافها حبال لتقاد بها .

(٣) أبوه الزبير بن العوام ، اعتزل أصحاب الجمل ، فقتله عمرو بن جرموز . عمه : عبد الرحمن بن العوام ، استشهد يوم اليرموك . أخوه : المنذر بن الزبير قتله جيش يزيد ابن معاوية بمكة .

(٤) مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا حرق ولاغرق، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه مع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جرحه .

(٥) قعصا : ضربا أو رميا يميت فى سرعة .

(٦) الأشر البطر : المغرور المتكبر (٧) الخرق : المدهوش المبهوت .

وعزى نفسه وفاخر بأن أباه وعمه وأخاه استشهدوا من قبل ، وبأن أبناء الزبير لا يموتون إلا فى ميادين الجهاد ، على حين أن بنى أمية يموتون حتف أنوفهم.

وأعلن أن الحياة عارية مردودة ، وأن الدوام لله ، وهو لهذا لا يكترث بالخلافة، فإن جاءت إليه تقبلها فى تواضع ، وإن تخلت عنه لم يبخع نفسه .

ثم ختم الخطبة بالاستغفار لنفسه وللسامعين .

٢ — الخطبة قوية ، تستمد قوتها من عدة أسباب .

(ا) قصر الجمل .

(ب) موسيقاها وتوازن فقراتها ، فنجد السجع غير المتكلف فى مثل « خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق » ونجد الازدواج فى مثل : « أسلمه الطغام ، الصم الآذان » .

(ح) المقابلة المضخمة للفكرة فى مثل : « لم يعز من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً » .

٣ — وهى خطبة قصيرة ، لكنها مع قصرها وافية بالغرض منها .

٤ — بدأها بآيات من القرآن الكريم ، وختمها بالدعاء لنفسه وللسامعين .

— ٥ —

خطبة لابن الزبير فى الخوارج

رد ابن الزبير على الخوارج الذين كانوا قد وفدوا إلى مكة لمناصرته إن كان على رأيهم ، بعد أن خطب خطيبهم عبيدة بن هلال ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١)

« أما بعد . فقد فهمت الذى ذكرتَ ، وذكرت به النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو كما قلتَ وفوق ماوصفتَه . وفهمت ما ذكرتَ به أبا بكر وعمر ، وقدوفِّقْتَ وأَصَبْتَ . وقد فهمت الذى ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإنى

(١) الطبرى ٥٦/٧ .

لاأعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى . كنت معه حيث نقم القوم عليه واستعتبوه ، فلم يدع شيئاً استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم منه . ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : ما كتبته ، فإن شئتم فهاتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم ، فو الله ماجاءوه ببينة ، ولا استحلفوه ، بل وثبوا عليه فقتلوه . وقد سمعت ما عبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكم خير أهل ، وأنا أُشهدكم وَمنْ حضر أنى ولىٌّ لابن عفان فى الدنيا والآخرة ، وولىٌّ أوليائه ، وعدو أعدائه »

— ٦ —

خطبة ابن مطيع العدوى بالكوفة

قدم عبد الله بن مُطيع العدوى الكوفة سنه ٦٥ ﻫ واليا من قبل عبد الله ابن الزبير ، فخطب فيهم هذه الخطبة (١)

حمد الله وأثنى عليه ؛ ثم قال

« أما بعد ، فان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مِصْركم وثغركم ، وأمرنى بجباية فَيْئكم ، وألا أحمل فَضْل فيئكم (٢) عنكم إلا برضا منكم ، ووصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته(٣) ، وبسيرة عثمان بن عفان التى سار بها فى المسلمين .

فاتقوا الله واستقيموا ، ولا تختلفوا وخذوا على أيدى سفهائكم ، وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ، ولا تلومونى ، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصى ، ولأقيمن دَرْء(٤) الأَصْعَر (٥) المرتاب » .

---

(١) الطبرى ٧ / ٩٥
(٢) الفىء : الخراج ، وفضله : زيادته .
(٣) كان قد أوصى بذلك
(٤) الدرء : الميل والاعوجاج .
(٥) الأصعر : المتكبر .

— ٧ —

خطبة أخرى لابن مطيع فى الحض على الجهاد

حمل المختار وأصحابه على جند عبد الله بن مُطيع والى الكوفة من قبل ابن الزبير، فكشفوهم وهزموهم سنه ٦٦ هـ ، فخرج عبد الله بن مطيع فخطب فى الناس [1].

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«أيها الناس ، إن أعجب العجب عَجْزَكم عن عصبة منكم ، وقليل عددها ، خبيث دينها ، ضالة مُضِلّة ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن مِصْركم . وامنعوا منهم فيئكم ، وإلا ليشاركنكم فى فيئكم مَنْ لا حق له فيه .

والله لقد بلغنى أن فيهم خَمْسَ مئة رجل من محرّريكم ، عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزكم وسلطانكم ، وتغير دينكم حين يكثرون » .

(١) الطبرى ١٠٦/٧ .

الباب الخامس

خصائص الخطابة

لاتكاد الخطابة في حزب تختلف عن الخطابة فى آخر ، لهذا رأيت أن أوضح خصائصها جملة ، مستنبطة من النماذج التى أسلفتها ، وأن أزيد الدراسة وضوحاً بأمثلة شتى من كل حزب .

— ١ —

الإعداد

تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها . والتأنى فى صوغها ، والتدبر فى ترتيب أجزائها ، وتنسيق أفكارها ، والتأنق فى أسلوبها .

وقد كان ذلك قبل العصر الأموى ؛ فإن عمر بن الخطاب تحدث عن يوم السقيفة بقوله : كنت قد زوّرت — أعددت — كلاما لأقوله ، فقال لى أبو بكر : على رسلك ، وتكلم هو ، فلم يترك شيئاً مما كنت أريد أن أقوله (١) .

وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح بخاصة مشقة ، يقول : «مايتَصَعَّدُنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح » (٢) .

---

(١) الطبرى ٣/٢٠٠

(٢) البيان والتبيين ١/١١٧ ، ١٣٤ تصعده الأمر وتصاعد به : شق عليه .
ذكر الجاحظ أنه يعرض للخطيب فى خطب الإملاك من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر (١/١٣٤) وقال : سئل ابن المقفع عن قول عمر ، فقال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق ، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، فإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . ثم ذكر الجاحظ رأيا آخر هو أن آخرين أولوا قول عمر بأن خطيب الإملاك لايجد بدا من تزكية =

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فأرتج عليه ، فقال : «إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها ، وتعلمون إن شاء الله» (١) .

ومعنى هذا أن الشيخين كانا يعدان خطبهما ، وأن عثمان لم يكن قد استعد ، ولكنه سيستعد فيما بعد لمثل هذا الموقف ، ليخطب الناس بكلام ذي قيمة .

وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب فى العصر الأموى ، فقد روى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وَهْب الراسبى - يوم ولوه رياستهم - أن يخطب فيهم ، فقال : وما أنا والرأى الفَطير ، والكلام القَضيب (٢) .

وتواردت الأخبار بأن واصل بن عطاء كان يخطب ، فيتجنب الراء فى كلامه ، لأنه كان ألثغ (٣) . فهل كان يتجنبها بغير إعداد وتفكير وتدبر ؟

وقيل لعبد الملك بن مروان : «عَجِل عليك الشيبُ يا أمير المؤمنين » . قال : « وكيف لا يَعْجَل علىّ ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين » يعنى خطبة الجمعة ، وغيرها مما يعرض من الأمور (٤) .

وقال الكميت بن زيد - وكان خطيباً - إن للخطبة صَعْداء ، وهى على ذى اللُّب أرْمَى (٥) . ويعلق الجاحظ على هذا بقوله . ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ، ولا تخلص إلى خاصّته ، وإنما يجترئ على الخطبة الغِرْ الجاهل الماضى ، الذى لا يثنيه شىء ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره (٦) .

= الخاطب ، فلعل عمر كره أن يمدحه بما ليس فيه ، فيكون قد قال زورا . ورد على هذا بأنه يجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة ، فأما عمر وأشباهه من الأئمة الراشدين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح (١/ ١١٧) .

وتعليل ابن المقفع أصوب ، وأزيد عليه أن خطبة الزواج لا تثير عاطفة الخطيب عادة كما تثيرها المواقف الأخرى ، فيشعر بضيق المقام ، وندرة الأفكار .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٠٥ . (٣) المرجع السابق ١/ ١٤ .

(٤) المرجع السابق ١/ ١٣٥ .

(٥) الصعداء : بالفتح المشقة . أرمى : أربى وأزيد .

(٦) البيان والتبيين ١/ ١٣٤ .

وإن آثار الإعداد لواضحة فى كثير من خطب العصر ، كخطب الحجاج وزياد وعبد الملك وأبى حمزة الخارجى ، لأن هذه الخطب موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، جيدة الأسلوب ، متوازنة الجمل ، معتمدة على أنواع من الخيال ، بهاسجع مقصود لكنه غير مستكره ولا متكلف ، وبعضها يشتمل على مقدمة تمهد للموضوع، ينتقل منها الخطيب إلى الموضوع نفسه ، ولقد يمزج بعرض الموضوع تدليله على رأيه ، وتفنيده لدعوى خصمه ، ثم يختم الخطبة بعبارات يلخص بها موضوعه ، أو يستميل السامعين ويستثيرهم ، كما نجد فى خطبة الحجاج بالكوفة ، وخطبة أبى حمزة بالمدينة .

ولم يكن من المصادفة أن تجىء هذه المراحل ، بل هى ثمرة الإعـــداد والاستعداد .

— ٢ —

الافتتاح

أما افتتاحها فقد كان صورة من افتتاحها فى صدر الإســـلام ، فى الأعم الأكثر .

١ — فأكثرها مبدوء بحمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله(١) .

٢ — وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد ، لتنبىء عن غضب الخطيب ، وترهب السامعين بشديد عقابه ، أو تبدأ بالشتم والتوبيخ(٢) ، لأن المقام مقام تقريع وتأنيب

---

(١) من خطب الأمويين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤
ومن الشيعة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨
ومن الخوارج ١ ، ٢ ، ٣
ومن الزبيريين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
(٢) انظر فى خطب الأمويين ٥ ، ٨

٣ — وقد تبدأ بشعر خشن ينبىء عن صرامة وغلظة[١] .
٤ — وقد تبدأ بالموضوع مباشرة[٢] .

لكن السمة الغالبة كانت كما سبق الاستفتاح بالحمد والثناء وبالشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله ، حتى إنهم سموا الخطبة التى لا تبدأ بالحمد بَتْرَاء .

— ٣ —

الأجزاء

بعض الخطب مبنية كلها على عرض الموضوع .

وبعضها مقسمة إلى مقدمة وعرض وخاتمة .

١ — أما المقدمة فواضحة فى :

(ا) بعض خطب الأمويين ، كخطبة معاوية[٣] ، إذ مهد لتولية ابنه يزيد من بعده ، بأنه كبرت سنه ، وضعف جسمه ، وقرب أجله ، ثم انتقل إلى الموضوع ، فقال إنه يريد أن يعهد لابنه يزيد .

ومثل خطبة الضحاك بن قيس[٤] فى تأييد هذه البيعة ، إذ بين خير الوحدة والألفة وضرورة الوالى ، ثم انتقل إلى تأييد بيعة يزيد .

ومثل خطبة الحجاج[٥] إذ قدم بشعر يبعث الخوف منه .

وخطبة عبد الملك[٦] بعد قتل مصعب ، إذ قدم بيان نعمة الأمن والسلام ونقمة الحرب والفتنة .

(ب) بعض خطب الشيعة ، مثل خطبة الحسن بن على[٧] فى الرد على

---

(١) انظر من خطب الأمويين ١٠
(٢) انظر من خطب الشيعة ١ ، ٣
(٣) الخطبة ٢ — (٤) الخطبة ٣ — (٥) الخطبة ١٠
(٦) الخطبة ١٢ — (٧) الخطبة ٥

أصحابه الذين استنكروا صلحه مع معاوية ، إذ قدم للخطبة بأنهم شيعته وأهل مودته . ثم انتقل إلى تبرير الصلح .

ومثل خطبة الحسين [١] فى حضه على الثورة على بنى أمية ، إذ قدم بالحديث الشريف الذى يحض على تغيير الحاكم الجائر

(حـ) بعض خطب الخوارج ، مثل خطبة أبى حمزه[٢] فى الدفاع عن أنصاره الشباب ، فقد مهد للموضوع بعرض عام لسياسة النبى عليه الصلاة والسلام وسياسة خلفائه ، ثم انتقل إلى الحملة على معاوية ويزيد ، فلما فرغ دافع عن حزبه .

ومثل خطبة صالح بن مُسَرَّح[٣] فى حث أصحابه على الجهاد ، إذ قدم بعرض عام ، كما فعل أبو حمزة ، ثم جعل يحض على الجهاد .

(د) بعض خطب الزبيريين مثل خطبة عبد الرحمن بن الزبير[٤] بعد مقتل الحسين ، إذ مهّد بذم أهل العراق وأهل الكوفة بخاصة ، لأنهم خذلوا الحسين ، ثم انتقل إلى رثائه والإشادة به .

ومثل خطبته [٥] بعد قتل أخيه مصعب ، إذ قدم بمقدمة بيّن فيها أن الأمر كله لله و بيّن أن نصرة الباطل موقوتة ، ونصرة الحق آتية .

٢ — وأما الخاتمة فمحققة فى بعض الخطب .

(ا) فمن خطب الأمويين خطبة معاوية بالمدينة (٦) ، إذ ختمها بعبارة ملخصة للموضوع ، مخوفة من الفتنة .

ومثل خطبة زياد (٧) ، فقد ختمها بالتهديد المرعب « وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى » .

ومثل خطبة الحجاج (٨) بالكوفة ، فقد ختمها بتهديد جامع .

---

(١) الخطبة ٦ (٢) الخطبة ٢
(٣) الخطبة ٥ (٤) الخطبة ٢ (٥) الخطبة ٣
(٦) الخطبة ٩ (٧) الخطبة ٨ (٨) الخطبة ١٠

(ب) ومن خطب الخوارج خطبة أبى حمزة (١) إذ دعا فى نهايتها للقتلى من أصحابه، وخطبة صالح بن مسرح [٢] فقد دعا فى آخرها لنفسه ولسامعيه بالهدى .

(حـ) ومن خطب الشيعة خطبة الحسن بن على (٣) ، فقد ختمها بدعاء الله أن يرشده هو وشيعته إلى الحق والخير .

(ى) ومن خطب الزبيريين خطبة عبد الله بن الزبير (٤) فى رثاء الحسين إذ ختمها بموازنة بين سمو أخلاق الحسين وضعة أخلاق يزيد ، وبآية قرآنية مناسبة للموضوع . وخطبته بعد مقتل مصعب (٥) ، إذ ختمها بأنه ليس متهالكا على الدنيا فإن تقبل لا يأشر ، وإن تدبر لا يذل .

٣ — على أن الخاتمة قد تنحو منحى آخر .

(ا) فتارة تكون باستغفار الخطيب لنفسه وللسامعين (٦) .

(ب) وتارة تكون بالدعاء للسامعين (٧) أو لغيرهم (٨) . أو للخليفة (٩) .

(حـ) وحينا تختم الخطبة بآية من القرآن الكريم (١٠) .

(ى) وربما جاء الختام شعرا (١١) .

(هـ) وقد يكون بغير هذا كله (١٢)

— ٤ —

العنف والتهديد

تزخر الخطابة السياسية فى هذا العصر بشن الحملات على الخصوم ، والتهجم

---

(١) الخطبة ٢ (٢) الخطبة ٥ (٣) الخطبة ٤

(٤) الخطبة ٢ (٥) الخطبة ٣

(٦) أنظر من خطب الأمويين ١٤ ومن الشيعة ٥ ، ٦ ، ٨ ومن الزبيريين ٣ .

(٧) أنظر من الأمويين ٢ ، ومن الشيعة ٢ (٨) الخوارج ٢ والأمويون ٤

(٩) الأمويون ٣ (١٠) الشيعة ٥ ، ٦ ، والخوارج ٣ ، ٥ والزبيريون ٢

(١١) الأمويون ١٢ والشيعة ٢ .

(١٢) الأمويون ١ ، ٥ ، ٧ ، ١٣ والشيعة ٩ والخوارج ١ والزبيريون ١ ، ٥

عليهم ، وسبهم واتهامهم بالضلال والكفر والفجور ، وتوعدهم بعقاب الله ، وتهديدهم بالثورة أو بالانتقام المردى .

وقد كان الشائع أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموى ، إذ أنهم اعتمدوا على قوارص الكلم فى إرهاب الثائرين ، وزجر من تسول له نفسه أن يحدث فتنة ، أو يتمرد على الحكام

لكن الواقع أن فى خطب الأحزاب الأخرى سبا وتهديدا ، كما سترى :

١ — فمن ذلك فى خطب الأمويين قول معاوية بالمدينة عام الجماعة : « والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة[١] » ، وقول عتبة بن أبى سفيان بمصر : « ياحاملى الأم أنوف رُكِّبَتْ بين أعْيُن ، والله لأقَطِّعَنَّ بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت أدواءكم ، وإلا فإن السيف من ورائكم »[٢] .

قول خالد القسرى بمكة : « والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته فى الحرم »[٣] .

وقد بلغ زياد والحجاج أقصى حد فى الوعيد والشتم بخطبهما فى البصرة والكوفة[٤] ،

٢ — ومنه فى خطب الشيعة قول الحسن فى رده على معاوية بمسمع منه : « لعن الله أخملنا ذكرا ، وألأمنا حسبا ، وشرنا قديماً وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا »[٥] .

وقوله فى بنى أمية : « إن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله »[٦] .

---

(١) الخطبة ١
(٢) الخطبة ٥
(٣) الخطبة ١٥
(٤) الخطبة ٨ ، ١٠ ، ١١
(٥) الخطبة ٣
(٦) الخطبة ٦

٣ — ومنه فى خطب الخوارج قول أبى حمزة فى وصف سياسة معاوية ويزيد : « ثم ولى معاوية لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن لعينه[١] ، وجِلْف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب[٢] ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خَوَلا[٣] ، ومال الله دُوَلا[٤] ، وبَغَى دينه عِوَجا ودَغَلا[٥] ... ثم ولى بعده يزيد ، يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصُّيُود ، ويزيد القرود ، الفاسق فى بطنه ... نخالف القرآن ، وعمل بما يشتهيه »[٦] .

وقوله فى وصف الشيعة : وأما إخواننا من هذه الشيعة — وليسوا بإخواننا فى الدين — فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفِرْية على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ، ولا عقل بالغ فى الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ... قاتلهم الله أنى يؤفكون »[٧] .

وهو فى هذه الخطبة يهدد أهل المدينة بقوله : « والله لولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم » .

وقول صالح بن مُسَرِّح فى حض الخوارج على الثورة : « تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء[٨] » .

٤ — أما الزبيريون ، فمن سجعهم قول عبد الله بن الزبير « إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرار أهل العراق »[٩] .

وتعريض ابن الزبير بيزيد بن معاوية فى رثائه للحسين : « أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركضَ فى تَطْلاب الصيد »[١٠] .

---

(١) روى أن رسول الله رأى أبا سفيان على جمل ومعاوية يسوقه وعتبة يقوده فقال : اللهم العن الراكب والسائق والقائد .

(٢) الأحزاب التى هاجمت المدينة فى غزوة الخندق .

(٣) خولا : عبيدا (٤) دولا : دائرا بين أقاربه . (٥) دغلا : فسادا .

(٦) الخطبة ٢ . (٧) الخطبة ٢ (٨) الخطبة ٥

(٩) الخطبة ٢ (١٠) الخطبة ٢

وقول عبد الله بن مطيع والى ابن الزبير على الكوفة يصف الشيعة أنصار المختار بن عبيد بأنهم « عصبة خبث دينها ضالة مضلة »[١] .

وتهديده أهل الكوفة حينما ولى عليها من قبل ابن الزبير بقوله : « والله لأوقعن بالسقيم العاصى ، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب »[٢] .

— ٥ —

التخييل والتصوير

وهى تتميز بمشابهة الشعر فى إبراز الأفكار وتوضيحها وتجسيمها فى قوالب من التخييل ، ومن التضاد .

١ — كالتشبيه : فى قول أبى حمزة الشارى « وإذا مر أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه »[٣] .

وفى قول زياد : « نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، فوجدتهم كالأضاحى ، فى كل عيد يذبحون »[٤] .

وفى قول الحجاج : « والله لأحزمنكم حزم السَّلَمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل »[٥] .

وفى قول عبد الملك : « نحن بنو الحرب وهى أمنا »[٦] .

وقول عبد الملك أيضاً : « فأصمم تصميم الحسام المطرور[٧] ، وأصول صيال الحنق الموتور »[٨] .

وقول على بن أبى طالب : « أبيتم على إباء المخالفين الجفاة » . وقوله : « فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن »[٩] .

وقول عبد الله بن الزبير : « أسلمه الطَّغام ، الصُّمُّ الآذان ، إسلام النَّعم المخَطَّمة »[١٠] .

---

(١) الخطبة ٥ (٢) الخطبة ٦ . (٣) الخطبة ٢ من الخوارج
(٤) الخطبه ٧ من الأمويين : (٥) الخطبة ١٠ من الأمويين
(٦) الخطبة ١٢ من الأمويين (٧) المشحوذ
(٨) الخطبة ١٢ من الأمويين . (٩) الخطبة ٢ من الشيعة
(١٠) الخطبة ٣ من الزبيريين .

٢ — ومثل الاستعارة :

في قول الحسين : « إن نقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بُنْكر »[١] .

وفى قول أبى حمزة : « برَقت الكتيبة ، ورعدت بصواعق الموت »[٢] .

وفى قول الحجاج : « إنى لأرى رءوسا قد أينعت ، وحان قطافها ، وإنى لصاحبها »[٣] .

وقول عبد الملك : « وقد زبنتنا الحر وزبناها ، فعرفناها وألفناها »[٤] .

٣ — ومثل الكناية :

فى قول أبى حمزة : «شباب... ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا ... أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم»[٥] .

وفى قول الحسين : « ليكن كل رجل منكم حِلسًا من أحلاس بيته »[٦] .

وقول ابن الزبير : إنا والله لا نموت حَتْفَ آنافنا »[٧] .

وقول عبد الله بن مطيع واليه على الكوفة : « خذوا على أيدى سفهائكم[٨] » .

وقول معاوية : « إن لم يكن إلا مايستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبرَ أذنى ، وتحت قدمى[٩] » .

وقول عتبة بن أبى سفيان : «لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا»[١٠] .

وقول الحجاج : « إنى والله ما يقعقع لى بالشّنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين »[١١] .

---

(١) الخطبه ٦ من الشيعة .
(٢) الخطبة ٢ من الخوارج
(٣) الخطبة ١٠ من الامويين
(٤) الخطبة ١٢ من الأمويين
(٥) الخطبة ٢ من الخوارج .
(٦) الخطبة ٥ من الشيعة .
(٧) الخطبة ٣ من الزبيريين .
(٨) الخطبة ٤ من الزبيريين .
(٩) الخطبة ١ من الأمويين
(١٠) الخطبة ٤ من الامويين
(١١) الخطبة ١٠ من الأمويين

٤ – وقد يلجأ الخطيب إلى ضرب من التصوير المثير ، يريد به أن يصل إلى أعماق النفوس ، إذ يعرض صورتين مثيرتين ليست إحداها جزاء على الأخرى . أو يعقد صلة حتمية بين عملين ، أحدهما يرغب فيه بعض الناس ، والآخر يخشاه جميع الناس .

من الضرب الأول قول أبى حمزة : « فكم من عين فى منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق قد فُلق بعَمد الحديد [1] »

فهو يستثير السامعين ويستدر عطفهم وحسراتهم على هؤلاء العُبّاد الشجعان الذين كان جزاءَهم القتلُ وتمزيقُ الأشلاء .

ومن الضرب الثانى قول زياد : « فمن غرّق قوما غرقناه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه [2] »

فبعض الناس الذين يشكو منهم زياد يحبون أن يغرقوا غيرهم، ويحرقوا دورهم، ويسرقوهم أحياء وأمواتا ، ولكن الناس جميعا يخافون هذا العقاب الرادع الذى جعله زياد من جنس الجريمة ليكون ملائما لها .

٥ – وكذلك يجىء الطباق والمقابلة ، فيزداد المعنى وضوحا ، وتزداد الصورة جلاء ورسوخا .

مثل قول معاوية : « والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له » [3] .

وقول أخيه عتبة : « وَلِينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء الوزر » [4] .

---

(١) الخطبة ٢ من الخوارج .

(٢) الخطبة ٨ من الأمويين .

(٣) الخطبة ١ من الأمويين .

(٤) الخطبة ٤ .

وقوله : « ولست أبخل بالعقوبة ، إذا جدتم بالمعصية [١] » .

وقول زياد : « والله لآخذنّ الولىّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم .. . رب مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس » [٢] .

وقول الحجاج : « من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجلَه ، فعلىّ أن أعجّله . ومن استطال ماضى عمره ،قصرت عليه باقيه ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صَلْبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة » [٣] .

وقول أبى حمزة : « شباب مكتهلون فى شبابهم ، باعوا أنفسا تموت غدا ، بأنفس لا تموت أبدا ... استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة » [٤] .

وقول الحسن : « ألا إن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة » [٥] .

وقول الحسين : « لأن تَذِلّوا وتُعافوا ، أحبُّ إلىّ من أن تعِزوا وتُقتَلوا » [٦] .

وقول ابن الزبير بعد قتل الحسين: « رأى والله أنه هو وأصحابه قليل فى كثير .. ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينا ، وأخزى قاتل حسين » [٧] .

وقوله : « لم يُعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرّا،ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفردا ضعيفا ... فإن تقبل الدنيا على لم أخذها أخذ الأشِر البطِر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرِق المهين » [٨]

---

(١) الخطبة ٥

(٢) الخطبة ٨ من الأمويين .

(٣) الخطبة ١١ من الأمويين .

(٤) الخطبة ١ من الخوارج .

(٥) الخطبة ٤ من الشيعة

(٦) الخطبة ٥

(٧) الخطبة ٢ من الزبيريين

(٨) الخطبة ٣

— ٦ —

التعبير

وأما التعبير فيتسم بعدة مميزات :

١ — قوة العبارة وجزالتها ، لأنها تعبر عن مشاعر مهتاجة ، ونفوس ثائرة حانقة مثل قولى على بن أبى طالب : « أبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاه ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه [١] » .

وكقول زياد : «وايمُ الله ، إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صَرْعاى » [٢] .

وقول الحجاج : « إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مَكْسِراً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أو ضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال » [٣]

وقول عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير : « إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السلم أَمْنٌ ومَسَرَّة ، وقد زبنتنا الحرب وزبنّاها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها ، وهى أمُّنا » [٤] .

وقول أبى حمزة الشارى فى وصف أصحابه : « شباب والله مكتهلون فى شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، باعوا أنفسا تموت غدا ، بأنفس لا تموت أبدا »[٥] .

وقول عبد الله بن الزبير : « إنا والله لا نموت حَتْفَ آنافنا ، ولكن قَعْصًا بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط [٦] »

وقول سليمان بن صُرَد : « ألا فانهضوا ، فقد سخِط ربكم ، ولا ترجعوا إلى

---

(١) الخطبة ٢ من الشيعة
(٢) الخطبة ٨ من خطب الأمويين .
(٣) الخطبة ١٠ من خطب الأمويين .
(٤) الخطبة ١٢ من خطب الأمويين .
(٥) الخطبة ٢ من خطب الخوارج .
(٦) الخطبة ٣ من خطب الزبيريين .

الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضيا دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا » [1] .

٢ — قصر الجمل ، ليشتد وقعها ، ويتلاحق تأثيرها ، كما تجد في قول عبدالملك : « إن الحرب صعبة مرة . . . » .

وفي قول زياد : « قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغَطُّون على المختلس . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء . . . » .

وقول أبي حمزة الشاري : « حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت ، ورماحهم وقد أشرعت ، وسيوفهم وقد انتضيت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة » .

وقول الحسن لمعاوية : «أنا الحسن ، وأبي علي ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدي رسول الله ، وجدك عُتْبَة بن ربيعة . . . » [2]

٣ — العناية بالوَقْع والرنين ، سواء أجاء عن طريق سجع غير مستكره ، أم عن طريق الازدواج ، أم من تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة القدر والطول .

تجد هذا واضحا في قول الحجاج : « إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ، فمن سقمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة [3] » .

وفي قول الحسن : « الزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برٌ ، أو يستراح من فاجر [4] » .

وقول الحسين : « إن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء [5] » .

---

(١) الخطبة ٩ من خطب الشيعة .

(٢) الخطبة ٣ من الشيعة .

(٣) الخطبة ١١ من الأمويين .

(٤) الخطبة ٥ من الشيعة .

(٥) الخطبة ٦ من الشيعة .

وقول عبد ربه الصغير : « تلقوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا ، يهبها لـكم فى الآخرة [١] . »

وقول عبد الله بن الزبير بعد مقتل الحسين « لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء . ولا بالبـكاء من خشية الله الحدَاء ، ولا بالصيام شرب الحرام [٢] » .

٤ — يغلب على خطب العصر الأموى الإيجاز المعتدل ، ويقل فيها التوسط القريب من الطول ، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة .

وهى فى هذه الظاهرة امتداد للخطابة فى صدر الإسلام ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب خطبة من صلاة العصر إلى أن جنحت الشمس للمغيب ، ورويت له خطب قصار شتى .

وروى أن عمر خطب بعد أن بويع بالخلافة فقال بعد الحمد : « إنما مثل الأمة كمثل جمل أَنِف [٣] اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الـكعبة لأحملنكم على الطريق » .

وروى أن خطبته كانت : « أيها الناس ، إنه والله مافيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى ، حتى آخذ الحق منه » .

كذلك تقل الخطب الطوال فى العصر الأموى ، ولعل أطول الخطب السياسية التى وصلت إلينا خطبة أبى حمزة الشارى التى خطبها بالمدينة دفاعا عن الشباب من حزبه . وهى فى نحو ٩٣ سطرا .

وتقل أيضا الخطب الموجزة المتناهية فى القصر ، كخطبة الحسن فى رده على معاوية لما نال منه ومن أبيه ، فهى فى أربعة أسطر [٤] ، وخطبة المختار

---

(١) الخطبة ٤ من الخوارج .
(٢) الخطبة ٢ من الزبديين
(٣) منقاد يأنف من الزجر والضرب .
(٤) الخطبة ٣ من الشيعة

ابن أبى عبيد وهو يشيع ابن الأشتر لقتال ابن زياد ، فهى فى ثلاثة أسطر[١] ، وخطبة ابن الزبير بعد خطبته الأولى لما قتل أخوه مصعب ، فهى فى سطرين[٢] ، وخطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق ، فهى فى سطر واحد[٣] ، وخطبة عبد الملك لما علم بثورة ابن الأشعث[٤] ، فهى فى سطرين .

أما الكثرة الغالبة فهى من النوع الوسط بين الإيجاز والطول ، كما ترى فى النماذج .

— ٧ —

التأثر بالقرآن الكريم

(ا) الاقتباس

تتميز الخطابة فى هذا العصر بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، والمهارة فى وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة ، حتى ليحسب الذى لايحفظ القرآن أن الكلام كله للخطيب .

وإنما عمد الخطباء إلى الاقتباس ، لأنهم متذوقون لبلاغة القرآن ، فهم يجدون فى هذه الآيات تعبيرا صادقا عما يريدون أن يقولوا ، ثم لأنهم يعرفون استجابة سامعيهم للبلاغة ، فيضيفون إلى بلاغتهم هم وإلى تأثيرهم الخطابى أعظم ذخيرة من البلاغة ومن سلطان الدين .

يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجَمْع آى من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسَلَسِ الموقع .

---

(١) الكامل ٣/٢٦٩
(٢) البيان والتبيين ٢/٤٧
(٣) البيان والتبيين ٢/٤٧
(٤) الطبرى ٨/١٠

قال الهَيْثم بن عَدِىّ : قال عِمران بن حِطان : إن أول خطبة خطبتُها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعجب بها الناس ، وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن» [1]

على أن الاقتباس من القرآن الكريم كان الطابع الغلاب فى الخطب الدينية والوعظية ، ولهذا سموا خطبة الوعظ أو الدين إذ خلت من القرآن الكريم شَوْهاء .

أما الخطب السياسية فقد غلب فيها الاستشهاد بالشعر ، كما سنرى .

والأمثلة على الاقتباس كثيرة .

١ — فمن خطب الخوارج قول أبى حمزة فى تزكية القتلى من أصحابه .

«فطُوبَىَ لهم وحسنُ مآب [2] » . من قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم وحُسْنُ مآب [3] »

وقول حَيَّان بن ظَبْيان : « فمنا من قَضَى نَحْبه ، ومنا من ينتظر [4] » . من قوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا [5] » .

وقول صالح بن مُسَرِّح : « الذين يهدون بالحق وبه يَعْدِلون » [6] . من قوله تعالى : « وممن خلقنا أمة يَهْدون بالحق ، وبه يَعْدِلون » [7]

٢ — ومن خطب الشيعة قول على : «ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا [8]» وقول الحسين : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » [9] . وهذه بنصها من القرآن الكريم [10] .

(١) البيان والتبيين ١ / ١١٨
(٢) الخطبة ٢
(٣) سورة الرعد ٢٩
(٤) الخطبة ٣
(٥) سورة الأحزاب ٢٣
(٦) الخطبة ٥
(٧) سورة الأعراف ١٨١
(٨) الخطبة ١ من الشيعة وهنا اقتباس من الآية ٤٥ من سورة الأنعام
(٩) الخطبة ٦ من الشيعة وسورة الأنعام ٤٥ (فقطع دابر القوم الذين ظلموا)
(١٠) سورة الفتح ١٠

وقول المسيَّب الفَزَارى[١] : « أولم نُعَمِّرْكم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » . وهذه آية من القرآن الكريم[٢] .

وقول محمد بن الحنفية[٣] : « وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » وهى آية من القرآن الكريم[٤] .

وقول سليمان بن صُرَد[٥] : « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم »

وهذه الجملة قرآنية كلها[٦] كذلك قوله فى الخطبة نفسها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »[٧] .

٣ - ومن خطب الزبيريين قول عبد الله بن الزبير[٨] : « فسوف يَلْقَون غَيًّا . وهو قرآن كريم[٩] . وقوله بعد مقتل أخيه مصعب[١٠] : « له الخلق والأمر ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء » وهذا من القرآن الكريم[١١] .

٤ — ومن خطب الأمويين قول الحجاج[١٢] : « فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وهذا قرآن كريم[١٣]

وقوله فى خطبة أخرى : « بل أنتم يا أهل الشام كما قال سبحانه وتعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون[١٤] »

وقول الضحاك بن قيس الفهرى[١٥] : « كلَّ يوم هو فى شأن » . وقول

---

(١) الخطبة ٦ (٢) سورة فاطر ٣٧ (٣) الخطبة ١٠ من الشيعة
(٤) سورة الأحزاب ٣٧ (٥) الخطبة ٧ (٦) سورة البقرة ٥٤
(٧) سورة الأنفال ٦٠ (٨) الخطبة ٢ (٩) سورة مريم ٥٩
(١٠) الخطبة ٣ (١١) سورة الأعراف ٥٤ وآل عمران ٢٦
(١٢) الخطبة ١٠ (١٣) سورة النحل ١١٢
(١٤) شرح نهج البلاغة ١/١١٥ وسورة الصفات ١٧١
(١٥) الخطبة ٣ وسورة الرحمن ١٩

عتبة بن أبي سفيان والى مصر[1]: «خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفاراً ، أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها . من قوله تعالى . « مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »[2] .

خطبة كلها قرآنية :

وربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم ، كخطبة مصعب بن الزبير حينما بعثه عبد الله بن الزبير واليا على البصرة سنة ٦٧ هـ

حمد الله وأثنى عليه ثم قال .

« بسم الله الرحمن الرحيم . طسم تلك آياتُ الكتاب المبين . نَتْلُو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعونَ علاَ في الأرض ، وجعل أهلها شِيَعاً ، يستضعف طائفةً منهم ، يُذَبِّح أبناءهم ، ويَسْتَحْيِي نساءهم ، إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) .

ونُريد أن نَمُنَّ على الذين استضْعِفوا في الأرض ، ونَجعلَهم أَئِمَّة ونجعلَهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز)

ونمَكِّن لهم في الأرض ، ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يَحْذَرون (وأشار بيده نحو العراق) .

فهو في هذه الخطبة يعتمد على القرآن وحده [4] . ويجيد اختيار الآيات المعبرة عما في نفسه .

فقد شبه بني أمية بفرعون في الطغيان والاعتداء على حق الحياة ، وتكهن بأن الزبيريين الذين ينكل بهم بنو أمية هم الذين سينزعون الملك منهم ويرثونهم ، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم ، وبأن بني أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه

---

(١) عيون الأخبار ٢/٢٣٩ والعقد الفريد ٢/١٦٠ (٢) سورة الجمعة ٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٧/١٤٦ . (٤) سورة القصص ١ — ٥

(ب) استمداد المعانى

ولقد كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعانى ، يجرونها على ألسنتهم عامدين ؛ ليفخموا بها أقوالهم ، ويجتذبوا نفوس سامعيهم ، أو غير عامدين أن يقتبسوا هذه المعانى ، وإنما جرت على ألسنتهم ؛ لأنهم حفاظ قد فهموا ما حفظوا .

١ — من هذا فى خطب الشيعة قول الحسين فى رده على الذين استنكروا صلحه لمعاوية[١]: « إن الله لا معقِّب لحكمه ، ولا راد لقضائه » .

فنى هذه الجملة نلمح معنى قوله تعاله : « والله يحكم لا مُعَقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب »[٢] .وقوله تعالى : « حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا »[٣] .

وهو يقول فى الخطبة نفسها : « سألنا الله ألا يكلنا إلى أنفسنا » .

وهذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعفُ عنا ، واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»[٤]

٢ — ومنه فى خطب الخوارج قول أبى حمزة فى وصف أصحابه[٥]: «باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا » .

وهذا يذكرنا بقوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »[٦]، وبقوله : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء ، عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله »[٧] .

---

(١) الخطبة ٥
(٢) سورة الرعد ٣١
(٣) سورة الأنفال ٤٢
(٤) سورة البقرة ٢٨٦
(٥) الخطبة ٢
(٦) سورة البقرة ٢٠٧
(٧) سورة آل عمران ١٦٩ .

وقوله فى الخطبة نفسها . « كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه » .

وهنا نلمح قوله تعالى : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سُجَّداً وَبُكِيًّا »[١] وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »[٢].

وقول صالح بن مُسَرِّح[٣] : « وولى من بعده عثمان ، فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين » .

وهذا قريب من قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »[٤] ، وقوله تعالى : «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير »[٥] .

٣ — ومن هذا فى خطب الزبيريين قول عبد الله بن الزبير فى رثاء الحسين[٦] « أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا بالنهار صيامه » .

وهذا قريب من قوله تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا »[٧] .

وقوله فى رثاء أخيه مصعب[٨] : « فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه » .

فهو شبيه بقوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كُذِّبَتْ رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور »[٩] .

وهنا ظاهرتان تستر عيان الأنظار :

الظاهرة الأولى أنه يكثر الاقتباس فى خطب الخوارج والشيعة والزبيريين ، ويقل فى خطب الأمويين ، ما عدا الحجاج لأنه كان يحفظ القرآن ويعلمه .

فهل كان السبب فى ذلك أن الأمويين خلفاء وولاة وقوادا أقل حفظا للقرآن كله أو بعضه من الشيعة والخوارج والزبيريين ؟

---

(١) سورة مريم ٥٨ — (٢) سورة الزمر ٢٣ — (٣) الخطبة ٤
(٤) سورة براءة ١ — (٥) سورة التحريم ٤ — (٦) الخطبة ٢
(٧) سورة المزمل ١ — (٨) الخطبة ٣ — (٩) سورة فاطر ٤

أو كان سبب ذلك أن بنى أمية لم يقيموا ملكهم على أساس دينى يعتمدون عليه فى استحقاق الخلافة ، على حين أن الأحزاب الأخرى أقامت دعواها على أسس دينية ؟ .

وأما الظاهرة الثانية فهى أن الاقتباس من القرآن الكريم كان فى العصر الأموى أكثر من صدر الإسلام . فلماذا ؟

لعل من أسباب ذلك أن القرآن الكريم لم يكن فى صدر الإسلام يحفظ كما حفظ فى العصر الأموى ، لأن المعروف أن الرجل كان فى صدر الإسلام يحفظ الآيات ليتلوها فى الصلاة ، وقلّ فى ذلك العصر من حفظ سورة أو عدة سور طوال ، يدل على هذا قول أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا أما فى العهد الأموى ، فقد انتشر القرآن ، وكثر حفاظه ، إذ كان عثمان قد كتب المصاحف ، ووزعها فى الأمصار ، وجاء بنو أمية فنشروا منها نسخا كثيرة ، فسهل على المسلمين أن يقرءوا ، وأن يحفظوا .

ثم إن الجهاد شغل المسلمين فى صدر الإسلام ، فلما كان العهد الأموى هدأت الفتوح ، وفرغ كثير من المسلمين لتلقى العلم ، فكان ابن عباس بمكة ، وزيد ابن ثابت بالمدينة ، وغيرهما فى الأمصار ، يعلمون الناس ، ويفسرون لهم القرآن .

وقد كان للوعاظ الذين رتبهم معاوية ومن بعده — ليعظوا الناس فى المساجد ، ويقصوا عليهم — أثر آخر فى حفظ القرآن والحديث الشريف

وشىء آخر ، أن المسلمين فى صدر الإسلام لم تكن الفرص متاحة لهم ليتشربوا معانى القرآن ، ويمهروا فى الاقتباس منه ، لأن العهد قصير من ناحية ، ولأن الدفاع عن النفس والعقيدة شغلهم من ناحية ثانية ، ولأن تشرب القرآن يحتاج إلى وقت من ناحية ثالثة .

— ٨ —

الاستشهاد بالشعر

نلاحظ أن الخطباء أكثروا من الاستشهاد بالشعر ، أو اقتبسوا من معانيه وعباراته ، إذ كان الشعر من ثقافتهم الأصيلة ، وكان تأثيره فى نفوس الناس بعيد المدى ، ثم إن الشعر والخطابة معاً يتشابهان فى الاستمالة ، وتأييد الدعاوى .

نجد هذا فى خطب الأحزاب كلها .

نجده فى خطبة على بن أبى طالب(١) ، وفى خطبة الحجاج بالكوفة إذ استشهد بشعر رُوَيْشِد العنبرى وسُحَيْم الرياحى(٢) ، وفى خطبة عبدالملك بن مروان إذ استشهد فى خطبته بعد قتل مصعب بشعر قيس بن رفاعة(٣) ، كذلك استشهد عبدالله بن الزبير فى خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين(٤) .

أبى لابن سَلْمى أنه غيرخالد مُلاقِ المنايا أىّ صرف تيمّما
فلستُ بمبتاع الحياة بسُبّة ولا مُرْتَقِ من خشية الموت سُلّما

ثم استلم الحجر ، فتكاثروا عليه ، فحمل عليهم وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

فأصابه حجر ، فصك جبينه ، فأدماه فقال :

ولسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومنا ولكن على أقدامنا تقْطُر الدما(٥)

ولم يقف استشهادهم بالشعر عند الخطابة ، بل تعداها إلى المحادثة .

---

(١) من خطب الشيعة ١
(٢) تهذيب الكامل ١/٧٠ (٣) الأمالى ١/١٣
(٤) تاريخ الطبرى ٧/٢٠٤ ومروج الذهب ٢/١٢٤
(٥) مروج الذهب ٢/١٢٤

ففى وصية يزيد بن المهلب لابنه استشهاد بشعر أبى دُواد الإيادى (١)

واستنشد عبد الملك أبا العباس الأعمى مديحه فى مصعب ، فاستعفاه ، وقال إنه رثاه لأنه كان صديقه ، ولأن هواه أموى. فقال عبدالملك : أنشدنى ماقلت فى الرثاء. فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقد ما ت كريما ورام أمراً جسيما

فقال عبد الملك : أجل ، لقد مات كريما . ثم تمثل بقول الشاعر :

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم

ولما جاء عبيد الله بن زياد برأس مصعب إلى عبدالملك ، تمثل ابن زياد بهذا البيت :

نعاطى الملوكَ الحقَّ ماقسَطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم(٢)

— ٩ —

القيـــاس

فى بعض الخطب منطق وقياس معتمد على الفطرة لا على الدرس والتعلم ؛ لأن خطباء العصر لم يكونوا قد اتصلوا بعلوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم ، حتى تبدو فى خطبهم مظاهر المنطق المدروس .

جاء فى خطبة للحسين بن على فى أصحابه وفى جند عبيد الله بن زياد الذين ذهبوا إليه ليقبضوا عليه(٣) ، ما يؤدى إلى هذا القياس : كل من رأى سلطانا جائرا مخالفاً لأحكام الله وسنة رسوله ، فلم يقاومه بفعل أو قول ، فقد استوجب عقاب الله .

---

(١) بلوغ الارب ٣/١٧٣ (٢) مروج الذهب ٢/١٢٠
(٣) الخطبة رقم ٦ من الشيعة

وبنو أمية جائرون عصاة مارقون من الدين ، فالثورة عليهم واجبة ، وأنا أول ثائر .

وجاء فى خطبة زياد لما شرع يميل إلى معاوية [١] أنه نظر فى أمور الناس بعد مقتل عثمان فوجدهم كالأضاحى ، يذبحون فى كل عيد ، ووجد أن يوم الجمل وصفين قد فنى فيهما خلق كثير جدا ، وأن المتحاربين قد زعم كل منهم أنه صاحب حق وتابع إمام ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة ، لكن الأمر ليس كذلك ، لأن الأمر مشكل . ثم انتهى من ذلك إلى أنه نظر فى الأمر ، فوجد السلامة فى البعد عن النزاع ، ووعد الناس أن يعمل ما يحمدون عاقبته .

والقياس بَيِّنٌ فى هذا ، كأنه قال : المتحاربون يوم الجمل وصفين زعموا أنهم على حق ، على حين أن الأمر مشكل ، والذين يواصلون الحرب بعد ذلك شأنهم كشأن هؤلاء ، فالسلامة إذاً فى الكف عن الحرب والفتن .

وخطب الحجاج بعد أن قتل عبدالله بن الزبير ، وبعد أن رمى الكعبة سنة ٧٣هـ، فجارى مشاعر الناس أول الأمر ، وحاول أن يستميلهم إلى الإصغاء إليه ، فأثنى على ابن الزبير ، ووصفه بأن من أحبار المسلمين ، ثم عقب على هذا بأنه طمع فى الخلافة ، وحارب فى سبيلها ، وتمرد على ولى الأمر ، فلم يعد من أحبار الأمة .

ثم برر الهجوم على مكة والبيت الحرام وقتل ابن الزبير بقوله إن ابن الزبير الثائر المتمرد احتمى بالحرم ، لكن احتماءه بالحرم لم يحل بين الدولة وعقابه ، فقد كان آدم فى الجنة ، ثم عصى ربه الذى خلقه وكرمه ، وأباح له جنته ، فأخرجه منها ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . قال الحجاج :

« ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شىء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .

والقياس واضح هنا بين حال ابن الزبير وحال آدم فى البدء والنهاية .

---

(١) رقم ٧ من الأمويين .

الفصل السادس

بواعث ازدهارها

جارت الخطابة الشعر فى العصر الأموى ، وعلا شأنها ، إذ تناولت شئون الدولة العامة ، ومثلت السياسة أصدق تمثيل ، وكانت السلاح القولى الذى يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة فى الدعاية لأنفسهم ، واستمالة القلوب إليهم ، وتهديد الخارجين عليهم ، والحملة على خصومهم ومناوئيهم .

وقد تظاهرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات ، غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان ، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة فى أكثر الأحيان .

وكان طبيعياً أن تنهض الخطابة فى هذا العصر ، لعدة أسباب ، أهمها :

— ١ —

الأحزاب السياسية

تعددت الأحزاب السياسية ، وقامت دعاية كل منها على الخطابة ، إذ كان لكل حزب خطباء ، هم ألسنته الناطقة باسمه ، كما تبين من النماذج .

— ٢ —

الحرية

كانت حرية الرأى والقول مكفولة ، فاستطاع الخطيب أن يجهر برأيه فى الناس ، ولم يكن بدٌّ فى ذلك العصر من كثرة الخطب ، لتَلاحُقِ الأحداث

وكثرتها من ناحية ، ولأن الخطابة وسيلة التأثير فى الجماهير من ناحية ثانية ، إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذعة فى عصرنا الحاضر .

وقد سلمت للناس حريتهم القولية لعدة أسباب .

السبب الأول أن معاوية مؤسس الدولة أعلن أنه يسوس الناس بالحلم وسعة الصدر والتجاوز عن المساءة القولية ، فهو القائل : «إن لم يكن إلا ما يشتفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْر أذنى ، وتحت قدمى[1] » :

ولقد أسلفت فى الحديث عن الشعر أمثلة من حلمه على معارضيه والمتهجمين عليه ، وأمثلة من حلم بعض خلفائه .

السبب الثانى أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة ، لأنها ليست فى قبضة الحكومة ، وكيف لا يشعر بالحرية كاملة من يثور على الحكومة ، ويشن عليها الغارات ؟

وإذا كانت الحكومة قد حاربت الأحزاب ، فإن هذه الحروب كانت تؤرث الخطابة وتفسح أمام الخطباء مجال المقال .

وكثيرا ما كانت الأحزاب فى مواطن شتى ، وكثيرا ما كانت بنجوة عن عيون الحكام وسلطانهم .

السبب الثالث أن كثيرا من المنتمين إلى الأحزاب لم يكن يرهب من إعلان رأيه ، وتجبيه الوالى أو الحاكم ، كما تجد فى خطبة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وفى خطبة عبد الله بن الزبير أمام معاوية حينما أراد البيعة لابنه يزيد .

ولم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المتحزبين ، فقد شهد أعرابى أمام معاوية بشىء كرهه ، فقال له معاوية كذبت ياأعرابى . فقال الأعرابى : الكاذب والله متزمّلٌ فى ثيابك .

وحصب بعضهم المغيرة بن شُعْبة ، وهو يصعد المنبر واليامن قبل معاوية ، وتَنَدَّر بعضهم بالحجاج لما صعد المنبر ، ومكث برهة لا يتكلم . ثم قال بعضهم له بعد سماع خطبته : إن صَدَقْناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ،

---

(١) راجع خطبته بالمدينة .

فغضبك أهون علينا من غضب الله . وقال بعضهم لعبد الملك وهو يخطب : اتق الله .

— ٣ —

الحروب والثورات

وكانت الحروب والثورات مذكية للخطابة ، فالقواد الفاتحون ذوو لسن يعتمدون عليه فى تحميس جنودهم ، والقواد المقاومون للثورات ، وقادة الثورات ، كل منهم يتخذ الخطابة من سلاحه ، لهذا نجد كثيرا من الخطب موصولة بأحداث سياسية ومواقع حربية .

— ٤ —

فصاحة العرب

وكان العرب فى ذلك العصر ذوى حظ عظيم من المقدرة البيانية ، والبديهة المسعفة ، والفصاحة المتوارثة ، فالمعروف أن العرب لم تكن سليقتهم فى ذلك العصر قد فسدت ، والمعروف أنهم كانوا حراصا على لغتهم وأدبهم حفظا ورواية ، وكان الخلفاء والأمراء ينشئون أبناءهم فى البادية لتكفل لهم التربية فيها منافع ، منها فصاحة القول . ولعل معاوية قد سبق إلى هذ إذ بعث ابنه يزيد إلى البادية عند أخواله بنى كلب . مع أمه ميسون[1] .

ولما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن قال : أضرّ بالوليد حبّنا ، فلم نرسله إلى البادية .

وإذا كان داء اللحن قد دبّ إلى بعض الخطباء ، فإنه كان ضئيلا وقليلا ، على أنه لم يفسد ملكة البيان وتدفق التعبير ، لأنه خطأ إعرابى نادر .

---

(١) العقد الفريد ١/٢٩٣

— ٥ —

تقدير الخطباء

وإذ كانت السياسة مشغلة العصر ، وكانت الخطابة من أعظم عدد السياسى ، ارتفع شأن الخطباء ، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة ، فلم تعد المناصب الكبار محبوسة على هؤلاء ، وبحسبنا أن نمثل بالحجاج وزياد . ويظهر أن نزعة العربى إلى الفخار بالسيف واللسان التى كانت فى الجاهلية ، مازالت عظيمة السلطان فى هذا العصر ، يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتنّ على زياد بقوله : لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش ، ومن عُبَيْد إلى أبى سفيان ، ومن القلم إلى المنابر .

— ٦ —

أسباب أخرى

ثم إن الخطابة ازدهرت لأسباب أخرى . منها الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ، وكثرة الوفود على الخلفاء والولاة ، وقيام بعض الوعاظ بالخطابة فى المساجد ووعظ الناس منذ نصبهم معاوية لهذا الغرض ، وإقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون ويتذوقون ، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية ، كما سيتبين فى عوامل ازدهار الكتابة . وحسبى أن أذكر هنا أن خطب النبى وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ كانت مدونة مجموعة فى كتب [١] ، وأن أبا مسمار العُكْلى [٢] مدح عامرا بروعة البيان فى خطبه ، وذكر أنه ليس ممن يسطون على خطب غيرهم المدونة فى الورق ، فيلفقون من كل خطبه فقرة ، فتجىء خطبهم كالثوب المرقع :

(١) البيان التبيين ١ / ٢٠١ . (٢) المرجع السابق ١ / ١٣٣

لله دَرُّ عامر إذا نطق ... فى حفل إملاك وفى تلك الحَلَقْ
ليس كقوم يُعْرَفون بالسَّرَق ... من خُطَب الناس ومما فى الورق
يُلَفِّقون القول تلفيق الخِرَق ... من كل نَضَّاح الذَّفارَى بالعَرَق
إذا رمته الخطباء بالحَدَق (١)

وفى هذه دليل على أن بعض الخطب كانت مدونة ، وكان بعض الخطباء يحفظونها أو ينقلون منها .

(١) الإملاك : التزويج وعقد النكاح . الحلق : جمع حلقة وهى الجماعة من الناس : السرق : السرقة . الذفارى : بدن الخطيب ، وإنما ذكر خطب الإملاك لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر .

الفصل السابع

الحوار

— ١ —

بين على ورجلين قبل التحكيم

أتى رجلان [زُرْعة بن البرج الطائى وحَرْقوص بن زهير السعدى] إلى على بن أبى طالب قبل أن يتم التحكيم ، فدخلا عليه ، وقالا له :

الرجلان : لا حكم إلا لله .

على : لا حكم إلا لله .

حرقوص : تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا .

على : قد أردتكم على ذلك فعصيتمونى، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون »[1] .

حرقوص : ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه

على : ما هو ذنب ، ولكنه عجزٌ من الرأى ؛ وضعف من الفعل ، وقدتقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه .

زرعـــة : أما والله ياعلى لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله عز وجل قاتلتك، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه

على : بؤساً لك ، ما أشقاك، كأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح .

---

[١] سورة النحل ٩١

برج : وددت أن قد كان ذلك .

على : لو كنت مُحِقًّا كان فى الموت على الحق تعزية عن الدنيا . إن الشيطان قد استهواكم ، فاتقوا الله عز وجل ، إنه لاخير لكم فى دنيا تقاتلون عليها.

فخرجا من عنده يُحَكِّمان(١)

— ٢ —

بين ابن عباس والخوارج

تحاور عبد الله بن عباس — نائباً عن على بن أبى طالب — مع الخوارج هذا الحوار (٢) :

ابن عباس : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان ، فَلْيَتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ له .

ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن لم يَشُبْ إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .

الخوارج : إنه قد حكَّم .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد ، فقال عز وجل « يحكم به ذوا عدل منكم »(٣) فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟

الخوارج : إنه قد حُكم عليه فلم يرضَ .

ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما .

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/ ٤٠ .
(٢) الكامل للمبرد ٣/ ١٦٥ .
(٣) سورة المائدة ٩٥ .

الخوارج بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون »[١] وقال عز وجل فيهم : « وتنذر به قوما لُدًّا »[٢]

— ٣ —

بين معاوية وابن الزبير

قال معاوية لابن الزبير : تنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني .

ابن الزبير : لم لا أكون أحق به منك يامعاوية ؟ وقد اتبع أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر .

معاوية : غلطت ياابن الزبير ، بعث الله ابن عمي نبيا ، فدعا أباك فأجابه ، فما أنت إلا تابع لي ، ضالا كنت أم مَهْدِيًّا .

— ٤ —

بين معاوية وابن الزبير

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال[٣] .

يا أمير المؤمنين ؛ لا تَدَعَنَّ مروان يَرْمِي جماهير قريش بمشاقصه[٤] ؛ ويَضْرِب صَفَاتَهم[٥] بمعوله . أما والله لولا مكانُك ، لكان أخفّ على رقابنا من فَرَاشة ، وأقل في أنفسنا من خَشاشة[٦] . وايمُ الله لئن مَلَكَ أعِنَّةَ خيل تنقاد له ، لتركبَنّ منه طَبَقا[٧] تخافه .

---

(١) سورة الزخرف ٥٨ . (٢) سورة مريم ٩٧ .

(٣) العقد الفريد ٢/١١٥ .

(٤) المشاقص : جمع مشقص على وزن منبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه نصل طويل يرمى به الوحش .

(٥) الصفاة : الحجر الصلد والمراد أنه يضرب قوامهم .

(٦) الخشاشة : الحشرة والعصفور ونحوها . (٧) الطبق : الحال.

قال معاوية :

إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طمع فيه مَنْ هو دونه ، وإن يتركْه يتركه لمن فوقه . وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ، ولا يذكُركم عند مُلِمّة ، يسومكم خَسْفاً[١] ، ويسومكم عَسْفاً[٢] .

قال ابن الزبير :

إذاً والله يُطْلَقُ عِقال الحرب بكتائب تَمُور[٣] كرَجْل[٤] الجراد ، حافَاتُها الأَسَلُ ، لها دَوِيٌّ كدوى الريح ، تتبع غِطْريفاً[٥] من قريش ، لم تكن أمة راعية ثَلَّة[٦] .

فقال معاوية :

أنا ابن هند ، أطلقتُ عِقال الحرب ، فأكلتُ ذِرْوة[٧] السَّنام ، وشربتُ عُنْفُوان المَكْرَع[٨] ، وليس للآكل بعدى إلا الفِلْذة[٩] ، ولا للشارب إلا الرَّنْق[١٠] .

— ٥ —

بين معاوية والأحنف

تكلم الناس عند معاوية فى يزيد ابنه ، حينما أخذ له البيعة ، وسكت الأحنف ابن قيس .

فقال له معاوية : مالك لا تقول ياأبا بحر ؟ .

قال : أخافك إن صَدَقْتُ ، وأخاف الله إن كذبت .

---

(١) يسومكم : يذلكم . (٢) يسومكم عسفا : يظلمكم . (٣) تمور : تضطرب .
(٤) رجل الجراد : جماعته . (٥) الغطريف : السيد العظيم .
(٦) الثلة : جماعة الغنم . (٧) ذروته : أعلاه ، المراد استمتع بأحسن شىء .
(٨) عنفوان المكرع : أول ماء المورد . (٩) الفلذة : القطعة من اللحم والكبد .
(١٠) الرنق : الكدر .

— ٦ —

بين معاوية وعقيل

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : إن عليا قطعك ووصلتك ، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعل .

وصعد المنبر وقال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا ، فالعنوه ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت . قال : والله ما زدت حرفا ، ولا نقصت آخر ، والكلام على نية المتكلم .

— ٧ —

بين معاوية وابن الطفيل

قال معاوية لابن الطُّفَيْل : أنت من قَتَلة عثمان ؟

ابن الطفيل . لا ، ولكني ممن حضره ، ولم ينصره .

معاوية : فما منعك أن تنصره ؟

ابن الطفيل : لم ينصره المهاجرون والأنصار ، فلماذا أنصره ؟

معاوية : لقد كان حقه واجبا ، وكان عليهم أن ينصروه .

ابن الطفيل : فما منعك من نصره ياأمير المؤمنين وأنت ابن عمه ؟

معاوية : أو ما طلبي بدمه نصرةٌ له ؟

فضحك ابن الطفيل ، وقال : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر (١) :

لاأعْرِفَنَّكَ بعد الموت تَنْدُبني … وفي حياتي ما زودتني زادا

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص . الأغاني ١٩/٨٩ .

— ٨ —

بين معاوية وابن عباس

اجتمع جماعة من قريش عند معاوية، وفيهم عبد الله بن عباس — وكان كثير التحقير لمعاوية — فقال معاوية [١]:

رحم الله أبا سفيان والعباس، كانا صَفِيَّين [٢] دون الناس، فحفظتُ الميتَ في الحي، والحيَّ في الميت.

استعملك علىٌّ يا ابن عباس على البصرة، واستعمل عبيدَ الله أخاك على اليمن، واستعمل أخاك على المدينة [٣]. فلما كان من الأمر ما كان، هنَأْتُكم [٤] على ما في أيديكم، ولم أكشفكم عما وعَتْ غرائركم [٥]، وقلت: آخذ اليوم وأعطى غدا مثله، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم. ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم، وقَيَّأْتكم ما أكلتم.

لايزال يبلغني عنكم ما تَبْرُك له الإبل، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم، خذلتم عثمان بالمدينة، وقتلتم أنصاره يوم الجمل؛ وحاربتموني بصفين. ولعمري لبنو تَيْم وعديّ [٦] أعظم ذنوبا منا إليكم، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنُّوا فيكم هذه السنة. فحتى متى أُغْضِي الجفون على القَذَى، وأسحب الذيول على الأذى، وأقول: لعل وعسى. ما تقول يا ابن عباس؟

فقال ابن عباس.

رحم الله أبانا وأباك، كانا صفيَّين متفاوضين [٧]، لم يكن لأبي من مال إلا

(١) العقد الفريد ٢/١١٠.
(٢) صفيين: صديقين
(٣) لما خرج علي للقاء طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس.
(٤) هنأتكم: المراد أقررتكم في رضا.
(٥) الغرائر: جمع غرارة وهي الجوالق.
(٦) بنو تيم: المرد أبو بكر لأنه من تيم بن مرة. بنو عدي: المراد عمر لأنه من عدي بن كعب.
(٧) متفاوضين: متساويين مشتركين.

مافَضَل لأبيكَ ، وكان أبوك كذلك لأبي . ولـكن من هنَّأ أباك بإخاء أبي أكثر ممن هنأ أبي بإخاء أبيك ، نَصَرَ أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام [1] .

وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملتَ أنتَ رجالا لهواك لالنفسك ، منهم ابن الحَضْرَمي على البصرة فقُتِل ، وبُسْر بن أرطأة على اليمن فخان ، وحبيبُ بن مُرَّة على الحجاز فرُدَّ ، والضحاك بن قيس الفِهْري على الكوفة فحُصِب .

ولو طلبتَ ماعندنا وقَيْنا أعراضنا ، وليس الذي يَبْلُغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مئة حسنة لمَحقها ، ولو وُضع أدنى عذرنا إليكم على مئة سيئة لحسَّنها .

وأما خَذْلُنا عثمان ، فلو لزمنا نصرهُ لنصرناه .

وأما قَتْلُنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه .

وأما حَرْبُنا إياك بصِفِّين ، فعلى تركك الحق ، وإدعائك الباطل .

وأما إغراؤك إيانا بتَيْم وعديّ ، فلو أردناها ماغلبونا عليها .

— ٩ —

بين معاوية وسودة

وفدت سَوْدة بنت عِمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية وهو خليفة ، ودار بينهما حوار (٢) منه :

معاوية : كيف أنت ياابنة الأشتر ؟

سودة : بخير ياأمير المؤمنين .

معاوية : أنت القائلة لأخيك يوم صِفِّين :

(١) يوم فتح مكة شفع العباس عند النبي في أبي سفيان .

(٢) بلاغات النساء ٣٥ والعقد الفريد ١٢٩/١

شَمِّرْ كفعل أبيك يا ابن عمارةٍ يوم الطِّعان ومُلْتَقَى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصِدْ لهند وابنها بَهوان
إن الإمام أخو النبي محمد عَلَم الهُدَى ومنارةِ الإيمان
فقُدِ الجيوش وسِرْ أمام لوائه قُدُماً بأبيض صارم وسِنَان[1]

سودة : إي والله ، ما مِثْلي من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب

. . . .

معاوية : قولي حاجتك .

سودة : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيدا ولأمورهم متقلداً ، والله سائلك عن أمرنا .. هذا ابنُ أرطأة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عَزَلْتَه عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك ،

معاوية : إياي تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قَتَب أشرس (٢) ، فأردك إليه . فأطرقت تفكر ... ثم أمر بأن يكتب لها بإنصافها وإنصاف قومها .

— ١٠ —

بين عبد الملك وخالد بن يزيد

قال عبد الله بن يزيد بن معاوية لأخيه خالد : يا أخي ، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك .

قال خالد : بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين .

قال عبد الله : إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني .

قال خالد : أنا أكفيك .

---

(١) قدما : شجاعا . أبيض صارم : سيف قاطع . سنان : رمح .
(٢) . القتب : ما يوضع على السنام ، والمراد هنا البعير . أشرس : غليظ خشن .

ثم دخل خالد على عبد الملك والوليدُ عنده فقال :

يا أمير المؤمنين ، مرت بالوليد خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد ، فعبث بها وأصغره . وكان عبد الملك مطرقا ، فرفع رأسه وقال : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون »[١] .

قال خالد . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا »[٢].

قال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحنا .

خالد : أفعلى الوليد تعوّل ؟

عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان .

خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد .

الوليد : اسكت ياخالد ، فوالله ما تُعَدُّ فى العِير ولا فى النَّفِير .

فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين ، ومن فى العير والنفير غيرى ؟ جَدِّى أبو سفيان بن حرب صاحب العير ، وجدى عُتْبة بن ربيعة صاحب النفير[٣] ، ولكن لو قلت : غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف ورحم الله عثمان[٤] لقلنا صدقت .

— ١١ —

بين ابن الزبير وأمه

لما حاصر الحجاج مكة ، وضيق الحصار ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة

(١) سورة النمل ٣٤ (٢) سورة الإسراء ١٦

(٣) كان أبو سفيان زعيم القافلة القادمة من الشام ، التى ترصدها المسلمون . وكان عتبة زعيم قريش التى وفدت من مكة لتنقذ القافلة .

(٤) نفى النبى صلى الله عليه وسلم الحكم بن أبى العاص وأهله من المدينة ، لأنه كان جاره فى مكة وكان يؤذيه ، فذهب إلى الطائف ، وشفع فيه عثمان عند النبى فلم يعده ، ثم شفع فيه عند أبى بكر فرفض ، ثم عند عمر فزجره . فلما كانت الخلافة لعثمان رده ورد أهله وأكرمه وأكرم أولاده .

انفض عن عبد الله بن الزبير كثير من أنصاره ، فدخل على أمه أسماء بنت أبي بكر — وقد بلغت مائة سنة — فدار بينهما هذا الحوار (١).

ابن الزبير . ياأمه ، خذلني الناس، حتى ولدَيَّ وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ماأردت من الدنيا، فما رأيك ؟

أسماء : أنت والله يابني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق فلما وهن أصحابي ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن .

فدنا ابن الزبير ، فقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا . ماركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، ومادعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حرمه ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يَجُرْ في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيتُ به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي . اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي ، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني .

أسماء : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسي أخرج حتى أنظر إلى مايصير أمرك .

ابن الزبير : جزاك يا أمه خيرا ، فلا تدعي الدعاء لي قبلُ وبعدُ .

---

(١) الطبري ٧/٢٠٢ وفي مروج الذهب ٢/١٢٤ رواية موجزة .

أسماء لا أدعه أبداً ،فمن قُتل على باطل فقد قُتِلْتَ على حق . اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، و بِرّه بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ ، فأثبنى فى عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين .

— ١٢ —

بين الحجاج وبشر

ولما قتل المهلَّبُ بن أبى صُفْرة ابْنَ عبد ربه بن الصَّغْتر بكرمان (زعيم فرقة من الأزارقة انشقت على قطرى) . طلب رجلا له بيان وعقل ومعرفة،ليوجه إلى الحجاج برءوس القتلى ، فدلوه على بشر بن مالك الجرَشى . فلما دخل بشر على الحجاج دار بينهما هذا الحوار (١) .

الحجاج : ما اسمك ؟

بشر : بشر بن مالك الجرشى .

الحجاج : كيف تركت المهلب ؟

بشر : تركته صالحا ، نال ما رَجَا ، وأمِن ما خاف .

الحجاج : فكيف فاتكم قطرِىٌّ ؟

بشر : كادنا من حيث كِدْناه .

الحجاج . أفلا طلبتموه ؟

بشر : كان الحسدُ أهمَّ علينا من القتل (٢)

الحجج : أصبتم فكيف كان بنو المهلب ؟

بشر : كانوا أعداء البَيات حتى يأمنوا ، وأصحاب السُّرُج حتى يَرِدُوا (٣) :

(١) مروج الذهب ١٤٨/٢ .

(٢) يريد أنهم هزموه وتركوه حيا حانقا حاسدا وهذا أقتل له .

(٣) لاينامون إلا إذا أمنوا ، ويركبون خيولهم حتى يردوا المعركة .

الحجاج : فأيهم أفضل ؟

بشر : ذاك إلى أبيهم ، أيهم شاء أن يستكفيه أمرا كفاء .

الحجاج : إنى أرى لك عقلا ، فقُلْ .

بشر : هم كالحلقة المستوية لا يُدْرَى أين طَرَفُها .

الحجاج : أين هم من أبيهم ؟

بشر : فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس .

الحجاج : كيف كان الجند ؟

بشر : أرضاهم الحق ، وأشبعهم الفضل ، وكانوا مع وال يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك (١) ، ويسوسهم سياسة الملوك ، فله منهم بر الأولاد ، ولهم منه شفقة الوالد .

الحجاج : هل كنت هيأت ما أرى ؟

بشر : لا يعلم الغيب إلا الله .

فالتفت الحجاج إلى عَنْبسة ، فقال : هـذا الكلام المخلوق ، لا الكلام المصنوع (٢) .

— ١٣ —

بين الحجاج والغضبان

حبس الحجاج الغضبان بن القَبَعْثَرى ، لأنه كان يظاهر ابن الأشعث ، ثم بنى خضراء واسط ، وجلس فى صحنها يوما ، واستدعى الغضبان ليحاوره ، فجاء يرسف فى قيوده ، ودار بينهما هذا الحوار (٣) :

الحجاج : أراك ياغضبان سمينا .

(١) الفتى الشجاع السلاب ، وكان هذا معنى الكلمة ، ثم تطور .
(٢) أى هذا كلام الفطرة والطبع لا كلام الصنعة .
(٣) مروج الذهب ٢/١٤٦

الغضبان : أيها الأمير ، القيد والرَّتْعة[1] ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن .

الحجاج : كيف ترى قُبتى هذه ؟

الغضبان : أرى قبة ما بنى لأحد مثلها ، إلا أن بها عيباً ، أمَّنَنى الأمير أخبرته به .

الحجاج : قل ، آمناك .

الغضبان : بَنَيْتَ فى غير بلدك ، لغير ولدك ، لا تتمتع به ، ولا تنعم ، فليس لما لا يُتَمَتَّعُ به من طيب ولا لذة .

الحجاج : ردوه ، فإنه صاحب الكلمة الخبيثة (٢) .

الغضبان : أصلح الله الأمير ، إن الحديد قد أكل لحمى ، وبرَى عظمى .

الحجاج : احملوه .

فلما استقل به الرجال قال : الحمد لله الذى سَخَّرَ لنا هذا وما كنا له مُقْرنين[3] .

قال الحجاج : أنزلوه .

فلما استوى على الأرض قال : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين[4] .

قال الحجاج : جروه .

فلما جروه قال : باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم[5] .

قال الحجاج : أطلقوه .

— ١٤ —

بين الحجاج وخارجية

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا :

---

(١) الرتعة . السعة والخصب .

(٢) كان الغضبان قد قال لابن الأشعث : تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك ، وخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه .

(٣) سورة الزخرف ١٣ .

(٤) سورة المؤمنون ٢٩ .

(٥) سورة هود ٤١ .

عاجلها بالقتل . قالت : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك . قال لها : ومن صاحبي ؟ قالت : فرعون ، استشارهم فى موسى ، فقالو أَرْجِهْ وأَخاه .

— ١٥ —

بين الخوارج وجند المهلب

بعد أن اقتتل الأزارقة والمهلب أشد القتال ثمانية أشهر ، علم الخوارج أن مصعب بن الزبير قتِل قبل أن يعلم جيش المهلب ، فدار بينهم هذا الحوار (١) :

الخوارج : ألا تخبروننا ماقولكم فى مصعب ؟

جند المهلب : إمام هُدىً .

الخوارج : فهو وليكم فى الدنيا والآخرة .

جند المهلب ، نعم

الخوارج : وأنتم أولياؤه أحياء وأمواتا .

جند المهلب : نعم نحن أولياؤه أحياء وأمواتا .

الخوارج : فما قولكم فى عبد الملك بن مروان ؟

الخوارج : ذلك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء ، هو عندنا أحل دماً منكم .

الخوارج : فأنتم منه براء فى الدنيا والآخرة .

جند المهلب : نعم كبراءتنا منكم .

الخوارج : وأنتم له أعداء أحياء وأمواتاً .

جند المهلب : نعم نحن له أعداء كعداوتنا لكم .

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٩١ كان المهلب حينئذ تابعا لمصعب .

الخوارج : فإن إمامكم مصعباً قد قتله عبد الملك ، ونراكم ستجعلون غدا عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تتبرءون منه وتلعنون أباه .

جند المهلب : كذبتم يا أعداء الله .

فلما كان الغد تبين لجند المهلب أن مصعباً قتل ، فبايعوا المهلب لعبد الملك بن مروان ، فأتتهم الخوارج .

الخوارج : ما تقولون فى مصعب

جند المهلب : يا أعداء الله لا نخبركم ما قولنا فيه .

وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم

الخوارج : فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم فى الدنيا والآخرة ، وأنكم أولياؤه أحياء وأمواتاً ، فأخبرونا ما قولكم فى عبد الملك ؟

جند المهلب : ذاك إمامنا وخليفتنا .

ولم يجدوا إذ بايعوه بداً من أن يقولوا هذا القول .

الخوارج : يا أعداء الله ، أنتم أمس تتبرءون منه فى الدنيا والآخرة ، وتزعمون أنكم له أعداء أحياء وأمواتا ، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم ، وقد قتل إمامكم الذى كنتم تولونه ، فأيهما المحق ؟ وأيهما المهتدى ؟ وأيهما الضال ؟

جند المهلب : يا أعداء الله ، رضينا بذاك إذ كان ولى أمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينا بذاك .

الخوارج : لا والله ، ولكنكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين ، وعبيد الدنيا .

— ١٦ —

بين زيد بن على وهشام بن عبدالملك

كان سبب خروج زيد بن على زين العابدين عَلَى هشام بن عبد الملك أنه دخل على هشام ، فلم يجد موضعا يجلس فيه . فجلس حيث انتهى به المجلس ، ودار هذا الحوار :

زيد : ياأمير المؤمنين ، ليس أحد يَكْبُر عن تقوى الله ، ولا يَصْغُر دون تقوى الله .

هشام : اسكت لا أمّ لك . أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمة.

زيد : ياأمير المؤمنين أن لك جوابا إن أحببتَ أجبتك به ، وإن أحببتَ أسكت عنه .

هشام : بل أَجِبْ .

زيد : إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات .

وقد كانت أم إسماعيل أَمَة لأم إسحاق ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صُلْبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم . أفتقول لى هذا وأنا ابن فاطمة وابن على . وقام وهو يقول :

شَرّده الخوف وأزرى به ... كذلك من يكره حَرّ الجلاد
مُنْخَرِقُ الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مرو حداد
قد كان فى الموت له راحة ... والموت حتم فى رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة ... يترك آثار العدا كالرماد

ومضى إلى الكوفة ، وخرج عنها ؛ ومعه القراء والأشراف ، وقاتل أشد قتال ، وانتهى الأمر بقتله (١) .

---

(١) مروج الذهب ٣/١٨٢ .

خواص الحوار

— ١ —

المحاورات نثر شفهى ذاع فى العصر الأموى ، نتيجة لكثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية واختلاف الآراء ، وتأثرا بالحرية القولية التى كان يشعر بها المختلفون فى الرأى أكثر الأحيان ، وثمرة من ثمرات المقدرة البيانية ، والبديهة المسعفة .

وهو يشبه المفاخرات والمنافرات التى كانت فى الجاهلية ، من حيث قيامها كلها على الحرية والجرأة وبراعة البيان .

— ٢ —

وهذا النوع من النثر يعتمد على مواتاة البديهة وإسعاف الخاطر أكثر من اعتماده على الرَّوِيَّة والتأنُّق ، لأنه فى أكثر حالاته وليد الساعة ، وعفو البديهة ، فلا فرصة فيه للتعبير والتجويد والتنميق .

— ٣ —

أرجح أن بعض الحوار منحول موضوع ، نحَله المشايعون لحزب على حزب ، تأييدا لمذهبهم ، ودعاية إليه فى مهارة ولباقة ، لأنهم كسوه لباس الواقع ، وساقوه مساق التاريخ ، ليكون تأثيره فى النفوس أعظم ، وتأييده للمذهب أقوى وأوضح .

١ — نجد هذا واضحا فى حوار دار بين معاوية وعبد الله بن عباس ، [1] إذ تحدث معاوية عن ماض ربط أباه بالعباس ، وتحدث عن مصانعته لعبد الله وأخويه ، ثم لام عبد الله على نكران الجميل ، وأنكر عليه وعلى بنى هاشم رضاهم بخلافة أبى بكر وعمر .

ثم رد عليه عبدالله ، ففَنَّد دعاواه كلها تفنيداً فى تفصيل وترتيب .

والذى يبعث الشك فى صحة هذا الحوار أنه أشبه بالخطب فى طوله واسترسال قائله وسرد دعاويه ، وأن الرد مرتب ترتيب الكاتب لا ترتيب المحاور .

٢ — تذكر بعض كتب الأدب والتاريخ عددا من النساء وفدن على معاوية ، فحاورهن وحاورنه .

---

(١) رقم ٦ .

وأرجح أن هذا من اختلاق الشيعة ، لأن هؤلاء الوافدات كلهن يوصفن بحب علي ومناصرته ، ويصررن أمام معاوية على مذهبهن ، بل إن بعضهن يجهرن بتفضيل علي على معاوية ، وهو يلقى إليهن سمعه ، ثم ينتهي الحوار بعفو معاوية عنهن ، وردهن إلى أوطانهن مكرمات .

وهناك أمر آخر يزيدني شكا في صحة هذا الحوار ، هو أن بعض النساء اللاتي وفدن على معاوية سألهن معاوية عما قلن في إثارة الناس عليه يوم صفين ، فاعتذرن بأنهن نسين ما قلنه ، وإذا برجل من الجالسين يعلن أنه مازال يحفظ قولهن ، فيطلب منه معاوية أن يذكره ، كأنما قد حفظه وأعده ، فلا تنكر المرأة شيئا مما نسب إليها ، فكيف يحفظ غيرها ما قالت وتنساه ؟

على أن الشك القوي في صدق ما رُوي من هذا الحوار لا يمنع من التمثيل له (١)

— ٤ —

وأبرز ما يميز المحاورات عدة خواص :

١ — اعتمادها على الإيجاز ، ولقد يجمع بعضُها إلى الإيجاز قوة العبارة والمهارة في التصوير ، كما ترى في أجوبة بشر للحجاج (٢) . حتى لقد ظن الحجاج أن بشرا قد أعدَّ أجوبته من قبل .

٢ — قلب حجة الخصم حجةً عليه ، كما ترى في محاورة معاوية وعبد الله ابن الزبير (٣) ، وفي حوار ابن عباس ومعاوية (٤) ، وفي محاورة عبد الملك لخالد ابن يزيد (٥) .

٣ — التعريض ، كما تجد في قول ابن الطفيل لمعاوية : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر :

لا أعرفنَّك بعد الموتَ تَندُبني   وفي حياتي مازَوَّدتني زادا (٦)

---

(١) رقم ٨   (٢) رقم ١١   (٣) رقم ٢   (٤) رقم ٦
(٥) رقم ٩   (٦) رقم ٥

وكما تجد فى قول معاوية لعبد الله بن الزبير بعد أن حذره ابن الزبير مروان بن الحكم وطمعه فى الخلافة :

إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طمع فيه من هو دونه[١] .

٤ — حسن التخلص ، كما تخلص الأحنف من معاوية بقوله : أخافك إن صدقت ، وأخاف الله إن كذبت[٢] ، وكما تخلصت المرأة الخارجية من الحجاج[٣] ، وكما تخلص عقيل من لعن أخيه على[٤] .

٥ — الردُّ بالمِثْل وبالتمثيل والاستدلال بالأولوية ، كما فى رد ابن الطفيل على معاوية ، إذ اعتذر عن تخليه عن نصرة عثمان بأن المهاجرين والأنصار لم ينصروه[٥] .

وكما فى محاورة خالد بن يزيد لعبد الملك[٦] ، ومحاورة معاوية وعبد الله ابن عباس (٧).

٦ — قلب الأوضاع قلبا فكاهيا ، كما ترى فى آخر حوار الغضبان مع الحجاج ، إذ أمر بحمله ، فلما حملوه قال : الحمد لله الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مُقْرِنين .

فقال الحجاج: أنزلوه . فلما أنزلوه قال: اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين

فقال الحجاج : جُرُّوه . فلما جروه قال : باسم الله مُجْرَاها ومُرساها إن ربى لغفور رحيم (٨) . وهذه كلها آيات قرآنية .

وقد تقلب الأوضاع قلبا مبنيا على التعريض لا على التصريح ، كما فى حوار عقيل ومعاوية (٩) إذ أراد معاوية من عقيل أن يلعن عليا ، فلعن عقيل معاوية بطريق خفى .

على أن الحوار الواحد قد يصطبغ بصبغة واحدة من هذه الخواص ، وقد يصطبغ باثنتين أو أكثر ، فحوار عقيل ومعاوية صالح لأن يكون من القلب ، ولأن يكون من حسن التخلص.

---

(١) رقم ٧ (٢) رقم ٣ (٣) رقم ١٣ (4) رقم ٤
(٥) رقم ٥ (٦) رقم ٩ (٧) رقم ٦ (٨) رقم ١٢ (٩) رقم ٤

الباب الرابع

الكتابة

الفصل الأول

رسائل أموية

– ١ –

من معاوية إلى علي

كتب معاوية إلى علي (١)

« أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تَبْلُغُ بنا وبك ما بَلَغَتْ، لم يَجْنِها بعضنا على بعض. وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا، فقد بقي لنا منها ما نرد به ما مضى، ونصلح به ما بقي.

وقد كنت سألتك الشام، على ألا تلزمني لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف.

وقد والله رَقَّت الأجناد، وذهبت الرجال. ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز، وَيُسْتَرَق به حر. والسلام ».

---

(١) مروج الذهب ٢/٦١

يحاول معاوية فى رسالته هذه أن يترضى عليا ، وأن يستميله ، فيأسف على ماحدث بينهما من حرب ، ويعلن أن الحرب أفنت الرجال ، وأضعفت الأحياء ، ويدعو إلى الصلح وتحكيم مابقى من عقل : ويكرر ماطلبه من قبل وهو أن يترك له علىّ الشام ، معتمدا على شيئين : أن كلا منهما حريص على سلامة نفسه وسلامة جنده ، وأنهما متكافئان فى الحسب فلا فضل لأحدهما على الآخر .

٢ — أسلوب الرسالة مرسل ، موجز ، لا تنميق فيه ولا خيال .

— ٢ —

من معاوية إلى زياد

كتب معاوية إلى زياد [١] يحبب إليه أن يناصره ، ويذكره بإنعامه عليه فى تعميم لاتخصيص ، وهو ينوى أن يلحق نسبه بأبى سفيان ، ويهدده بأنه لن يستطيع الإفلات من سلطانه ، ويأمره بأن يأخذ البيعة له ، ليحقن دمه ، وإلا انتقم منه شر انتقام .

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن عُبَيْد . أما بعد ، فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة . ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وإن الشجرة لتَضْرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها .

لا أم لك ، بل لا أباً لك . فقد هلكتَ وأهلكت ، وظننت أنك تخرج من قبضتى ، ولا ينالك سلطانى . هيهات ، ما كل ذى لب يصيب رأيه ، ولا كل ذى رأى ينصح فى مشورته ، أمس عبدٌ ، واليوم أمير . خِطّةٌ ما ارتقاها مثلك يا ابن سُمَيَّة [٢]

---

(١) كان زياد كاتب الحساب على البصرة لولاتها فى عهد عمر وعثمان ، وكاتب الخراج على البصرة لعبد الله بن عباس أيام على . وقد أمر على عبد الله أن يستشير زيادا ويسمع منه . فلما غاضب ابن عباس عليا وترك البصرة حل زياد محله فى ضبط أمورها . ولما قتل على انتقل زياد إلى فارس واعتصم بقلعة هناك والتف حوله الناس إلى أن استماله معاوية وألحقه بنسب أبى سفيان (الطبرى ٥/٢٢٤)

(٢) سمية : اسم امه .

وإذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمَك حقنتَ ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش (١) ، ونلتك بأهون سعى

وأقسم قسما مبروراً ألا أوتى بك إلا فى زمّارة(٢)، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجتَ منه» والسلام» (٣)

١ — الرسالة ملأى بالسبّ والتهديد والتعيير .

٢ — بها تشبيه ضمنى فى قوله : « إن الشجرة لتضرب بعرقها ... » وكناية فى قوله : « اختطفتك بأضعف ريش » .

٣ — أسلوبها مرسل ، جزل ، يمثل عاطفة الغضب ، والعزم على الانتقام .

— ٣ —

من زياد إلى معاوية

فرد زياد فقال : (٤) :

« أما بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك يامعاوية ، وفهمتُ مافيه ، فوجدتك كالغريق يغطّيه الموج فيَتَشَبَّثُ بالطُّحْلُب (٥) ، ويتعلق بأرجل الضفادع ، طمعاً فى الحياة . إنما يكفُرُ النِّعَمَ ويستدعى النقم من حادّ الله (٦) ورسوله ، وسعى فى الأرض فساداً .

فأما سبُّك لى فلولا حلمٌ ينهانى عنك ، وخوفى أن أُدْعَى سفيها ، لأثرْتُ لك مخازى لايغسلها الماء . وأما تعييرك لى بسميّة ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة » (٧).

---

(١) أخذتك بأيسر قوة (٢) زمارة : جمع يزمر بك للتشهير .
(٣) شرح نهج البلاغة ٤/٦٨ (٤) شرح نهج البلاغة ٤/٦٨
(٥) الطحلب : خضرة تعلوالماء الآسن (٦) حاد : عصى وعادى
(٧) سمية أم زياد . حمامة : جدة معاوية أم أبيه ، وقالوا إنها كانت بغيا فى الجاهلية .

وأما زعمك أنك تختطفني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سعي ، فهل رأيت بازياً[1] يُفزعه صفير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطيتك ،[2] واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجتهد إلا فيما يسوؤك ، وستعلم أينا الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه . والسلام » .

١ — هنا ألوان من التهديد يقابل بها زياد تهديد معاوية له ، وفي الرسالة ردٌّ على السباب بمثله .

٢ — في الرسالة خيال : تشبيه في قوله : « وجدتك كالغريق ... »

وتشبيه ضمني في قوله : « هل رأيت بازياً ... »

وكناية في قوله : « مخازي لا يغسلها الماء » .

٣ — وفيها اقتباس من القرآن الكريم : « من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً »[3] .

٤ - وهي كسابقتها في الترسل والجزالة وقوة العاطفة .

— ٤ —

من معاوية إلى زياد

رد معاوية على زياد بهذا الكتاب :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان ...

كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي . وشتان ما بيني وبينك ، أطلب بدم أبي العاص (٤) وأنت تقاتلني .

---

(١) البازي : الصقر (٢) امض لسبيلك

(٣) « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » سورة المجادلة ٢٢ « ويسعون في الأرض فسادا » سورة المائدة ٦٤ .

(٤) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية .

ولكن أدركك عِرقُ الرخاوة من قِبَل النساء، فكنت كتاركةٍ بيضها بالعراء ومُلحِفةً بيض أخرى جناحها .

وقد رأيت أن أعطف عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أصل رحمك ، وأبتغى الثواب فى أمرك .

فاعلم ياأبا المغيرة أنك لو خُضْتَ البحر فى طاعة القوم ، فتضربَ بالسيف حتى ينقطع مَتْنُهُ ، لما ازددت منهم إلا بعدا ، فإن بنى عبد شمس أبغض إلى بنى هشام من الشَّفْرَة (١) إلى الثور الصريع ، وقد أوثق للذبح .

فارجع — رحمك الله — إلى أصلك ، واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره ، فقد أصبحتَ ضال النسب . ولعمرى مافعل بك ذلك إلا اللَّجاج (٢) ، فدعه عنك ، فقد أصبحتَ على بيِّنة من أمرك ، ووضوح من حُجتك . فإن أحببتَ جانبى ووثقت بى ، فإمرةٌ بإمرة ، وإن كرهتَ جانبى ولم تثق بقولى ، ففعلٌ جميل . لا علىَّ ولا لى والسلام (٣) » .

١ — وجد معاوية من زياد ، إصرارا على مخالفته ، فتذرع بالمكر والدهاء ، وأرسل إليه هذا الكتاب الرقيق المستميل .

وقد استهلّ الكتاب بتلقيب زياد بابن أبى سفيان ، وكان قد سماه فى الكتاب السابق بابن عُبَيْد ، ثم استعطفه بهذه الأخوة ، ولامه لوما خفيفا على تخليه عن مشاركة أخيه فى المطالبة بدم قريبهما عثمان ، ثم نفره من بنى هاشم ، بأنه أخاه معاوية أولى بالنصرة ، وبأنهم لن يقربوه مهما يبذل فى مؤازرتهم من جهد وتأييد ، وعاد فاجتذبه إلى أن ينضم لأخيه ، ليكون أميرا فى مملكته . ثم طالبه بأهون ما يأمله منه وهو أن يقف على الحياد إن لم ينضم إلى أخيه .

٢ — الرسالة مرسلة ، موجزة ، قصيرة الفقرات ، قوية التأثير ، بارعة فى الاستمالة .

---

(١) الشفرة : السكين (٢) اللجاج : التمادى فى العناد (٣) شرح نهج البلاغة ٤/٦٩

وبها استشهاد بالشعر : « كتاركة بيضها بالعراء ، وملحفة بيض أخرى جناحها » .

من قول ابن هَرْمة[1] :

وإنى وتركى نَدَى الأكرمين   وقَدْحِى بكَفّى زِناداً شِحاحا[2]
كتاركة بيضها بالعـــراء   ومُلْبِسة بيض أخرى جناحا

وبها تمثيل : « إن بنى عبد شمس أبغض إلى بنى هاشم من الشفرة إلى الثور . . . »

وبها تشبيه : « لا تكن كالموصول يطير بريش غيره » .

— ٥ —

من معاوية إلى الحسن

رد معاوية على الحسن بقوله[3] :

« أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمتُ ما ذكرت فيه :

ولقد علمتُ بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشْمَتْ ولم آس[4] .

وإن علياً أباك لـكما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذى   إذا ما القلوب ملأن الصُّدورا
جديرٌ بطعــنة يوم اللِّقا   يُضَرَّب منها النساء النحورا
وما مُزْبِدٌ من خليج البحا   ر يعلو الإكامَ ويعلو الجسورا[5]
بأجودَ منه بما عنـــده   فيُعْطِى الألوفَ ويعطى البُدورا[6] »

الذى يسترعى نظرنا فى الرسالة قصرها ، والاستشهاد فيها بالشعر ، حتى صار أكثر من النثر .

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٩ . (٢) الزناد : جمع زند وهو العود الذى تقدح به النار. شحاح : جمع شحيح أى بخيل لا يخرج ناراً ، كنى بهذا عن استجدائه البخلاء .

(٣) شرح نهج البلاغة ٤/١١ كان الحسن قد أرسل إلى معاوية لما علم أنه دس عليه رجلين ليتجسسا عليه فأخذا وقتلا ، وتجد كتابه فى رسائل الشيعة . (٤) لم آس : لم أحزن .

(٥) مزبد : مائج يقذف بالزبد : الآكام : جمع أكمة وهى التل .

(٦) البدور : جمع بدرة كيس به ألف درهم أو سبعة آلاف أو عشرة آلاف .

— ٦ —

من عمر بن سعد إلى ابن زياد

أمر عبيد الله بن زياد عمرَ بن سعد بالمسير إلى الحسين بن على ، فكتب عمر إلى عبيد الله .

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد . فإنى حيث نزلتُ بالحسين بعثت إليه رسولى ، فسألتهُ عما أقْدَمَه ، وماذا يطلب ويسأل ، فقال : كتب إلىَّ أهل هذه البلاد ، وأتتنى رسلهم ، فسألونى القدوم ، ففعلتُ .

فأما إذْ كرهونى فبدا لهم غيرُ ما أتتنى به رسلهم فأنا منصرف عنهم .

فلما قرىء الكتاب على زياد قال :

الآن إذْ عَلِقَتْ مخالبنا به يرجو النجاة ولاتَ حينَ مناصِ[1]

— ٧ —

من ابن زياد إلى عمر بن سعد

كتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد ردا على كتابه .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ ، فاعرِضْ على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه . فإذا فعل ذلك رأيْنا رأيَنا ، والسلام »[2] .

---

(١) الطبرى ٦/٢٣٤ .

(٢) الطبرى ٦/٢٣٤ .

— ٨ —

من عبد الملك إلى أخيه بشر

كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر بن مروان[١] :

« أما بعد ، فإني قد كتبت إلى خالد بن عبد الله ، آمره بالنهوض إلى الخوارج . فسرِّحْ إليه خمسة آلاف رجل ، وابعث عليهم رجلا من قِبلك ترضاه . فإذا قضوا غزاتَهم تلك ، صَرَفْتَهم إلى الرَّى[٢] ، فقاتلوا عدوهم ، وكانوا فى مسالحهم[٣] ، وجَبَوْا فيئهم ، حتى تأتى أيام عَقِبهم[٤] ، فتعفيهم ، وتبعث آخرين مكانهم »

— ٩ —

من عبد الملك إلى محمد بن الحنفية

رد عبد الملك على محمد بن الحنفية بقوله[٥] :

« قد بلغنى كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التى معك . فلك عهد الله وميثاقه ألا تهاج فى سلطاننا غائبا ولا شاهدا ، ولا أحدٌ من أصحابك ما وفوا بَبَيْعتهم . فإن أحببتَ المقام بالحجاز فأقم . فلن ندع صلتك وبِرَّك . وإن أحببت المقام عندنا فاشْخَصْ إلينا ، فلن ندع مواساتك . ولعمرى لئن ألجأناك إلى الذهاب فى الأرض خائفا ، لقد ظلمناك وقطعنا رحمك . فاخرج إلى الحجاج فبايعْ ، فإنك أنت المحمود عندنا دينا ورأيا ، وخير من ابن الزبير ، وأرْضَى وأتْقَى » .

---

(١) الطبرى ٧/١٩٣ (٢) الرى : مدينة بفارس كانت عاصمة بلاد الجبل .
(٣) المسالح : جمع مسلحة وهى الثغر (٤) عقبهم : من يخلفهم .
(٥) العقد الفريد ٢/٢٦٢ كان محمد بن الحنفية قد كتب إلى عبد الملك يبايعه ويطلب ميثاقا ، وسيجىء كتابه فى رسائل الشيعة .

— ١٠ —

من الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قَطَرِىٍّ بن الفُجاءة . سلام عليك ، الموَحِّدُ الله ، والمصَلِّى عليه محمد عليه السلام . أما بعد ، فإنك كنت أعرابيا بدويا ، تستطعم الكِسْرة ، وتَخِفُّ إلى التمرة ، ثم خرجتَ تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فارجع عما أنت عليه مما زين لك ، وادعنى ، فقد آن لك(١) » .

— ١١ —

من عدى بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز

كتب عدى بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعد ، فإن الناس قد كثروا فى الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج » .

— ١٢ —

فكتب إليه عمر :

« فهمت كتابك . والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حَرَّاثَيْن ، نأكل من كسب أيدينا (٢) » .

الرسالتان موجزتان كأنهما برقيتان .

— ١٣ —

من مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله

من رسالة مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله ، حينما وجهه إلى محاربة الضحاك

(١) الكامل للمبرد ١/١٨٠ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٩٩ .

ابن قيس الشيبانى الخارجى ، وقد كتبها عبد الحميد بن يحيى على لسان الخليفة :

من ذلك أن تدارى أمورك بالقصد ، وتدارى جندك بالإحسان ، وتصون سِرَّك بالكتمان ، وتداوى حقدك بالإنصاف ، وتذلل نفسك بالعدل ، وتُحَصِّن عيوبك بتقويم أَوْدِك[1] ، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجْب المُرْدى .

وأَناتَك[2] فوَقِّها الملالَ وفَوْتَ العمل ، ومَضاءَتَك[3] فَدَرِّعْها رَوِيَّة النظر ، واكْنُفْها بأناة الحِلْم ، وخلواتِك فاحْرُسْها من الغفلة واعتماد الراحة ، وعقوبَتك فقصِّرْ بها عن الإفراط ، وتعمد بها أهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تُدْخِله تضييع الحقوق . . .

ثم لتكن بطانتك وجلساؤك فى خلواتك ودخلاؤك فى سرك أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك .

واعلم أن أقواما سيسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك على وجه النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة ، فلا يَصِلَنَّ إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا معروف بتهمة . ولا منسوب إلى بدعة ، فيعرضك لإيتاغ[4] دينك ، ويحملك على رعيتك بما لاحقيقة له عندك .

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك .

واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه ، فلا تَبْدُرَنَّ منك فرط عقوبة إلى أحد منهم ، ولا تعجّل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك . . .[5] »

الرسالة طويلة جداً ، وهى كلها على هذا الغرار ، جمل قصار ، متوازنة ، فى بعضها ازدواج .

---

(١) أودك : عوجك (٢) الأناة : التأنى (٣) المضاءة : العزم
(٤) إيتاغ : إفساد (٥) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ .

وظاهر فى الرسالة التعمل والصنعة إلى حد التكلف ، وتوليد المعانى ، والرغبة فى الاستقصاء ، وتكرير المعنى الواحد بالترادف .

— ١٣ —

من نصر إلى مروان

كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد لما أظهر أبو مسلم الدعوة بِمَرْوَ :

« أرى جَذَعا إن يُثْنِ لم يَقْوِ رائضٌ

عليه ، فبادر قبل أن يُثْنِيَ الجَذَعْ[1] »

هذا البيت هو الرسالة ، لكنه كاف فى تبليغ التحذير الذى يريده نصر . لأنه يدعوه إلى المبادرة للقضاء على دعوة بنى العباس قبل أن تستفحل ، ويمثلها بمهر أو بعير صغير لم يروض ، فإن كبر عجز الرائض عن ترويضه .

(١) وفيات الأعيان ١/٢٨٢ الجذع : الصغير السن . الثنى . بعد الجذع ، وأثنى صار ثنيا . الرائض : مذلل الدابة ومعلمها السير .

الفصل الثانى

رسائل شيعية

— ١ —

من على إلى معاوية

ردّ على بن أبى طالب على كتاب معاوية الذى بعثه إليه(١) يطلب استقلاله بالشام ، والكف عن الحرب بقوله(٢) :

« من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان .

أما بعد فقد جاءنى كتابك ، تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغتْ لم يجنها بعضنا على بعض ، وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد .

فأما طلبك منى الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس .

وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فلستَ بأمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة .

وأما قولك نحن بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، وليس أمية كهاشم ، ولا حربٌ كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا الطليق كالمهاجر (٣) ، ولا المبطل كالمحق ، وفى أيدينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز ، وبعنا بها الحرّ . والسلام » .

---

(١) الكتاب رقم ١ من الرسائل الأموية (٢) مروج الذهب ٢/٦١

(٣) الطليق : المراد معاوية لأنه أسلم هو وكثير من مشركى مكة يوم فتحها النبى صلى الله عليه وسلم ، وعفا عنهم ، وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . المهاجر : المراد على بن أبى طالب .

١ — رد على مصورٌ لثقته فى نفسه وفى حقه ، وقاطع بأن معاوية لن ينال ما يصبو إليه ، فهو لا يقطعه الشام اليوم وقد منعه إياها أمس ، وهو أقوى وأصبر على الحرب من معاوية ؛ لأنه موقن بحقه وبظفره ، على حين أن معاوية شاك ، وهو لا يسلم بتساويهما فى الحسب ، ويفصل القول فى هذا .

٢ — الرسالةموجزة ، مرسلة ، مرتبة فى ردها على الدعاوى التى أثارها معاوية .

— ٢ —

من الحسن إلى معاوية

كتب الحسن بن على إلى معاوية ، وقد دسّ معاوية رجلين بالكوفة والبصرة ليكتبا إليه بأخبار الحسن فأُخِذا وقتلا[1] :

«أما بعد، فإنك دَسَسْتَ إلىّ الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا أشك فى ذلك، فتوقّعه إن شاء الله .

وبلغنى أنك شَمِتَّ بما لم يَشْمَتْ به ذوو الحجا[2] ، وإنما مثلك فى ذلك كما قال الأول :

فإنا وَمَنْ قد مات منا لكالذى
يَروحُ فيُمْسِى فى المبيت ليغتَدِى [3]
فقل للذى يَبْغِى خِلاف الذى مضى
تَجَهَّزْ لأُخْرَى مِثْلِها فكأنْ قدِ» [4]

الرسالة موجزة مرسلة فيها استشهاد بالشعر :

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ١١
(٢) الحجا : العقل ، أى شمت بموت أبى ولا يشمت عاقل بالموت .
(٣) سنموت كما مات الذين سبقونا . (٤) كأن قد : كأنها قد حلت بك .

— ٣ —

من الحسن إلى معاوية

بعد أن صالح الحسن بن على معاوية سار إلى المدينة ، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج . فكتب الحسن له (١) :

« لو آثرتُ أن أقاتل أحدا من أهل القِبلة لبدأتُ بقتالك ، فإنى تركتك لصلاح الأمة وحَقْنِ دمائها » :

الرسالة مع إيجازها الشديد وافية بالغرض الذى يريده الحسن .

— ٤ —

من محمد بن الحنفية إلى عبد الملك

كتب محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان ، يبايعه لما قُتل ابن الزبير[٢] :

« إنى اعتزلتُ الأمة عند اختلافها ، فقعدتُ فى البلد الحرام الذى مَنْ دخله كان آمنا ؛ لأُحرز دينى ، وأمنع دمى ، وتركتُ الناس « قل كلٌّ يعمل على شاكلته ، فربكم أعلمُ بمن هو أهدى سبيلا » .

وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عصابة من أمتنا ، لا نفارق الجماعة .

وقد بعثت إليك منا رسولا ؛ ليأخذ لنا منك ميثاقا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيتَ فأرضُ الله واسعة ، والعاقبة للمتقين » .[٣]

فى الرسالة اقتباس من القرآن الكريم « قل كل يعمل ... » (٤) و « أرض الله » وهى موجزة مرسلة لاخيال فيها .

(١) الكامل لابن الأثير ٣/١٦٣
(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٢
(٣) سورة الإسراء ٨٤
(٤) سورة النساء ٩٧

— ٥ —

من المختار إلى ابن الحنفية

كتب المختار بن أبي عُبَيْد الثقفي إلى محمد بن الحنفية ، وقد قتل المختار عمر ابن سعد بن أبي وقاص وابنه حفصا ، وبعث برأسيهما إليه (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم

للمهدى محمد بن على من المختار بن أبى عبيد .

سلام عليك ياأيها المهدى ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإن الله بعثنى نِقْمة على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد . فالحمد لله قتل قاتليكم ، ونصر مؤازريكم . وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه . وقد قتلنا مَنْ شَرِكَ فى دم الحسين وأهل بيته — رحمة الله عليهم — كلَّ من قدرنا عليه ، ولن يُعجز الله من بقى ، ولسبُ بمُنْجِمٍ (٢) عنهم، حتى لايبلغنى أن على أديم الأرض منهم إرَمِيًّا (٣) .

فاكتب إلىَّ أيها المهدى برأيك أتبعه ، وأكن عليه . والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته » .

الرسالة موجزة ، مرسلة ، بها اقتباس من القرآن الكريم .

— ٦ —

من المختار إلى عبد الله بن الزبير

كتب المختار بن أبى عُبَيْد إلى عبد الله بن الزبير حينما قوى أمر المختار

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٢٧ (٢) منجم : مقلع .
(٣) إرمى : أحد .

بالكوفة . وراجت هناك دعوته إلى ابن الحنفية[1] ، وهو بكتابه هذا يخادع ابن الزبير ، حتى يستكمل الأمر له :

«أما بعد ، فقد عرفتَ مناصحتى إياك ، وجهدى على أهل عداوتك ، وما كنتَ أعطيتنى — إذا أنا فعلت ذلك — من نفسك . فلما وفيتُ لك ، وقضيتُ الذى كان لك علىّ ، خِسْتَ بى ، ولم تفِ بما عاهدتنى عليه[2] ، ورأيتَ منى ما قد رأيت . فإن تُرِدْ مراجعتى أراجعْك ، وإن ترد مناصحتى أنصحْ لك .

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٣٢ .

(٢) كان المختار لما خرج من سجن ابن زياد قصد الحجاز وبايع ابن الزبير ، على أن يوليه أفضل ولاية إذا نجحت دعوته ، وأقام مع ابن الزبير حتى ملك يزيد وانتهى حصار مكة . واشترك معه فى رد الجند المحاصر لها . فلما بايع أهل العراق ابن الزبير ولى على الكوفة وولى على البصرة ، ولم يول المختار — الطبرى ٧/٦١

الفصل الثالث

رسائل الخوارج

— ١ —

من نجدة إلى نافع

كتب نجْدة بن عامر (الخارجى) إلى نافع بن الأزرق (١) (الخارجى) لما سار الخوارج إلى الأهواز (٢) بعد أن نصروا ابن الزبير، وقد أمروا عليهم نافع ابن الأزرق الحنفى. ثم شجر بينهم الخلاف، فانفصل جماعة منهم بزعامة نجدة، ومضوا إلى اليمامة بنجد:

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البرِّ، لا تأخذك فى الله لومة لائم، ولا ترى معونةَ ظالم. كذلك كنت أنت وأصحابك. أما تذكر قولك: « لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثلَ أجر جميع رعيته، ماتوليتُ أمر رجلين من المسلمين». فلما شَرَيْتَ (٣) نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصَبْتَ من الحق فصَّه (٤)، وركبتَ مُرَّه، تجرد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك، واستغواك وأغواك، فغَوَيْتَ، فأكْفَرْتَ الذين عذرهم الله فى كتابه من قَعَد (٥) المسلمين وضَعَفَتهم (٦)، فقال — جل ثناؤه، وقوله

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١٧٧ والعقد الفريد ١/١١٤.

(٢) كورة بين البصرة وفارس.

(٣) شريت: بعت، والخوارج يسمون أنفسهم الشراة، لقولهم: شرينا أنفسنا فى طاعة الله.

(٤) فصه. مفصله.

(٥) القعد: اسم جمع قاعد، والقعدة جمع قاعد.

(٦) الضعفة: جمع ضعيف وضعيف وضعفان وضعوف.

الحق . ووعده الصدق — : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا لله ورسوله » ثم سماهم أحسن الأسماء . فقال : « ما على المحسنين من سبيل »[١] .

ثم استحْلَلْتَ قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[٢] . وقال سبحانه في القَعَد خيرا ، وفضَّل الله من جاهد عليهم ، ولا تَدْفعُ منزلةُ أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّررُ[٣] » فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ورأيتَ ألا تُؤَدِّى الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تُؤَدِّى الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله وانظر لنفسك ، واتق يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، فإن الله عز ذكره بالمرصاد . وحكمه العدل ، وقوله الفصل . والسلام » .

١ — الرسالة نوع من المحاجة الدينية المذهبية .

٢ — وإذ كان الدين هو محور الخلاف جاء فيها اقتباس كثير من القرآن الكريم ، واستدلال به ، وبحديث الرسول .

٣ — وهى فى استدلالها موجزة وافية بالمقصود منها .

٤ — وفيها تشبيه : « أنت لليتيم كالأب . . . . » وكناية فى قوله : فلما أصبت من الحق فصه . . . » .

---

(١) سورة التوبة ٩١ (٢) سورة فاطر ١٨

(٣) أولوا الضرر : المصابون بعمى أو زمانة وشبههما . وبقية الآية : « والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » سورة النساء ٩٥ القاعدون الأولون هم أصحاب الضرر ، والآخرون ليسوا أصحاب ضرر .

— ٢ —

من نافع إلى نجدة

فرد نافع على نجدة (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظنى فيه وتذكرنى ، وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوره من الصواب . وأنا أسأل الله عز وجل أن يجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبتَ علىّ ما دِنْتُ به من إكفار القَعَد ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة ، فسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله .

أما هؤلاء القَعَد، فليسوا كما ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلا . ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . وهؤلاء قد فقهوا فى الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » فقيل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (٢) .

وقال « فرح المخلّفون بمَقْعَدهم خلافَ رسول الله » (٣) وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليُؤْذَن لهم » (٤) . فخبّر بتعذيرهم ، وأنهم كذّبوا الله ورسوله . وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » فانظر إلى أسمائهم وسماتهم (٥) .

---

(١) الكامل للمبرد ٣/١٧٨ والعقد الفريد ١/٢١٤ (٢) سوره النساء ٩٧

(٣) فى تخلفهم عن الحرب معه تقصيرا لا غدرا ، فى غزوة تبوك . سورة التوبة ٨١

(٤) المتخلفون عن الغزو معتذرين بالجهد والمشقة والأولاد . سورة التوبة ٩٠

(٥) سمات : جمع سمة وهى العلامة . تكملة الآية السابقة

وأما أمر الأطفال فإن نبي الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك، فقال : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »(١) فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نقوله فى قومنا ؟ والله يقول : « أكفاركم خير من أولئكم . أم لكم براءة فى الزُّبر(٢) ؟ » وهؤلاء كمشركى العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أحلّ لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم . فدماؤهم حلال طلق(٣) . وأموالهم فىء المسلمين .

فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا ، والقعود عنا ، وتركُ ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا . والسلام على من أقر بالحق ، وعمل به » .

١ — اعتمد نافع فى رده على الاستدل بالقرآن الكريم ، وتوجيه الآيات وفق عقيدته ، كما اعتمد على المنطق والرأى .

٢ — فى ردوده ترتيب ، وإيجاز واف بالغرض .

— ٣ —

من قطرى إلى الحجاج

كتب الحجاج إلى قطرى يوبخه ، ويدعوه إلى الطاعة(٤)

فرد عليه قطرى بقوله(٥) .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف .

---

(١) سورة نوح ٢٦ — ٢٧ ديار : أحد .
(٢) سورة القمر ٤٣ . الزبر : جمع زبور وهو الكتاب .
(٣) طلق : حلال . (٤) راجع الرسالة ١٠ من الأمويين .
(٥) الكامل للمبرد ١/١٨٠

سلام على من اتبع الهدى . ذكرتَ فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعم الكِسْرة، وأبْدُر[١] إلى التمرة . وبالله لقد قلتَ زورا ، بل الله بصّرنى من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضلالة ، غرِقٌ فى غمرات الكفر .

وذكرتَ أن الضرورة طالت بى ، فهلاً برزلى من حزبك مَنْ نال الشِّبع واتكأ فاتّدع[٢] ؟

أما والله لئن أبرز الله لى صفحتك ، وأظهر لى صَلْعتك[٣] ، لتنكرَنّ شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليس كتسطير الأمثال » .

— ٤ —

من قطرى إلى أبى خالد

كتب قطرى بن الفُجاءة لأبى خالد القَنَانى ، يلومه على قعوده[٤] :

أبا خالدٍ يا انفرِ[٥] فلستَ بخالد ... وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى ... وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحد ؟

— ٥ —

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلىّ حبا ... بناتى ، إنهن من الضِّعاف
أحاذر أن يَرَيْن الفقر بعدى ... وأن يشربن رَنْقا[٦] بعد صاف
وأن يَعْرَيْن إن كُسِى الجوارى ... فتنبو العين عن كَرَم عِجاف[٧]
ولولا ذاك قد سوَّمْتُ مهرى ... وفى الرحمان للضعفاء كاف[٨]
أبانا ، مَنْ لنا إن غبتَ عنا ... وصار الحى بعدك فى اختلاف

* * *

هذان الكتابان شعر خالص تمثل به الكاتبان ، لأنه يفى بما يريدان .

---

(١) أبدر : أسرع . (٢) اتدع : سكن وهدأ وتنعم .
(٣) الصلعة بالفتح والضم أيضا موضع الصلع من الرأس .
(٤) الكامل للمبرد ٢/١٢١ . (٥) يا حرف تنبيه . (٦) رنقا : كدرا
(٧) كرم : وصف بالمصدر أى كريمات : عجاف : جمع عجفاء وهى الضعيفة المهزولة
(٨) سومت : أرسلت .

— ٦ —

من نافع إلى خوارج البصرة

كتب نافع إلى خوارج البصرة : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون .

والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المقام بين أظهر الكفار ؟ .

ترون الظلم ليلا ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد . فقال :

« وقاتلوا المشركين كافة » (٢) ولم يجعل لكم فى التخلف عذرا فى حال ، فقال : « انفروا خِفافا وثِقالا » (٣) وإنما عذرا الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون ومن كانت إقامته لعلة . ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله »(٤)

فلا تغتروا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ؛ فإنها غَرّارة مكّارة لذّتها نافدة ، ونعمتها بائدة ،حُفَّتْ بالشهوات اغترارا ، وأظهرتْ حَبْرة وأضمرتْ عَبْرة (٥) أ كلٌ منها أكلة تسره، ولاشارب شُرْبةً تُؤْنِقُه(٦) ، إلا دنابها درجة إلى أجله، وتباعد بها مسافةً من أمله .

وإنما جعلها الله داراً لمن تزوّد منها إلى النعيم المقيم والعيش السليم ، فلن يَرْضَى بها حازم داراً ، ولا حليم بها قرار .

فاتقوا الله وتزوّدوا ، فإنه خير الزاد التقوى .

والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) الكامل للمبرد ٣/٣٠٩ .

(٢) سورة التوبة ٣٦

(٣) سورة التوبة ٤١

(٤) سورة النساء ٩٥

(٥) حبرة : نعمة وسعة عيش .

(٦) تؤنقه : تعجبه .

الفصل الرابع

رسائل الزبيريين

— ١ —

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية

دخل الزنوج الذين كانوا يعملون فى أرض معاوية أرض عبد الله بن الزبير ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعد ، فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلا كان لى ولك شأن »

— ٢ —

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية

فلما ترضاه معاوية ، ومنحه أرضه وعبيده ، كتب إليه ابن الزبير :

« وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فلا عَدِمَ الرأىَ الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام » .

الرسالتان موجزتان أشد الإيجاز ، خاليتان من التمنيق والخيال .

— ٣ —

من عبد الله بن الزبير إلى يزيد

كتب عبد الله بن الزبير[1] إلى يزيد بن معاوية ، لما عزل عن الحجاز عمرو

---

(١) الطبرى ٧/٣

ابن سعيد بن العاص ، وولى الوليد بن عُتْبة سنة ٦١[١] :

« إنك بعثتَ إلينا رجلا أخْرَقَ[٢] ، لايتّجه لأمر رُشْد ، ولا يَرْعَوِى[٣] بعظة الحكيم ، ولو بعثتَ إلينا رجلا سهل الخُلُق ، ليّن الكَنَف ، رجوتُ أن يَسْهُل من الأمور ما استَوْعَر[٤] منها ، وأن يجتمع ما تفرّق . فانظرْ فى ذلك ، فإن فيه صلاح خواصِّنا وعوامِّنا ، إن شاء الله . والسلام » .

هذه الرسالة تجمع إلى إيجازها جزالة تعبيرها فى ترسل وبعد عن التكلف .

— ٤ —

من عبدالله بن الزبير إلى المختار

ردّ عبد الله بن الزبير على كتاب من المختار بعثه إليه يعلن فيه موادعته إياه ، وهو فى الحق يكيد له . فقال[٥] :

« أما بعد ، فإن كنتَ على طاعتى ، فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادى ، وتبايع لى الناس قِبَلك . فإذا أتتنى بيعتك صدقت مقالتك ، وكففت جنودى عن بلادك . وعَجِّل علىّ بتسريح الجيش الذى أنت باعثه ، ومُرْهم فليسيروا إلى من بوادى القرى من جند ابن مروان فيقاتلوهم ، والسلام » .

— ٥ —

من عبد الله بن الزبير إلى ابن عباس

أخرج عبد الله بن الزبير عبدالله بن عباس من مكة إلى الطائف ، فرحّب به أهل الطائف ، واستقبلوه بحفاوة ، وجعل ابن عباس يتهجم على ابن الزبير ، فكتب إليه ابن الزبير[٦] :

---

(١) بعد مقتل الحسين التف أنصار ابن الزبير حوله ، ودعوه إلى إعلان البيعة له ، وكان يبايع الناس سرا . وكان عمرو بن سعيد عاملا على مكة ، وكان مع شدته على حزب ابن الزبير يدارى ويرفق ، فقال الوليد بن عتبة وجماعة من بنى أمية ليزيد إن عمرو بن سعيد لو شاء لقبض على ابن الزبير وبعث به إليك ، فعزل يزيد عمرا وولى الوليد .

(٢) أخرق : أحمق (٣) لايرعوى: لا يمتثل (٤) ما استوعر : ماصعب

(٥) جمهرة رسائل العرب ٢/١٣٦ .

(٦) جمهرة رسائل العرب ٢/١٤٠ وشرح نهج البلاغة ٤/٤٨٧ .

«أما بعد ، فقد بلغنى أنك تجلس بالطائف العَصْريْن ، فتُفْتيهم بالجهل ، تَعيب أهل العقل والعلم ، وإن حلمى عليك واستدامتى فيئك جرّآك علىّ . فا كْفُفْ — لا أبا لغيرك — من غَرْبك ، وارْبَعْ على ظَلْعك ، واعْقلْ إن كان لك معقول ، وأكرم نفسك ، فإنك إن تُهِنْها تجدها على الناس أعظم هوانا . ألم تسمع قول الشاعر :

فنفسك أكرمها فإنك إن تَهُنْ ... عليك فلن تَلقَى لها الدهر مُكْرِما

وإنى أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغنى عنك ، لتجدن جانبى خشنا ، ولتجدنى إلى مايردعك عنى عجلا ، فإن أشْقَى بك شقاؤك على الردى فلا تلم إلا نفسك »

— ٦ —

من مصعب إلى المغيرة ابن المهلب

عزل عبدالله بن الزبير الحارث بن عبد الله ، وولّى أخاه مصعب بن الزبير مكانه ، فاستقدم المهلب ، وولاه الموصل ، وولى المغيرة بن المهلب ، وكتب إليه(١) .

« إنك إن لم تكن كأبيك .فإنك كافٍ لما وليتك ، فشمِّر واتزِرْ ، وجِدّ واجتهد » .

— ٧ —

من المهلب إلى الحارث

كان المهلب بن أبى صُفرة قد ولى خُراسان من قبل عبد الله بن الزبير ، ولم يكن قد مضى إلى خراسان ، حينما اشتدت ثورة الأزارقة بالأهواز ، وخشى أهل البصرة أن يجتاحوا مصرهم ، فهبُّوا ليدافعوا عن بلادهم ، وتحاربوا فى عدة مواقع .

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١٩٨ .

ثم أجمع رأى أهل البصرة على أن يتولى المهلب حرب الأزارقة ، فاعتذر بأن عبدالله بن الزبير ولاه خراسان ، فاحتال عليه أمير البصرة الحارث بن عبد الله ابن أبى ربيعة المعروف بالقباع وهو أخو عمر الشاعر — ووجهاؤها ، بأن كتبوا كتابا على لسان ابن الزبير ، فصدقه المهلب ، وشمر لقتال الأزارقة (١) .

فلما دخل الأهواز كتب إلى الحارث أمير البصرة كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنا منذ خرجنا نؤم هذا العدو فى نعم من الله متصلة علينا ، ونقمة من الله متتابعة عليهم ، نُقْدِم ويحجمون ، ونَحُل ويرتحلون ، إلى أن حلَلْنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذى من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم » .

— ٨ —

من الحارث الى المهلب

فرد عليه الحارث (٢) :

« هنيئا لك أخا الأَزْد الشرفُ فى الدنيا ، والذُّخْر فى الآخرة إن شاء الله » .

— ٩ —

من المهلب الى الحارث

ثم انتصر المهلب فى موقعة سِلّى وسِلّبْرَى (٣) ، بعد حرب طاحنة ، وقتل فى الموقعة أمير الأزارقة عُبَيْد الله بن بشير بن الماحُوز .

فكتب المهلب إلى الحارث بعد النصر (٤) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

---

(١) الطبرى ٧/٨٦ (٢) الكامل للمبرد ٢/١٨٩ .

(٣) اسم لموضع بالأهواز بالقرب من جند يسابور .

(٤) الكامل للمبرد ٢/١٩٥ وشرح نهج البلاغة ١/٣٨٨ .

أما بعد ، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدٍّ وجِدٍ فكانت في الناس جَوْلة ، ثم ثاب أهل الحِفاظ والصبر بنيّات صادقة ، وأبدان شِداد ، وسيوف حِداد ، فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دَرِيئة[1] رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز .

وأرجو أن يكون آخرُ هذه النعمة كأولها ، والسلام » .

— ١٠ —

من الحارث إلى المهلب

فرد عليه الحارث :

« قد قرأت كتابك يا أخا الأَزْد ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعِزَّها ، وذَخَر لك ثواب الآخرة — إن شاء الله — وأجرها .

ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهادَّ أركان المشركين ، وأخاه السياسة ، وذا الرياسة ، فاستدِمْ الله بشكره ، يُتْمِمْ عليك نعمه . والسلام »

---

(١) دريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي . والمراد الهدف .

الفصل الخامس

خواص الكتابة

لم تنبت كتابة الرسائل فى العصر الأموى على غرة ، ولم يكن ظهورها فجأة ، فقد كتبت رسائل عدة فى صدر الإسلام ، وكانت لها عدة خواص ، طبعت كتابة العصر الأموى بطابعها إلى حد بعيد . نحو نصف قرن .

وفى غضون هذه الفترة كانت نوازع التطور تبدو شيئاً فشيئاً ، فلما أشرف العهد على نهايته كانت قد برزت واستعلنت وصارت أساسا لما استجد فى العصر العباسى .

فقد كتب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بعض معاصريه من الملوك ، وإلى ولاته على الأقاليم ، وإلى قواد جيوشه .

وكانت رسائله ذات طابع خاص ، إذ كان يبدؤها بالسلام ، فيقول للمسلم « سلام عليك » ولغيره « السلام على من اتبع الهدى » ، ثم يُثَنِّى بالتحميد كقوله « أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو » وقد يتركه ، ثم ينتقل إلى الموضوع بقوله « أما بعد » أو بغيرها ، ويختم الرسالة بالسلام .

وكان يعبر عن نفسه بضمير الإفراد ، وقلما عَبَّر بضمير الجمع ، كما كان يخاطب المكتوب إليه بالضمير المطابق لحاله إفراداً وتثنية وجمعا .

ورسائله كلها مرسلة ، موجزة ، لا تكرار فيها ولا إطناب(١)

---

(١) تجد نماذج لها فى صبح الأعشى ١/٩١و٦/٢٦٥

ثم حاكاه الخلفاء الأربعة ، فظلت الرسائل فى صدر الإسلام موسومة بهذا الطابع فى بدئها وختامها ، وفى إيجازها وقصر عباراتها على تأدية الغرض من أقرب طريق وأوضحه فى غير تأنق أو تكلف .

هذا إلى خلوها من عبارات التعظيم ، وألقاب التفخيم ، واكتفاء المرسل بقوله فى أول كتابه : من فلان إلى فلان ، سواء أكان المرسِل أرفع شأنا من المرسَل إليه أم أقل .

وكان الخليفة أو الوالى يكتب بيده ، أو يملى على كاتب .

أما فى العصر الأموى فقد مضت الكتابة فى طريقها إلى التطور ، وتجلى هذا فى عدة مظاهر :

— ١ —

التجويد :

صار كثير ممن يملون الرسائل على كتابهم ، وممن يكتبون الرسائل بأنفسهم من الكتاب ، يتعمدون التحبير والتنميق والتجويد ، ولا يرتضون ما تسعف به القرائح فى غير تبين أو تنقيح . روى أن معاوية كان يملى كتابا قال فيه عن رجل : لهو أهون علىّ من ذرّة ، أو كلب من كلاب الحرّة . ثم قال للكاتب : امْحُ من كلاب الحرة ، واكتب . من الكلاب[1] . ويظهر أنه لم يسترح إلى هذه السجعة ، لأن كلاب الحرة ليست أهون عليه من سواها ، فاختصاصها بالذكر يدل على أنه يتعمد السجع ، وإن لم تدع إليه ضرورة فى الفكرة ، وهذا لا يلائم البلاغة الفطرية .

وإن التنميق والتجويد والتنقيح وغيرها من ثمرات الإعداد لتتجلى فى كثير من رسائل العصر التى سبقت .

(١) رسائل الجاحظ ١٥٥ .

— ٢ —

اختصاص كتاب بها :

اختص بكتابة الرسائل كتاب وظفتهم الدولة منذ عهد عبد الملك (٦٥ — ٨٦ هـ . ٦٨٥ — ٧٠٥ م) فلم تعد من عمل الخلفاء وإملائهم كما كانت من قبل ، وصار لها ديوان خاص بها يتولاها ، وصار لهؤلاء الكتاب أثر حميد فى تطورها ، لأنهم مختصون بها ، ولأن وظائفهم فى الديوان مرهونة ببراعتهم فيها ، وتجويدهم إياها .

— ٣ —

غلبة الإيجاز :

بقيت الرسائل موسومة بالإيجاز والترسل فى أكثر حالاتها ، اكتفاء بتأدية المعنى بأقصر عبارة ، ومن غير إطناب أو تكرير أو تفصيل .

١ — تجد هذا فى رسائل الأمويين ، كرسالة معاوية إلى الحسن[١] ، ورسالة عمر بن سعد إلى عبيدالله بن زياد[٢] ، ورسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد[٣] ورسالة عبد الملك إلى أخيه بشر[٤] ، ورسالة الحجاج إلى قطرى[٥] ، ورسالة عدى بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز ورد عمر عليه[٦] .

٢ — وتجده فى رسائل الشيعة ، كرسالتى الحسن إلى معاوية[٧] ، ورسالة محمد بن الحنفية إلى عبد الملك[٨] ؛ ورسالة المختار إلى محمد بن الحنفية[٩]

٣ — وتجده فى رسائل الخوارج كرسالة قطرى إلى الحجاج (١٠) ، ورسالته إلى أبى خالد القنانى (١١) ، ورد أبى خالد عليه (١٢) .

---

(١) رقم ٥ (٢) رقم ٦ (٣) رقم ٧ (٤) رقم ٨ (٥) رقم ١٠
(٦) رقم ١١، ١٢ (٧) رقم ٢، ٣ (٨) رقم ٤ (٩) رقم ٥
(١٠) رقم ٣ (١١) رقم ٤ (١٢) رقم ٥

٤ — وتجده فى رسائل الزبيريين ، كرسالتى عبد الله بن الزبير إلى معاوية[١] . ورسالة المهلب إلى الحارث ، ورد الحارث عليه[٢] .

٥ — التوقيعات :

أوجز الخلفاء أقصر الإيجاز فى توقيعاتهم على مايرفع إليهم من شكاوى ورغبات ، لبيان رأيهم فيها .

وتميزت توقيعاتهم بالإيجاز ، سواء أكانت اختيارا لآية قرآنية ، أو حديث نبوى أو مثل سائر أو حكمة متداولة ، أم كانت كلة موجزة من إنشاء الموقع نفسه، كما تميزت بأنها فى مكان معين من حاشية الرقعة المرفوعة إلى الخليفة ، وبمداد مغاير للون الكتاب[٣] .

وقد عرف العرب التوقيع بهذا المعنى وعلى هذه الصورة منذ عهد عمر بن الخطاب

(١)

كتب إليه سعد بن أبى وقاص فى بناء يبنيه ، فوقع فى أسفل الكتاب . « ابن مايُكِنُّك من الهواجر وأذى المطر » .

ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » :

ورويت توقيعات عن عثمان ، ومنها توقيعه على شكوى قوم من عامله مروان ابن الحكم : « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » . ومنها توقيعه على شكاية رجل شكا إليه فقراً : « قد أمرنا لك بما يقيمك ، وليس فى مال الله فضل للسّرَف » .

---

(١) رقم ١ ، ٢ (٢) رقم ٧ ، ٨

(٣) للتوقيع معان كثيرة ، ولعله بهذا المعنى الاصطلاحى مأخوذ من وقعت الإبل أى اطمأنت بالأرض بعد الرى ، لأن الكاتب الموقع يطمئن إلى تصريفه للأمر وقضائه فيه ، أو من وقع ظنه على الشيء أى قدره وأنزله ، لأن الموقع يكتب رأيه الذى تدبر فيه ، أو من التوقيع وهو الرى القريب والإصابة ، لأن الموقع يفصل فى الأمر من أقرب طريق،أو من التوقيع وهو إصابه المطر بعض الأرض وإخطاؤه بعضها ، أو إثبات بعضها دون بعض ، لأن التوقيع إلحاق شيء بالكتاب بعد الفراغ منه (لسان العرب مادة وقع) .

ورويت توقيعات عن على ، كتوقيعه فى كتاب لابنه الحسن : « رأى الشيخ خير من جلد الغلام » ، وتوقيعه على كتاب لسلمان الفارسى سأله فيه عن طريقة حساب الناس يوم القيامة : « يحاسبون كما يرزقون » .

(ب)

(ب) وهذه أمثلة من توقيعات الأمويين :

١ — كتب ربيعة بن عسل اليربوعى إلى معاوية ، يسأله أن يعينه على بناء داره بالبصرة ، باثنى عشر ألف جذع من النخل ، فوقع معاوية على رسالته بقوله : « أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك ؟ » .

٢ — وكتب الحسن بن على إلى معاوية كتابا ، أغلظ فيه ، فوقع معاوية عليه بقوله . « ليت طول حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك » .

٣ — كتب مسلم بن عقبة المرى إلى يزيد بن معاوية بما فعله بأهل المدينة فى وقعة الحرة ، فوقع فى أسفل الكتاب بقوله : « فلا تأس على القوم الفاسقين » .

٤ — كتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو أهل العراق ، فكان توقيعه على الكتاب : « ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

٥ — كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة عبد الرحمن بن الأشعث ، فوقع على الكتاب بقوله : « بضعفك قوى ، وبخوفك هلع » .

٦ — كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع ، فوقع سليمان بقوله : « والعاقبة للمتقين » .

٧ — كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه ، يستأذنه فى أن يرم مدينة ، فوقع عمر بقوله: « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم »

٨ — وهذا النحو كثير من الخلفاء والولاة[1] .

(حـ)

فلما قامت الدولة العباسية تولى خلفاؤها وولاتها التوقيعات بأنفسهم أول الأمر، كما كان يفعل بنو أمية .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٧٤ — ٥٩١ والعقد الفريد ٥/٢٩٣ — ٣٠٢

ثم عهدوا بها منذ عهد الرشيد إلى كتاب يثقون بهم ، فصار التوقيع مهنة ، وصار له رجال من ذوى المقدرة البيانية ، يقول ابن خلدون[1] : « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفَصْله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامَها والفصلَ فيها ، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فإما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة ، ويحتاج الموّقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه مُعرَّض للنظر فى أصول العلم ، لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل ، ومع ما يضطر إليه فى الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » .

هل نقل العرب التوقيعات عن الفرس ؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا توقيعاتهم عن الفرس ، إذ كان الفرس قد اشتهروا بالتوقيعات ، ولكنى أرى التوقيعات العربية نشأت نشأة عربية خالصة ، معتمداً على دليلين .

١ — أن العرب عرفوا التوقيعات ، ومارسوها فى أحسن صورها ، قبل أن يتصلوا بالفرس ويحاكوهم . وقد مثلت لتوقيعاتهم منذ عهد عمر بن الخطاب إلى آخر الدولة الأموية ، إذ كانوا بمعزل عن أدب الفرس وثقافتهم ، وليس هناك فرق بين توقيعاتهم هذه وتوقيعاتهم فى العصر العباسى بعد أن امتزجوا بأدب الفرس وثقافتهم .

٢ — ولأن التوقيعات قائمة على مايلائم الفطرة العربية ، من ميل إلى الإيجاز ، ومقدرة على البيان ، وسرعة خاطر وحضور بديهة ، فليس العرب بحاجة إلى أن يحاكوا غيرهم فيما يلائم طباعهم أشد الملاءمة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٦١٩ .

— ٤ —

فى بعضها طول

فى أخريات العصر نزعت بعض الرسائل إلى الطول ، على تفاوت فى مقدار طولها ، فبعضها متوسط ، وبعضها مطوّل .

١ — أما الرسائل المطولة ، فأقلها بالغ الحد فى الطول ، ولعلهما رسالتان ، إحداهما هى التى كتبها عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبدالله لما وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، فهذه الرسالة بلغت نيفا وخمس مئة سطر[١]

والأخرى هى التى كتبها الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى الأمصار بالبيعة لولديه[٢] فهى فى مئة وخمسة وعشرين سطرا .

وبقية الرسائل الطوال لا تتجاوز الواحدة سبعين سطرا .

كرسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد القسرى يلومه فيها على دالّته وعدوانه على مولى هشام ووكيله فى ضياعه[٣] ، فهى فى سبعين سطرا .

وكتاب معاوية إلى ابنه يزيد[٤] ، فى خمسة وثلاثين سطرا .

وكتاب من عبد الملك إلى الحجاج ، فى ثمانية وعشرين سطرا ، ورد الحجاج عليه ، فى ستة وستين سطرا[٥] .

وكتاب من مروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٦] ، حينما كان مروان واليا على أرمينية وأذربيجان ، فى سبعة وعشرين سطرا .

---

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وتجد بعضها فى النموذج ١٢ من الأمويين .
(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٩٤ .
(٣) الكامل للمبرد ٢/٢٩٧ .
(٤) صبح الأعشى ٦/٣٨٧
(٥) العقد الفريد ٣/٨
(٦) الطبرى ٨/٢٩٣ .

وعلى الرغم من أن كتب عمر بن عبد العزيز ـ إلا قليلا منها ـ موجزة جدا ، فإن رسالته إلى بعض جنوده[1] بلغت تسعة وأربعين سطرا :

٢ — وأما المتوسطة فمنها رسالتا معاوية إلى زياد[2] ، ورسالة نجدة بن عامر الحنفى إلى نافع بن الأزرق[3] ، ورد نافع عليه[4] .

— ٥ —

الاقتباس من القرآن الكريم

تبين فى دراسة الخطابة أن الخطباء كانوا يقتبسون من القرآن الكريم . وكذلك كان يفعل الكتاب فى رسائلهم .

١ — من هذا فى رسائل الأمويين قول زياد لمعاوية[5] : « إنما يكفر النِّعَم ، ويستدعى النِّقَم « مَنْ حادَّ الله ورسوله ، وسعى فى الأرض فسادا » .

٢ — وفى رسائل الشيعة قول محمد بن الحنفية : « فقعدت فى البلد الحرام الذى « من دخله كان آمنا » . وتركت الناس : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » فإن أبيتَ « فأرضُ الله واسعة » و« العاقبة للمتقين »[6] .

وفى رسالة المختار إلى ابن الحنفية : ولن يعجز الله من بقى ، ولست بمُنْجِم عنهم حتى لا يبغلنى أن على أديم الأرض منهم إرَمِيًّا[7] .

٣ — وفى رسائل الخوارج استدلال نجدة فى رسالته لنافع[8] بعدة آيات قرآنية ، مثل « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجـــدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل »[9] ومثل :

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٩١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ .
(٢) رقم ٢ ، ٣ من الأمويين . (٣) رقم ١ من الخورج (٤) رقم ٢
(٥) رقم ٣ (٦) رقم ٤
(٧) رقم ٥ من قوله تعالى على لسان نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » . سورة نوح ٢٦ . (٨) رقم ١ (٩) سورة التوبة ٩١

« ولا تزر وازرة وزر أخرى[١] » ومثل « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم [٢] » .

وفى رد نافع عليه[٣] عدة آيات ، مثل: « الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه » [٤] ومثل « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها[٥] » ومثل « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » [٦] ومثل « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم »[٧]

٤ — وفى وسائل الزبيريين كقول المهلب [٨] للحارث بن عبد الله أمير البصرة من قبل ابن الزبير : الحمد لله رب العالمين الذى من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم [٩]

— ٦ —

التأثر بالشعر

عرفت فى دراسة الشعر أن القوم كانوا كلفين به ، وعرفت فى دراسة الخطابة أنهم طالما استشهدوا بالشعر ، وتأثروا به .

وقد ظهر هذا الكلف فى الرسائل أيضا ، فى ثلاثة مظاهر :

١ — رسائل كلها شعر :

بعض الرسائل شعر صرف ، اكتفى به المرسل فى تعبيره عما يريد .

١ — من هذا أن معاوية كتب إلى علىّ بأبيات كعب بن جُعَيْل :

أرى الشام تكره مُلْك العراق وأهلُ العراق له كارهونا

(١) سورة فاطر ١٨ . (٢) سورة النساء ٩٥ .
(٣) رقم ٢ (٤) سورة الزمر ١٨ . (٥) سورة النساء ٩٧ .
(٦) سورة التوبة ٨١ . (٧) سورة التوبة ٩٠ . (٨) رقم ٤ .
(٩) من سورة الصفات ١٨٢ ومن سورة المائدة ١١٨ .

وكلٌ لصاحبه مُبْغِض يرى كل ما كان من ذلك دينا
وقالوا عليٌ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا

. . . .

٢ — فطلب على من النجاشى أن يرد عليه فقال :

دَعَنَّ معاوىَ مالن يكونا فقد حقق الله ماتحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
فإن يكره القوم ملك العراق فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا

. . . .

٣ — وكان سَبْرة بن الجعد الشيبانى خارجيا من أتباع قطرى ، ثم اتصل بالحجاج فأعجب الحجاج به ، وقربه ، واتخذه سميره ، ولم يك يطلب شيئا من الحديث إلا وجد عنده علما منه .

وكان قطرى حينئذ يحارب المهلب ،فعلم بمكان سبرة من الحجاج ، فكتب إليه بأبيات منها [٢] :

لشتّان مابين ابن جعد وبيننا إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهَر
نجاهد فُرسانَ المهلب كلنا صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجرُّ الخزَّ عند أميره أمير بتقوى ربه غيْرُ آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنُّهى وميراث آباء كرام العناصر ؟
ألم تر أن الموت لاشك نازل ولابد من بعث الألى فى المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلتَ يَفْنَى وإنما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر

(١) الأخبار الطوال للدينورى ١٦٢ .
[٢] مروج الذهب ٢/١٣٨

فراجعْ أبا جعد ولاتك مُغْضَبا على ظلمة أغشَتْ جميع النواظر
وتُبْ توبة تُهْـدِى إليك شهادة فإنك ذو ذنب ولستَ بكافر
وسر نحونا تَلْقَ الجهاد غنيمة تُفِدك ابتياعا رابحا غير خاسر
هى الغاية القُصْوَى الرغيب ثوابُها إذا نال فى الدنيا الغنِىَ كلُّ تاجر

٤ — فلما قرأ سبرة كتاب قطرى بكى ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ، ولحق بقطرى ، وطلبه الحجاج فلم يدركه ، وكان قد ترك للحجاج كتابا من سبعة أبيات [١] .

وهذا النوع من الكتب الشعريه كثير ، مثل كتاب البَخْتَرِى بن أبى صُفْرةِ [٢] ، وكتاب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام ، ورد هشام عليه [٣] ، وكتاب نصر بن سيّار إلى مروان بن محمد [٤] ، وكتاب قطرى إلى أبى خالد القنانى ، ورد أبى خالد عليه [٥] ، وكتاب من معاوية إلى ابن الزبير ، ورد ابن الزبير عليه [٦] .

(ب) رسائل مذيلة بالشعر :

وبعضها كان يذيل بالشعر ، ليكون خاتمة قوية الأثر ، كما كان يحدث فى بعض الخطب [٧] .

من الكتب المذيلة بالشعر ؟

٨ — كتاب من عبد الملك إلى الحجاج [٨] لما أسرف فى قتل أسارى دير الجاجم ، فقد لامه عبد الملك على قسوته ، وعلى تبذير الأموال ، وحكم عليه

(١) راجع مروج الذهب ٢/١٣٩
(٢) الأمالى ٢/١٣٦
(٣) ذيل الأمالى ٢٢٤
(٤) النموذج رقم ١٣ من الأمويين
(٥) رقم ٤ ، ٥ من الخوارج
(٦) الإمامة والسياسة ١/١٣٠
(٧) رقم ٥ من الأمويين ورقم ٢ من الشيعة
(٨) مروج الذهب ٢/١٣٦

فى الخطأ الدية ، وفى العمد القَوَد ، وبرد الأموال إلى مواضعها ، ثم التصرف فيها بما يراه أمير المؤمنين . . . ثم ذيل الكتاب بهذه الأبيات :

إذا أنت لم تطلب أمورا كرهتها وتطلبْ رضائى بالذى أنت طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلى هاربا إلى الله منه ، ضيع الدَّرَّ حالبه
فإن تَرَ منى غفلةً قرشـية فيا ربما قد غصَّ بالماء شاربه
وإن تَرَ منى وثبـةً أموية فهذا وهـذا كلٌّ ذا أنا صاحبه

. . . .

٢ — ثم رد عليه الحجاج بكتاب ذيله بالشعر[١] ، من الوزن والقافية .

٣ — والتذييل بالشعر كثير ، مثل كتاب الوليد بن عبد الملك إلى أخيه سليمان ، ورد سليمان عليه[٢] ، وكتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد[٣] ، وكتاب معاوية إلى الحسن[٤] وكتاب الحسن إلى معاوية[٥] .

وفى قليل منها استشهاد بالشعر فى صلب الكتاب ، كما نجد فى رسالة من عبدالله بن الزبير إلى عبدالله بن عباس[٦] .

(حـ) معانٍ شعرية :

وفى بعضها نَثْرٌ للشعر ، واقتباس من معانيه ، كما فعل معاوية فى كتابه الثانى لزياد ، إذ قال : « أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت كتاركة بيضها بالعراء ، وملحفة بيض أخرى جناحها »[٧] وهو بهذا قد نثر قول ابن هرمة:

وإنى بتركى نَدَى الأكرمين وقَدْحى بكفَّىَّ زنادا شحاحا
كتاركة بيضهـا بالعراء ومُلْبسةٍ بيض أخرى جناحا[٨]

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٣٧ (٢) مروج الذهب ٢ / ١٥٦
(٣) تاريخ الطبرى ٩ / ٩٢ والعقد الفريد ٢ / ٢٩٧ (٤) رقم ٥
(٥) رقم ٢ (٦) رقم ٥ (٧) رقم ٤ (٨) الشعر والشعراء ٢٨٩

— ٧ —

التهديد

فى بعض الرسائل شبه بالخطابة فى التهديد ؛ لأنها صادرة عن انفعال ثائر أو غاضب .

ففى رسالة من معاوية إلى زياد قوله : « أقسم ألا أوتى بك إلا فى زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق ، وأبيعك عبداً[١] » .

وفى رسالة من زياد إلى معاوية قوله : « لولا حلم ينهانى عنك ، وخوفى أن أدعى سفيها ، لأثرت لك مخازى لا يغسلها الماء . . . فإن كنت ابن سُمَيَّة ، فأنت ابن حمامة[٢] » .

وفى رسالة من المختار بن أبى عبيد إلى محمد بن الحنيفة قوله بعد انتصاره على عمر بن سعد بن أبى وقاص : « ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغنى أن على أديم الأرض منهم إرميا[٣] »

وفى رسالة من عبدالله بن الزبير[٤] إلى عبدالله بن عباس ، لما بلغه أنه يقدح فيه ، بعد أن أخرجه من مكة إلى الطائف ، قوله : « أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغنى عنك ، لتجدن جانبى خشنا ، ولتجدنى إلى ما يردعك عنى عجلا ، فإن أشفى[٥] بك شقاؤك على الردى ، فلا تلم إلا نفسك » .

— ٨ —

المحاجة

يتجلى فى الرسائل المتبادلة الحرص على تفنيد الحجة ، والرد على الخصم بما يفوت عليه غرضه ، فى ترتيب للفكرة ، ونقض للدعوى ، كما حدث فى الخطابة .

---

(١) رقم ٢ من الأمويين . زمارة : جماعة نزمر . (٢) رقم ٣ .
(٣) رقم ٥ . (٤) رقم ٥ . (٥) أشفى : أشرف .

نجد هذا واضحاً فى كتاب معاوية لزياد[١] ، ورد زياد عليه[٢] .

وفى كتاب معاوية[٣] لعلىّ ورد علىّ عليه[٤] .

وفى كتاب الحسن إلى معاوية ردا على دعوته الحسن لقتال الخوارج[٥] ،

وفى رسالة نجدة[٦] إلى نافع ، ورد نافع عليه[٧] .

— ٩ —

قصر الجمل وتوازنها

تأثرت الكتابة سنن الخطابة فى قصر الجمل وتوازنها فى الطول ، لتكون أسرع فى تأدية الفكرة ، وأقوى فى التأثير ، وأبقى فى النفس .

١ — من أمثلة ذلك فى رسائل الأمويين قول معاوية لعلى : « وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل ، يستذل به عزيز ، ويسترق به حر[٨] » .

وقول الحجاج لقطرى : « كنت أعرابياً بدويا ، تستطعم الكِسْرة ، وتخِفّ إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله[٩] » .

٢ — ومنه فى رسائل الشيعة ، قول على لمعاوية : « ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المبطن كالمحق[١٠] » .

وقول ابن الحنفية لعبد الملك : « وقد بعثت إليك منا رسولا ، ليأخذ لنا منك

---

(١) رقم ٢ (٢) رقم ٣ (٣) رقم ١ من الأمويين .
(٤) رقم ١ من الشيعة (٥) رقم ٣ من الشيعة (٦) رقم ١ من الوارج
(٧) رقم ٢ من الخوارج (٨) رقم ١ (٩) رقم ١٠
(١٠) رقم ١

ميثاقا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيت فأرض الله واسعة ، والعاقبة للمتقين[١] » .

٣ ـــ ومنه فى رسائل الخوارج قول نجدة لنافع : « لما شريت نفسك فى طاعة ربك ، ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فَصَّه ، وركبت مُرَّه ، وتجرد لك الشيطان ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ... فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل[٢] » .

٤ ـــ ومنه فى رسائل الزبيريين قول عبد الله بن الزبير : « بعثت إلينا رجلا أخرق ، لايتجه لأمر رشد ، ولا يرعوى لعظة الحكيم ... فانظر فى ذلك ، فإن فيه صلاح خواصِّنا وعوامِّنا[٣] .

وقول المهلب : « نقدم ويحجمون ، ونحل ويرتحلون ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين[٤] » .

— ١٠ —

الخيال

لم تلتزم الرسائل فى هذا العصر التعبير بالألفاظ فى مواضعها الحقيقية ، ففى كثير منها مجاز وخيال ، وفى بعضها تمثيل وتصوير .

ولعل هذه النزعة هى الخطوة الأولى إلى مزاحمة الكتابة للشعر فى تخيله وتصويره ، ثم جاء العصر العباسى ، فاتسعت الخطا وتلاحقت ، وصار النثر الفنى شعراء منثورا .

١ ـــ تجد هذا فى بعض رسائل الأمويين ، كقول معاوية لزياد يسخف تواكله عن نصرته فى الثأر لعثمان : « وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها » وقوله : « وإلا اختطفتك بأضعف ريش[٥] .

---

(١) رقم ٤ (٢) رقم ١ (٣) رقم ١
(٤) رقم ٧ (٥) رقم ٢

وقوله فى رسالة ثانية لزياد : كنتَ كتاركة بيضها بالعراء ، ومُلحِفة بيض أخرى جناحها ... فاعلم أنك لوخضت البحر فى طاعة القوم ، فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه ، لما ازددت منهم إلا بعدا ... فإن بنى عبد شمس ، أبغض إلى بنى هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع ، وقد أوثق للذبح[1] » .

وقول زياد لمعاوية . « وجدتك كالغريق يغطيه الموج ، فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع ... هل رأيت بازياً يفزعه صفير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف[2] » ؟

٢ — وفى رسائل الخوارج ، كقول نَجْدَة لنافع . « إن عهـدى بك ، وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البرّ ... فلما أصبت من الحق فَصّه ، وركبت مُرّه ، تجرّد لك الشيطان[3] . . »

وقول قطرى للحجاج : « لئن أبرز الله لى صفحتك ، وأظهر لى صَلْعتك ، لتنكرن شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليس كتسطير الأمثال[4] » .

٣ — وفى بعض رسائل الزبيريين ، كقول المهلب بعد انتصاره فى إحدى المواقع على الأزارقة : « فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا[5] » .

— ١١ —

الإحالة إلى أحداث وأشعار

فى بعض كتبهم إحالة إلى أخبار أو أشعار ، اعتمادا على كثرة حفظهم ، وحفظ من يكتبون إليه .

٢ — فقد كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج لما هَزَم ابن الأشعث : « أما بعد ، فما لك عندى مثل إلا قِدْحَ ابن مُقْبل[6] » فلم يعرف الحجاج ماذا

---

(١) رقم ٤ (٢) رقم ٣ (٣) ١ (٤) رقم ٣
(٥) رقم ٩ (٦) تميم بن مقبل شاعر مخضرم . قدح : سهم من سهام الميسر .

أراد الخليفة ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي يقول : إن ابن مقبل من أهلك، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين بكذا ، فعرِّفني قِدْحه .

فكتب إليه قتيبة .

إن هذا القدح فاز تسعين مرة ، لم يخب فيها مرة واحدة ، حتى ضرب به المثل ، فقال ابن مقبل ينعته :

خَرُوج من الغُمّى إذا صُكَّ صكة
بَدَا والعيونُ المستكفةُ تَلمَحُ [1]
مُفدًّى ، مُؤدًّى باليدين ، مُنَعَّمٌ
خليعُ قــداحٍ فائز مُتَمَنَّحُ [2]

إلى آخر الأبيات[3] .

٢ — وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة الخوارج مع قطرى ، فرد عليه عبدالملك[4] :

أما بعد ، فاني أحمد اليك السيف ، وأوصيك بما أوصى به البكريُّ زيدا .
فلم يفهم الحجاج ماعناه عبد الملك ، وجعل عشرة آلاف درهم لمن يدله على المراد حتى علم أن البكرى قال :

أقول لزيد لاتبرّ فإنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فإن وضعوا حربا فضعها ، وإن أبوا فشُبَّ وقودَ الحرب بالحطب الجزل
وإن عضت الحرُب الضَّروس بنابهـــا
فعرْضَةُ حدِّ الســـيف مثلك أو مثلي

(١) الغمى : الشدة العظيمة . صك : ضرب . المستكفة : الناظرة .
(٢) مؤدى باليدين : يحمل بهما معا اعتزازا به . خليع : القدح الفائز أولا . متمنح : مانح معط .
(٣) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٩/٢
(٤) مروج الذهب ١٥٩/٢

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، وصدق البكرى .

٣ — وكتب عبد الملك إلى الحجاج[(١)] . « أنت سالم » فلم يعرف ما أراده ، فكتب الحجاج إلى قتيبة يسأله ، فرد عليه بأن سالما كان عبدالرجل ، وكان أثيرا عنده ، وكان الناس يسعون به كثيرا ، فقال .

يُدِيرُونَنى عن سالمٍ وأُدِيرهم وجِلْدَةَ ما بين العين والأنف سالم

فأراد عبد الملك أنك عنده بمنزلة سالم .

— ١٢ —

سجع غير مستكره

فى بعض رسائلهم سجع فى غير تكلف ظاهر .

١ — من أمثلته فى رسائل الأمويين قول معاوية لزياد ، « فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ... فإنك إن تفعل فَدَمَك حقَنْتَ ، ونفسك تداركت »[(٢)] .

وقوله فى رسالة ثانية له : « كأنك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ... أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت كتاركة بيضها بالعراء[(٣)] » .

وقوله الحجاج لقطرى . « كنت أعرابيا بدويا تستطعم الكِسْرة ، وَتَخِفُّ إلى التمرة[(٤)] » .

٢ — ومنه فى رسائل الخوارج قول نجدة لنافع : « عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم . لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ... استمالك الشيطان واستهواك ، واستغواك وأغواك »[(٥)] .

وقول قطرى للحجاج : « فهلا برز لى من حزبك مَن نال الشبع ، واتكأ

---

(١) مروج الذهب ٢/١٢٨ (٢) الرسالة ٢ (٣) رقم ٤
(٤) رقم ١٠ (٥) رقم ١

فاتدع ؟ أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لى صَلْمتك ، لتنكرنّ شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليس كتسطير الأمثال[١] » .

٣ — ومنه فى رسائل الزبيريين قول المهلب : « ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة ، وأبدان شداد ، وسيوف حداد ... فصاروا دريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا »[٢] .

وقول الحارث فى الرد عليه : « قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة وأجرها ، ورأيتك أخا السياسة ، وذا الرياسة »[٣] .

— ١٣ —

المرسل والمرسل إليه

سبق فى التمهيد أن النظام الذى كان متبعا فى صدر الإسلام أن يكتفى المرسل بقوله : من فلان إلى فلان ، فإذا كان المكتوب إليه خليفة لم يزد الكاتب على قوله : من فلان إلى أمير المؤمنين فلان .

وقد بقى هذا النظام سائدا فى العصر الأموى إلى عهد الوليد بن عبدالملك (٨٦ — ٩٦) . حيث كانت الدولة قد خطت خطوات فساحا فى مجال التحضر ، وكانت مظاهر الأبهة قد شملت كثيرا من مرافق الحكم ، فأنف الوليد أن يكتب إليه عماله وشعبه ، مقدمين أسماءهم على اسمه ، فصاروا يكتبون إليه مقدمين اسمه على أسمائهم هكذا : إلى أمير المؤمنين الوليد من فلان بن فلان .

ثم عاد النظام القديم فى عهدى عمر بن عبد العزيز ويزيد الثانى (٩٩ — ١٠٥) لكنه مالبث أن توارى ، ورجع الناس إلى نظام الوليد .

وأغلب الظن أن هذه الخواص التى تميزت بها الرسائل فى العصر الأموى تنبىء عن تطور وسير إلى الترقى ، فما الأسباب التى دفعت الرسائل إلى هذا الاتجاه ؟ ذلك موضوع الفصل الآتى .

---

(١) رقم ٣ (٢) رقم ٨ (٣) رقم ٩

الفصل السادس

عوامل ازدهارها

مارس العرب كتابة الرسائل فى صدر الإسلام ، ثم أكثروا من ممارستها فى العصر الأموى ، وقد تضافرت عوامل شتى على النهوض بها ، وعلى تطورها .

— ١ —

صيرورتها صناعة :

اتسعت الدولة وتعددت شئونها ، وتلاحقت الحاجة إلى كتابة الرسائل السياسية وكان الخلفاء فى شغل بشئون الملك ، وتصريف السياسة ، فلم يجدوا من وقتهم ما يسعفهم بأن يتولوا كتابة الرسائل بأنفسهم ، أو يملوها على غيرهم ليكتبها ، كما كان يحدث فى صدر الإسلام وفى بدء العهد الأموى ، فوكلوا كتابتها إلى كتاب من العرب أو من الموالى الحاذقين للعربية .

وقد بدأ بهذا عبد الملك بن مروان ، إذ اتخذ سليمان بن سعد كاتباً له على الرسائل.

ومازال بنو أمية يفعلون مثل ما فعل عبد الملك ، حتى صارت الكتابة فى آخر عهدهم صناعة متميزة ذات نظم خاصة ، وكثر الكتاب ، وتعددت دواوين الكتابة[1] .

---

(١) لم يكن من الدواوين فى صدر الإسلام غير ديوان الجند الذى أنشأه عمر لما اتسعت الفتوح وزادعدد المقاتلين عن الحصر . وديوان الخراج الذى كان فى كل مصر فتحه العرب ، للمحاسبة وليس فى هذين الديوانين مجال للبراعة الأدبية .

ثم زاد معاوية ديوان الرسائل وديوان الخاتم ، ليتولى ختم الرسائل المرسلة من الخليفة =

ولاشك أن هؤلاء الكتاب الذين عهد إليهم الخلفاء بكتابة الرسائل كانوا من عوامل رقى الكتابة وتطورها .

أما كتاب الرسائل الرسمية فقد تأنقوا فيها ، وجودوها ، وطبعوها بطابع خاص.

وأما كتاب الدواوين فقد طوّعوا اللغة ، وغزوا بها ميادين كانت حمى للغات أخر .

ذلك أن ديوان الخراج بالشام كان بالرومية ، إلى أن أمر عبد الملك — أو ابنه هشام أو سليمان — كاتبه سليمان بن سعد بتحويله إلى العربية (١) .

وكان ديوان الخراج بالعراق بالفارسية ، فحاكى الحجاج الخليفة ، فأمر صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم بتحويله إلى العربية (٢).

وكان ديوان الخراج بمصر بالقبطية ، فأمر عبد الله بن عبد الملك — والى مصر فى خلافة أخيه الوليد — بنقل لغته إلى العربية ، ونهض بهذا يربوع الفزارى .

— ٣ —

نمو الثقافة العربية :

نمت الثقافة العربية وتطورت فى هذا العصر ، سواء أكانت دينية عمادها القرآن الكريم وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه والتشريع ، أم أدبية قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار والأنساب ، أم علمية دخيلة بواكيرها مسائل فى الطب والمنطق والكيمياء والنجوم والمذاهب الدينية .

= حتى لا يطلع عليها أحد غير المرسلة إليه : وكان سبب إنشائه أن معاوية أحال رجلا على زياد واليه على العراق بمئة ألف درهم، فضى الرجل فجعلها مئتين . فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكره ، وقال : ما أحلته إلا بمئة ألف . ثم وضع ديوان الخاتم ، فصارت الكتب تصدر منه مختومة ، لا يعلم أحد بما فيها ،ولا يغير شيئاً مما بها . (الآداب السلطانية للفخرى) .

(١) العقد الفريد ٢/٣٢٢ فتوح البلدان البلاذرى ١٩٣ ، ٣٠٠ والماوردى ٣٤٠ والفهرست ٣٠٣

(٢) الفهرست ٣٥٢

١ — نعم ، كثر فى هذا العصر حفظة القرآن الكريم ودارسوه ومفسروه ، ومعلموه وشاعت رواية الحديث ، واستنباط الأحكام من القرآن والحديث[١] .

وكانت هناك مؤلفات ومدونات فقد أحرق عروة بن الزبير يوم الحرة كتب فقه له ، ثم أسف عليها بعد ذلك ، وكان يقول : لأن تكون عندى أحب إلى من أن يكون لى مثل أهلى ومالى[٢] . وكانت الدفاتر المدونة من علم الزهرى كثيرة جدا فى خزانة الوليد[٣] .

وكان ابن شهاب الزهرى إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله ، فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوما : والله لهذه الكتب أشدّ علىّ من ثلاث ضرائر[٤] .

وكثيرا مايخطىء المؤرخون لتدوين الحديث ، فيظنون أن لم يدون إلا فى القرن الثانى .

وحسبنا فى نفى هذا الظن أن نضرب عدة أمثلة تكشف عن كلف بعض المسلمين بتدوين الحديث من عهد مبكر .

---

(١) اشتهر بالتفسير والفقه عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعروة بن الزبير وعلى وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير ، ثم عطاء بن أبى رباح ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

واشتهر بالحديث فى المدينة سالم ونافع وعروة بن الزبير والزهرى وزيد بن ثابت وعبد الله ابن عمر وسعيد بن المسيب .

واشتهر بالحديث فى مكة عكرمة وعطاء بن أبى رباح وابن أبى مليكة وعبد الله بن عباس ومعاذ ومجاهد وطاوس بن كيسان .

واشتهر بالحديث فى البصرة الحسن البصرى وابن سيرين وأبو موسى الأشعرى وأنس ابن مالك وقتادة ومالك بن دينار وإياس بن معاوية .

واشتهر بالحديث فى الكوفة عبد الله بن مسعود وعامر بن شراحيل وشريح القاضى والشعبى وسعيد بن جبير والنخعى .

واشتهر من محدثى الشام مكحول والأوزاعى ، ومن محدثى اليمن وهب بن منبه وطاوس ومن محدثى مصر أبو تميم والصابحى .

(٢) الطبقات الكبرى ١٣٢/٥ (٣) الطبقات ١٣٦/٢/٢

(٤) وفيات الأعيان ٣١٧/٣

فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يدون ما يسمع عن رسول الله . حدث مجاهد أنه رأى عند عبد الله صحيفة فسأله عنها ، فقال له : هذه الصادقة ، فيها ماسمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد[١] .

وكتب همام بن منبه (٤٠ – ١٣١ هـ) عن أبي هريرة كثيرا من الأحاديث النبوية التي رواها أبو هريرة عن رسول الله ، في صحيفة سماها الصحيحة ، وقد عثر عليها أخيرا الدكتور محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين بدمشق وبرلين[٢] . ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٨١ حديث .

ولهذه الصحيفة قيمة تاريخية عظيمة ، لأن أبا هريرة توفى سنة ٥٨ أو ٥٩ هـ فهي إذاً مدونة قبل وفاته .

ويزيدنا ثقة بها أن الإمام أحمد بن حنبل نقلها في مسنده ، وأن البخارى نقل كثيرا منها في صحيحه ، وأن ابن حجر ذكر أن همام بن منبه سمع من أبي هريرة نحو أربعين حديثا ومائة[٣] ، وبالصحيفة ثمانية وثلاثون حديثا ومئة ، وليس بين تقدير ابن حجر والعدد الحقيق خلاف .

ثم جاء عمر بن عبد العزيز ، فأراد أن يقف تيار الكذب على رسول الله ، وأن يسجل الصحيح من أحاديثه ، فكتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه على المدينة أن يدون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يضيع العلم ويفنى العلماء . فكتب أبو بكر أحاديث كانت عند بعض الناس .

ولم يكتف عمر بهذا ، بل أمر محمد بن مسلم الزهرى أن يدون الحديث الصحيح فدونه مراعيا شروط الرواية الصحيحة .

وتتابع المدونون بعد ذلك إلى أن ظهرت طبقة الإمام مالك والأوزاعى والثورى وغيرهم .

٢ — أما اللغة والشعر فقدم كانت العناية بهما والتنافس في روايتهما وحفظهما لاتقل عن العناية بالحديث ، فكان هناك ، رواة حفاظ يشافهون الأعراب ، ويدونون

---

(١) الطبقات ٧/ ١٨٩

(٢) الطبقات الكبرى ٢/٢/١٣٦ (٣) أقدم تدوين في الحديث النبوى (صحيفة همام ابن منبه) (٤) تهذيب التهذيب ١١/ ٦٧

عنهم ، وهناك رواة حفاظ يلازمون الشعراء ويذيعون شعرهم ، وهناك إخباريون يقصون أيام العرب وما قيل فيها من شعر .

ذكر ابن النديم أنه كان بمدينة الحديثة (١) جماع للكتب اسمه محمد بن الحسين له خزانة كتب لم ير ابن النديم لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على كتب عربية فى النحو واللغة والأدب ، وكان هذا الرجل ضنينا بكتبه خائفا عليها من بنى حمدان ، لكنه أنس بابن النديم ، وأطلعه على نحو ثلاثمئة رطل من جلود وسكاك وقراطيس وورق فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد من أشعارهم ، وفيها نحو وأخبار وأنساب وعلوم شتى من علوم العرب وغيرهم . . . وكان فى جملتها مصحف بخط خالد ابن أبى الهيّاج صاحب على . . . وأمانات وعهود بخط علىّ وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها جملة من خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى عمرو الشيبانى والأصمعى وابن الأعرابى ، وخطوط من أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثورى والأوزاعى وغيرهم (٢) .

وذكر الجاحظ أن خطب النبي وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ كانت مدونة مجموعة فى كتب (٣) .

وذكر أبو الفرج أن عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى — من رجال العصر الأموى — جعل فى بيته أدوات للهو واللعب ودفاتر فيها من كل علم ، وأباح لزواره أن يقرأوا فيها وأن يلعبوا (٤) .

وكانت الكتب التى دونها أبو عمرو بن العلاء عن فصحاء العرب قد ملأت حجرة إلى مايقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ماحفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية (٥) .

٣ — كذلك اشتهر أناس برواية التاريخ وقص الأخبار ، وعرف هذا منذ مطلع الدولة ، فكان معاوية يجلس إلى ثلث الليل يستمع أخبار العرب وأيامها ، وأخبار

---

(١) هناك حديثة بالموصل وأخرى بالفرات وثالثة من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان)
(٢) الفهرست ٦٦ (٣) البيان والتبيين ١/٢٠١
(٤) الأغانى ٤/٥٢ (٥) وفيات الأعيان ٣/١٣٦ .

العجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة وحروبها ومكايدها ، وكان يقرأ له ذلك غلمان مرتبون موكلون بقراءة الدفاتر والمحافظة عليها .

واشتهر بالتاريخ عُبَيْد بن شَرْيَة — من عرب اليمن — حتى لقد استدعاه معاوية إلى دمشق ليروى له أخبار ملوك العرب القدامى وأحوالهم . وقد ألف عدة كتب منها كتاب الملوك وأخبار الماضين[١] ، وقد بقي هذا الكتاب إلى عصر المسعودى (المتوفى سنة ١٤٦) .

وينسب إلى عبيد كتاب فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وهو فصل فى كتاب التيجان فى ملوك حمير ، رواية ابن هشام عن وهب بن منبه[٢] .

كذلك اشتهر بالأخبار كعب الأحبار المتوفى سنة ٣٢ هـ أو ٣٤ ووهب ابن منبه مؤلف التيجان ، وتميم الدارى ويزيد بن مُفَرِّغ الحميرى ، وكان وهب وكعب وغيرهما من اليهود الذين أسلموا حملة لكثير من قصص التلمود إلى العرب .

وكان زياد بن أبيه قد ألف كتابا فى علم الأنساب نال فيه من أنساب العرب لما طعنوا فى نسبه إلى أبى سفيان[٣] .

وكان هناك قصاص العامة يقصون على الناس فى المساجد ويعظونهم ، وقد بدأ هذا تميم الدارى فى عهد عمر ، ومن أعظم هؤلاء مكانة فيما بعد الحسن البصرى . وكان الأعاجم الذين أسلموا يحيون تاريخهم ، ويبثونه بين المسلمين ، ليباهوا بماضيهم المجيد نعرة العرب .

وكان المسلمون قد بدءوا يدونون أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ومايتصل بغزواته ، ثم يدونون أنباء الفتوح والحروب والمواقع . فقد روى أن وهب بن منبه (٣٤ — ١١٠ هـ) ألف كتابا فى المغازى ، وأن عروة بن الزبير (٢٣ — ٩٤) ألف فى سيرة الرسول ، وكذلك أبان بن عثمان بن عفان (٢٢ — ١٠٥) وروى أن ابن شهاب الزهرى (٥١ — ١٢٤) جمع كتابا فى المغازى ، وكذلك موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ .

---

(١) الفهرست ١٣٨ والأغانى ٤/٨ (٢) مطبوع بالهند . حيدر أباد سنة ١٣٤٧ هـ .
(٣) الفهرست ١٢٧ .

٤ — وذكروا أن صُحار بن العياش — من عبد القيس ـ وضع كتابا فى الأمثال أيام معاوية [١]

ورووا أن عُبَيْد بن شَرْيَة الجرهمى وضع كتابا آخر فى الأمثال بعد صُحار، فى منتصف العصر الأموى تقريبا، وقد رأى ابن النديم هذا الكتاب فى نحو خمسين ورقة[٢]، وكان عبيد قد أدرك الجاهلية[٣].

ولعل من خير ما يبين عن ثقافة الكتاب فى العصر الأموى قول عبد الحميد ابن يحيى فى وصاته لهم[٤]: « فتنافسوا يامعشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض[٥]، ثم العربية، فإنها ثِقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط، فإنه حِلْية كتابكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ماتسمو إليه هممكم. ولا تضيعوا النظر فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج ».

— ٣ —

الاتصال بالثقافة الأجنبية :

اندفع المسلمون فى الأقاليم فاتحين، فى سرعة لم يشهد لها التاريخ مثيلا، فتحوا دمشق سنة ١٤ هـ وأكملوا فتح الشام والعراق سنة ١٧، وفتحوا مصر سنه ٢٠، وملكوا فارس سنة ٢١ وبلغوا سمرقند سنة ٥٦، وأخضعوا إسبانيا سنة ٩٣.

وكانت هذه البلاد عامرة بالحضارة وبثقافات شتى، ففى فارس والعراق آداب وعلوم، بعضها فارسى وبعضها يونانى، وفى الشام ومصر فلسفة يونانية،

---

(١) الفهرست ٩٠ (٢) الفهرست ٨٩
(٣) البيان والتبيين ١/٣٦١ (٤) صبح الأعشى ١/٨٥ ومقدمة ابن خلدون ٦٢٠
(٥) الفرائض : المراد هنا أحكام الميراث .

وفى إسبانيا ثقافة يهودية ورومانية ، وهنا وهناك آراء دينية ممزوجة بالفلسفة ، وفلسفة ممزوجة بعقائد دينية ، وقد فسح المسلمون صدورهم لهذه الثقافات ، فكان لها أثر عظيم فى تطور الكتابة ورقيها .

١ — ولقد اتصل العرب بثقافة الإغريق ، وبالآراء الدينية الممزوجة بالفلسفة، بعد أن فتحوا العراق والشام بزمن غير طويل

ذلك بأنهم لما فتحوا العراق كانت فلسفة الإغريق وعلومهم رائجة هنالك ، وكان هذا التراث من أنفس ما كسبه العرب من هذا الفتح ، وكان من أقوى المؤثرات فى عقولهم .

فقد كانت بالهلال الخصيب مدن عدة تنشر تراث الإغريق ، أهمها الرها مجتمع المسيحيين من أهل الشام ، وحَرّان مقرّ الصابئة — عبدة النجوم — من الشاميين ، وأنطاكية المستعمرة الإغريقية القديمة ، وجنديسابور .

وكانت هذه المدارس وأشباهها منابع لفلسفة الإغريق وعلومهم ، وينابيع للدراسة الدينية الممتزجة بالفلسفة منذ أواخر القرن الثالث الميلادى إلى آخر القرن السابع . ذكر ابن النديم أن سالما مولى هشام بن عبد الملك كان يحذق اليونانية ، وقد ترجم منها بعض رسائل لأرسطو[١] .

٢ — وكان السريان بالشام على صلة وثيقة بثقافة الإغريق ، وكانوا قد ترجموا كثيراً من كتب اليونان إلى لغتهم .

وهؤلاء السريان اتصلوا بالدولة الأموية من عهد مبكر ، ثم تزايد اتصالهم على مر الزمن .

فقا كان يحيى الدمشقى[٢] نديما ليزيد بن معاوية . (٦٠ — ٦٤)

---

(١) الفهرست ١٧١ .

(٢) سورى يتكلم الآرامية ويجيد اليونانية والعربية ، ويكتب بهما ، وكان جده منصور بن سرجيوس سهل للمسلمين فتح دمشق ، وتولى لهم إدارة شئونها المالية . وكان أبو يحيى فى هذا المنصب بعد والده منصور .

وقد تولى إدارة الديوان المالى فى دمشق مدة طويلة ، وألف عدة مؤلفات فى العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، وفى التاريخ والفلسفة والخطابة والشعر ، منها كتاب لإرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين ، ومحاورة بين مسلم ونصرانى فى ألوهية المسيح ، ومحاورة فى حرية الإدارة ، وكانت بعض مناقشاته تحدث فى مجلس الخليفة (١)

وتتلمذ خالد بن يزيد بن معاوية للراهب الرومى مريانس ، وتعلم منه صناعة الطب والكيمياء ، وله ثلاث رسائل فى الصنعة ذكر فى إحداها ما كان بينه وبين مريانس ، وكيف تعلم منه ، والرموز التى أشار إليها(٢)

ويذكر ابن النديم أن خالدا هذا كان يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلا ومحبا للعلوم ، وأنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا بمصر وتفصحوا بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وكان هذا أول نقل فى الإسلام(٣)

ثم يذكر أنه كان جواداً ، قيل له : لقد شغلت نفسك بالصنعة ، فقال : ما أطلب بذاك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى ، إنى طمعت فى الخلافة فلم أنلها ، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أترك أحداً عرفنى أو عرفته يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة وله فى الصنعة عدة كتب ورسائل ، رأيت منها نحو خمس مئة ورقة . ورأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة .(٤)

وكان ماسرجويه الطبيب اليهودى الفارسى الأصل قد سكن البصرة فى عهد مروان بن الحكم ، وهو الذى ترجم كتابا سريانيا فى الطب إلى العربية ، كان قد ألفه باليونانية قسيس مسيحى من الإسكندرية اسمه أهرون .

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص مع أبيه بمصر ، وقد قرأ بها كتب دانيال ، وكانت قريش تعد عبدالله عالما (٥) .

---

(١) تاريخ العرب ٢/٣١٤ حتى .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٤ .
(٣) الفهرست ٣٥٢ .
(٤) الفهرست ٥١١ .
(٥) الطبرى ٦/٢٧٥ .

٣ ـ وما كاد القرن الأول يشارف النهاية حتى كان كثير من الأعاجم من فرس وروم قد تعلموا العربية ، وحذقوها ، وكتبوا بها ، وأضافوا إليها بعض رسوم فارسية ويونانية .

فالتاريخ يحدثنا أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أشار على بعض الروم الذين كانوا فى قصره ـ وكانوا يعرفون العربية ـ أن يترجموا له بعض كتب اليونان ، فترجموا له كتابا فى الطب ، وأخرجه للناس ، بعد أن استخار الله أربعين يوما .

ويحدثنا التاريخ أن عبد الحميد بن يحي كان يعرف الفارسية ، ولعله كان يعرف اليونانية أيضا ، وقد كتب لهشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) ، ولمروان بن محمد قبل أن يتولى الخلافة ، ثم لزمه لما وليها (١٢٧ — ١٣٢) ، إلى أن فر إلى مصر ، وسقطت الدولة .

— ٤ —

تقدير الكتاب :

على أن العوامل التى تحدثت عنها فى نهضة الخطابة والشعر أنهضت الكتابة أيضاً .

ثم إن البلغاء ارتفعوا ببلاغتهم إلى أقدار رفيعة ، وكانت بلاغتهم وسيلة من وسائل مجدهم وغناهم ، وليس مثل هذا الحافز باعث على التجويد واستكمال العدة.

ويدل على هذا قول عبد الحميد فى وصيته للكتاب [1] : « إن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معايشهم وأبواب رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية . بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ،

---

(١) صبح الأعشى ١/٨٥ ومقدمة ابن خلدون ٦٢٠ .

وبنصائحكم ، يُصْلح الله للخلق سلطانهم ، وتَعْمُر بلادهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقعُ أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون ... » .

— ٥ —

الجدل :

وكان المسلمون قد انقسموا أحزابا سياسية وفرقا دينية ، وكان كثير من الموالى قد شايعوا هؤلاء وهؤلاء ، وقد تبين فى دراسة الأحزاب وثوراتها أن الجدل بينها كان كثيرا ، حتى لقد كان الخصوم المتحاربون ينتهزون أحيانا هدنة موقوتة فيقبل بعضهم على بعض ، ويجادل بعضهم بعضا ، وكذلك كان الجدال حادا بين الفرق الدينية ، وكان جدال آخر بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى .

ولا شك أن هذا الجدل كان من أسباب نهوض الكتابة والخطابة .

أما الخطابة فقد أسلفت القول فيها ، وفى ظهور نوع جديد منها لم يكن فى الجاهلية ، ولم يكن قد تميز ونضج فى صدر الإسلام ، وهو الخطابة السياسية . وأما الكتابة فقد أنهضها هذا الجدل ، وزودها بكثير من تقاليد هؤلاء الموالى ورسومهم ومعارفهم وثقافتهم وطرائقهم فى المحاجة .

— ٦ —

وقد كان فى العصر كاتبان لهما أثر حميد فى نهضة الكتابة ، وإبراز خصائصها ، وإضافة تقاليد إليها .

أما أحدهما فسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وأما الآخر فعبد الحميد بن يحيي تلميذ سالم .

ولا شك فى أن لسالم وعبد الحميد أثرا فى الكتابة الفنية ، لكنهما لم يبتدعاها ، ولم يضيفا إلى جوهرها أصولا جديدة ، وإنما توسعا فى الخصائص الأصيلة التى كانت معروفة من قبل ، وأضاف عبد الحميد بخاصة بعض مظاهر شكلية ، كما سأوضح فى التدليل على عروبة النثر الفنى وأصالته .

الفصل السابع

النثر الفني عربي النشأة

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان ، كالمسيو مَرْسيه ، فهو يرى أن أول كاتب فى اللغة العربية ابن المقفع الفارسى الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعلل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهى لاتقتضى نثرا فنيا ، لان النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال[1] .

وقد ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، وفصل القال فى هذا ، وعلله فى كتابه (حافظ وشوقى) (٢) وفى كتابه (من حديث الشعر والنثر[3]) .

أما ظهور النثر الفنى عند العرب فإن الأستاذ الدكتور طه حسين يرى أن أول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفنى (٤) ، وربما كان من الحق أن أول من أحدث فى نفوسنا لذة الكتابة الفنية فى العصر الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع .

على أن الأستاذ الدكتور طه أكد أصالة النثر الفنى عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم

---

[١] النثر الفنى فى القرن الرابع ١/٣٣، ٣٨، ٤٣
[٢] حافظ وشوقى ٦٣
[٣] من حديث الشعر والنثر ص ٢٢
[٤] المرجع السابق ٣٥
[٥] المرجع السابق ٤٢
[٦] المرجع السابق ٢٨

والحق أن النثر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة ، كما رأى الأستاذ الدكتور طه حسين فلم ينقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء .

لكن هذه الحقيقة قد تحتاج إلى تدليل عليها ، وإثبات لصحتها ، فينبغى أن أناقش ما ذهب إليه الأستاذ المستشرق مرسيه من جهل العرب للنثر الفنى إلى أن ظهر عبد الحميد بن يحي وعبدالله بن المقفع .

وسأتابع فى هذه المناقشة النثر الفنى بقسميه خطابة وكتابة ، منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

— ١ —

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، شَدَهَ العرب بافتتانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والعناد . أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن مُنَزَّل على النبى من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبى ، وزعموا أنه أوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأنه ساحر ، وبأنه شاعر .

وإذ كان القرآن ذروة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى مبين[1] كما يصفه الله تعالى . فإن من الطبيعى أن يكون العرب قبيل الإسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم . فإن الله تعالى يقول . « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم » [2] . ثم إن الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ما تحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٣).

(١) سورة الشعراء ١٩٢
(٢) سورة إبراهيم ٤
(٣) سورة الإسراء ٨٨

لكننا بحاجة إلى نصوص نطمئن إليها فى معرفة العرب للنثر الفنى قبل الإسلام، لأن الشك يخامر ما رُوى عنهم من خطب ووصايا ورسائل، وفقدان هذه النصوص التى نطمئن إلى صحتها ليس دليلا على جهالة العرب بالنثر الفنى.

— ٢ —

العرب قوم ذوو لَسَن وبلاغة، يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة، ويأمرون بالتَّبَيُّن والتَّثَبُّت والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرأى[١].

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك، قال تعالى: « ولتعرفنهم فى لحن القول »[٢] وقال: « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه، وهو ألد الخصام »[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا، ومعلا لمدحه وقدحه: إن من البيان لسحرا[٤].

لهذا كانت معجزة النبى من جنس ما تميزوا به، من بلاغة المنطق، وروعة التعبير، وساحر البيان.

— ٣ —

كان للعرب فى جاهليتهم أمثال كثيرة، سلم بعضها من النسيان والإغفال، وبقى إلى أن دون، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال نعرفه اليوم كتاب المفضل الضبى المتوفى حوالى ١٧٨ ﻫ[٥].

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلى، كما نرتاب فى الخطب، لأن فى طبيعة الأمثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا، فعباراتها قصار يَسْهُل حفظها وبقاؤها وتداولها، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها، لأنها تمثل

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩١ و ١٩٧ — (٢) سورة محمد ٣٠

(٣) سورة البقرة ٢٠٤ — (٤) البيان والتبيين ١/٥٣

(٥) أمثال العرب للمفضل الضبى.

تجارب سابقيهم وآراءهم وأحكامهم ، ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه فى الحدث الحاضر ، ثم إنها تصور ألوانا من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، وما تزال صادقة فى تصويرها حينما يتمثل بها مُرَدِّدوها .

ولكن ما علاقة الأمثال بالنثر الفنى ؟

فى كثير من هذه الأمثال صفات ترتفع بها من اللغة المألوفة فى الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة وافتنان .

١ — فهى مرسلة فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعا وتماثلا فى عدد الكلمات ، مثل : ادَّرعوا الليل ، فإنه أخفَى للوَيْل . اليوم خمر ، وغدا أمر . رُبَّ عجلة تهب ريثا ، ورب فَرُوقه يُدْعَى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا . إن البغاث بأرضنا يستنسر . تجوع الحرة ولا تأكل بثديَيْها . عند الصباح يحمد القوم السُّرَى .

٢ — وهى أحيانا تعتمد على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة ، مستمدة من البيئة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ، كقولهم فى وصف من ارتكب قبيحا يستحي منه ، ويريد أن يستخفى من الناس : « جاء كخاصِى العَيْر » . لأن خصاء العير عمل قبيح شاذ إن صح أن يحدث فإنه لايقوم به إلا حقير . وكقولهم فى وصف المغرور بما يتوهم فى نفسه من ميزات ومواهب ، أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها بغير أن يقيس ما عند الناس : « كل مُجْرٍ فى الخلا يُسَرُّ » لأن الذى يجرى فرسه وحيدا فى الخلاء ينخدع بسرعته ويفرح بعَدْوه ، لكنه إذا سابق به غيره تبين له بطؤه وضعفه . وكقولهم فى مَنْ يتنصل من خلق فيه أو من وصف ثابت له ، فيدَّعى أنه طارىء عليه ، كأن يكون جبانا ، ويزعم أنه لم يجبن إلا لمرض نزل به ، أو حقير النشأة ، فيدعى أن الدهر هو الذى أفقده مجده : « قَبْلَ النِّفاس كنتِ مُصْفَرَّة » لأن المرأة التى كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة ، تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها أثر من آثار النفاس .

٣ — ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، يضفى به صفات العقلاء على غير العقلاء من شعور وإدراك وفهم وتعقل ورزانة وتهور ، كقولهم فيمن يكتم السر : « أكتم من الأرض » ، كأن الأرض إنسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ، ويفعل ذلك عن روية وتدبر .

وكقولهم فى وصف الأحمق : « أحمق من رِجْلة » لأنها تنبت فى مجارى السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهى التى اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه .

— ٤ —

احتفى العرب بالخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين فى القدر .

يقول لبيد[١] :

ومقــام ضَيِّقٍ فرَّجتُهُ ببيان ولســانٍ وَجــدَلْ

ويقول قيس بن عاصم المنقرى فى وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسُنُ[٢]

ويرثى أوس بن حَجَر فَضَالة بن كَلَدَة[٣] بأنه الخطيب الفذ فى مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حَفَلُوا عنـد الملوك أولى كَيْد وأقوال

ويقول أبو قرْدُودة الطائى فى رثاء ابن عمّار الطائى[٤] بأن قاتليه قد حرموا الناس

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٦٥
(٢) البيان والتبيين ١/ ٥٧
(٣) المرجع السابق ١/ ١٨٠
(٤) المرجع السابق ١/ ٢٢٣

كرمه العظيم ومنطقه الجميل الأخاذ الذى يشبه الثوب الموشّى باليمن :

يا جَفْنةً كإزاء الحوض قد هَـــدَموا
ومَنطِقا مثل وَشْيِ اليُمْنَةِ الحِبَره [1]

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون فى مقالهم ، ويُحَبِّرونه ويزينونه، ثم يسترسلون . يقول الجاحظ [2] « كان الكلام الباثت عندهم كالمقتَضَب [3] ، اقتدارا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه . وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأى فى مَعَاظم التدبير ، ومهمات الأمور مَيَّثوه [4] فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوَّمه الثِّقاف . . . أبرزوه مُحَكَّكا منقّحا ، ومُصَفًّى من الأدناس مُهَذبا » .

أى أنهم كانوا أحيانا يعمدون إلى التحبير والتزيين والتنميق ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة فى العصر الإسلامى ، كما قدمنا فى دراستها .

ولا شك أن كثيرا من الخطب كان يُعَدُّ إعداداً فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان إعدادا مكتوبا أم غير مكتوب .

يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان فى يوم السقيفة قد زَوَّر — حبَّر وأعدَّ — كلاما ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان عمر يريد أن يقول [5] . وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صعداء ومشقة [6] . ورُوى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فأُرْتِج عليه ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدأن لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله [7] . وهذا النص صريح فى أن أبا بكر وعمر كانا

---

(١) إزاء الحوض : مصب الدلو فيه . اليمنة : برد يمنى . الحبرة . بكسر الحاء وفتحها وفتح الباء ضرب من برود اليمن منمر موشى (لسان العرب مادة حبر) .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٤ (٣) المقتضب: المرتجل [٤] ميثوه : ذللوه

[٥] الطبرى ٣/٢٠٠ [٦] البيان والتبيين ١/١١٧

[٧] البيان والتبيين ١/٣٤٥

يعدان خطبهما أو على الأقل بعض خطبهما ، وفى أن عثمان قد فوجىء غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجىء على النسق الذى يرضاه ويرتضونه .

ورُوى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وَهب الراسبى — حين ولوه رياستهم — أن يخطب فيهم ، فقال : وما أنا والرأىَ الفَطِير ، والكلام القَضِيب[1]

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء فى خطبه[2] ، ليخفى لثغته ،ومعنى هذا أنه كان يعدها ويتمهل فى إعدادها .

وحسبى هذا القدر ، فقد عرضت للإعداد فى خصائص الخطابة .

على أن طابع الإعداد والتأنق يتضح فى كثير من خطب العصر الأموى ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتى الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة أبى حمزة الشارى بالمدينة ، لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، بارعة التعبير ، متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال .

ولقد يسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعقبها العرْض ، وبه أحيانا تدليل وتفنيد ، ثم تنتهى بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ، وهى بهذه المراحل قد استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين[3] .

على أنه لايشترط فى الخطبة أن تضم هذه الأجزاء كلها ، لتكون بارعة أو كاملة ، فالمهم الموضوع نفسه ، لكن اشتمال بعض الخطب فى العصر الأموى على هذه الأجزاء يؤكد أنها مُعَدّة قبل الإلقاء .

---

(١) المرجع السابق ١/٢٢٥ (٢) المرجع السابق ١/١٤

(٣) راجع كتاب (فن الخطابة) للمؤلف .

— ٥ —

لم تكن الكتابة فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا فى بعضها التحبير والاحتفال ، كرسالته إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر فى الرسائل الكثيرة المتبادلة بين على ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عربت دواوين الخراج فى عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خُلَّص ، أو مستعربون حذقوا العربية ، كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحي .

وكان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم فى النهوض بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاءهم فى الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النثر الفنى لم يتمثل فى الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها إلى ضرب آخر هو التأليف والتدوين ، كما عرضت لذلك فى عوامل ازدهار الشعر والكتابة .

ولقد كان كثير ممن يملون الرسائل أو يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، ومن هنا جاءت رسائلهم بليغة الصيانة طريفة الخيال ، كما نجد فى الرسائل المتبادلة بين على ومعاوية وبين معاوية وزياد ، وبين الحجاج وقطرى .

ويدل على هذا أيضا أن معاوية أملى كتابا قال فيه عن رجل : لهو أهون علىّ من ذَرَّة ، أو كلب من كلاب الحَرَّة ، ثم قال للكاتب : امحُ من كلاب الحرة ،وا كتب من الكلاب[1] . ولعله كره هذه السجعة،لأن كلاب الحرة ليست

(١) رسائل الجاحظ ١٥٥

أكثر هوانا عليه من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية التى اشتهر العرب بها .

— ٦ —

على أننا نتعمق فى التدليل ، ونتبسط فى التوضيح ، فنعقد موازنة بين صفات النثر الفنى عند عبد الحميد بن يحيى ، وصفاته فى الرسائل التى كتبت فى عصر بنى أمية وبنى مروان ، قبل أن يخط عبد الحميد سطرا ، فماذا نجد ؟

نجد اتفاقا ونجد تشابها فى الجوهر ، ولا نجد اختلافا إلا فى الشكل والمظهر .

ولقد يكون هذا الحكم فى حاجة إلى تفصيل ، فما تفصيله ؟

نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آنا ويوجز آنا ، مراعيا ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنويع ، فقد تقدم فى نماذج الرسائل وفى دراستها أنها كانت تطول أحيانا وتقصر أحيانا ، مجاراة للموضوع أو مراعاة للمقام .

ونجد فى رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وتوليد المعانى ، أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن أملوا رسائل فى العصر الأموى وممن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى انتباهنا فى نثر عبد الحميد أنه يجنح أحيانا إلى الخيال يفوِّف به الأفكار ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن فى بعض الرسائل التى درسناها ألوانا من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصالة .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتحبير وتعمد التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيرا من رسائل العصر أعدها كاتبوها أو مملوها وتأنقوا فيها ، ونمقوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يُفَصِّل جمله ويَقَطِّعها متساوية الطول

ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذى لا استكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره فى كثير مما يكتب ، لكنى أذكر أن هذه الصفات كلها فى كثير من النماذج التى قدمتها لدراسة الكتابة فى العصر الأموى .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتأنقه فى البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام،وإطالته فى البدء بنوع خاص بعبارات التحميدوالثناء ، ولكن تَفَرُّدَه بهذا لا ينهض دليلا على أنه أول من كتب فى العربية نثرا فنيا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفتهم للنثر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغى أن ينصب على الأصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولأن النثر الفنى ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنق والإطناب فى مطالع الرسائل وخواتيمها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

— ٧ —

إذاً فقد كان النثر الفنى معروفا للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد وابن المقفع ، وجعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على ألسنة العرب الذين أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الأموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، ثم كان عبد الحميد أول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت فى آثار قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار من الحق — كما ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين — أن نثر عبد الحميد وابن المقفع هو أول نثر فنى يحدث فى نفوسنا لذة ، ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النثر الفنى فى أدبنا العربى لم يكن يونانى النشأة ، ولا فارسى المولد ، وإنما نشأ عربيا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النثر الفنى واضحا بعد ، ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك وعلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معالمه فى نثر ابن المقفع ومن بعده أوضح منهما فى نثر عبد الحميد ومعاصريه .

الباب الخامس

العصبية القبلية والجنسية

دولة ناشئة انتزعت الملك من براثن الساعين إليه حراصا على الظفر به .

دولة ناشئة ، لم يطمئن رجالها على سلامة ملكهم طوال عهدهم أو أكثره .

وكيف يطمئنون ؟ وفى أصقاع المملكة أحزاب قوية تجدُّ فى أن تظفر بالملك ، ولا تفتأ تشعل الثورات هنا وهناك .

وقد عرفنا أن الدولة تسلحت بالشعر فيما تسلحت ، لتوطد دعائم ملكها ، وتستميل الناس إليها .

لكن الحراص على الملك لا يكتفون بسلاح واحد ، ماداموا قادرين على التسلح بغيره . وقد تسلح بنو أمية بالسيف ، وباللسان ، وبالقلم ، وبالعطاء ، ولم يغنهم هذا كله عن سلاح آخر هو العصبية .

نعم كانت سياسة التفريق والتمزيق سلاحا آخر من أسلحة الأمويين ، استغلوه وانتصروا به ، وشغلوا الناس بأنفسهم ، وشغلوهم بالعصبية ، وتقووا به ، ثم ارتد السلاح عليهم ، فقوض ملكهم الذى شادوه .

وهذه العصبية نوعان : نوع بعثه بنو أمية من مرقده ، بعد أن استخفى فى صدر الإسلام ، ونوع جديد لم يعمدوا إلى بعثه وإيقاظه ، وإنما نجم فى عصرهم نتيجة لبواعث سياسية واجتماعية .

أما النوع الأول فهو العصبية القبلية .

وأما الثانى فهو العصبية الجنسية ، أو الشعوبية .

وسأتحدث عن النوعين وأثرهما فى الشعر

الفصل الأول

العصبية القبلية

مظاهرها

بين العرب وقريش :

سلك معاوية ومَنْ بعده مسلكا بعث العصبية من مراقدها ، على حين أن كثيراً من القبائل العدنانية (١) والقحطانية (٢) كانت متلهفة إلى بعث العصبية ، لتشفى ما بأنفسها من غل ، إذ وجدت المهاجرين من قريش والأنصار من اليمن ، هم الذين سيطروا على شئون الدولة والحكم ، وهم الذين شرفوا بالسبق إلى الإسلام .

ولاشك أن كثيراً من القبائل العربية كانت تنقم من قريش أنها ازدادت مجداً بالنبوة ، وازدادت شرفا بالخلفاء الأربعة .

وكانت غيرتهم من الأنصار أقل ، لأنهم من الخلفاء كأنهم مستشارون ووزراء ، فليس لهم من السلطان ما يشعل الغيرة منهم كالغيرة من الخلفاء .

وقد استبان معاوية منذ تولى الخلافة أن قريشا فى جانب ، وأن العرب كلها من نزارية ويمنية تكاد تكون فى جانب آخر .

واستبان أيضاً أن كثيراً من أشراف النزارية ربعيين ومضريين يشرئبون إلى الخلافة ، ولم يَخْفَ عليه أن القرشيين أشد هؤلاء طمعاً ، وأقواهم أملا ، وأكثرهم تطلعا ، وأن بعضهم قد اجتذبوا إليهم الأشياع والأتباع ، فاتجه معاوية

---

(١) مثل تميم وقيس من مضر ، وبكر وعبد القيس من ربيعة .
(٢) مثل كندة والأزد من اليمن .

إلى استمالة اليمنية ، ليعتمد عليهم وعلى بعض نزارية الشام فى تثبيت ملكه .

وكانت قبيلة كلْب — الضاربة بدُومة الجندل وتبُوك وأطراف الشام — أولى القبائل اليمنية التى استظهر بها معاوية ، واستثارها إلى قتال علىّ وأعوانه من المضرية ، وأراد معاوية أن يوثق صلة الكلبيين به ، ويربط شرفهم بشرفه ، فأصهر إليهم ، إذ تزوج ميسون بنت بَحدل أم ابنه يزيد ، ولم يتردد هؤلاء فى مناصرته ، لأنهم أصهاره ، ولأن منهم نائلة بنت الفُرافصة زوجة عثمان بن عفان فهبُّوا معه مطالبين بدم عثمان .

ثم جعل يغدق عليهم ، ويختص اليمنيين بالعطاء ، حتى تبين له سوء هذه السياسة ، ففرض لغير اليمنية من بعض ربيعة وقيس وتميم . فقد قدم مسكين الدارمى على معاوية ، وسأله أن يفرض له عطاء . فأبى عليه ، وكان لايفرض إلا لليمن . فلما وجد اليمن قد عزت وكثرت وتغلبت على عدنان — حتى إن رجلا يمنيا قال : لقد هممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر ، بل هممت ألا أحل حبوتى حتى أخرج كل نزارى بالشام ، وعلم معاوية بهذا — ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس ، وفرض لأربعة آلاف من خِنْدف ، وبعث إلى مسكين الدارمى — وهو من خندف — أنه قد فرض لأربعة آلاف من قومه ، وأن عطاءه سيصل إليه وهو فى بلاده [1] .

وبهذا صار لمعاوية حزب قوى يظاهره على أنصار على ، وعلى جمهرة قيس ، وهذا هو معنى انقسام العرب إلى كلبية — أنصار معاوية ومن بعده — وقيسية — أنصار علىّ ثم ابن الزبير — أو إلى يمنية ومضرية .

بين النزارية واليمنية :

أرخى الإسلام أستاراً على ما كان بين اليمنية والنزارية من بغضاء وشحناء وتنافس ، ولكن هذه الأستار التى كانت سميكة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأغانى ١٨/٧٠.

لم تلبث أن صارت رقيقة منذ قُبض إلى الرفيق الأعلى ، فاشرأبت الأنصار إلى الخلافة ، وطمع فيها المهاجرون ، وانجلى مؤتمر السقيفة عن غلبة المهاجرين ونصرة قريش ، وجعلت السنائر تتهلهل على مر الزمن ، حتى قاربت البِلَى فى عهد عثمان .

وبحسبنا حادث واحد نسوقه ، ففيه الغناء . كان سعيد بن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، وكان بمجلسه سنة ٣٣ هـ صفوة من أهل الكوفة يسمرون عنده ، فقال لهم : إنما سواد الكوفة بستان لقريش ، وكان أكثر هؤلاء الجلساء من اليمنية ، فغضبوا ، وغضبت اليمنية وغيرهم ، وقالوا له : إنما السواد فىء أفاءه الله علينا ، وليس لقريش منه أكثر مما لغيرها من المسلمين ، فغضب صاحب شرطته لأنهم أغلظوا فى الرد على أميرهم وأميره ، فزجرهم ، فقاموا إلى صاحب الشرطة فضربوه حتى أغمى عليه ، فقام سعيد من مجلسه مغاضبا لهم ، واحتجب عنهم ، وكتب إلى عثمان يخبره خبرهم ، وأنه يخشى أن يفتنوا الناس ، فأشار عليه أن ينفيهم إلى الشام ، وحاول معاوية أن يقنعهم بأن لقريش الفضل على العرب، فلم يبلغ منهم ما أراد ، فكتب إلى عثمان أنه يتخوف منهم على أهل الشام ، واستعفاه من مقامهم هناك ، فأعفاه ، وأذن له أن يردهم إلى الكوفة .

عادوا إلى الكوفة ، ثم نفاهم منها سعيد إلى الجزيرة [١] .

وكان مقتل عثمان تأريثا لهذه العصبية ، وتوسيعا لما بين النزارية واليمنية من فرقة ، إذ انضم أكثر المهاجرين إلى معاوية ، وانضم أكثر الأنصار إلى علىّ ، حتى قال عمار بن ياسر — وهو يمنى — فى حرب صفين : أيها الناس ، هل من رائح إلى الله تعالى تحت العوالى ؟ ووجه الخطاب إلى أنصار معاوية ، فقال : والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله ، كما قاتلناكم على تنزيله [٢] ، ومعنى هذا أن الأنصار الذين يؤازرون عليا يقاتلون المهاجرين الذين يناصرون معاوية ، وهم مدفوعون بعقيدة دينية ، هى أنهم على الحق ، وخصومهم على الباطل ، كما قاتلوهم

---

(١) الطبرى ٥/٨٥ — ٩٠

(٢) مروج الذهب ٢/٢١

من قبل مناصرين للرسول عليه الصلاة والسلام ، حينما كذبته قريش ، وعذبت المسلمين الأولين .

وكان أنصار معاوية من المهاجرين يشعرون بمثل هذا الشعور ، وحسبنا أن عمرو بن العاص كان يحرض معاوية على الأنصار ، وكان يبغض إليه هذا اللقب الكريم الذى شرفهم به القرآن الكريم ، واختصهم به النبى عليه الصلاة والسلام ، وأشار على معاوية أن يلقبهم بلقبهم القديم (بنو قَيْلة[1]) . ولم يرفض معاوية اقتراح عمرو ، لأنه صادف هوى من نفسه ، فلما وفد الأنصار على معاوية ، أمر حاجبه سعدا أن يناديهم بالأوس والخزرج أو بأبناء عمرو بن عامر ، فغضب النعمان بن بشير وقال :

ياسعدُ لاتُعِدْ الدعاء فما لنا ... نسبٌ نجيب به سوى الأنصار
نسبٌ تخيّره الإله لقومنا ... أَثْقِلْ به نسباً على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكمُ ... يوم القَلِيبِ همُ وقود النار

وانصرف ساخطا هو ومن معه ، فبعث إليه معاوية وترضاه ، وقضى حوائجه وحوائج من معه من الأنصار .

فلما ثار عبد الله بن الزبير بمكة فى عهد يزيد بن معاوية ، ظاهرته قبائل قيس[2] ، وظاهرت يزيد قبائل كلب[3] لأنهم أخواله .

ثم جاء مروان بن الحكم فاستعان الكلبية على القيسية ، فى صراعه لابن الزبير حتى انتصر فى مرج راهط[4] .

---

[١] قيلة . أم الأوس والخزرج .

(٢) من نزار ... (٣) من قحطان .

[٤] كان حسان بن مالك رئيس اليمنية وسيدها بالشام . فلما أعان مروان على ابن الزبير اشترط عليه ما كان لقومه على معاوية وابنه يزيد ومعاوية بن يزيد ، ومن شروطه : أن يفرض لألفى رجل من اليمنية ألفين ألفين ، فاذا مات الرجل قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وأن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس ، وأن يستشاروا فى كل أمر ذى بال . فرضى مروان بذلك . [مروج الذهب ١٠٦/٣]

ولابد من أن نلاحظ أن العداء بين النزارية والقحطانية قديم العهد ، حتى لقد كان لكل منهم شعار حرب يخالف شعار الآخر ، فكان المضريون يلبسون عمائم حمرا ، ويرفعون ألوية حمرا ، وكان اليمنيون يتخذون عمائم صفرا .

كذلك كان العداء قديما بين القيسية والكلبية ، فإن قبائل قيس — من مضر — كانت قد ارتحلت إلى الجزيرة والشام ، فزاحمت بالشام قبائل كلب اليمنية ، وزاحمت بالجزيرة قبائل تغلب — من ربيعة — فنشبت بينها وبين كلب وتغلب حروب ووقائع . فلما كان العهد الأموى ، واستنصر بنو أمية بكلب وتغلب ، كان من الطبيعى أن يناصر خصوم هاتين القبيلتين الحزب الثائر على بنى أمية ، فكانت قيس موالية لابن الزبير ، ومناصرة له بسيوفها .

نتائجها السياسية

— ١ —

اطمأنت الدولة إلى العصبية القبلية ، ولعلها نظرت إليها نظرة المستعمر فى العصر الحديث إلى الشعب الذى استعمره ، وقد انقسم إلى شيع وأحزاب ، بأسهم بينهم شديد .

لكن هذه الطمأنينة كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى فى الدولة ، فهدّم أركانها ، وعجل بسقوطها .

وإذا كان الأمويون قد استنصروا بالعصبية على خصومهم ، فانهم ما لبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعض الأمويين على بعض .

١ — فقد انحازت اليمنية إلى بنى أمية ، بعد موت يزيد بن معاوية ، وآزرت ابنه خالدا ، وحصرت الخلافة فيه .

غير أن كبراء بنى أمية آثروا أن يولوا مروان بن الحكم ، على أن يكون الحكم بعده لخالد ، ثم غدر مروان بوعده ، وورث الحكم بنيه .

٢ — وكان بعض قيس — وقد عرفنا ولاءها لابن الزبير — يعضدون أحيانا بنى أمية ، فهم الذين ناصروا هشام بن عبد الملك ، وهم الذين نصبوا مروان ابن محمد خليفة بعد قتل يزيد بن الوليد ، لأن أم يزيد قيسية ، لهذا تعصب لهم مروان، فأوغر اليمنية بالشام وغيره .

٣ — وكان الأمويون يقربون قبيلة تغلب ، لأنها ناصرتهم مرات ، ناصرتهم فى صفين إذ آزرت معاوية على على ، وناصرت يزيد بن معاوية فى موقعة الحرة ، وظاهرت مروان بن الحكم فى موقعة مرج راهط ، لكن تقريب الأمويين لتغلب كان يغضب قبائل قيس وقبائل كلب ، وكان شعراء القبائل الثلاث يتهاجون ويتفاخرون ، ويعبر كل منهم عن موجدة قومه على خصومهم .

٤ — على أن بعض الولاة كانوا بتعصبهم أشد إغضابا للناس من الخلفاء .

وخالد بن عبد القسرى[١] — والى هشام بن عبد الملك على العراق — مثل فى هذا . فقد كان شديد التعصب لقومه اليمنية ، يؤثرهم بالمناصب ، وينحى غيرهم من المضرية .

وكان اليمنيون الذين يوليهم خالد ، يحاكونه فى تعصبه ، فهاجت المضرية ، وسعت به إلى هشام حتى أوغرت صدره عليه ، فكتب إليه هشام يقول :

« يا بن أم خالد ، قد بلغنى أنك تقول : ما ولاية العراق لى بشرف ، فيابن اللخناء[٢] ، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفا ، وأنت من بجيلة[٣] القليلة الذليلة ؟

أما والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش ، يشد يديك إلى عنقك » .

---

(١) تولى الحجاز للوليد بن عبد الملك ولسليمان أخيه ، ثم تولى العراقين لهشام ، وكان أثيرا عنده ، ثم تغير عليه .

(٢) اللخناء : الأمة القذرة الخبيثة الرائحة .

(٣) بجيلة : قبيلة يمنية من بطونها قسر .

وكتب إليه رسالة أخرى[١] .

ثم عزله ، وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفى[٢] ، وسلطه عليه ، فعذبه وسجنه ، وبقى فى السجن حتى مات سنة ١٢٦ ﻫ فى عهد الوليد بن يزيد .

كذلك كان أخوه أسد بن عبد الله القَسْرى — والى هشام على خراسان — يسىء إلى المضريين ، كما فعل خالد بالعراق ، فحنق المضريون ، وكرهوا بنى أمية .

على أن هشاما لم يحنق على القسرى لتعصبه فحسب ، بل لتعصبه من ناحية ، ولأنه استأثر بفائض الخراج من ناحية ، وكان هذا الفائض يبلغ ١٣٠٠٠٠٠٠ درهما ، وكان خالد قد أسرف فى إنفاق ثلاثة أمثال ذلك[٣]

٥ — اشتعلت العصبية فى البوادى والحواضر ، وتفاقم خطرها ، فلم يقتصر بعض الولاة على التقريب والإيثار أو الإبعاد والحرمان ، بل تجاوزوا ذلك إلى سفك الدماء . فكان معن بن زائدة والى اليمن يقتل اليمنية ، تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وكان عقبة بن سالم يردّ على هذا بعمان والبحرين ، فيقتل عبد القيس وغيرهم من ربيعة ، مكايدة لمعن ، وعصبية لليمنيين من قومه[٤] .

وجعل كثير من الولاة يفعل مثل ذلك ، فكانت نيران العصبية لا يخبو أوارها فى كل صقع ، وإذا خبا فإنه لا يلبث أن يشتعل .

٦ — وبلغ من حدة العصبية بين النزارية واليمنية أن خططت الكوفة تخطيطاً قبليا ، إذ قسمت قسمين : شرقى وغربى ، وكان الشرقى خيراً من الغربى ، فضربت القرعة على الشرقى فكان نصيب اليمنية ، ونزلت النزارية بالغربى ، ثم

(١) الكامل للمبرد ٢/٢٩٨
(٢) ابن عم الحجاج ولاه هشام اليمن سنة ١٠٦ والعراق سنة ١٢٠ ثم قتل سنة ١٢٧
(٣) الطبرى واليعقوبى ٢/٣٨٧ .
(٤) مروج الذهب ٢/١٩٢

خطط كل قسم من القسمين للقبائل اليمنية والنزارية[١] . وكان اليمنيون بالكوفة اثنى عشر ألفا ، والنزاريون ثمانية آلاف[٢] ، وكان النزاع بينهم شديدا وعنيفا وكذلك خططت البصرة .

ثم إن العصبية لم تقتصر على أن تكون بين السادة ، بل تعدتهم إلى مواليهم وأرقائهم ، فكان سُدَيْف — شاعر حجازى من مخضرمى الدولتين — شديد التعصب لبنى هاشم ، مظهرا لتعصبه فى أيام بنى أمية ، يخرج فى جماعة من موالى بنى هاشم إلى ظاهر مكة ، وشبيب — مولى لبنى أمية — يخرج فى جماعة من موالى بنى أمية ، فيتسابان ، ويذكران المثالب والمعايب ؟ ثم يتضارب بالسيوف من معهما من سفهاء الفريقين، ولا يبرحون حتى تكثر الجراح ، ويخرج الوالى إليهم فيفرقهم ، ويعاقب الجناة . ولم تزل العصبية بهم حتى شاعت فى العامة والسفلة ، وهم الذين كان يطلق عليهم السُّدَيْفية والشبيبية ، وظلوا كذلك طول أيام بنى أمية[٣] .

وتجاوزت العصبية إلى حَمًى ماكان لها أن تتجاوز إليه ، روى أن رجلا من الأزد — وهى يمنية — كان يدعو لأبيه وهو يطوف بالبيت ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال . إنها تميمية[٤] .

٧ — وطبيعى ألا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب

وهم بإيثارهم للكلبية يهيجون القيسية .

وهم بتقريبهم للقيسية أو للتغلبية يحنقون الكلبية .

وهم إذا ماتعصبوا لليمنية ، أو تعصب لها ولاتهم ، يغضبون النزارية .

وهم بهذه السياسة التى حسبوها خيرا لهم فى أول الأمر ، جرئوا على أنفسهم

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٩٢ وخطط الكوفة لماسينيون ١٠ ترجمة المصعبى .
(٢) فتوح البلدان ٢٧٦ .
(٣) الأغانى ١٤/١٠٦ .
(٤) الكامل للمبرد ١/١٩٨ .

شرا كثيرا ، فإن العصبية لم تنحصر فى إقليم واحد ، بل انتشر شررها فى الدولة كلها ، إذ كان فى كل بلد حزبان : مضرى ويمنى ، يتداولان النفوذ حسبما كان حال الولاة من شدة ولين ، وتعصب وسماحة ، وبهذا صارت العصبية مرضا فى المجتمع ، نجمت عنه فتن وثورات ومنازعات بخراسان وفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس.

٨ — فى هـذا المجتمع الممزق الساخط بثَّ بنو العباس دعاتهم ، فجعلوا يشهرون ببنى أمية ، ويدعون لبنى العباس ، وجعلوا يستغلون حنق النزارية وحنق اليمنية الذين قد تزايد غضبهم على بنى أمية ، وعلى مروان بن محمد بصفة خاصة .

وسرعان مادنت النهاية المحتومة ، وأنذر نصر بن سيَّار والى خراسان هشام ابن عبد الملك بقوله[1] :

أرى خَلَلَ الرماد وَمَيضَ نار ... ويوشك أن يكون لها ضِرام
فإنْ النار بالعُودَيْن تذكَى ... وإن الحرب أولُها الكلام
فإنْ لم تطفئوها تَجْنِ حربا ... مُشَمَّرَةً يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أميةُ أم نيام
فإنْ يكُ قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففِرِّى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام

وقد تكهن بما تجره العصبية النزارية واليمنية من شرور تحيق بالعرب من الفرس المتربصين بهم فى قوله[2] :

أبلغْ ربيعةَ فى مَرْوٍ وإخوتَهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ... حربا يُحرَّق فى حافاتها الحطب

---

(١) الأغاني ١٥/١١٦ ومروج الذهب ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٥/٢٤٠

(٢) العقد الفريد ٥/٢٤١ .

ما بالكم تَلْقَحُون الحرب بينكمُ ... كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُبُ
وتتركون عدوا قد أظلكمُ ... ممن تأشّب لادينٌ ولا حسب
قِدْماً يدينون دينا ماسمعتُ به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاعن أصل دينهمُ ... فإن دينهمُ أن تُقْتَل العرب

لكن التحذير لم يغن منّ الأمر شيئا ، إذ كانت دعوة بنى العباس أقوى من الحيطة وأقوى من المقاومة ، وكانت اليمنية قد ضاقت بتعصب مروان بن محمد لقومه من مضر ، فرحبت بالدعوة العباسية ، وآزرتها ، وما هى إلا جولة أو جولات حتى تهدم صرح بنى أمية ، وقام صرح بنى العباس .

نتائجها الشعرية

تحقق للأمويين ما أرادوا ، فهبّت العصبيات من مراقدها ، وانطلقت من مرابضها ، فشغلت المجتمع العربى حقبة من الزمن .

وقد تجلى تأثيرها الأدبى فى عدة مظاهر .

— ١ —

التهاجى :

اشتعلت المهاجاة بين شعراء القبائل المتعادية ، واستمرت النقائض ، وتكاثر الشعراء بالمفاخرات ، وليست دراسة الجانب غير السياسى من موضوعنا ، فبحسبنا أن نجتزىء ببضعة أمثلة متصلة بالسياسة .

١ — هجا كثير من الشعراء خالدا القسرى ، فرد عنه شعراء اليمن وهجوا مضر .

وكانت بعض أعمال خالد من حوافز الشعراء على هجائه ، فإنه إلى تعصبه لليمنية كان رقيق الدين ، ذلك أنه لما كان واليا على الحجاز استهان ببئر زمزم ،

وضرب الشّيبي رئيس حجاب الكعبة مئة سوط ، لأنه رفض أن يفتح له بابها .
ثم ولى العراق فلم يقنع بأن أمه باقية على نصرانيتها ، بل بنى لها كنيسة بجوار المسجد ، كان ناقوسها يدق إذا نادى المؤذن للصلاة ، وكان الذين بها يرفعون أصواتهم بالقراءة حينما يخطب الخطيب على المنبر .

قال الفرزدق فى هجائه (١):

سلوا خالدا ـ لا أكرم الله خالدا ـ متى وَلِيَتْ قَسْرٌ قريشا تَدينها؟
أقبل رسول الله أم بعـــد عهده فتلك قريش قد أغَثَّ سمينها
رجونا هداه ـ لا هدى الله خالدا ـ فما أمه بالأم يُهْدَى جنينها

وقال أيضاً (٢) :

ألا قَطَعَ الرحمان ظهرَ مَطِيَّةٍ أتتنا تَمَطَّى من دمشق بخالد
وكيف يَؤُمُّ المسلمين وأمُّه تدين بأن الله ليس بواحـــد؟
بنى بيعةً فيها الصـــليب لأمه وَيهْدِم من كُفْرٍ منارَ المساجد

على أن جريرا ـ وهو مضرى ـ مدح خالدا ، ونقض هجاءه ، مكايدة للفرزدق ، واستجابة للعطاء .

٢ — قال رجل من بنى أَسَد بن خُزَيمة يمدح يحيى بن حَيّان أخا النَّخَع ، ويفديه باليمانين كلهم ، ثم يريد أن يضيف إليهم ألفا من المضريين ، لكن عصبيته لقومه لم تطب بهذا ، وطابت بأبناء قحطان جميعا :

ألا جعـــل الله اليمانين كلهم فِدًى لفتى الفِتيان يحيى بن حيان
ولولا عُرَيقٌ فىَّ من عصبية لقلت : وألفاً من مَعَدِّ بن عدنان
ولـكن نفسى لم تَطِبْ بعشيرتى وطابت له نفسى بأبناء قحطان

(١) ديوان الفرزدق ٨٧٤
(٢) الأغانى ١٩/١٨ وديوان الفرزدق ١٨٩ .

٣ — هجا الفرزدق[1] ـ من تميم ـ الأزد اليمنية .

٤ — فرد عليه الطِّرِمَّاح[2] ـ طائى يمنى ـ فهجا تميما .

٥ — كان شعر الكميت ذا أثر بعيد فى إثارة العصبية بين اليمنية والعدنانية . ولعل أول ما كان من شعره فى هذا قصيدته التى أشاد فيها بمناقب قومه من مضر وربيعة وإياد وأنمار أبناء نزار بن معد بن عدنان ، وفضلهم على قحطان ، وصرح بالقحطانيين وعرض بهم ، كقوله[3] :

لنا قمر السماء وكلُّ نجم ... تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدتُ الله إذ سمى نزارا ... وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جمل المكارم خالصات ... وللناس القفا ولنا الجبينا
وماضربت هجائنَ من نزار ... فوالخُ من فحول الأعجمينا[4]
وما حملوا الحميرَ على عِتاق ... مطهّمة فَيُلفَوا مُبْغَلينا[5]
وما وَلَدتْ بناتُ بنى نزار ... حلائلَ أسْوَدين وأحمرينا
بنى الأعمام أنكحنا الأيامى ... وبالآباء سَمَّينا البنينا

فهو يتعالى على اليمنية ، ويعيرهم أنهم يزوجون بناتهم للفرس والحبش ، فيجىء بنوهن بعضهم أسود وبعضهم أحمر ، ويصور هذا الزواج الذى يثمر نسلا هجينا بتلقيح الحمير للخيل العتاق ، لا تنتج منه إلا البغال .

٦ — ثم نقض دِعْبِل بن على الخزاعى ـ اليمنى ـ هذه القصيدة وغيرها فيما بعد ، وذكر مناقب اليمن وعظمة ملوكها ، وصرح بالعدنانية وعرض بها كما

---

(١) ديوان الفرزدق ١٣٢ . (٢) ديوان الطرماح ١٢٩ .
(٣) مروج الذهب ٢/١٩٦ والعقد الفريد ٣/٣٣٣ .
(٤) الهجائن : الحرات الكريمات . فوالخ : جمع فالخ وهو الضارب والمراد هنا الزوج
(٥) عتاق مطهمة : المراد نساء عربيات شريفات . الحمير : الأزواج غير الأكفاء مبغلين : مهجنين .

فعل الكميت ، من هذا قوله فى قصيدة طويلة جدا بلغت أبياتها ستمائة[1]

أفيقى من ملامك ياظعينا ... كفاك اللومَ مرُّ الأربعينا
ألم تحزُنك أحداثُ الليالى ... يُشيِّبن الذوائب والقرونا ؟
أحيِّ الغرَّ من سَرَوات قومى ... لقد حُيِّيتِ عنا يامَدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم ... وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتى ... مُسِخْن مع القرود الخاسئينا
بأيْلَةَ والخليج لهم رسوم ... وآثار قَدُمْنَ وما مُحِينا
وما طلبَ الكميتُ طِلابَ وِتْرٍ ... ولكنَّا لنُصْرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى ... إلى نصر النبوة فاخرينا

وتتابع فخر النزارية على اليمنية ، ونخر اليمنية على النزارية ، وأدلى كل فريق بمناقبه ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر[2] .

٧ — تبادل الأخطل شاعر تغلب ، والجحَّاف شاعر قيس الهجاء[3] ، وجرَّا قومهما إلى المعارك ، مع أنهما ينتهيان إلى نزار .

— ٢ —

ازدهار الشعر السياسى

ازدهر الشعر السياسى ، بل إن بذوره التى كانت منذ الجاهلية وجدت فى هذا العصر تربة خصيبة ، وجوا ملائما ، وماء مُرْويا ، فنبتت ونمت وبسقت ، فصار الشعر السياسى قسيم الخطابة فى الدعاية الحزبية ، وكثر شعراؤه ، وافتنُّوا فى طرائقهم واحتجاجهم واستدلالهم ووسائل إثارتهم وتأثيرهم كما سبق فى دراسة خواصه العامة .

[١] مروج الذهب ٢/١٩٧ ونشوار المحاضرة ١/١٧٧ .
[٢] مروج الذهب ٢/١٩٧ . [٣] الأغانى ١١/٦٠ .

— ٣ —

تسجيل الشعر للوقائع الجديدة

وصاحب الشعر الوقائع القبلية ، كما كان يصاحبها فى الجاهلية .

وهذا كثير ، تجد طرفا منه فيما حدث بين كلب وقيس .

فقد كان العداء شديدا بين كلب أنصار مروان بن الحكم ، وقيس أنصار عبد الله بن الزبير ، وقد انتصر مروان على القيسية فى مرج راهط ، فبكى زفر ابن الحارث الكلابى قتلى المرج ، وتوعد قبيلة كلب :

لعمرى لقد أبقَتْ وقيعة راهطٍ ... لمروانَ صدْعا بيننا متنائيا
أريني سلاحى ـ لا أبالك ـ إننى ... أرى الحرب لاتزداد إلا تماديا
ابعد ابن عَمْرٍ وابن معن تتابعا ... ومقتل همّام أمنّى الأمانيا ؟
وتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتُترْك قتلى راهط هى ماهيا ؟
فلا صلح حتى تَنْحِطَ[1] الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
فقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَن الثرى ... وتَبْقَى حزازاتُ النفوس كما هيا

فرد عليه ابن المِخْلاة الكلبى بقصيدة ، منها :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهطٍ ... على زفرٍ داء من الداء باقيا
تُبَكِّى على قتلى سُلَيْم وعامر ... وذبيانَ مغرورا وتُبْكى البواكيا

(١) تنحط: تزفر وتصوت من الثقل والإعياء .

— ٤ —

آثار عامة في اللغة والأدب

ونجم عن هذا آثار عدة فى اللغة والأخبار والحرص على الرواية والحفظ، وظهرت هذه الآثار في معارض شتى .

١ — كثر اجتماع العرب فى الجوامع والأسواق ، مثل الكناسة (سوق الكوفة) والمِرْبَد (سوق البصرة) ليستمعوا ماينشد من شعر ، ثم يتحدثون بما سمعوا ، ويتناقشون فيما استمعوا ، ويتعرضون لمسائل شتى فى اللغة والأدب والنقد . روى أن الكميت شهد الجمعة بمسجد الجامع فأحاط به علماء الكوفة ورواتهم ، فيهم حماد والطرماح ، وجعلوا يسألونه ، حتى إذا فرغوا جعل يسألهم .

٢ — سجل المتهاجون والمتفاخرون تاريخا كان عرضة لأن يهمل وينسى ، وجددوا ذكريات كادت تمحى من الأذهان

٣ — وهم فى فخرهم وفى هجائهم أصحاب افتنان وتجويد وحفاوة بالتعبير والتصوير ، وتخير للمفردات والأساليب ، وفى كثير من قصائدهم الفاخرة أوالهاجية غزل ووصف واستطراد إلى موضوعات أخر ، وطول متعمد لم يعهد من قبل ، كماأن بها حقائق تاريخية لهذه القبائل فى الجاهلية والإسلام .

ولا شك أن الشعر قد ازدهر بهذا ، وكانت له دولة .

وحسبنا أن نردد النظر فى دواوين جريروالفرزدق والأخطل وفى نقائضهم لنجد مصداق ذلك كله .

٤ — على أننا لا ننسى ما جنت أهاجيهم ونقائضهم على الأخلاق ، من الإقذاع والإفحاش ،ومن الإشادة بمفاخر ، أوالتشنيع بمثالب ، بعضها باطل .

— ٥ —

دالة بعض الشعراء على الدولة

شعرت القبائل التى ناصرت الدولة بدالتها ، وأحس شعراؤها بأن لهم ولقومهم يداً على الدولة ، وازدهوا بأنهم هم وقومهم مقربون إلى الخلفاء ، فجعلوا يباهون بذلك ، ويعتبون على بعض الخلفاء أنهم قصروا فى مثوبة قبائلهم ، أو تهاونوا فى الثأر لها من خصومها ، بل لقد هدد بعضهم بالتخلى عن مناصرة الدولة ، وغضب بعضهم لما رأى خصوم قومه مقربين إلى الخليفة ، فحرضه جهرا على إبعادهم والتنكيل بهم .

١ — فالأخطل شاعر تغلب يذهب إلى عبد الملك بن مروان ، فينشده شعراً يستنجزه به الثأر من قيس لقتلى تغلب فى يوم البشر[1] ، ويهدده بتخلى تغلب عن نصرة بنى أمية إن لم ينصروها على قيس :

لقد أوقع الجحّاف بالبِشْر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعوّل
فسائلْ بنى مروان ما بالُ ذمة وحبلٍ ضعيفٍ لايزال يُوَصَّل ؟
فإن لم تغيرها قريش بعقْلها
يكن عن قريش مُسْتَمازٌ ومَرْحل

فغضب عبد الملك وقال : إلى أين يابن النصرانية ؟

فتدارك الأخطل ، وهدأ من ثورته ، وتخلص فى لباقة بقوله : إلى النار . فتبسم عبد الملك ، وارتضى هذا الاعتذار .

---

(١) كان الأخطل قد عير الجحاف زعيم قيس بهزيمة تغلب لهم فى يوم الكحيل فجمع الجحاف جموعه وأغار على تغلب بموضع اسمه البشر ، فقتل منهم كثيرا ، وأسر ، وكان الأخطل فى الأسرى ، ثم ظنوه عبدا فأطلقوه .

ولما علم الأخطل أن عبد الملك بن مروان قرب إليه زفر بن الحارث الكلابى أحد أنصار ابن الزبير فى حرب بنى أمية ، دخل على عبد الملك ، وأنشده[١] :

وكأس مثل عين الديك صِرفٍ ... تُنَسِّى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشيةً لا عيب فيها ... وأَرخى من مآزره الفضولا

. . . .

فقال له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا شىء فى رأسك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ، حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير ؟ وهو القائل بالأمس :

لعمرى لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ ... لمروان صَدْعا بيننا متنائيا
فلا صُلْحَ حتى تَنْحِط الخيلُ بالقنا ... وتثأرمن نسوان كلب نسائيا[٢]
فقد ينُبت المرعى على دِمَن الثرى ... وتَبْقَى حزازات النفوس كما هيا

فقبض عبد الملك رجله ، ثم ضرب بها صدر زفر ، فقلبه عن السرير ، وقال : أذهب الله حزازات تلك الصدور . فقال زفر : أنشدك الله يا أمير المؤمنين والعهد الذى أعطيتنى . فكان زفر يقول : ما أيقنت بالموت قط إلا تلك الساعة ، حين قال الأخطل ما قال .

ثم جعل الأخطل يغرى عبد الملك بزفر ، ويؤكد له أن قلبه ملآن بالحقد والغل ، والخير لبنى أمية أن يقتلوه[٣] :

بنى أميـــة إنى ناصحٌ لـكمُ ... فلا يبيتنَّ فـيكم آمنـا زُفَرُ
واتخذوه عـــدوا إن شاهده ... وما تَغَيَّب من أخلاقه دَعَرُ[٤]

---

(١) الأغانى ٧/١٦٨ .
(٢) تنحط : تئن : من ثقل ما تحمل .
(٣) ديوان الأخطل .
(٤) دعر : دغل وشر .

إن الضغينة تلقاها وإن قَدُمَتْ كالعُرِّ يكمن حينا ثم ينتشر[١]

٢ — وجَوّاس بن القَعْطل الكلبي يلوم بني أمية ، لأنهم لم يحسنوا مجازاة قومه على نصرتهم للدولة :

صَبَغَتْ أميةُ بالدماء رماحنا وَطَوَتْ أميــة دوننا دنياها
أأميّ رب كتيبــةٍ مجهولة صِيد الكُماة عليكم دعواها[٢]
كنا وُلاةَ طِعانِها وحرابها حتى تجات عنكم غمّاها[٣]
فالله يجزى — لا أميةُ — سعينا وعُلاً شـددنا بالرماح عُراها
جئتم من الحِجْز البعيد نياطُه والشام تنكر كهلها وفتاها[٤]
إذ أقبلَتْ قيس كأن عيونها حدَقُ الكلاب وأظهرَتْ سِياها

٣ — توعد الفرزدق بني أمية بأن ينفض عنهم ، وبأن يتخلى قومه عن نصرتهم إن لم ينصفوه . ولماذا يقيم على ضيم . وعنده نوق صُبُرٌ على مشاق السفر ، وهو قدير على أن يقيم في أى مكان من الأرض يكفل له الحرية ؟ ثم ندد بالحجاج فقال إنه لن يبلغ منى مأربه .

قال الفرزدق[٥] :

فإن تنصفونا يالَ مروان نقترب إليكم وإلا فأذنوا ببعــاد
فإن لنا عنكم مَراحاً وَمذْهباً بعِيس إلى ريح الفلاة صوادى[٦]
مُخيسةٍ بُزْلٍ تَخايَلُ فى البُرَى سوارٍ على طول الفلاة غوادى[٧]

(١) العر : الجرب .
(٢) صيد الكماة : أبطالها ذوو كبروتيه . عليكم دعواها : معادية لكم جاءت لحربكم .
(٣) غماها : كربها . (٤) الحجز بكسر الحاء وضمها : الأصل والعشيرة والناحية ، أى جئتم من ناحية بعيدة هى الحجاز إلى الشام ، أو بيننا وبينكم قرابة بعيدة لأنكم من نزار ونحن من قحطان . الكهل والفتى : المراد معاوية وبنو أمية لأنهم دخلاء على الشام .
(٥) الديوان ١٩٠/١/١٩٠/١ (٦) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .
(٧) مخيسة : لم تسرح لأنها محبوسة للنحر أو القسم . بزل : جمع بازل وهو الجمل او الناقة فى سنته التاسعة حيث يطلع نابه . البرى : جمع برة وهى الحلقة فى أنف البعير .

وفى الأرض عن ذى الجور منأى ومذهبٌ
وكل بلاد أوطِنَت كبلادى
وماذا عسى الحجاج يبلغُ جَهْدُه إذا نحن خلفنا حفير زياد

٤ — وكذلك أعشى تغلب، وفد على عمر بن عبد العزيز، ومدحه، فلم يعطه شيئا، وقال له : ماأرى لك فى بيت المال حقا . فغضب الأعشى، وعرّض بعمر، وامتنّ على بنى أمية بما سلف من نصر قومه بنى تغلب لهم[1] :

لعمرى لقد عاش الوليد حياته إمام هُدًى لامُسْتَزادٌ ولا نَزْرُ
كأن بنى مروان بعد وليدهم جلاميدُ لاتَنْدَى ولو بَلَّها القَطْرُ
وكانوا أناسا يُنْتَحَوْن فأصبحوا وأكثرُ مايعطونك النظر الشَّزْرُ
وكائِنْ دفَعْنا عنكمُ من عظيمة ولكن أبيتم لاوفاء ولا شكر
فإن تكفروا ماقد فعلنا فربما أتيح لكم قسْرا بأسيافنا النصر

— ٦ —

هكذا كانت العصبية القبلية رجعة إلى النعرة الجاهلية، وعودة إلى النظر القاصر والمجال الضيق والأثرة المردية .

وهكذا كان الشعر المتعصب يركض فى ميدان العصبية فيتبعها آنا، ويسبقها آنا، وهو فى الحالين يؤرث نارها، وينشر أوارها .

وأغلب الظن أن الشعراء لو عاندوا هذه الدعوى، وجعلوا يدعون قومهم إلى مادعاهم إليه الإسلام من إخاء وصفاء ووحدة وسلام، لأعرض عنهم كثير من الناس أول الأمر، ثم لبلغت دعواتهم قلوب الناس جميعا آخر الأمر، فلم تنحل الروابط، ولم تتصدع الوحدة، ولم يذهب جهد كثير من الشعراء ذلك المذهب البغيض. ليت القبائل لم تشغل أنفسها بما عفَّى عليه الإسلام، وليت الساسة جهدوا فى التوحيد لافى التفريق، وليت الشعراء لم يجاروا نزعة التقويض والتمزيق .

ليت، وهل ينفع شيئاً ليت ؟

---

(١) الأغانى ١٠/٩٩ وشعراء النصرانية ١٢٤ والحماسة البصرية ١/٨٧ .

الفصل الثانى

العصبية الجنسية

أو الشعوبية

— ١ —

كثرة الموالى

منذ طلائع الفتح الإسلامى إلى أن استقر الملك فى بنى أمية ، كان قد أسلم كثير من الفرس وغيرهم ، وكانت قد نبتت من أبنائهم نابتة أجادت اللغة العربية ، واصطنعتها لسانها الأدبى .

وكان هؤلاء العجم ، والمنحدرون من أصول أعجمية يعيشون مع العرب ، ويخالطونهم ، ويرتبطون بهم برابطة الولاء . وللولاء مظاهر شتى : فقد يكون نتيجة للعِتْق، إذ يُنْسَب العتيق إلى سيده الذى أعتقه ، أو إلى قبيلة من أعتقه ، وقد يكون نتيجة لإسلام أعجمى على يد عربى يعاهده على أن يكون مولى له .

وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمى مطلقا ، سواء أكان عبداً لعربى أم لا ، وسواء أأسلم على يد عربى والاه أم لا . لهذا « سمى الأعاجم موالى ، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدى العرب ، وكان للعرب استرقاقهم ، فإذا تركوهم أحرارا فكأنهم أعتقوهم ، والموالى هم المعتقون[1] »

---

(١) فجر الإسلام ١٠٤ .

وإذا كانت كلمة المولى ذات دلالات شتى[١] ، فإن العرب أرادوا بها الدلالة على هؤلاء العجم الذين يوالونهم .

هؤلاء الموالى كان عددهم كبيرا ، يدل على هذا أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سَبْي قَيْسارية وحدها[٢] ، وأن عدد القتلى منهم فى موقعة الحرّة بلغ ثلاثة آلاف وخمسمئة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمسمئة ، وقتلى قريش كذلك[٣] ويدل على ذلك أيضا أن عدد العبيد والإماء الذين خلفهم الزبير بن العوام بلغ ألفا[٤] .

وكان الموالى بالكوفة أكثر عددا من العرب ، يقول ولهوسن wellhausen إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم فرسا فى جنسهم وفى لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ، ثم دخلوا فى الإسلام ، ثم اعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، وبذلك صاروا أحرارا ، ولكنهم ظلوا فى حاجة إلى حماية سادتهم ، فهم حاشية العرب ، وأتباعهم فى السلم والحرب[٥] » .

— ٢ —

بواعث حنقهم

حنق كثير من هؤلاء الموالى على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة ، وكان الموالى المنتمون إلى فارس أشدهم حنقا .

١ — أما حنقهم على العرب ، فراجع إلى أنهم قوضوا دولتهم ، واحتلوا بلادهم ،

---

(١) المولى : الملك والعبد والسيد المعتق والعبدالمعتق والصاحب والقريب والجار والحليف والشريك والتابع الخ (القاموس المحيط)

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ١٤٢

(٣) معجم البلدان لياقوت كلمة حرة .

(٤) مروج الذهب ٤/١٠٤

(٥) فجر الإسلام ٩٢ .

وصيروهم أتباعالهم ، ثم استعلوا عليهم ، وكانت أبرز ضروب الاستعلاء صادرة من بعض الحكام والساسة . ومن العرب الذين لم ينسلخوا من نعرة الجاهلية ، ومن بعض أشراف القبائل المتحضرة والمتبدية .

ولهذا الاستعلاء مظاهر شتى : منها ترفع العرب عن تزويج بناتهم للذين أسلموا من فرس وروم ، فقد خطب مولى بنتا من أعراب بنى سُليْم وتزوجها ، فغضب محمد بن بشير الخارجى ، ورأى أن هذا عار لحق بالعرب ، فركب إلى والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم يكتف بهذا ، بل ضربه مئتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، ولا شك أن محمد بن بشير طاب نفسها بهذا العقاب ، فقال[1] :

قضيتَ بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومةَ من بعيد
وفى المئتين للمولى نكالٌ وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتَهم ببنات كسرى فهل يجدُ الموالى من مزيد ؟
فأىُّ الحقِّ أنصفُ للموالى منِ اصْهار العبيد إلى العبيد ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الإماء ، حتى لقد جهر بهذا عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مَسْلمة ـ وكان ابن أمة ـ وتمثل بشعر يغض من شأنهم ، فرد عليه مسلمة بشعر يعلى من قدرهم[2]

وكان بنو أمية ـ والدولة قوية ـ لا يستخلفونهم ، بدعوى أن العرب لا تخضع لهم[3] ، فلما ضعفت الدولة وهدأت النعرة تولى بعضهم ، كيزيد بن الوليد وأخيه إبراهيم ومروان بن محمد .

وكان العرب يصفون ابن الأمة من عربى بأنه هَجين ، ومعنى هذا أنه

(١) الأغانى ١٤/ ١٥٠ [٢] راجع (المرأة فى الشعر الجاهلى) للمؤلف ١٣٩، ١٧٦، ٥١٨ وحماسة الخالديين ٣٥ مخطوط وربيع الأبرار للزمخشرى ٣ .
(٣) العقد الفريد ٣/ ٢٩٧ .

مشوب النسب معيب ، لأن الهُجْنة هى الكلام الذى يعيب قائله ، والهجين اللئيم ، والعربى المولود من أمة ، أو من أبوه خير من أمه[١] .

وبلغ التعصب بنافع بن جُبَيْر أنه كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟

فإذا قالوا قرشى ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى ، قال : وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى ، قال : هو مال الله ، يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء .

وقد قدم نافع هذا مولى ليصلى به ، فسئل عن ذلك ، فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وكانوا يرون أن الصلاة لا يقطعها إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى .

ونجد فى العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشاكلة ، كنداء العرب لهم بالأسماء والألقاب ، لا بالكُنَى ، وكتنحيتهم إياهم عن محاذاتهم فى الصف وهم يمشون ، وتنحيتهم عن الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه[٢] .

٢ — وأما حنقهم على بنى أمية بخاصة فمرجعه إلى عدة أسباب .

(ا) أنهم الحكام الذين يمثلون العرب العادين على مُلْك الموالى من فرس وروم ، ومبعثه أيضاً أن بنى أمية كانوا حراصا على عروبة ملكهم ، فآثروا العرب بالولايات والوظائف ، وقربوا العرب وأبعدوا الموالى .

(ب) ثم إن بعض ولاة بنى أمية أساءوا معاملة الموالى ، كالحجاج فإنه أمر بألا يؤم الناس فى الصلاة بالكوفة إلا عربى [٣] . ونفى النبط من واسط لما نزل هناك ، وكتب إلى عامله بالبصرة يأمره بنفيهم منها ، لأنهم مفسدة للدين والدنيا . فكتب إليه العامل يقول : قد نفيت النبط ، إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه فى الدين . فرد عليه الحجاج بقوله : إذا قرأت كتابى هذا فادعُ مَنْ

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة هجن :

(٢) العقد الفريد ٤/٣٦٣ — ٣٦٨ . (٣) العقد الفريد ١/٢٠٧ .

قِبَلك من الأطباء ، ونَمْ بين أيديهم ، ليَقْفُوا عروقك ، فإن وجدوا فيك عرقا نبطيا قطعوه[١] .

ولما قبض على سعيد بن جُبَيْر — وكان قد خرج على الحجاج مع عبد الرحمن بن الأشعث — امتنّ عليه الحجاج بأنه قد كان قربه مع أنه مولى . قال له الحجاج : أما قَدِمْتَ الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى فجعلتك إماما ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : أما وليتك القضاء فضجّ أهل الكوفة ، وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربى ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : أفما جعلتك من سُمّارى ، وكلهم من رءوس العرب ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : فما الذى أخرجك علىّ[٢] ؟ .

(حـ) على أننا لا ننسى باعثا آخر من بواعث سخط الموالى ، هو أنهم خشوا على مكانتهم ورزقهم لما عربت دواوين الخراج ، فقد كانت منذ الفتح تكتب فى العراق بالفارسية ، وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية .

فلما كان عهد عبد الملك ، كان رئيس ديوان الشام سُرْجُون بن منصور ، وكان قد طال عهده بالديوان ، لأنه تولاه منذ عهد معاوية إلى عهد عبد الملك ، وشعر عبد الملك أن سرجون يدل بمعرفته ، فأشار على سليمان بن سعد — أو أشار ابنه سليمان فى إحدى الروايات على سليمان بن سعد — أن يحول لغة الديوان من الرومية إلى العربية ، فنهض سليمان بن سعد بالتعريب . ولما عرف سرجون ما عمله سليمان بن سعد قال لكتاب الروم : اطلبوا رزقكم من غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم[٣] .

وحاكى الحجاج عبد الملك ، فأمر بتحويل ديوان فارس إلى العربية[٤] . ولقد ضاق كتاب الفرس بهذا التعريب ، كما ضاق كتاب الروم من قبل ، وخشوا أن ينضب معين رزقهم ، وأن يفقدوا مظهرا من مظاهر احتياج العرب لهم ،

---

(٢) محاضرات الأدباء ١ / ٢١٨ . (٢) الكامل للمبرد ٢/ ٩٦ .

(٣) فتوح البلدان ١٩٣ ، ٣٠٠ والفهرست ٣٥٣ والعقد الفريد ٢/ ٢٢٢ .

(٤) الفهرست ٣٥٢ .

يدل على ذلك أنهم قالوا لصالح بن عبدالرحمن مولى بنى تميم – وهو الذى عرب الديوان وكان يعرف العربية والفارسية – كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ فقال : أكتب عشرا ونصف عشر . فقالوا له : وماذا تصنع بويد ؟ قال : أكتب أيضا . فقال بعضهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . ثم بذلوا له مئة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى . لهذا قال عبد الحميد بن يحيى : « لله در صالح ! ما أعظم مِنّته على الكتاب » . يريد الكتاب العرب .

وأما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وحول فى عهد الوليد بن عبد الملك ، إذ كان عبد الله بن عبد الملك بن مروان واليا على مصر ، فصرف عن الديوان أنتناش ، وجعل عليه ابن يربوع الفزازى من أهل حمص .

(د) بقى سبب من أسباب كراهية الموالى للأمويين هو أن كثيرا منهم وبخاصة فى العراق وفارس كانوا متشيعين ، كما سبق فى دراسة الشيعة ، فهم يكرهون بنى أمية ؛ لأنهم مغتصبون للخلافة وهى حق للعلويين ، ولهذا كانوا ينضمون إلى الثورات والثائرين . وقد سلفت محاورة الحجاج لسعيد بن جبير ، وسبق أن الحجاج نفى النبط من واسط ، وأمر بنفيهم من البصرة ، وهو بهذا يريد اتقاء شرهم .

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأى من أبناء الفرس قد تطلعوا أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تدنيهم وترفع من شأنهم .

وقد تنبه إلى ذلك ابن حزم إذ قال : « والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة النظر فى أنفسهم ، حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون جميع الناس عبيدا لهم .

فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظمت الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام فى أوقات كثيرة ، وفى كل ذلك كان يظهر الله الحق ، فأظهر قوم منهم الإسلام .

واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم عليّ رضى الله عنه ، حتى أخرجوهم عن الإسلام . . . . » [١] .

ثم فصل الفكرة ووضحها وعلل لها الأستاذ الدكتور طه حسين فى قوله[٢] : « لقد كان الفرس يتخذون التشيع لعلى وآل بيته لونا سياسيا ، إذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى وحريتهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين . وكان هذا الحزب ضعيفا أيام عثمان ، مضطهدا أقبح الاضطهاد طوال أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفا سياسية خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى على ، فلان الفرس ومرنوا ، وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم فى مذهبهم العلوى قوم لقوا فى سبيل هذا المذهب منايام ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً » .

وقد تقدم فى الحديث عن الشيعة أن كثيرا من الفرس كانوا من أعوانهم ، وأن ذلك مردود إلى عدة عوامل ، منها بغضهم لبنى أمية ، وحبهم لبنى هاشم ، لأن زوجة الحسين بن على منهم ، ولأنهم أملوا فى أن تئول الخلافة إلى العلويين فيقربوهم .

ثم انتهت الأحداث إلى الغاية التى أمّلوها ، وإن لم تتحقق الوسيلة ، فإن الخلافة آلت إلى بنى العباس لا إلى بنى على ، لكنهم كانوا أعوانهم الخاص بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، وعرف العباسيون لهم صنيعهم فقربوهم ، وآثروهم بالنفوذ والسلطان .

ولم يكن هذا الأمل الذى راود الموالى بخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر ابن سيار يدعو العرب إلى الوحدة ، ويدعو النزاريين واليمنيين إلى الوئام ، ليتقوا

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/١١٥
(٢) حديث الأربعاء ٢/٢٢٧

الهلاك الذى يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفلتهم عن أعدائهم من العجم فى قوله:(١)

أبلغْ ربيعَةَ فى مَرْوٍ وإخوتَهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
وَلْيَنْصِبُوا الحرب إن القوم قد نصبوا حربا يُحرَّق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تَلْقحون الحرب بينكمُ كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُبُ(٢)
وتتركون عدوا قد أظلكم ممَّنْ تأشّب ، لا دينٌ ولا حسَب(٣)
قِدْماً يدينون دينا ما سمعتُ به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمُ فإن دينهمُ أن تَهلِكَ العرب

— ٣ —

مظهر العصبية الجنسية :

وإذاً فقد حنق الموالى ، لأن الدولة عربية خالصة شديدة الحرص على أن تكون شئونها بأيدى العرب ، وحنقوا أيضاً ، لأن الدولة لاتنظر إليهم نظرتها إلى الأكفاء ، ولأن العرب صاروا بعد الفتح والنصر يرونهم أقل منهم شأنا وأدنى منهم أصلا ومنحدراً .

وكان من الطبيعى أن ينادى الموالى بتحقيق المساواة التى شرعها الإسلام وجعلها دستوره منذ استهل نوره . ثم ارتفع صوتهم ، فجعل بعضهم يقابل التعالى بمثله، وجعلوا يباهون بماضى الفرس ، وسعة ملكهم ، وعظمة حضارتهم ، وثراء بلادهم ، وكانوا فى قليل من الأحيان يعرضون بالعرب ، ويندوون بهم فى رمز وموار بة .

هذا الصراع الجنسى بين العرب وغيرهم هو الذى نسميه شعوبية .

وقد ظهر الصراع فى العصر الأموى مظهرين اثنين :

(١) العقد الفريد ٥/٤١٦
(٢) عزب : جمع أعزب وهو البعيد جدا .
(٣) تأشب : جمع .

الأول : تفضيل العرب أنفسهم على العجم .

الثانى : تسوية العجم أنفسهم بالعرب ، لأن العرب والعجم جميعاً يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، ولأن الإسلام أبطل العصبية الجنسية ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال صلى الله عليه وسلم : ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

أما زراية العجم بالعرب ، وتفضيل أنفسهم عليهم ، فنزعة لم تظهر فى عصرنا هذا ، بل ظهرت وكان لها دوى فى العصر العباسى ، وألفت فيها رسائل وكتب ، وقيلت فيها قصائد كثيرة[1] .

نتائجها الشعرية

كانت هناك إذا معارك لسانية ، نشبت بين العرب والعجم ، بدأت وقائعها الأولى فى العصر الأموى ، ثم اتسعت ميادينها وكثرت وقائعها فى العصر العباسى .

وكان من أسلحة هذه المعارك ، ومن نتائجها أيضاً ، هذا الشعر الشعوبى الذى أعرض له .

— ١ —

تحقير العرب للموالى

يظهر أن شعراء العرب هم الذين بدءوا بالعدوان ، فجهروا بتحقير الموالى ،

فقد قال محمد بن بشير الخارجى :

---

(١) راجع العقد الفريد وزهر الآداب ومحاضرات الأدباء ورسائل الجاحظ والبيان والتبيين وغيرها .

إذا افتقر المولى سعى لك جاهدا لترضى، وإن نال الغنى عنك أدبرا[١]

وهو الذى ركب إلى المدينة ليشكو إلى واليها رجلا من الموالى تزوج امرأة من بنى سليم ، فاستجاب له الوالى ، وأرسل إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، وضربه مئتى سوط ، وحلق رأسه وحاجبيه ، فرضى ابن بشير ، وقال أبياته التى سبقت ، وفى ختامها :

فأى الحق أنصــف الموالى مِن اصْهار العبيد إلى العبيد ؟

ونزل جرير بقوم من بنى العنبر ، فباعوا له الطعــام ، ولم يُضَيِّفوه ، فذمهم ، وفى ذمه لهم زراية بالموالى ، لأنه رأى أن إهمالهم واحتقارهم لا عيب فيه ، فقال[٢] :

يا مالكُ بن طريفٍ إن بيعكمُ رِفْدَ القِرَى مُفْسدٌ للدين والحسب

قالوا : نبيعُــكَهُ بيعاً ، فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيُوا من العرب

وكثيرا ما عرض الفرزدق بالموالى ، وهو يهجو ناسا من غير العرب ، كقوله[٣] فى هجاء المهلب إنه نبطى :

ولو رُدَّ المهلب حيث ضَمَّتْ عليه الغَافَ أرضُ أبى صُفارِ[٤]

إلى أم المهلب حيث أعطت بذى اللؤم فاه مع الصَّغار

تبين أنه نبَطِىٌ بَحْرٍ وأن له الألأم من الديار

وقوله فى يزيد بن المهلب وجنده من أهل عمان[٥] :

---

(١) الأغانى ١٤ / ١٥٨ .   (٢) ديوان جرير ٤٩ والكامل ١ / ٢٧٤

(٣) الديوان ١ / ٢٥٤ .

(٤) الغاف : شجر ضخم يشبه الينبوت يعظم فى عمان حتى تغيب فيه الإبل . أبو صفار : أبو صفرة .   (٥) الديوان ٢ / ٨٠٧

لو أنهم عَرَبٌ أو كان قائدهم   مُدَبِّرا ماغزا العُقْبانَ بالرَّخَم

وقوله فى هجاء أيوب بن عيسى الضبى [١] :

فلو كنتَ قَيْسيًّا إذا ما حَبَسْتَنى   ولكنَّ زنجيا غليظا مَشافِرُهُ

— ٢ —

دفاع الموالى عن أنفسهم

فلما مضى من عمر الدولة نصفه أو أكثر ، بدأ نجم الأعاجم يتألق ، وبخاصة منذ عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥ — ١٢٥) .

وكان لهذا أسباب شتى .

فقد اشتهر بالورع والعلم والسيادة كثير ممن ولدتهم أمهات غير عربيات ، كعلى ابن الحسين ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وسالم بن عبدالله بن عمر ، والحسن البصرى ، وعلى زين العابدين بن الحسين [٢] .

ثم كان بعض الأمراء من بنى أمية أمهاتهم غير عربيات ، مثل يزيدبن الوليد — فأمه فارسية — وأخيه إبراهيم — فأمه أم ولد — ويزيد هو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروانُ   وقيصر جدى وجدى خاقانُ

وهو الذى ثار على الوليد بن يزيد ، وآزره المعتزلة [٣] .

ومثل مروان بن محمد .

ومن هذه الأسباب أن بنى أمية خففوا من زرايتهم بالموالى ، لأنهم كثرة يخشى منها على الدولة ، وبخاصة حينما تحقق الأمويون أن الموالى ضالعون مع الشيعة [٤] ، وأن الدعوة الشيعية تنتشر فى خراسان ، إذ رحب بها الفرس ، وروَّجوا لها .

---

(١) الأغانى ١٩/٢٤

(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى للمؤلف فصل الزوجة ، وفصل الإماء .

(٣) مروج الذهب ٢/١٩٣   (٤) راجع فصل الشيعة

وكان كثير منهم قد أجادوا الشعر ، كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبي العباس الأعمى مولى بني الدِّيل ، ويزيد بن ضَبة مولى ثقيف ، وإسماعيل ابن يسار .

فهل نتوقع من الموالي حينئذ أن يصبروا على إبعادهم وتحقيرهم ؟

لا . لم يطق الموالي صبرا ، فراحوا يباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، ويتطلعون إلى استعادة استقلال بلادهم ، ويندد بعضهم بالعرب تنديدا خفيا أو يتهجم عليهم في لمح خاطف .

والأمثلة على هذا كثيرة :

١ — دعا هشام بن عبد الملك إسماعيل بن يسار لينشده ، وكان هشام يتوقع مديحاً ، فإذا به يسمع من ابن يسار مباهاة بقومه العجم ، كقوله [١] :

أصلي كريمٌ ومجدي لا يُقاس به ... ولي لسان كحدِّ السيف مسمومِ
أحمي به مجد أقوام ذوي حَسَب ... من كل قَرْم بتاج الملك مَعْمُومِ [٢]
جحاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مرازِبةٍ ... جُرْدٍ عِتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ [٣]
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابورِ الجنودِ معا ... والهُرْمُزانِ لفخر أو لتعظيمِ ؟
أُسْدُ الكتائب يوم الرَّوع إن زَحَفوا
وهم أذلُّوا ملوكَ الترك والروم

---

(١) الأغاني ٤/٤٠٨

(٢) قرم : سيد . معموم : على رأسه عمامة والمراد التاج .

(٣) جحاجح : جمع جحجاح وهو السيد . بلج : جمع أبلج وهو المطلق الوجه الهاش . مرازبة : جمع مرزبان وهو الرئيس . جرد : جمع أجرد وهو في الأصل الجواد القصير الشعر ، والمراد هنا السباق إلى العمل العظيم . عتاق : جمع عتيق وهو الحسيب . مسامبح : جمع مسماح وهو الكريم . مطاعيم : جمع مطعام وهو الذي يطعم الناس كثيراً .

يمشون فى حَلَق الماذِىِّ سابغةً مَشْىَ الضراغمة الأُسْدِ اللَّهاميم (١)
هناك إن تَسألى تُنْبَىْ بأن لنا جُرثومةً قَهَرَتْ عِزَّ الجراثيم

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى فى بركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز .

٢ — ولم يكن اسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر أو بما يماثله ، بل جعل يمزج بفخره تهجماً على العرب، كقوله(٢) :

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لى وعمٍّ ماجدٍ مُجْتدًى كريم النِّصاب (٣)
إنما سُمِّىَ الفوارس بالفُر س مُضاهاةَ رفعةِ الأنساب
فاتركى الفخر يا أُمامَ علينا واتركى الجَوْرَ وانطقى بالصواب (٤)
واسألى إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذْ نُرَبِّى بناتِنا وتَدُسُّو ن سَفاها بناتِكم فى التراب

وكان فى السامعين أشعب ، فقال له : صدقت والله ، أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له .

قال إسماعيل : وما ذاك ؟ قال أشعب : دفن القوم بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن .

فضحك القوم ، وخجل إسماعيل ، حتى لو استطاع أن يسيخ فى الأرض لفعل (٥) .

---

(١) الماذى : كل سلاح من الحديد، والدرع اللينة. اللهاميم : جمع لهمم وهوالجواد السابق
(٢) الأغانى ٤/٤١١ (٣) مجتدى : كريم مقصود . النصاب : الأصل .
(٤) أمام : أصله أمامة ، علم على امرأة عربية ، والمراد العرب هنا .
(٥) الأغانى ٤/١٢٠ .

٣ ـ كذلك كان يزيد بن ضَبّة يفاخر بالفرس [١] ، مثل قوله :

ألم تر أننا لما وَلِينا أمورا خُرِّقَتْ فوَهَتْ سَدَدْنا ؟
رأينا الفتق حين وَهَى عليهم وكم من مثله صَدْعٍ رفأنا
ولِينا الناسَ أزمانا طِوالا وسُسْناهم ودُسْناهم وقُدْنا
ألم تر مَنْ وَلَدْنا كيف أشبَى وأشْبَينا ، وما بهمُ قَعَدْنا [٢]

وقد أنشد أمام الوليد بن عبدالملك شعرا يفخر فيه بالفرس ، فلم ينكر عليه .

٤ ـ وهناك آخرون من الموالى ، كانوا مُبْتَلَيْن بالعصبية لقومهم ، كإبراهيم بن إسماعيل بن يسار [٣] .

ثم صار على شاكلتهم كثير من شعراء العصر العباسى ، كبشار وزياد الأعجم .

٥ ـ وكانت لهم فى العصر الأموى وسائل شتى فى الانتصاف من العرب ، منها هذا الشعر ، ومنها التعريض والكناية عن العرب بهند وأمامة ، ومنها اختلاق أشعار وأحداث تزرى بالعرب [٤] .

— ٣ —

مناصرة بعض الموالى للأحزاب

وما أريد أن تطول بك الحيرة إذ تجد من شعراء الموالى أنصارا للأحزاب السياسية ، كإسماعيل بن يسار الشاعر الزبيرى ، وعمرو بن الحصين الشاعر الخارجى ، والحسين بن مطير ويزيد بن ضَبّة من شعراء بنى أمية ، وابن المولى الشاعر الشيعى .

ما أريد أن تطول حيرتك ؛ لأن هؤلاء الشعراء كانوا يوالون هذه الأحزاب ليحتموا بها ، أو لينالوا من برها ، أو ناصرها بعضهم مخلصا ، لأنها هى الأحزاب

---

(١) الأغانى ٧/٩٥
(٢) أشبي : أشبل وولد له ولد كيس (٣) الأغانى ٤/١٢٦
(٤) راجع الفصل الخامس من كتاب (التيارات المذهبية بين العرب والفرس) للمؤلف

القائمه التى تصطرع على الحكم ، ولا مندوحة عن حكومة وحاكم ، ولو كان فى هذه الأحزاب حزب أجنبي لسارع هؤلاء إلى الدعاوة له وتأييده ، فقد كان أمل كثير منهم أن يعيدوا ملك الفرس وسيطرتهم .

ثم إن هؤلاء الشعراء لم ينقطعوا للمذاهب التى ناصروها ، فإسماعيل بن يسار انتقل من الزبيريين إلى مدح عبد الملك ، ومدح من بعده من الخلفاء .

ولم يكن مخلصا فى مدحه ، فقد استأذن على الغَمْر بن يزيد بن عبدالملك، فحجبه ساعة ، ثم أذن له فدخل باكيا ، فسأله الغَمْر : مم تبكى؟ قال : كيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك ؟ فاعتذر له الغمر ، لكنه لم يسكت عن البكاء حتى أعطاه . ولما خرج لحقه رجل وسأله : أخبرنى ويلك يا إسماعيل ، أى مروانية كانت لك ولأبيك ؟

قال : بُغْضُنا إياهم ، امرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم ، وإن لم يكن أبوه لما حضره الموت قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لعن الله مروان ، تقربا إلى الله تعالى ، وإبدالا له من التوحيد (١) .

— ٤ —

جرأة الموالى فى العصر العباسى

ومهما يكن من أمر هؤلاء الموالى ، فإن صوتهم كان خافتا فى العصر الأموى ، أو كان أقرب إلى الخفوت منه إلى القوة ، فلما جاء العصر العباسى انفسح المجال أمامهم ، فقوى صوتهم ودوّى ، إذ اطمأنوا إلى حريتهم المكفولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم فى قصور الخلفاء ودواوين الحكومة ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة على الفرس . وإذا كان قليل جدا من الموالى قد تولوا بعض الأعمال العامة

---

(١) الأغانى ٤/٤٠٩

فى عهد بنى أمية (١) فإن توليتهم فى عهد بنى العباس صارت القاعدة والأساس ، فأكثر من ولاهم المنصور موال (٢) ، وصار المنصور بهذا أول من استعمل مواليه وغلمانه ، وقدمهم على العرب ، ثم حاكاه فى صنعه من جاءوا بعده ، حتى كان ذلك من أسباب سقوط بغداد ، وزوال ملك العرب (٣) .

والرشيد من هؤلاء الذين حاكوا المنصور ، وقد كان للبرامكة فى عهده نفوذ يتحدث به التاريخ ، كذلك كان المأمون يؤثر الفرس جهرة ، ويشك فى ولاء العرب له .

لهذا شَرِقَتْ قصور الخلفاء بالموالى من رجال ونساء ، وغص الجيش بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكى اتخذ جنودا من خراسان سماهم العباسية ، جعل ولاءهم للعباسيين ، بلغ عددهم خمس مئة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا (٤) .

ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك ، وآثرهم على الفرس ، فصار العداء بين هؤلاء وهؤلاء ، ثم انتصر الترك على الفرس وعلى العرب جميعا .

إذاً فقد كانت الظروف موانية لأن يجهر الفرس بتحقير العرب فى العصر العباسى ، ويعيروهم الفقر والجدب وشظف العيش والجهل والفوضى ، ويذكروهم بأنهم كانوا عملاء لكسرى ، أو حراسا على قوافله التجارية التى تقدم إلى بلادهم . نجد هذا فى قول الخُرَيْمى :

ونادیتُ من مَرْوٍ وبَلْخٍ فوارسا ... لهم حَسَبٌ فى الأكرمين حسيبُ
فياحسرتا لا دارُ قومى قريبةٌ ... فيكثر منهم ناصرى ويطيب
وإن أبى ساسان كسرى بن هرمز ... وخاقان لى ـ لو تعلمين ـ نسيب

(١) تولى رجاء بن حيوة مولى كندة ، وولى عمر بن عبد العزيز مولى على وادى القرى فعوتب فى ذلك . (٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٣٩ ، ١٥٣ — ١٥٧
(٣) مروج الذهب ٢/٤٠١ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٥ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ١/١١٤ . (٥) الشعر والشعراء ٣٥٣

ملكنا رقاب الناس في الشرك كلهم ... لنا تابع طوعَ القياد جنيب
نسومكمُ خَسْفا ونقضى عليكم ... بما شاء منا مخطىء ومصيب
فلما أتى الإسلام وانشرحت له ... صدور به نحو الأنام تُنيب
تَبِعْنا رسول الله حتى كأنما ... سماء علينا بالرجال تَصُوب

وقول بشار بن بُرْد في هجاء عربى[1]:

أحين كسيتَ بعد العُرْى خزًّا ... ونادمتَ الكرامَ على العُقار[2]
تفاخر يابن راعية وراع ... بنى الأحرار، حسبُك من خَسار
تُرِيغُ بخُطبة كَسْر الموالى ... ويُنْسيك المكارمَ صيدُ فار[3]
وكنتَ إذا ظمئت إلى قَراح ... شركتَ الكلبَ في وَلْغ الإطار[4]
وتغدو للقنافذ تَدَّريها ... ولم تَعْقِل بدُراج الدِّيار[5]

وكذلك قال المتوكلى[6]، وهو من ندماء المتوكل:

فقل لبنى هاشم أجمعين ... هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدَمْ
ملكناكمُ عنوةً بالرما ... ح طعنًا وضربًا بسيف حَذِم[7]
وأولاكم الملكَ آباؤنا ... فما إن وَفَيتم بشكر النِّعَمْ
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... لأكل الضِّباب ورَعْى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملوك ... بحد الُحسام وحرف القلم

وطبيعى ألا يسكت العرب عن هذا التطاول، وهم الذين يرون أنفسهم أزكى أصولا وأشرف محتدا، فجعلوا يردون على تهجم الفرس بمثله، وجعل بعضهم يكيد لبعض، إلى أن جاء الترك في عهد المعتصم فقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعا.

---

(١) الأغانى ٦/٢٤٢ (٢) العقار: الخمر (٣) تريغ: تريد (٤) قراح: ماء صاف
(٥) تدريها: تختلها وتصيدها. دراج الديار: المراد الدجاج. لم تعقل: لم تعرف.
(٦) معجم الأدباء ١/٣٢٣ (٧) حذم: قاطع

الباب السادس

تراجم موجزة

لبعض الأدباء الساسة

مارس السياسة فى هذا العصر كثير من الأدباء، أهواؤهم شتى، ومذاهبهم السياسية مختلفة.

وقد تخيرت بعضهم من الأحزاب المختلفة، لأعرض لهم فى إجمال، عرضاً يكشف عن معالم حياتهم، وأبرز خصائصهم فى أدبهم، وبخاصة ما يتصل أوثق الاتصال بإنتاجهم السياسى، لتكتمل بهذا صورة من أدب السياسة فى العصر الذى أدرسه.

فإذا تناءيت عن التفصيل، وتغاضيت عما لا يتصل بالسياسة من قريب، فإن مرد ذلك إلى الإيجاز من ناحية، وإلى السياسة من ناحية.

الأخطل (*)

(شاعر الدولة)

شاعر الدولة الرسمى، الذى أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها، نحو ربع قرن من الزمن.

(*) الأغانى جزء ٨ دار الكتب ومعجم البلدان ٦٣١/١ وطبقات الشعراء لابن سلام ٣٩٧ وديوان الأخطل لأنطون صالحانى.

معالم حياته

اسمه غِياث ، واسم أبيه غَوْث ، واسم جده الصَّلْت ، وكنيته أبومالك ، لـكن اللقب الذى غلب عليه حتى لا يعرف إلا به هو الأخطل[1] .

والأخطل من قبيلة تَغْلب ، وهى قبيلة كبيرة من ربيعة .

وأما مولده فلا نعرفه على وجه اليقين ، ولقد رجح ناشر ديوانه الأب أنطون صالحانى أنه ولد حوالى (١٩ هـ ٦٤٠ م) .

كذلك لا نعلم على وجه اليقين أين ولد الأخطل ، وإن كان الراجح أنه ولد فى فى المجال الذى كانت تجول فيه قبيلة تغلب بالجزيرة[2] ، وهناك نشأ وكبر ، وتقلبت به الأحوال ، ثم مات فى زمن الوليد بن عبد الملك .

صلته ببنى أمية :

من المفارقات الغريبة أن الذى نبه الأمويين على الأخطل كان يريد به الشر ، فإذا الشر الذى يريده ينقلب خيراً له ، ويزداد هذا الخير مع الزمن ، حتى يصير الأخطل شاعر الدولة الأول .

ذلك أن الأخطل قبل أن ينبغ هجا شاعرا تغلبيا هو كعب بن جُعَيْل ، فضربه أبوه وقال له : « أبِغَذْ رَمتك هذه تريد أن تقاوم ابن جُعَيْل ؟ » لكن الأخطل لم يكف ، وما زال يهجو كعباً حتى غلب عليه .

ثم أراد يزيد بن معاوية — فى خلافة أبيه — أن يثأر من الأنصار ، لأنهم

---

(١) لقب بهذا لأنه لما هجا كعب بن جعيل شاعر تغلب ، قبل أن ينبغ فى الشعر قال له : ياغلام إنك لأخطل اللسان أى هجاء بذئ . وكانت زوجة أبيه تلقبه دوبل ، وهو الحمار الصغير .

(٢) كانت تغلب تنزل بالجزيرة ، وتمتد ما بين أذربيجان شمالا وشرقا ، وحدود الشام غربا ، والحيرة جنوباً .

(٣) الغذرمة : اختلاط الـكلام .

كانوا وما زالوا خصوم أبيه ، وكانوا ومازالوا أعواناً لعلى وأبناء على ، فندب كعب ابن جعَيْل لهجائهم ، فامتنع ، وعجب من يزيد أنه يريده على أمر يرده إلى الكفر بعد الإسلام ، فلن يستطيع أن يهجو قوماً آووا رسول الله ونصروه .

غير أن كعباً لم يقف عند حد المعذرة والرفض ، وإنما أشار على يزيد بأن يندب لما يريد شاعراً نصرانيا يغنى أعظم غناء ، فهجا الأخطل الأنصار ، وأثارهم ، فمضوا إلى معاوية يشكونه ، وطلب النعمان بن بشيرمن معاوية أن ينكل بالأخطل ، فتظاهر معاوية بالموافقة ، لكن يزيد شفع فيه ، وحماه من العقوبة ، فصار الأخطل منذ هذا الحادث أثيرا عند يزيد ثم عند خلفاء بنى أمية .

فهو مقرب إلى يزيد وهو أمير يسامره ويشاربه ويشاركه فى أكل الخنانيص [1] بدار ابن سرجون كاتب المال فى عهد معاوية ، ثم ما زال يصطفيه وهو خليفة ، فكانا يشربان معاً ، ويرحلان معاً ، وكان يزيد يستدعيه إلى قصره للمنادمة وسماع الغناء ، وقيل إنه رافقه فى حجه[2] . وهو أثير عند عبد الملك ، يدخل عليه بغير إذن ، وفى عنقه سلسلة من ذهب وصليب ، ولحيته تقطر خمرا ، ويجلس معه مكرما وهو ثمل ، ويطلق عليه عبدالملك مرة شاعر أمير المؤمنين ، ومرة شاعر بنى أمية ، ومره أشعر العرب [3] .

ولا شك أن الأخطل كان يدل بعزازته على بنى أمية ، لأنه من قبيلة تغلب التى ناصرت بنى أمية منذ حرب صفين ، وناصرتهم على الزبيريين ، وكانت تغلب بالحجاز وبالشام قد دانت للأخطل — بعد إخمامه شاعرها كعب بن جعَيْل — بالزعامة والتقديم ، فهى تناصر بنى أمية الذين يناصرهم شاعر القبيلة المقدم ، وهو يناصر بنى أمية الذين تساندهم قبيلته .

وأغلب الظن أن مدائحه لهم لم يكن مبعثها الحباء وحده ، وإنما كان مبعثها أيضا أن لقومه ضلعا فى نصرة سياستهم .

---

(١) جمع خنوص : ولد الخنزير   (٢) الأغانى ٨/٣٠١

(٣) الأغانى ٨/٢٨٧ .

يدل على ذلك أنه لما اعترضه معاوية الثانى بعد مئة يوم من توليه (سنة ٦٤) بايع أهل المدينة عبد الله بن الزبير ، وبايع أهل الشام مروان بن الحكم ، ونشبت الحرب بين الخليفتين ، وانتصر مروان فى مَرج راهط ، وكانت قبيلة تغلب تناصر مروان ، وكانت قيس تناصر ابن الزبير ، ونجم عن هذا عداء طويل بين القبيلتين ، وحروب كان النصر فيها دُولة بينهما ، وشارك الأخطل فى هذه الحرب ، وأسر مرة[١] .

لهذا دل الأخطل بنفسه وبقومه ، حتى لقد ذهب إلى عبدالملك حانقا ، يثيره على قيس ليثأر منها لتغلب ، بعد هزيمتها فى يوم البِشْر[٢] ، ويهدده بالانفصال عن بنى أمية إن لم يأخذوا لتغلب ثأرها :

لقد أوقع الجحّاف بالبِشْر وقعة ... إلى الله منها المشتكى والمعوّل

فسائل بنى مروان : مابال ذمةٍ ... وحبلٍ ضعيف لا يزال يوصَّل

فإن لم تُغَيِّرها قريشٌ بعدْلها ... يكن من قريش مُسْتَحازٌ ومَرْحل

ولم يَخفَ هذا التهديد على عبد الملك ، فغضب وقال : إلى أين يا بن النصرانية ؟ فتدارك الأخطل وهدَّأ من ثورته قائلا فى حسن تخلص : إلى النار . فتبسم الخليفة ، وكأنما رضى عبد الملك بأن يصرف الأمر عن الجد إلى الفكاهة ، إذ اكتفى بإجابة الأخطل ، وهو يعلم أنها إجابة المتخلص من ورطة ، لا إجابة الصادق فيما يقول .

---

(١) معجم البلدان ١/٦٣١ .

(٢) دخل الجحاف على عبد الملك والأخطل عنده ، فقال عبدالملك للأخطل : أتعرف من هذا؟ قال لا ، فقال : إنه الجحاف . فأنشد الأخطل .

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر ... بقتلى أصيبت من سليم وعامر

يندد بوقعة تغلب بقيس وحلفائها يوم الكحيل .

فهاج الجحاف ، وجمع جموعه ، وأغار على تغلب بموضع اسمه البشر ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وأسر رجالا فيهم الأخطل ، وبقربطون الحبالى ، وكان الأخطل يلبس عباءة قذرة ، فظنوه عبدا ، فأطلقوه .

وإذا كان يزيد بن معاوية هو الذى حرض الأخطل على هجاء الأنصار ، فإن بنى أمية تغاضوا عن هذا الهجاء ، وتغاضوا عن جهره بعاداته للإسلام ، لقاء تأييده وتأييد قومه لهم .

فهو القائل فى هجاء حسان بن ثابت والأنصار بإيعاز من يزيد بن معاوية ـ وهو أمير فى خلافة أبيه ـ إذ كان والأنصار أعوانا لعلىٍّ :

خلوا المكارم لستمُ من أهلها وخذوا مساحيكم بنى النجار[1]
إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولاد كل مقبّح أكّار[2]
ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلما ذهب النعمان بن بشير فى وفد من الأنصار إلى معاوية ، وشكوه له ، هدأهم بأنه سيعاقبه ، ثم شفع فيه يزيد ابنه فعفا عنه .

وهو القائل لعبد الملك ـ وكان قد عرض عليه الإسلام ـ : إن أنت أحللت لى الخمر ، ووضعت عنى صوم رمضان ، أسلمت . فقال عبد الملك : إن أنت أسلمت ، ثم قصرت فى شىء من الإسلام ضربت عنقك .

فقال الأخطل .

ولست بصائم رمضانَ عُمْرِى ولست بآكلٍ لحم الأضاحى
ولست بزاجر عَنْسًا بُكوراً إلى بَطْحاء مكة للنجاح
ولستُ بقائمٍ كالعَيْرِ يدعو قبيل الصبح : حىَّ على الفلاح
ولكنى سأشربها شَمُولاً وأسجد عند مُنْبَلَج الصباح

(١) المساحى : جمع مسحاة وهى آلة مثل الفأس لجرف الطين .

(٢) أكار : حراث ، يعيبهم بالزراعة .

لكن الأيام كثيراً ما تتقلب ، فلا عجب فى أن تجهم الدهر للأخطل فى عهد الوليد بن عبد الملك ، لأن الوليد لم يكن متسامحا مع النصارى ، فهو الذى عرض الإسلام على أحد شيوخ تغلب ، فلما رفض قتله[1] ، وهو الذى جعل كنيسة يوحنا بدمشق مسجداً هو الجامع الأموى .

وإذاً فقد نُحِّى الأخطل عن قصر الملك ، وشغل مكانته عدى بن الرقاع العاملى ، وصار عدى شاعر الدولة[2] .

فكان لا بد للأخطل من أن يطـامن من كبريائه ، وأن يجهر بأيدى الأمويين عليه ، بعد أن كان يمن عليهم بنصرة قومه لهم ، فهو فى مدحه للوليد يقول :

بنى أمية قد أجْدَتْ فواضِلُكم ... منكم جيادى ومنكم قبلها نَعَمى
فإن حلفتُ لقد أصبحت شاكرها ... لا أحلف اليوم من هاتا على أَثَمِ

وهكذا أخذ الأخطل يأسف على مكانه المفقود ، ويأسى لمـا نزل بالنصارى من إبعاد فى عهد الوليد[3] .

دينـــه

مازال الأخطل – مثل أكثر قبيلته ـ على النصرانية ، لم يبدلها ، وكانت القبيلة كلها يعقوبية .

فهل كان على علم وثيق بالنصرانية ؟

وهل درس الإسلام دراسة واعية ؟

ما أظن هذا ، ولا ذاك .

وإنما أرجح أن الرجل عز عليه أن يفارق دين قومه ، وهو لسانهم الناطق ،

(١) الأغانى ١٠/٩٩ .
(٢) الأغانى ٩/٣٠٧ .
(٣) ديوان الأخطل ٢٣٢ .

وكبيرهم المقدم ، وعز عليه أن يُحرِّم الخمر ، وأن يكلف صوم رمضان ، فقد عرض عليه عبد الملك يوماً أن يسلم ، فقال له : « إن أنت أحللت لى الخمر ، ووضعت عنى صوم رمضان ، أسلمت » .

على أنه كان هيابة للقسس إلى حد الاستخذاء الذى لا يتفق ومكانته .

فقد شكاه بعض الناس إلى القَسّ « فأخذه بلحيته وضربه بعصاه ، وهو يصىء كما يصىء الفرخ . فقيل له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ فقال يابن أخى ، إذا جاء الدين ذللنا[1] » .

كذلك حدث شريف من بنى هاشم قال : « قدمت الشام وأنا شاب مع أبى ، فكنت أطوف فى كنائسها ومساجدها ، فدخلت كنيسة دمشق ، وإذا الأخطل محبوس فيها ، فجعلت أنظر إليه ، فسأل عنى فأخبر بنسبى ، فقال : يافتى إنك لرجل شريف ، وإنى أسألك حاجة . فقلت : حاجتك مقضية . فقال : إن القس حبسنى ها هنا ، فكلمه ليخلى عنى . فأتيت القس ، وانتسبت له ، فرحب وعظم . قلت : إن لى إليك حاجة قال : ماحاجتك. قلت: الأخطل ، تخلّى عنه. قال : أعيذك بالله من هذا ، مثلك لايتكلم فيه ، إنه فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزل أستعطفه حتى مضى معى متكئاً على عصاه ، فوقف عنده ، ورفع عصاه ، وقال : يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات ؟ وهو يقول لست بعائد ، ولا أفعل ، ويستخذى له. فقلت : يا أبا مالك ، الناس يهابونك ، والخليفة يكرمك ، وقدرك فى الناس قدرك ، وأنت تخضع للقس هذا الخضوع ، وتستخذى له . فقال : إنه الدين ، إنه الدين[2] »

---

(١) الأغانى ٧/١٧١ .

(٢) الأغانى ٧/١٧٣ .

موضوعات شعره

للأخطل مدح وهجاء ووصف وخمريات وغزل، لكننا نقصر دراستنا على شعره السياسي . ولسنا نشك في أن السياسة كانت الباعث على أكثر مدحه وهجائه ، فقد مدح بني أمية؛لأن قبيلته تغلب ناصرتهم منذ قام معاوية بتمرده على عليّ ، وهجا جريراً لأنه — وهو تميمي — كان ينافح عن قيس ويهجو تغلب ، وبين قيس وتغلب عداء مستحكم طويل الأجل .

— ١ —

وهو في مدحه بني أمية يروج لجدارتهم بالخلافة ، وأنها حقهم ، كما سبق في نماذج الشعر السياسي .

ويجهر بتفضيلهم على الشيعة وغيرهم، فقد نوّه بثورة معاوية على عليّ غضباً لقتل عثمان ، وفضل الأمويين بقوله :

تمّتْ جدودهمُ والله فضلهم وجَدُّ قوم سواهم خامل نكِد
وأنتمُ أهل بيت لا يوازنهم بيت إذا عدت الأحساب والعَدد
ويوم صفين والأبصار خاشعة
أمدهم — إذ دعوا — من ربهم مدَدُ
على الألى قتلوا عثمان مظلمة
لم يَنْهَهم نَشَدٌ عنه وقد نُشِدوا
فثم قرت عيون الثائرين به وأدركوا كل تَبْل عنده قَوَد
فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم تدمى ابن عفان حتى أفرخ الصَّيَد(١)

ومدح بني أمية بأنهم مجمع الفضائل ، وأحق المسلمين بالخلافة ، لكفايتهم وكرمهم وحسبهم ومهارتهم :

(١) ديوان الأخطل ١٧٤ نشد : طلب . نشدوا : طلبوا . تبل : ثأر . قود : قصاص . فيلق : المراد كتيبة ضخمة . خضراء : سوداء مما عليها من حديد . أفرخ الصيد : سكن الكبر أي أن القتلة خضعوا وذلوا .

في نبعة من قريش يَعْصِبون بها ما إن يوازَى بأعلى نبتها الشجر
حُشُدٌ على الحق ، عيافو الخنا ، أُنُفٌ
إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدَجَّتْ على الآفاق مُظلمةٌ كان لهم مخرج منها ومُعتَصَر
أعطاهم الله جَدا ينصرون به لاجد إلا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكون لقوم غيرهم أشِروا
شُمْسُ العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا(١)

وأشاد بحلمهم حيث يجدر الحلم ، وبشجاعتهم حيث تجب الشجاعة ، ثم عاد فنوه باستحقاقهم للخلافة ، وبجهادهم في الثأر لعثمان :

إن يحلموا عنك فالأحلام شيمتهم والموت ساعة يحمى منهم الغضب
كأنهم عند ذاكم ليس بينهم وبين من حاربوا قرْبَى ولا نسب
كانوا موالى حق يَطلبون به فأدركوه وما ملوا وما لغبوا
همُ سموا بابن عفان الإمام وهمْ بعد الشِّماس مَرَوْها ثُمّت احتلبوا(٢)

وكان كثير المديح لعبد الملك ، والتنويه بصلاح السياسة في عهده ، كقوله:(٣)

إلى إمام تغاديـنـا فواضله أظفره الله فليهنأ له الظفَر
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستقى به الله المطر(٤)
والمستمر به أمر الجميع فما يغتره بعد توكيد له غرَر(٥)
نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوما عارمٌ ذكر(٦)

(١) الديوان ١٠٤ نبعة : شجرة جيدة والمراد الأصل . يعصبون بها : يحيطون . عيافو الخنا : كارهون للفحش . تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ . لم يأشروا : لم يبطروا . شمس العداوة : أشداء فى عداوتهم . يستقادهم : يخضع لهم .

(٢) الشماس : النفور والاستعصاء . مروها : المراد أخذوها بالرفق من مرى الناقة إذا مسح ضرعها لتدر .

(٣) الديوان ٩٨ . (٤) الخائض الغمر : المراد أنه ركاب الشدائد .

(٥) غرر : هلاك ، أى أنه فى أمان من الانتقاض عليه بعد البيعة له .

(٦) عارم ذكر : نكبة شديدة وأذى مهلك .

وقد مدح غيره من بنى أمية ، كقوله فى مدح بشر بن مروان :

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والحسب
ترى إليه رفاق الناس سائلة من كل أَوْب على أبوابه عُصَبُ
يحتضرون سِجالا من فواضله والخير مُحْتَضَر الأبواب مُنْتَهَب

— ٢ —

على أنه لم يكن ينسى قبيلته فى مدائحه ، بل كان يمزج المدح بالفخر بها ، وبأثرها فى توطيد الملك الأموى ، أو بتحريض بنى أمية على خصوم تغلب .

وقد سبق تحريضه عبد الملك على الجحّاف القيسى .

وشبيه به تحريضه عبد الملك على زفر بن قيس الكلابى زعيم القيسية ، وعلى حلفائه من كليب ويربوع وسُلَيم وغيرهم ، لأنهم خصوم بنى أمية وخصوم تغلب الموالية لبنى أمية على هؤلاء الأحلاف وعلى الزبيريين [1] .

خواص شعره

— ١ —

عرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل ، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتا ، ثم يضرب عن ستين ، ويبقى ثلاثين [2] . وهذا هو السبب فى جودة تعبيره ، وندرة سَقَطه .

وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء ، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما ممن سماهم الأصمعى عبيد الشعر [3].

---

(١) ديوان الأخطل ٩٨
(٢) الأغانى ٨/٢٨٤
(٣) البيان والتبين ٢/١١ .

— ٢ —

يتكلف أحيانا فى اختيار مفرداته ، فيغرب تارة ، ويجانب الموسيقية تارة .
من هذا كلمة (مستحاز) فى قوله :

فإن لم تغيرها قريش بعدلهـــا   يكن عن قريش مستحاز ومَرْحل

وكلمة (جآجىء) و (مسحنفر) فى وصفه للفرات كما سيجىء .

— ٣ —

ولعله الوحيد فى العصر الإسلامى الذى استهل قصيدة المدح بالخمريات ، كما تجد فى قصيدته :

خفّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوًى فى صرفها غِيَرُ

وربما كان السبب فى هذا أنه نصرانى لا يتحرج من ذكر الخمر ، على حين أن شعراء المسلمين تحرجوا من ذكرها منذ حرمها الإســلام إلى أن أولعوا بها وبوصفها فى العصر العباسى .

ثم إنه أراد أن يجدد فى بدء القصائد ، ويغاير ما ألفه الشعراء منذ الجاهلية ، وما ألفه هو نفسه فى بعض قصائده من الوقوف على الأطلال ، ومن الغزل التمهيدى .

— ٤ —

يستمد بعض صوره من الشعر الجاهلى ، إلا أنه لا ينقل الصورة كلها ثم يرسمها بألوان أخرى ، بل ينقل من الصورة خطوطها ومعالمها العامة ، ثم يضيف إلى ما نقل ألوانا وظلالا وتفاصيل من عنده .

(ا) ففى فخره مشابه من فخر عمرو بن كلثوم ، ولا غرابة فى هذا ، فــكلاهما من تغلب ، وكلاهما مسرف فى زهوه بتغلب وفى تصويره لقوتها ، وفى شعــر الأخطل مباهاة بعمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، ومباهاة بمُرَّة ابن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وهو فى فخاره بهما يسميهما عَمَّيْه :

أبنى كليب إن عمىَّ اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلالا

أما الشبه فيتبين من الموازنة بين قول عمرو بن كلثوم (١) :

فإن قناتنا ياعمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقافُ بها اشمأزَّتْ   وولَّتهم عَشَوْزَنَةً زَبُونا (٢)
عَشوزنة إذا انقلبت أرَنَّتْ   تَدُقُّ قفا المُثَقِّف والجبينا

. . . .

وأيام لنا غرٌّ طوال   عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا

وقول الأخطل :

إذا المَلْكُ آلى أن يقيم قناتنا   فليس علينا يوم ذاك بقادر
إذا الأصعرُ الجبار سعَّر خده   أقمنا له من خده المتصاعر
بضربة سيف أو بنجلاء ثَرَّةٍ
إذا نَشِجَتْ مَجَّتْ دماء الأباهر (٣)

فكل من الشاعرين مزهو بتأبى قومه على الملوك ، والصورتان متقاربتان .

(ب) وهو يشبه النابغة الذبيانى فى تشبيه ممدوحه بالفرات .

قال النابغه فى مدح النعمان بن المنذر (٤) :

وما الفراتُ إذا هبَّ الرياحُ له   ترمى أواذيُّه العِبْرين بالزَّبد (٥)
يمده كلُّ وادٍ مُترعٍ لجبٍ
فيه رُكامٌ من اليَنْبوتِ والخَضد (٦)

---

(١) المعلقة

(٢) الثقاف: التقويم : اشمأزت : نفرت واستعصت . عشوزنه : صلبة . زبون : شديدة الدفع .

(٣) نجلاء : طعنة واسعة . ثرة : متدفقة بالدم . نشجت : كان لها نشيج وصوت . الأباهر : جمع أبهر وهو الوريد .

(٤) المعلقة . (٥) أواذيه : أمواجه . العبرن : الشاطئين .

(٦) مترع : ملآن . لجب : صاحب الموج . الينبوت : شجر الخشخاش أوالخروب أوشجر آخر ضخم . الخضد : نبت أو كل ماقطع من الأعواد وتكسر من الشجر .

يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنّجَد[١]
يوما بأجود منه سَيْبَ نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد[٢]

فالنابغة ينفى أن يكون الفرات فائضاً أجود من النعمان ، بأسلوب معتمد على النفى بما ، وخبرها اسم تفضيل مسبوق بباء زائدة ، ويفصل القول فى وصف الفرات ، فيذكر أن الرياح هبت على منابعه ، لأن دجلة والفرات معاً يفيضان من ذوبان الثلوج التى تتجمد فى الشتاء على مرتفعات أرمينية ، فإذا هبت عليها رياح الصيف الساخنة ابتداء من إبريل ، أخذت الثلوج تذوب ، ومدت النهرين بالماء المنحدر يحمل أنواعاً من النبات اجترفها فى طريقه .

والمعروف أن الملاحين يحذرون الغرق فى هذا الفيضان ، لأن الماء قوى التدفق والسرعة ، فإن نهرى دجلة والفرات شديدا الانحدار [٣] ، ولا يصلحان للملاحة إلا باستخدام القفف المصنوعة من الخوص ، وهى التى يسمونها الأكلاك (جمع كلك) وهم فى ملاحتهم يتخوفون الغرق ، ويلقون جهدا ومشقات .

هذه الصورة بأسلوبها ونظمها راقت الأخطل ، فقال فى مدح عبدالملك :

وما الفرات إذا جاشت غواربه فى حافتيه وفى أوساطه العُشَرُ[٤]
وزعزعته رياح الصيف واضطربت فوق الجآجئ من آذيّه غُدُرُ[٥]
مُسْحَنْفِرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيف فيها دونه زَوَرُ[٦]
يوما بأجود منه حين تسأله ولا بأجهرَ منه حين يُجْتَهَرُ[٧]

---

(١) الخيزرانة : العصا الطويلة التى يعتمد عليها الملاح فى تحريك قاربه وتوجيهه ، فهناك نوع من القوارب يشبه القفة الكبيرة وعلى جانبيها قربتان مملوءتان بالماء وليس للقارب شراع ولا سكان . الأين : الجهد . النجد : العرق والجهد . (٢) سيب نافلة : عطاء كثير.

(٣) انحدار دجلة ١ : ١٧٥٠ والفرات ١ : ٣٠٠٠ .

(٤) جاشت غواربه : تعالت أمواجه . العشر : شجر جيد النار .

(٥) زعزعته : حركته . الجآجىء : جمع جؤجؤ وهو الصدر . آذيه : موجه . غدر : جمع غدير .

(٦) مسحنفر : منحدر مسرع . أكافيف : الكفة نقرة يجتمع فيها الماء ، جمعها كفف ككتب وكفاف مثل كتاب ، فالأكافيف جمع الجمع . زور : ميل .

(٧) جهر الرجل صوته : أعلاه ، وجهر غيره إذا عظمه .

فهو يقبس المنظر العام من تصوير النابغة ، وينقل طريقته فى النفى والتفضيل ، ويستمد بعض ألوانه وظلاله ، لكنه يغير فى الصورة .

ويتضح من النصين أنهما معاً تحدثا عن هبوب الرياح على أعالى الفرات ، لتذيب الثلوج التى تمد النهر بالماء الدافق ، لكن الأخطل كان أدق إذ خص الرياح بأنها صيفية . وتحدثا عن الشجر والغُثاء الذى يحمله الماء الجارى ، وإن كان النابغة خص بالذكر الينبوت والخضد والأخطل خص بالذكر العُشَر .

والشاعران يختاران الفرات للتشبيه به لسببين : أحدهما قربه من بيئتهما ، ومن بيئة الممدوح ، وصلتهم جميعاً به ومعرفتهم بآثاره ، والآخر أن مجراه مملوء بالصخور وبالحفر التى تشبه البحيرات ، وهى مَسَامِّيَة تختزن بعض ماء الفيضان ، فإذا انخفض ماء النهر مدته مياه الحفر بالرشح ، فعاد إلى الارتفاع .

ومن هنا كان التشبيه به دقيقاً ، لأن ماءه لا يغيض ، وكذلك عطاء الممدوح لا ينقطع . وإذا كان النابغة قد انفرد بالحديث عن خشية الملاح من الغرق ، ومن جهده وعرقه ، فإن الأخطل أضاف إلى الصورة أن ركام النبات يطفو على حافات النهر وعلى أوساطه ، وزاد على هذا أن الماء المنحدر المسرع قد صنع طرائق فى المجرى ، فبدت كأنها غدران يجاور بعضها بعضا ، وذكر جبال الروم وهى منابع الفرات ، ثم ذكر النقَر التى تعترض المجرى ، لأن بعض الصخور تعترضه فيتعرج ، ولأن فى واديه حفرا أشبه بالبحيرات المتقطعة ، ولم ينس الأخطل أن هذه النقر منحدرة فى اتجاه الوادى ، وهذا هو الزَّوَر الذى ذكره .

الكُمَيْت

(شاعر الشيعة)

شاعر الشيعة الذى أصفاهم وده ، ونظم فى التغنى بحبهم ، والإشادة بهم ، والدفاع عن حقهم شعراً كثيرا ، بلغنا منه نحو ست مئة بيت ، يضمها ديوان الهاشميات .

معالم حياته

هنالك بالكوفة معقل الشيعة ، ولد الكميت بن زيد الأسدى(٢) سنة ٦٠ هـ ٦٧٩ م وهى سنة لها فى تاريخ الشيعة شأن أى شأن ، لأنهم لا ينسون أن الحسين ابن على قتل فيها .

وعاش الكميت إلى أن قتله يوسف بن عمر الثقفى سنة ١٢٦ هـ فى خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك ، قبل أن يتولى مروان بن محمد .

نشأ الكميت بالكوفة ، موئل الشيعة ، وينبوع التشيع ، ومنجم الثورات على بنى أمية .

وكانت ميدانا فسيحا للشعراء والخطباء وعلماء اللغة وعلماء الدين ، وكانت

---

(٠) الأغانى ١٥/١٠٩ دار الكتب والشعر والشعراء ١٣٩ والمؤتلف والمختلف ١٧٠ للآمدى وخزانة الأدب للبغدادى ١/٦٧ ومروج الذهب ٢/١١٥ وهاشميات الكميت والبيان والتبيين

(٢) فى قبيلة بنى أسد بن خزيمة ثلاثة شعراء يسمى كل منهم الكميت ، هم الكميت بن ثعلبة الشاعر المخضرم وحفيده الكميت بن معروف ، والكميت بن زيد .

تنافس البصرة فى هذا كله ، وسوقها الأدبية الكناسة قريعة المربد سوق البصرة ، وكانت تزخر بتيارات ثقافية شتى

فاستقى الكميت من هذه المعارف ، حتى صار من فقهاء الشيعة[1] ، ومن رواة الحديث[2] .

ولعلنا لم ننس بعد ما أسلفنا فى دراسة الشيعة من أن الكميت كان زيديا ، وأن زيد بن على كان تلميذا لواصل المعتزلى ، فكانت الزيدية كلها من المعتزلة .

ويذكرون أن الكميت كانت له جدتان معمرتان تقصان عليه أخبار العرب فى الجاهلية ، وتحدثانه بأيامها وأنسابها ، وكثيرا ما استقى الكميت منهما فى كبره ، على أنه كان يقصد رؤبة فيسأله عن الغريب ، ثم يستعمله فى شعره[3] .

فلا عجب أن كان حجة ثقة فى اللغة ورواية الشعر والأنساب والأيام ، وحسبه أنه ساجل حمادا الراوية ، فظهر عليه فى اللغة وفى الرواية[4] .

ولقد سبق فى عوامل ازدهار الشعر أن الجدل كان حادا فى هذا العصر بين أصحاب الآراء والمعتقدات ، وأن القدرية انبروا للرد على المرجئة ، وأن زيد بن على زعيم الشيعة الزيدية كان تلميذا لواصل بن عطاء المعتزلى ، فكانت الفرقة كلها على مذهبه .

وبهذا أيضا تأثر الكميت شاعر الزيدية ، وظهرت آثار ذلك فى شعره .

---

(١) خزانة الأدب ١/٦٩ (٢) الأغانى ١٥/١٢٦ (٣) الأغانى ١٠/١٤٩

(٤) اجتمعا بمسجد الكوفة وتذاكرا أيام العرب وأشعارها ، فخالفه حماد فى شئ ، فقال له الكميت : أتظن انك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ قال حماد : بل أوقن ، فغضب الكميت ، وقال : لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان ، تروى ؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو ، تروى ؟ فقال حماد بعض القول . فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من كل صنف ، ويسأل حماداً : هل تعرفه ؟ فإذا قال لا ، أنشده من شعره حتى ضجر الحاضرون . ثم قال الكميت: فإنى سائلك عن شئ من الشعر ، وسأله عن معنى بيتين ، فأفحم حماد ولم يعرف ، وطلب من الكميت أن يفسرهما له ، ففعل .

تشيعه

١ — عرفت أن الكميت ولد بالكوفة ونشأ بها ، ولعلك من نسبه عرفت أنه من قبيلة أسد ، وهى قبيلة اشتهرت بتشيعها قبل أن يولد الكميت ، فمن الطبيعى أن يكون الشاعر شيعيا على مذهب قبيلته الذى لَقِنَهُ منذ الصغر ، وعلى مذهب مدينته التى كانت تتزعم الدعوة وتدافع عنها وتثور من أجلها ، وطالما نكل الولاة بالدعاة وقتلوهم ، وطالما احتمل هؤلاء وجادوا بالأرواح والدماء فى حماية مذهبهم والدفاع عن أنفسهم ، ولا شك أن هذا كله قد حمل الكميت على أن يتشيع ، وعلى أن يذود عن الشيعة بلسانه الحاد ، حتى لقد جعل يؤلب الناس على خالد القسرى والى العراق لهشام بن عبد الملك ، وبخاصة أن خالدا كان يمنيا يتعصب لقومه على المضرية .

٢ — وقد عرف آل البيت ولاءه لهم ، فأحبوه وقدروه .

يذكرون أنه دخل على الإمام جعفر الصادق وأنشده إحدى هاشمياته ، فلما انتهى قال الإمام : اللهم اغفر للكميت ماقدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، حتى يرضى .

ودخل على السيدة فاطمة بنت الحسين ، فرحبت به وقالت : هذا شاعرنا أهل البيت .

وليس فى تاريخ الكميت وصلته بالعلويين ما يوحى من قرب أو من بعد بأنه كان طالب منفعة أو طامعا فى مال ، فإن فاطمة بنت الحسين بعد أن قالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، جاءت بقدح فيه سَوِيق ، وحركته بيدها ، وسقت الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين دينارا ، ومركب ، فهملت عيناه ، وقال : لا ، والله لا أقبلها ، إنى لم أحبكم للدنيا .

كذلك يروون أنه دخل على الإمام محمد الباقر ، فأمر له بألف دينار وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى

فى يديه ، ولـكنى أحبتـكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله . وقبل الثياب ورد المال .

٣ — وفى تاريخ الـكميت أنه تشيع مبكرا ، وقال الشعر الشيعى فى مطلع حياته الشاعرة .

ذكر أبو الفرج أن علياً النَّوْفَلِيّ قال : كان أول ماقال الـكميت بن زيد من الشعر الهاشميات ، فسترها . ثم أتى الفرزدق فقال له ياأبا فراس ، إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك . قال : فما حاجتك ؟ قال : نَفَثَ علىّ لسانى ، فقلت شعرا أحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسنا أمرتنى بإذاعته ،وإن كان قبيحا أمرتنى بسَـتره . قال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فأنشده:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب .

قال الفرزدق : ففيم تطرب ؟ . قال الـكميت :

ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب ؟

قال الفرزدق : بلى ياابن أخى ، فالعب فإنك فى عهد اللعب . فقال :

ولم يُلهِنى دار ولا رسمُ منزل ولم يَتَطَرَّبنى بنان مُخَضَّب

فقال الفرزدق : فما الذى يطربك ياابن أخى ؟ قال :

ولا السانحاتُ البـــارحات عَشِيَّةً

أمَرَّ سليم القَرْن أم مرَّ أعْضَبُ(١)

قال الفرزدق : أجل لا تتطير . فقال الـكميت :

ولـكنْ إلى أهل الفضائل والتُّقى وخير بنى حواء والخير يُطْلَب

---

(١) السانحات : الطيور التى كانوا يزجرونها فتتيا من فيتفاءلون بها ، والبارحات عكسها. أعضب : مكسور القرن وكانوا يتشاءمون به .

قال الفرزدق : من هؤلاء ، ويحك ؟ قال الكميت :

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابنى أتقرب

قال الفرزدق : أرحني ويحك ، من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط النبي فإننى بهم ولهم أرضىَ مرارا وأغضب

خفضتُ لهم منى جناحى مودةً

إلى كنف عِطفاه أهلٌ ومرحب

. . . .

فقال الفرزدق : ياابن أخى أذِعْ ثم أذِعْ ، فأنت والله أشعر مَن مضى ومن بقى ، أحسنت إذ عدلتَ عن الزعانف والأوباش ، أظهِرْ ثم أظهِر وكِدْ الأعداء .

٤ — عاش الكميت بالكوفة مدة يقرض القصائد فى مدح آل البيت ، وفى رثاء موتاهم ، وفى المناظرة دفاعا عن حقوقهم ، ولكن لم يتعرض له وال من ولاة الكوفة ، بل إن خالد بن عبدالله القسرى كان فى أول الأمر يقربه ويوده ويجزل عطاءه .

لكن صفاء الكميت وطمأنينته وتغاضى الولاة عنه آن لها أن تزول ، فقد غضب عليه خالد (١) ، وغضب عليه الخليفة هشام بن عبدالملك غضبا أهدر الدم

---

(١) كان حكيم بن عياش الكلبي كثير الهجاء لمضر ، وكان شعراء مضر يردون عليه ، وطلبوا من الكميت أن يعينهم ، فاعتذر بأن خالد بن عبدالله القسرى محسن إليه ، وأن هجاءه لحكيم الكلبي يغضب خالداً ، فأسمعوه ما قال حكيم فى نساء مضر ، فحمى وقال قصيدته : «ألاحييت عنايامدينا» وتناول فيها اليمن كلها وعشيرة خالد . وعلم خالد فاشترى جوارى وحفظهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام ، فلما أنشدنه قصائد الكميت ، قال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد . قال . وأين هو ؟ قلن : بالكوفة . فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأسه ، فحبسه خالد حينا ، ولكن الكميت هرب بأن طلب من امرأته حتى أن تقيم مكانه ، وهرب فى ثيابها ، ثم لم يجد بدأ من الظهور والاستغفار . وفى هذا يقول:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوابح والمشلى

على ثياب الغانيات وتحتها عزيمة أمر أشبهت سلة النصل

وقدح ابن مقبل من قداح الميسر ، كان لبنى عامر بن صعصعة ، وهو لايوضع فى القداح إلا فاز . المشلى . الذى يغرى الكلاب بالصيد .

وأنذر بالقتل ، فاضطر أن يستجير بعنبسة بن سعيد بن العاص كبير بنى أمية ، ويستشفع به عند هشام ، فشفع له عند مَسْلمة بن هشام ، ليشفع له عند أبيه . ومثل الكميت بين يدى الخليفة ، فخطب معتذرا ، فقرعه هشام على هجائه بنى أمية ومدحه بنى هشام ، فشَمَّرَ الكميت معتذرا ومادحا ، فرضى هشام ، وأعلن رضاه وعفوه ، فقبل الكميت يده وقال : ياأمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فلا تجعل لخالد إمارة على . قال هشام : قد فعلت ، وكتب لخالد بذلك ، وأمر للكميت بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب لخالد أن يخلى امرأة الكميت ، ويعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوبا ، ففعل .

وقد ابتهج المضريون بالشام بالعفو عنه ، وجمعوا له مالا كثيرا ، فرجع إلى الكوفة مطمئنا على حياته .

٥ — وكان المتوقع من الشيعة أن يشكوا فى ولائه بعد مدحه بنى أمية ، وأن يظروا إليه شزراً ، لكن هذا لم يحدث ، فقد أجازوا صنيعه ، ولم يلوموه على مدحه ، وكيف يلومونه ومذهبهم قائم على التَّقية والمداراة والمصانعة ؟

يتبين هذا من أن أبا جعفر محمد بن على قال للكميت :

أنت القائل :

فالآن صرتُ إلى أميـــــسة والأمور إلى مصائر

فأجاب : نعم ، قد قلت ، ولا والله ماأردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم . فقال له أبو جعفر : إن قلت ذلك إن التَّقِية لتَحِلُّ .

وإذا فقد كان الشيعة يعرفون أن مدح الكميت للأمويين لم يكن ولاء لبنى أمية وغدرا ببنى هاشم ، وإنما كان تَقِيَّة اضطر إليها شاعر يعيش بالكوفة ، ويتشيع على علم من والى العراق الصارم خالد القسرى . ولعله أراد بمدحه فى أول الأمر أن يتغافل عنه ، ولا ينقل خبره إلى هشام ، ثم إنه أيقن بالهلاك فيما بعد ،

فاضطر إلى مدح هشام وبنى أمية ، لينجوا من الفتك ، وليخلص زوجته من السجن إذا فرّ هو من سجنه ، فأدخلت السجن بدلا منه .

على أنه كان بعيد النظر ، بارع الحيلة ، فقد أشاد ببنى أمية ليفحم خصما من خصومه وخصوم الشيعة ، ويقطع عليه طريق الرد والمناقضة .

ذلك أن حكيم بن عياش الكلبى كان مولعا بهجاء بنى هاشم وهجاء علىّ بخاصة ، وكان من شعراء بنى أمية ، فهجاه الكميت ، واحتدم بينهما الخصام والهجاء ، فأشاد الكميت فى بعض أهاجيه ببنى أمية ، وسأله ابنه المستَهِلّ عن هذا بقوله : ياأبت إنك هجوت الكلبى ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فهلاّ فخرت بعلى وبنى هاشم الذين تحبهم ؟ قال : يابنى ، أنت تعلم انقطاع الكلبى لبنى أمية ، وهم أعداء علىّ ، فلو ذكرته لهجاه الكلبى ، وأكون أنا الذى عرّضه للهجاء ، ولكنى فخرت ببنى أمية ، فإن نقض علىّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما ، وغلبته .

وكان ماتوقعه الكميت ، فإن الكلبى أمسك عن جوابه ، فغلبه الكميت وأفحمه .

أخلاقه

— ١ —

فى تاريخه وشعره ماينبىء عن حرص على الحياة وتقية وحذر من القتال ، وفرار من المعاطب ؛ وإلا ففيم كان مدحه لخالد القسرى أول الأمر ؟ وفيم كان فراره من الحبس فى ثياب زوجته ، وهو يعلم أنه يخليها للابتذال والانتقام ؟ وفيم كان تشفعه إلى هشام ومدحه بنى أمية ؟

على أن جبنه هذا بَيِّن فى بعض شعره ، إذ أعلن ولاءه لآل البيت وحماسته لهم ، على ألا يقاتل فى سبيلهم ، وقد أجرى حوارا بينه وبين نفسه كشف فيه عن جبن وتعلل وأعذار فى قوله :

تجود لهم نفسى بما دُونَ وَثْبة تظل بها الغربانُ حولى تَحْجِل[1]
إذا سُمت نفسى نصرهم وتطلَّعت إلى بعض مافيه الزُّعاف المثَّمل[2]
وقلت لها يبعى من العيش فانيا بباق ، أعزِّيها مرارا وأَعذل
أتنى بتعليل ومنَّتنى المنى وقد يقهل الأمنيَّةَ المتعلِّل

ولما خرج زيد بن على فى عهد هشام خروجا انتهى بقتله سنة ١٢٢ هـ بيد والى العراق يوسف بن عمر الثقفى ، لم يؤازره الـكميت ، لـكنه لام نفسه ، وعبر عن أساه فى تخليه عن مناصرة إمامه بقوله :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه ألَهفى لَهفَ للقلب الفَـروق
حِـذَارَ مَنيةٍ لا بد منها وهل دون المنية من طريق ؟

لـكنه رثا زيدا وهجا يوسف ، ثم وفد على يوسف ليمدحه ، فـكان جزاؤه أن وضع الجند سيوفهم فى بطنه وهو ينشد يوسف مدحته ، فمات .

فهل أمر يوسف بقتله ، لأنه هجاه لما قتل زيد بن على ، وأفذع فى هجائه ، كقوله :

يعَزّ علىَ أحمـدٍ بالذى أصاب ابنَه أمس من يوسف
خبيثٌ من العُصْبة الأخبثين وإنْ قلت زانين لم أقذف

أو أن الجند قتلوه ، لأنه فى مديحه ليوسف عرض بخالد القسرى سلفـه على العراق تعريضا أغضبهم ، لأنهم يمانية مثل خالد ؟

أما تعريضه بخالد فإنه تهـكم بقوله وهو على المنبر : « أطعمونى ماء » حين خرجت عليه الجعفرية أتباع أبى جعفر محمد بن على :

خرجتَ لهم تمشى البَراحَ ولم تـكن كمن حِصْنُه فيه الرِّتاج المضبَّب

(١) وثبة تظل ... : كناية عن الحرب (٢) الزعاف المثمل : السم الناقع .
(٣) البراح : المتسع من الأرض . الرتاج : الباب الـكبير أو المغلق فيه باب صغير . مضبب : عليه ضبة .

وما خالد يستطعم الماء فاغرا   بِعِدلك، والداعي إلى الموت يَنْعَب [1]

— ٢ —

وكان الرجل سمح النفس ، لا يضيق صدراً بمخالفيه فى مذهبه ، فقد عرفنا أنه كان على صلة بخالد القسرى ، وأنه مدحه قبل أن يفسد ما بينهما . وعرفنا من تاريخه أنه صادق الطِّرِماح بن حكيم ، وكان معجبا بشعر الطرماح وروايته وخطابته ، حتى لقد سمع الطرماح يقول مزْهُوًّا :

إذا قُبِضَتْ نفسُ الطرماح أخلقَتْ
عُرا المجد واسترخَى عِنان القصائد

فقال : إى والله ، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة . ولكن لم خصصنا الطرماح بالذكر ؟

ألأنه شاعر مثله ، فكان المتوقع أن ينفس عليه ؟

لا ، بل لأن بين الرجلين عدة فروق ، بل عدة أسباب للعداوة .

فالكُمَيْت داعية من دعاة الشيعة الزيدية ، والطرماح زعيم من زعماء الخوارج الصُّفْرية . والكميت مضرى يتعصب للعدنانية ، والطرماح قحطانى يتعصب لليمنية والكميت من الكوفة ، والطرماح من الشام ، وبين العراقيين والشاميين عداء مستحكم كما عرفنا فى دراسة العصبية .

ولكن كان بينهما « من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صَرْم ولا جفوة ولا إعراض ، ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه » [2] .

وهذا العجب الذى نعجبه ليس جديدا ، فقد عجب بعض الناس من قبل ، وسألوا الكميت فقالوا له : إنه لا شىء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح ،

---

(١) فاغرا : فاتحا فاه . عدل : نظير . ينعب : يصوت كنعيب الغراب
(٢) البيان والتبيين ١/٦٤

على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد ، فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة[1] .

وليس أدل على وثاقة الصداقة التى كانت بينهما ، من أن الكميت قاسم الطرماح إحدى جوائزه ، إذ وفد الطرماح والكميت على مخلد بن يزيد المهلبى ، فجلس لهما ، ودعاهما ، فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له مخلد : أنشدنا قائما ، فقال : كلا ، فلن يرفع الشعر من قدرى وأحط منه بضراعتى ، وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمآثر العرب . قيل له : فتنح أنت . ودعى الكميت فأنشد قائماً ، فأمر له مخلد بخمسين ألف درهم . فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح ، وقال له : أنت أبعد همة ، وأنا ألطف حيلة[2] .

ومن سماحته أيضاً أنه لم يَدِنْ بما دان به الشيعة أو أكثرهم من الحكم على أبى بكر وعمر بالخطأ تارة وبالكفر تارة إذ توليا الخلافة دون على ، فقد توقف الكميت عن الحكم ، وتركه لله :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ... أَلوم يوما أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدَكا ... بنتَ النبى ولا ميراثَه ، كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به ... يوم القيامه من عذر إذا اعتذرا

موضوعات شعره

— ١ —

السياسة أهم موضوعات الكميت[3] .

ونستطيع أن نوجز مذهبه السياسى فى فكرتين :

أما الأولى فهى أن الخلافة وراثية فى بنى هاشم وأولادهم أولاد على

(١) الأغانى ١٠/١٤٩ (٢) الأغانى ١٠/١٤٩

(٣) شعره مجموع فى (الهاشميات) وعدد أبياتها ٥٣٦ بيتا طبعت فى أوربا ثم فى مصر .

من فاطمة ، لأنهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحقهم بوراثته ، وأجدرهم بنشر دينه والحفاظ عليه .

ومن هنا كان الذين يؤثرون أنفسهم بالخلافة من غير آل البيت عادين غاصبين .

وأما الثانية فهي أن بني أمية طغاة ، سلبوا الخلافة ، وعصوا الله ، وعطلوا سنن نبيه ، واغتصبوا مال الأمة ، وسفكوا الدماء بغير حق ، فهم كفار ، ولن يستقيم حال المسلمين إلا بزوال ملكهم .

لهذا دعا إلى الثورة عليهم ، وتولية هاشمي يحكم الأمة بالعدل ، ويغدق عليها الخير :

فقل لبني أمية حيث حلُّوا وإن خفتَ المهنَّد والقطيعا[1]
ألا أفٌّ لدهر كنت فيه هِدانًا طائعًا لكُمُ مطيعا[2]
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ بجوركُمُ أجيعا
ويلعن فذَّ أمَّته جهارًا إذا ساس البرية والخليعا[3]
بمرضيٍّ السياسة هاشميٍّ يكون حيًا لأمته ربيعا[4]
وليْثًا في المشاهد غير نكسٍ لتقويم البرية مستطيعا[5]
يقيم أمورها ويذُبُّ عنها ويترك جدبها أبدًا مَريعا[6]

وعقد موازنات بينهم وبين بني هاشم ، فضل فيها بني هاشم ، كقوله .

---

(١) المهند : السيف . القطيع : السوط (٢) الهدان : الجبان .
(٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح والمراد معاوية لأنه أول ملوك بني أمية . الخليع : الوليد بن عبد الملك : (٤) الحيا : المطر
(٥) نكس : جبان (٦) المريع : الخصب .

أُسْدُ حرب غيوث جدب بهاليـــلُ مقاويلُ غيرُ ما أفدام[1]
سادةٌ ذادةٌ عن الخرَّد البيـــض إذا اليوم كان كالأيام[2]
ساسةٌ لا كمن يرى رِعْية النا س سواءً ورِعْيَةَ الأنعام[3]
لا كعبد الملك أو كوليـد أو سليمان بَعْدُ أو كهشام
من يَمُتْ فلا يمت فقيدا ومن يحـــى فلا ذو إلٌّ ولا ذو ذِمام[4]

— ٢ —

أما مدائحه لبنى هاشم فكثيرة جداً ، كقوله :

فمالى إلا آل أحمد شيـــعةٌ وما لى إلا مشعب الحق مشْعَبُ
ومن غيرهم أرضى لنفسى شيـــعةً
ومَنْ بعدَهم ، لامَنْ أَجَلُّ وأرْجَب[5]
إليكم ذوى آل النبى تطلَّعتْ نوازعُ من قلبى ظِماء ، وألْبُبُ
فطائفةٌ قد كفرتنى بحبكم وطائفةٌ قالوا مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفيرُ هاتيك منهم ولا عَيْبُ هاتيك التى هى أعيبُ
يعيبوننى من خبِّهم وضلالهم على حبكم، بل يسخرون وأعجبُ

(١) بهاليل : جمع بهلول وهو الضحوك . أفدام : جمع فدم وهو الثقيل الغبى . مقاويل: جمع مقول وهو الملك أو الفصيح .
(٢) الخرد : جمع خريدة وهى الحسناء . كالأيام : أى كان اليوم مثل الأيام الشداد وهى أيام الحرب .
(٣) كمن يرى . . : المراد بنو أمية لأنهم يسوسون الناس كأنهم أنعام .
(٤) الإل : العهد . الذمام : الذمة .
(٥) أرجب : أحق بالهيبة والتعظيم .

وقالوا : تُرابيٌّ هواه ورأيُه بذلك أُدْعَى فيهمُ وأُلَقَّب[١]

— ٣ —

كذلك من أهم موضوعات الكميت العصبية للعدنانية على القحطانية ، ولعله كان أسبق الشعراء إلى تأريثها ، حتى استطار لهبها مدة من الزمان . ويذكر الأصفهانى أن عصبية الكميت للعدنانية ، وهجاءه لليمنية ، والمناقضة بينه وبين شعرائهم ، لم تزل شائعة فى حياته ، وبقيت بعد وفاته نحو مئة سنة ، إذ ناقض دِعبل وابن أبى عيينة قصيدته (ألا حييت عنا يا مدينا) فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم ، ورد عليهما .

وهى قصيدة طويلة تزيد على ثلاث مئة بيت ، تغص بهجاء مقذع لليمنية .

وأغلب الظن أن هذه العصبية لم تنشأ إلا فى ولاية خالد القسرى على العراق[٢] (١٠٥ — ١٢٠ هـ) لأن الكميت كان قبل ذلك شيعيا غير شديد الكراهية لبنى أمية ، وغير مبغض لليمنية ، فقد مدح مخلد بن يزيد بن المهلب الذى ولاه أبوه على خراسان فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٦٦ — ٩٩ هـ) ووفد على يزيد بن عبد الملك ومدحه (١٠١ — ١٠٥ هـ)

خواص شعره

— ١ —

سبق الكميت الشعراء إلى المحاجة والمجادلة بالشعر فى تأييد حق الهاشميين ، والتدليل عليه بالقرآن والمنطق .

وهو فى هذا متأثر بطرائق المعتزلة فى تفكيرهم واستدلالهم على آرائهم ،

---

(١) ترابى : علوى ، لأن على بن أبى طالب كان يكنى بأبى تراب.

(٢) تجد فى فصل « العصبية القبلية » تفصيلا لاضطهاد خالد القسرى العرب المضرية والنزارية .

فقد عرفنا صلته بزيد بن على زعيم الزيدية ، وعرفنا أن زيدا والزيدية كلهم كانوا متأثرين بواصل بن عطاء .

لهذا كان الجاحظ على الصواب فى قوله : مافتح للشيعة باب الحجاج بالشعر إلا الكميت .

وهذا هو السبب فى أنه لم يكن يَفْتَنُّ فى شعره ، ولم يُفَوِّفْه بألوان من الخيال كما يفعل الشعراء ، وإنما كان يسوق أفكاره مساق المتحدث الجدل . ومن هنا وصفه بعض النقاد بأنه خطيب لا شاعر ، وقال عنه بشار إنه ليس بشاعر .

وإذاً فإن هاشمياته ليست مدائح لآل البيت بالمعنى المتعارف فى المديح ، بل هى حجاج لهم ، ودفاع عن حقهم ، وحملة على بنى أمية ، وترويج للزيدية . فهو يستدل لاستحقاق آل البيت وحدهم الخلافة بنوعين من الأدلة .

النوع الأول القرآن الكريم ، كقوله تعالى « وآت ذا القربى حقه[1] » وقوله . « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[2] » وقوله . « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى[3] » وقوله . « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[4] . تجد هذا فى قوله :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم ... فلم أر غصباً مثله يتَغَصَّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم آية ... تأولها منا تقى ومُعْرِب[5]
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت ... لكم نصب فيها لذى الشك منصب

أما النوع الثانى فهو أدلة نظرية عقلية قائمة على التدليل المنطقى .

فإذا كان بنو أمية يزعمون أنهم ورثة الخلافة ، لأنهم من قريش ، فإن بنى هاشم أحق منهم بوراثة الرسول ، لأنهم أقرب إليه .

(١) سورة الإسراء ٢٦ (٢) سورة الأحزاب ٣٣
(٣) سورة الشورى ٢٣ (٤) سورة الأنفال ٤١
(٥) يشير إلى قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» .

وإذا كانوا يزعمون أن النبي لا يورث ، فإنهم إذاً عادون غاصبون ، لأنهم سطوا على حق العرب جميعاً وفيهم الأولى بالخلافة منهم ، كبنى هاشم وكالأنصار ، والأمويون إذ يستأثرون بالخلافة يناقضون أنفسهم ، لأنهم يدعون أن النبي لم يورث ، ويدعون أن الخلافة لقريش ، فكيف نوفق بين هاتين الدعويين المتناقضتين ؟ إن قولهم بحصر الخلافة فى قريش هو الحق ، وإلا لشاركت فى المطالبة بها كل قبائل العرب من عدنانية وقحطانية ، ولكان الأنصار أولى بها ، لأنهم هم الذين آووا ونصروا .

وإذاً فإن أقرب القرشيين إلى النبي هم الذين يرثون هذا الحق ، ومن هم إلا بنو هاشم ؟ يقول الكميت :

بحقكمُ أمست قريش تقودنا ... وبالفَذِّ منها والرديفين نُركب(١)
وقالوا ورثناها أبانا وأمَّنا ... وما ورَّثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجباً ... سَفاها ، وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى ... به دان شرقى لكم ومُغرِّب
فدًى لك موروثا أبى وأبو أبى ... ونفسى ، ونفسى بعدُ بالناس أطيب
وتُستخلَفُ الأموات غيرك كلهم ... ونَعْتِب لو كنا على الحق نُعتَب
يقولون : لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بَكيلٌ وأرْحَبُ
وعكٌّ ولخم والسَّكون وحمير ... وكندة والحيان بكرٌ وتغلب
ولانتشلت عضوين منه يحابرٌ ... وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب(٢)

---

(١) الفذ : أول سهام الميسر ، والمراد معاوية أول ملوك بنى أمية . الرديفين : جمع رديف وهو الذى يركب خلف الراكب أو الذى يجلس على يمين الملك ويخلفه إذا غزا ، والمراد الملوك الذين بعد معاوية .

(٢) بكيل وأرحب : قبائل بعضها يمنى وبعضها عدنانى .

وما كانت الأنصار فيها أذلة ... ولا غيّبا عنها إذ الناس غُيّب
همُ شهدوا بدرا وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبّب
فإن هى لم تصلح لحى سواهمُ ... فإن ذوى القربىَ أحق وأقرب

— ٢ —

وهو فى هاشمياته حار العاطفة ، صادق المشاعر ، لأنه ينافح عن عقيدة ، ويجد راحة نفسه وطمأنينة قلبه فى هذا الدفاع ، ويطلب من الله الثواب على نصرة آل البيت ، ويعزف عن المال والجاه .

وقد سبق أنه رفض عطاء السيدة فاطمة بنت الحسين ، وقال : إنى لم أحبكم للدنيا ، ورفض دنانير الإمام محمد الباقر ، وقبل ثيابا أعطاه إياها ، لأنها لامست جسده .

— ٣ —

لم يبدأ هاشمياته ببكاء الأطلال أو بالغزل ، وإنما بدأها بحبه لآل البيت ، كقوله :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولا لعبا منى ، أذو الشيب يلعب ؟
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى ... وخير بنى حواء ، والخير يُطلب

فإذا أراد أن يحاكى القدماء فى وصف الصحراء ختم القصيدة بهذا الوصف .

— ٤ —

وهو شاعر متدفق ، طويل النفس ، مطبوع .

ومن هنا كانت مطولاته كثيرة ، حتى بلغت قصيدته التى رد بها على حكيم ابن عياش الكلبى نيفا وثلاث مئة بيت

— ٥ —

وقد كان لحفظه الكثير عن القدماء أثر عميق فى تجويده ، حتى لتسبق بعض

عباراتهم إلى خاطره ، فيتخذ بعض النقاد من هذا دليلا على أنه يسرق ، وقديما اتهمه بالسرقة خلف الأحمر ، لأنه متعصب عليه .

نماذج من شعره

— ١ —

قال فى الحملة على بنى أمية :

ألا هل عمٍ فى رأيه متأمِّل وهل مُدْبِرٌ بعد الإساءة مُقْبِل ؟
وهل أمةٌ مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النَّعْسَةَ المتزمِّل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى
مساويهم لو كان ذا الميل يَعْدِل
وعُطِّلَتِ الأحكام حتى كأننا على ملة غير التى ننتحِّل
كلام النبيين الهُدَاةِ كلامُنا وأفعالَ أهل الجاهليين نفعل
رضِينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونُقْتَل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جُنَّةٌ مما نخاف ومعقِل
أرانا على حب الحياة وطولها يُجَدُّ بنا فى كل يوم ونهزل
فتلك أمور الناس أضحت كأنها أمور مُضيعٍ آثر النوم بُهَّل[1]
فياساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم لعمرى ذو أفانين مِقْوَل
أأهل كتاب نحن فيه وأنتمُ على الحق نقضى بالكتاب ونعدل؟
فكيف ومن أنَّى وإذ نحن خلفة فريقان شتى تسمنون ونُهْزَل
أتصلح دنيانا جميعا ، وديننا على ما به ؟ ضاع السَّوام المؤبَّل[2]

---

(١) بهل : لا عمل له .
(٢) السوام والسائمة : الإبل الراعية . مؤبل : مهمل .

كأن كتاب الله يُعْنَى بأمره ... وبالنهى فيه الكَوْدَنِىُّ المركّل (١)
ألم يتدبّر آية فتدلّه ... على ترك ما يأتى أم القلب مُقْفَل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتى م حتى م العناء المطوّل
فيارب هل إلا بك النصر يُرْتَجى ... عليهم ، وهل إلا عليك المعوّل ؟

- ٢ -

وقال لما ولى خالد القسرى أخاه أسدا على خراسان سنة ١١٧ هـ، مخاطبا أهل مرو :

ألا أبلغ جماعة أهل مَرْوٍ ... على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدى سلاما ... ويأمر فى الذى ركبوا بجِدِّ
فلا تهِنُوا ولا ترضوا بخَسْف ... ولا يغرركُمُ أسدٌ بعهد
وإلا فارفعوا الرايات سودا ... على أهل الضلالة والتعدى

- ٣ -

وقال فى مدح بنى أمية والاعتذار لهشام :

فالآن صرت إلى أميّـــة والأمور لهـــا مصائر
يابن العقـائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير (٢)
من عبد شمس والأكا ... بر من أميـة فالأكابر
إن الخـلافة والإلا ... فَ برغم ذى حسد وواغر (٣)
دَلَفا من الشرف التليـــد إليك بالرِّفْد الموافر (٤)
فحللتَ مُعْتَلَج البطـا ... ح وحلّ غيرك بالظواهر (٥)

---

(١) الكودنى : البرذون . المركل : المركول بالرجل ، والمراد هنا هشام بن عبد الملك
(٢) الجحاجحة : السادة . الأخائر : الأخيار .
(٣) الإلاف : الإيلاف وهو العهد . واغر : حاقد
(٤) دلفا : أقبلا على مهل ، والمراد الخلافة والعهد . الرفد : الخير
(٥) معتلج : ملتقى . البطاح : جمع بطحاء وأبطح وهو الأرض الواسعة ذات الحصا تسيل بها الماء . الظواهر : ما ارتفع من الأرض .

كم قال قائلكم لعاً لك عند عثرته لعاثر
وغفرتمُ لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أميــة إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتى بكل مُلِمَّــة وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا فة كابرا من بعد كابر
بالتسعــة المتتابعــين خلائفا وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا ل لشافع منكم وواتر

— ٤ —

وقال فى مدح خالد القسرى :

لو قيل للمجد مَنْ حليفُك ما إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صورته والرأس منه وغيرك الذنب
أحرزْتَ فضل النضال فى مَهَل فكلَّ يوم بكفك القصبُ (١)
لو أن كعبا وحاتما نُشِرَا كانا جميعا من بعض ما تهب
لا تخلف الوعد إن وعدتَ ولا أنت عن المعتفين تحتجب (٢)
ما دونك اليوم من نوال ولا خلفك للراغبين مُنْقَلب

---

(١) القصب : قصب السبق وجائزته
(٢) المعتفون : طلاب الجود .

عِمْرَانُ بنُ حِطَّانَ

شاعر الخوارج

معالم حياته

هو عِمْران بن حِطَّان بن ظَبْيان ، ينتهى إلى ذُهْل بن ثعلبة ، من بكر ابن وائل ويكنى أبا سماك .

نشأ فى البصرة ، ورحل إلى الحجاز ، حيث تلقى الحديث والفقه من عائشة وابن عباس وابن عمر وأبى موسى الأشعرى ، ثم حدث ، وروى عنه بعض المحدثين .

لهذا تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث ، وبأنه على مذهب الجماعة ، لايجنح إلى حزب سياسى أو فرقة دينية .

ثم تزوج قريبة له — كانت على مذهب الخوارج — يريد أن يصرفها إلى مذهب الجماعة ، لكنها استمالته إلى مذهبها . وهى التى يقول فيها :

يا حَمز إنى على ما كان من خُلُقى ... مُثْنٍ بخَلَّاتِ صِدْقٍ كلها فيك[1]

الله يعلم أنى لم أقل كذِبا ... فيما علمت وأنى لا أزكِّيك

كان ذلك وقد كبرت سنه ، وطال عمره ، فضعف عن الحرب ، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه ، ولم يستطع أن يشارك فى الحرب بسيفه ، ورضى القَعَدة من

(*) الأغانى ١٦/١٤٩ — ١٥٤ ، ٧/٣، ١٢/١١٤ والكامل للمبرد ٣/١٦٨

(١) حمزة : اسم بنت عمه التى تزوجها .

الصفرية [1] منه بهذا الجهد البيانى ، فولوه زعامتهم ، تقديرا لبلائه فى الشعر والخطابة ، وتقديرا لدرايته بالفقه والحديث .

لكن الحجاج لم يغفل عما لعمران من مقدرة فى الإثارة ، فطارده ، ففر من العراق إلى الشام ، وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة ، فى استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء ، وكان إذا نزل بقبيلة انتسب نسباً يقربه إليها ، وفى ذلك يقول :

نزلنا فى بنى سعد بن زيد   وفى عَكٍّ وعامر عَوْثبان
وفى لَخْمٍ وفى أُدَدَ بن عمرو   وفى بكر وحىٍّ بنى الغِدان

ولم يسترح الحجاج إلى فراره واختفائه ، فأرسل إلى عبد الملك يعلمه خبره ، ويصفه له ، فاشتد عبدالملك فى طلبه ، وأهدر دمه .

وإذْ كان عمران يتنقل نزل على رَوْح بن زِنْباع الجذامى ، وأنس إلى كرمه وأخلاقه ، وادعى أنه أزْدىّ ، فاستضافه رَوْحٌ سنة كاملة ، كان فيها معجبا بتقوى ضيفه الأزدى وعلمه وأدبه ، وكان روح لا يسمع شعرا نادرا أو حديثا غريبا عند عبد الملك ، ثم يقصه على صاحبه ، أو يسأله عنه ، إلا وجده عليما به ، وزائدا عليه .

وذات يوم حدث رَوْحٌ عبد الملك بمزايا ضيفه الأزدى ، فقال عبد الملك إنه عمران بن حطان ، فأَحْضِرْه .

فعاد رَوْحٌ إلى ضيفه مهموما ، وقص عليه ما دار بينه وبين عبد الملك ، فتظاهر عمران بالرضا ، ووعدُ مضيفه أن يلحق به .

ولما علم عبد الملك أيقن أنه سيهرب ، وقد تحقق يقينه ، فإن الرجل هرب ، واتجه إلى الجزيرة ، ونزل ضيفا على زفر بن الحارث الكلابى ، وانتسب أوزاعيا ، فأكرمه .

---

(١) فرقة من الخوارج تجيز القعود عن الجهاد إذا لم يكن ميسورا ، وزعيمهم ومؤسس مذهبهم زياد بن الأصفر .

ثم نزل رجل من الشام على زفر ، فلما رأى عمران سلم عليه ، وهش له ، فقال له زفر : أتعرفه ؟ قال : نعم إنه شيخ من الأزد رأيته ضيفا لروح ابن زنباع . فقال زفر لعمران : يوما أوزاعيا ، ويوما أَزْدِّيا ، إن كنت عائلا أغنيناك ، وإن كنت خائفا آويناك . فقال عمران : إن الله هو المغنى . ورحل عنه .

ثم قصد عمان ، فوجد قوما من الخوارج ، فكشف عن حقيقته واطمأن .

لكن الحجاج ما زال يَلجُّ فى طلبه ، فاضطر إلى أن يستخفى بقرية قريبة من الكوفة ، قضى فيها بقية حياته بين جماعة من الأَزْد ، حمد عشرتهم ، إلى أن توفى سنة ٨٤ هـ .

خواص شعره

من عجب أن هذا الرجل الخطيب الشاعر الذى أقلق الحجاج وأقلق عبد الملك لم يصلنا من شعره إلا قدر ضئيل جدا .

فهل كان مُقِلاًّ ؟

هل شغلته الخطابة عن الشعر ؟

هل شغله الورع والزهد والفقه والحديث ؟

هل ضاع كثير من شعره ؟

ربما كان الأمر راجعا إلى بعض هذا أو إليه كله .

وربما كان الأدنى إلى الصواب أن كثيرا من شعر الرجل ضاع أو ضُيِّع ، لأنه لا يمثل مذهب الجماعة والكثرة ، ولأنه طعن فى أئمة المسلمين وفى مقدمتهم علىّ وعثمان .

هذا إلى أن السمة العامة لشعراء الخوارج الإقلال كما سبق فى التعليق على شعرهم .

أما شعره الباقى فيتسم بعدة خواص .

— ١ —

يتسم بالصدق ، وتوخى الحقيقة ، ويبرأ من الكذب والمبالغة . وقد عرفت

زوجته صدقه حتى فى شعره ، ولم تدرك ما يحتاجه الشعر من خيال ، فقالت له يوما : زعمت أنك لا تكذب فى شعرك . فقال لها : أو كان منى ذلك ؟ قالت . نعم ، قلت :

فكذاك مَجْزأةُ بن ثورٍ كان أشجع من أسامه

أرأيت رجلا أشجع من أسد ؟ فقال لها : رأيت مَجْزَأة بن ثور فتح مدينة ، ولم أر أسدا يفتح مدينة .

ويذكرون أنه مر بالفرزدق وهو ينشد فى جمع من الناس ، فقال له :

أيها المادح العباد لتُعطَى إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارجُ فَضْلَ المقسِّم العوّاد
لا تقل فى الجواد ماليس فيه وتُسَمِّ البخيل باسم الجواد

فقال الفرزدق : لولا أن الله شغل هذا عنا برأيه للقينا منه شرا .

وقد عرف له الأخطل هذا الحلة ، ذلك أن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك ابن مروان ، فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ، فقال الأخطل : كذبوا ياأمير المؤمنين ، قد بقى من هو أشعر منهم . قال : ومن هو ؟ قال : عمران ابن حطان . قال : وكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا ؟

وعرفها له الفرزدق إذ قال : لقد أحسن بنا عمران حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ، ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا . يريد جودة شعره وصدق عاطفته .

— ٢ —

يتسم بانتقاء مفرداته فى غير توعر وإغراب ، وبجزالة عباراته فى نسق لا تعقيد فيه ولا التواء ولا اعتساف بتقديم وتأخير .

— ٣ —

أما أفكاره فبينة ، لم يجهد فى الغوص وراءها ، وليست فى حاجة الى تروّى

القارىء فى إدراكها . وهى إلى هذا مرتبة ، وبخاصة حينما يقص حدثا من أحداثه ، كما نجد فى ثنائه على روح بن زنباع ، وفى قصيدته لزفر بن الحارث .

— ٤ —

وأما خياله فنزر ، لأنه — كما يتبين من نماذج شعره — يؤثر التعبير بالحقيقة على التوسط بالخيال . وربما كان مرجع هذا إلى قناعته بصدق شعوره ، أو إلى توخيه البعد عما قد يجره الخيال من تهويل وتضخيم ، لأنه كما عرفنا من حياته مؤثر للصدق ولتصوير الواقع ، ولقد يصح أن نشفع إلى هذا أنه لم يكن من ذوى المقدرة على التخيل والتخييل .

نماذج من شعره

— ١ —

قال فى الثناء على روح بن زنباع ، لما فارقه :

يا رَوحُ كم من أخى مَثْوًى نزلتُ به ... قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خِفتُه فارقت منزله ... من بعد ما قيل : عمرانُ بن حطان
قد كنت ضيفك حولا لا تَرَوَّعنى ... فيه الطوارق من إنس ومن جان
حتى أردتَ بى العظمى فأدركنى ... ما أدرك الناسَ من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له ... فى الحادثات هَنات ذات ألوان
يوما يمانٍ إذا لاقيت ذا يَمَنٍ ... وإن لقيت مَعَدّيا فعدنانى
لو كنت مستغفرا يوما لطاغية ... كنتَ المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبتْ لى آيات مطهرة ... عند التلاوة فى طه وعمران

فهو فى ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له ، لأنه ليس فى رأيه

ممن يستحقون المغفرة ، فهو طاغية ، وكافر ، على طريقة أكثر الخوارج فى تكفير مخالفيهم .

— ٢ —

ولما اضطر إلى الفرار من جوار زفر بن الحارث الكلابى ، ترك رقعة فيها :

إن التى أصبحتْ يعيا بها زفر	أعيت عَياء على روح بن زنباع
مازال يسألنى حولا لأخبره	والناس من بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله	كف السؤال ولم يولَعْ بإهلاعى
فاكفُفْ كما كف عنى إننى رجل	إما صميمٌ وإما فَقْعةُ القاع
واكفف لسانك عن لومى ومسألتى	ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع ؟
أما الصلاة فإنى غير تاركها	كل امرىء للذى يُعْنَى به ساع
أَكْرِمْ بروح بن زنباع وأسرته	قوم دعا أوّليهم للعلا داع
جاورتهم سنــة فيما أَسَرُّ به	عرضى صحيح ونومى غير تَهْجاع

— ٣ —

وقال يمدح الأزد الذين قضَى عندهم بقية حياته :

نزلت بحمد الله فى خير منزْل	نُسَرُّ بما فيه من الأنس والخفَرْ
نزلت بقوم يجمع الله شملهم	وليس لهم عود سوى المجد يُعْتَصَر
من الأزد إن الأزد أكرم أسرة
يمانيــــة طابوا إذا نُسِبَ البشر
فأصبحت فيهم آمنا لا كمعشر	أتونى ، فقالوا : من ربيعة أو مضر ؟

أم الحى قحطان؟ وتلك سفاهة　　كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يُسَرُّ بنسبة　　تقربنى منه وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله ربنا　　وأولى عباد الله بالله من شكر

— ٤ —

ولما طلبه الحجاج كتب إليه ، متهكما بعجزه عن نيل غزالة الحرورية ، إذ دخلت عليه هى وزوجها شبيب الكوفة ، فتحصن منهما ، وأغلق عليه قصره :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة　　رَبْداء تجفِل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى　　بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس　　تركت مدابِرَه كأمس الدابر

— ٥ —

وقال فى الحماسة ، والتطلع إلى أن يستشهد كما استشهد زميله أبو بلال مِرْداس بن أُدَيّة :

لقد زاد الحياة إلىّ بغضا　　وحبًّا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى　　وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى　　كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى　　لها والله ربِّ البيت قالى

ولقد أثنى على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علىّ رضى الله عنه بقوله[1] :

لله درّ المرادىّ الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مُعطًى مناه ، من الآثام عريانا
يا ضربةً من تقِىٍّ ما أراد بها ... إلا ليَبْلُغَ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوما فأحسبه ... أوْ فَى البرية عند الله ميزانا

ورد عليه كثير من الشعراء فى عصور شتى[2] .

---

(١) مروج الذهب ٢/٤٣ والملل والنحل ١/١١٠ وخزانة الأدب ٢/٤٣٦ .

(٢) منهم القاضى أبو الطيب طاهر بن الشافعى فى قوله :

إنى لأبرأ مما أنت قائله ... عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقى ما أراد بها ... إلا ليهدم للاسلام أركانا
إنى لأذكره يوما فألعنه ... دينا وألعن عمران بن حطانا
عليه ثم عليه الدهر متصلا ... لعائن الله إسرارا وإعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به ... نص الشريعة برهانا وتبيانا

[مروج الذهب ٢/٤١]

ومنهم السيد الحميرى فى قوله :

فلا عفا الله عنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا
بل ضربة من غوى أوردته لظى ... فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
طورا أقول ابن ملعونين ملتقط ... من نسل إبليس لا بل كان شيطانا
عبد تحمل إثما لو تحمله ... ثهلان طرفة عين هد ثهلانا

(خزانة الأدب ٢/٤٣٦)

ابن قيس الرقيات

(شاعر الزبيريين)

أما اسمه فمختلف فيه أهو عبد الله أم عبيد الله ، لـكن الراجح أنه عبيد الله ، أما عبد الله فأخوه :

فهو عبيد الله بن قيس بن شُرَيْح ، ينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب . وأمه قُتَيْلة بنت وهب ، يرتفع نسبها إلى عبد مناة بن كنانة ، فهو إذاً قرشى الأب والأم .

وأما الرقيات فالراجح أنه لقب غلب عليه لا على أبيه ، لأنه تغزل فى نساء ، منهن ثلاث كل منهن اسمها رقية .

معالم حيـــاته

مولده :

ليس فى تاريخه تحديد للعام الذى ولد فيه ، لـكن الراجح أنه ولد فى أوائل العقد الثانى من الهجرة ، لأنه حينما استشفع بعبد الله بن جعفر إلى عبد الملك ابن مروان كان ذلك حوالى سنة ٧٣ هـ ، وجاء فى حديثه لعبد الله بن جعفر أن سنه حينذاك ستون سنة . وأغلب الظن أنه لم يتوخ الدقة ، وإنما قارب بزيادة أو بنقصان ، لهذا لانستطيع أن نحدد سنة ميلاده بل نحوم حولها .

---

(١) الأغانى ٥/٧٣ دار الـكتب وديوان ابن قيس الرقيات والموشح للمرزبانى ١٨٦ والشعر والشعراء لابن قتية ٢١٢ وخزانة الأدب للبغدادى والـكامل للمبرد .

أما وفاته فكانت حوالى سنة ٨٠هـ إذا صح أنه مات فى السنة الخامسة عشرة لولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (١) .

صلته بالزبيريين :

كان ابن قيس زبيرى الهوى ، وكان كلفه بمصعب بن الزبير أعظم من كلفه بأخيه عبد الله زعيم الحزب وصاحب الدعوة ، فليس له فى عبد الله إلا قصيدة واحدة قصيرة المدح منها بيتان اثنان .

لكن قصائده فى مدح مصعب ورثائه كثيرة العدد ، حارة العاطفة ، ولعل مبعث ذلك أن عبد الله كان بخيلا(٢) ، على حين أن مصعبا كان جوادا .

ومهما يكن من شىء فقد أخلص الشاعر لمصعب ، وخرج معه إلى العراق لما ولاه أخوه عليها ، ولازمه ، فلما جد عبد الملك فى محاربة مصعب ، وتبين مصعب أن أنصاره غادرون به دعا ابن قيس ، وأمر بمال ومناطق فملأها من ذلك المال وألبسه منها ، وقال له : انطلق حيث شئت ، فإنى مقتول . فقال له ابن قيس : لا والله لا أرِيم حتى أرى سبيلك . وأقام معه حتى قتل ، فهرب إلى الكوفة ، واختفى ، ثم شخص إلى المدينة ولجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ليشفع له عند عبد الملك .

ولم ينقص من مكانته عند الزبيريين أنه اتصل فيما بعد بعبد الملك ومدحه ، فإنه استأذن مرة على حمزة بن الزبير ، فقالت له الجارية : ليس عليه الآن إذن . فقال : ينبغى أن يكون هذا ابن قيس الرقيات ، ائذنى له . فأذنت له ، فقال : مرحبا بك يابن قيس ، هل من حاجة نزعت بك ؟ قال : نعم ، زوجت بنين لى ثلاثة ببنات أخ لى ثلاث ، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لى بثلاث بنات لأخ لى . فقال حمزة : فلكل من بنيك الثلاثة أربع مئة دينار ، ولكل من بنى أخيك الثلاثة أربع مئة دينار ، ولكل من بناتك الثلاث ثلاث مئة دينار ، ولكل من بنات

(١) النجوم الزاهرة ١/١٧١ ، ١٧٤ .
(٢) ارجع ماتقدم فى خواص شعر الزبيريين

أخيك الثلاث ثلاث مئة دينار . هل بقيت لك من حاجة ؟ قال : لا والله إلا مئونة السفر ، فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقاع أخفاف الإبل .

صلته بعبد الملك :

لما قتل مصعب فر ابن قيس إلى الكوفة ، واختفى زمناً ، وكان عبد الله يجد فى طلبه ، لأنه كان قد شبب بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، فلما هدأ الطلب ، لجأ الشاعر إلى عبد الله بن جعفر ليشفع له عند عبد الملك ، فكتب عبد الله إلى أم البنين ، يسألها أن تشفع له ، وكتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها لتشفع ، وكان عبد الملك يعزها ويلبى رغائبها ، فاستجاب لشفاعتها ، وسمح للشاعر أن يدخل عليه ، واستمع إلى اعتذاره وإلى مدحه ، وأعلن عفوه عنه ، لكنه حرمه العطاء .

فلما شكا إلى عبد الله بن جعفر أن حرمانه تركه حيا كميت ، عوضه من ماله بأربعين ألف درهم كل عام ، ما بقى حيا .

وروى أن عبد الله بن جعفر اصطحب الشاعر معه ، وقال لعبد الملك : هذا إنسان لايجوز إلا أن يكون صادقا إن استبقى ، وإن قُتل كان أكذب الناس . قال عبد الملك : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يقول .

ما نقَموا من أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به . قال عبد الملك : فهو آمن ، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال أبداً . قال : ولم وقد وهبته لى ؟ فأحب أن تهب لى عطاءه أيضاً كما وهبت لى دمه ، وعفوت لى عن ذنبه . فقال عبد الملك : قد فعلت . قال عبد الله : وتعطيه ما فات من العطاء . قال : قد فعلت ، وأمرت له بذلك .

ثم ضلع مع عبد العزيز بن مروان حينما اعتزم أخوه عبد الملك أن ينحيه عن ولاية العهد ، ويؤثر بها ابنه الوليد ، فغضب عليه عبد الملك وتوعده .

صلته بعبد الله بن جعفر :

كان ابن قيس الرقيات منقطعا إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وكان ابن جعفر يصله ، ويقضي عنه دينه ، ثم استأمن عبد الملك فأمنه ، فلما حرمه عبد الملك عطاءه أمره عبد الله بن جعفر أن يقدر لنفسه ما يكفيه طول حياته ، ففعل ذلك ، فأعطاه ما سأل ، وعوضه عن عطائه أكثر منه ، إذ رتب له أربعين ألف درهم في كل سنة إلى أن يموت .

وله فيه مدائح كثيرة ، تنبيء عن صدق العاطفة وعظيم الوفاء ، كقوله :

إذا زرتُ عبدالله ـ نفسي فداؤه ـ   رجعتُ بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظا   ولم يك عني في المغيب بغافل (١)
تداركني عبد الإله وقد بَدَتْ   لذي الحقد والشنْآن مني مَقاتلي
فأنقذني من غَمْرة الموت بعدما   رأيت حياضَ الموتِ جمًّ المناهل
حبـاني لما جئتـه بعطيّةٍ   وجارية حسناء ذاتِ خلاخل

مذهبه السياسي

قد يسبق إلى الخاطر أن عبيد الله لم يكن متحزبا للزبيريين كما تحزب شعراء آخرون لأحزابهم ، لأنه اتصل بعد مقتل مصعب بعبد الملك ، وبعبد العزيز ابن مروان ، وأثنى على بني أمية خصوم الزبيريين ، ولأنه كان على صلة حميمة بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو من كبار الشيعة الذين عاداهم عبد الله ابن الزبير .

لـكن هذا الظن الذي قد يتبادر لا يلبث أن يزول ، إذا ما كشفنا عن دخيلة نفس الشاعر ، وتبينا وجهته التي ولاّها .

---

(١) كان عبدالله بن جعفر قد جاءته صلة من عبد الملك وابن قيس غائب، فأمر خازنه فخبأ صلة ابن قيس ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء

١ — فهو زبيرى المذهب ما فى ذلك شك ، لأن عبد الله فى رأيه أجدر قريش بالخلافة ، كما يتضح ذلك من مدحه له ، ومن مدائحه لأخيه مصعب .

وأغلب الظن أن ولاءه للزبيريين نابع من ينبوعين : قرشية عبدالله ، وجدارته بأن يكون خليفة المسلمين ، فلو لم يكن عبد الله قرشيا ما ناصره ، ولو لم يكن كُفْئاً للخلافة ما آزره ، أما وقد جمع المزيتين فإنه لا مندوحة للشاعر عن الانضمام إليه ، والدعوة له ، والسخط على معارضيه .

٢ — وهو إلى زبيريته قرشى الوالدين ، يعتز بقريش ، ويفاخر بها ، ويدين بأن السيادة لها ؛ لهذا عارض الخوارج ، لأنهم دعاة إلى تساوى المسلمين فى استحقاق الخلافة ، وحمل على بنى أمية — قبل أن يتصل بهم — لثلاثة أسباب : أنهم ألداء لحزبه الذى يشايعه ويتابعه ، وأنهم أبعدوا أكثر المضريين والقرشيين ، وتعصبوا عليهم ، واستنصروا بخصومهم اليمنيين ، ثم إنهم قتلوا الحسين ، فهدموا صرحا باذخا من صروح قريش، لهذا صاروا عداة الشاعر ، ولا شفاء لنفسه إلا بقتلهم[1].

أما الزبيريون فهم إلى قرشيتهم وكفاءتهم لم يستظهروا باليمنيين على المضريين ، ولم تكن سياستهم معاول فى تقويض الصرح القرشى .

لهذا ردد الشاعر لهفته إلى اتحاد قريش ، وحفاظها على مجدها العظيم الذى شيدته فى الجاهلية ، ورفعت سمكه فى الإسلام ، ولهج بحسرته على وحدتها ، وأساه من فرقتها ، وكثيرا مانوه بمآثرها ، وحذرها عواقب الانقسام ، وأهاب بها أن تلقى سلاحها ، وتلم شعثها ، وترأب صدعها ، وهو يمزج بهذا كله نقمته من اليمنية ، لأنهم مقربون إلى بنى أمية ، ولأن تقريبهم يوغر صدور المضرية ، وينفضهم من حول الأمويين ، فتضعف مكانة قريش ، ويزول سلطانها .

هذا النزوع القرشى هو السبب فى أننا لا نصف الشاعر بالنفاق إذ اتصل — بعد ذهاب الزبيريين — بالأمويين والشيعة ثم بنى العباس ، لأن هؤلاء جميعا من قريش،

---

(١) راجع النماذج الآتية .

وإذا كان الحزب الذى والاه الشاعر قد ذهب ، فإن الصبغ القرشى لم يذهب من هؤلاء ، وأى قرشى يتولى الحكم فيه غناء وإن لم يكن كل الغناء .

خواص شعره

— ١ —

لم يحبس شعره فى الدعاوة للزبيريين ، فإنه تغزل ومدح الشيعة ، وافتخر بقريش ، وتحسر على وحدتها ، وخشى أن تطيح الفرقة بمجدها وعزتها ، ودعا القرشيين إلى الوئام ، وسخط على بنى أمية ، لأنهم تركوا الحجاز موئل قريش ومقرها ، وأهملوا بنى عمومتهم ، وراحوا ينتصرون باليمنية ، أعداء قريش من زمن قديم ، ثم مدح بنى أمية .

— ٢ —

شعره السياسى — فى دعوته إلى مذهبه الزبيرى ، وفى حملته على بنى أمية — مصبوغ بصبغة خطابية ، فليس معتمدا على التدليل والمحاجة كشعر الكميت .

لهذا كان متدفقاً سيالا ، لم تعوق اندفاعه برهنة أو محاجة .

— ٣ —

وهو أصدق مايكون عاطفة فى مدحه لمصعب بن الزبير وفى مدحه لعبد الله ابن جعفر ، وفى دعوته إلى الثورة على بنى أمية .

أما مدحه لعبد الملك فإن عنصر الصياغة فيه أقوى من العاطفة ، وتكلف الإشادة فيه أوضح من الصدق ومن التوفيق فيما ينبغى أن يشيد به . ولم يغفل عبد الملك نفسه عن هذا ، لأنه لما مدحه بقصيدة منها :

إن الأغــــر الذى أبوه أبو العــــاصى عليه الوقار والحُجُب
يعتدل التاج فوق مَفرِقه على جبين كأنه الذهب

قال له عبد الملك : يابن قيس ، تمدحنى بالتاج ، كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهـاب من اللـــــه تجلـّتْ عن وجهه الظـلماء
مُلـكُه ملكُ عِزَّةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء

وعبد الملك محق فى استنكاره ، لأن مدحة الشاعر لمصعب أروع وأبلغ وأليق بالحاكم العربى المسلم ، أما مدحته لعبد الملك فبعيدة من ذلك ، وبعيدة من الواقع ، فهو لا يحتجب عن الناس بأستار ، وهو لا يلبس تاجا ، وخير من وصف جبينه بالإشراق أن يصفه هو بما يحب الرجال أن يوصفوا به من بسالة أو كرم أو عدل أو هيبة أو ماشا كلها من فضائل نفسية وخلقية .

— ٤ —

يغلب على شعره — فيما عدا وصفه للإبل والخيل — سهولة التعبير ووضوحه، واختيار مفرداته وتجانسها ، والبعد عن الحشو والاستكراه والالتواء .

ومعانيه كلها متكشفة قريبة المنال ، يندر فيها العمق والبعد ، لهذا لا تحتاج فى إدراكها إلى كد وجهد .

أما خياله فواضح ، لا تزاحم فيه ولا تراكب ولا غرابة .

وأما أوزانه فأكثرها قصير ، سواء فى ذلك الغزل والفخر والسياسة والمدح والرثاء .

— ٥ —

يدل شعره على التأثر بالقرآن الكريم والاقتباس منه ، كقوله :

لو بكـــت هذه السماء على قو م كرام بكت علينا السماء

من قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا مُنظَرين »[1]

---

(١) سورة الدخان ٢٩

وقوله :

يأمر الناسَ أن يَبَرُّوا ويَنْسى وعليه من كَبْرة جلبابُ
أيها المستحيل لحيَ كُلِّه من ورائى ومن وراك الحساب

من قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »[١] ومن قوله تعالى : « لايغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فكرهتموه »[٢] .

وقوله :

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حُجّابه ، عليه المُلاء
خصه الله بالكرامة فالبا دون والعاكفون فيه سواء

من قوله تعالى : « ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد »[٣] .

— ٦ —

جرى على أثر قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وغيرهما من شعراء الجاهلية إذ كانوا يصطنعون الغزل الكيدى لإغاظة خصومهم[٤] ، فتغزل بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأحنق الخليفة وابنه الوليد وأباها عبد العزيز ابن مروان ، ولم ينجه إلا أنه ذكر فى غزله أنه رآها فى المنام :

ألا هزأت بنا قرشيـــــة يهتز موكبُها
رأتْ بى شيبه فى الرأ س منىً ما أغيبُّها
فدعْ هذا ولكن حا جةٌ قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يُقرِّبُها مُقرِّبها ؟

---

(١) رسوة البقرة ٤٤ (٢) سورة الحجرات ١٢ (٣) سورة الحج ٢٥
(٤) راجع الغزل فى العصر الجاهلى للمؤلف ، وراجع خواص شعر الزبيريين ، لتعلم أنه لم يكن مبتكر هذا النوع من الغزل ابتكارا كاملا .

أتتنى فى المنام هذا فقلـ ... ـت هذا حينُ أعتبها
فلما إن فرحتُ بها ... ومال علىّ أعذبها
شربتُ بريقها حتى ... نهلتُ وبتُّ أشربها
وبت ضجيعها جذلا ... ن تُعجبنى وأعجبها
فكانت ليلة فى النو ... م نسمُرها ونلعبُها

نماذج من شعره

— ١ —

قال فى الحسرة على وحدة قريش ، من قصيدة فى مدح مصعب ابن الزبير :

حبذا العيش حين قوى جميع ... لم تفرق أمورَها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْـ ... ـك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش ... بيد الله عُمْرها والفناء
إن تُودّعْ من البلاد قريش ... لايكن بعدهم لحىٍّ بقاء
لو تُقَفّى وتترك الناس كانوا ... غنم الذئب غاب عنها الرّعاء[1]
هل ترى من مُخلّد غير أن اللـ ... ـه يَبقَى وتذهب الأشياء
لم نزل آمنين يحسدنا النا ... س ويجرى لنا بذاك الثراء
فرضينا ، فمت بدائك غمًّا ... لا تُميتنّ غيرك الأدواء
لو بكت هذه السماء على قو ... م كرام بكت علينا السماء
عين فابكى على قريش وهل يُرْ ... جع مافات ـ إن بكيت ـ البكاء؟
معشرٌ حتفُهم سيوف بنى العَلاّ ... ت يخشون أن يضيع اللواء[2]

(١) تقفى : تهلك . الرعاء : جمع راع
(٢) بنو العلات : بنو أمهات شتى من أب واحد ، والمراد أن القرشيين وهم أقارب منقسمون على أنفسهم يبيد بعضهم بعضاً .

ترك الرأس كالثغامة منى نكبات تسرى بها الأنباء(١)

— ٢ —

من حملته على بنى أمية بعد مقتل الحسين ، فى القصيدة نفسها :

كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشامَ غارة شعْواء(٢)

تذهل الشيخَ عن بنيه وتبْدِى عن بُراها العَقيلة العذراء(٣)

أنا عنكم بنى أمية مُزْوَرٌ وأنتمُ فى نفسى الأعداء

إن قتلَى بالطفِّ قد أوجعتْنِى كان منكم اثن قتِلتم شفاء(٤)

— ٣ —

ومدح مصعبا فى القصيدة نفسها بقوله :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظّلْماء

مُلكه مُلكُ قوة ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياء

يتقى الله فى الأمور وقد أفلح من كان همّه الاتقاء

— ٤ —

وقال فى مدح مصعب :

على بيعة الإسلام بايعْنَ مُصعبا كراديس من خيل وجمعا مباركا(٥)

تُدارك أخرانا وتمضى أمامنا وتَتْبع ميمون النقيبة ناسكا

إذا فرغت أظفاره من كتيبة

أمال على أخرى السيوف البواتكا(٦)

---

(١) الثغامة : شجرة بيضاء الزهر ، والمراد أنه شاب من حزنه .

(٢) شعواء : متفرقة .

(٣) البراة: الخلخال ، والمراد أن الحرائر الحسان يخفن من السبي ،فيكشفن عن سيقانهن ليظن أنهن إماء فلا يسبين . العقيلة : الكريمة الشريفة المخدرة

(٤) الطف : مكان قريب من الكوفة قتل به الحسين

(٥) كراديس : جمع كردوسة وهى الجماعة الكبيرة من الخيل

(٦) البواتك : جمع باتك وهو القاطع .

— ٥ —

قال فى مدح عبد الله بن الزبير أو عبد الملك بن مروان(١) :

أنت ابن مُعْتَلِج البطا ح كُدَيِّها فكَدَائها(٢)
فالبيت ذى الأركان فالـ ـمُسْتَنِّ من بَطْحائها(٣)
فمحلٌّ أعـلاها إلى عَرَفاتهـا فحِرائها
مِنْ سِرِّها فيها ومَـ ـعْدِن بِرِّها ووفائها
أوْفَى قريش بالعُـلا فى حُكْمِها وقضائها
ولأنت أعلمُها بهـا وأصحُّها من دائها
وأتمهـا نسبا إذا نُسِبَتْ إلى آبائها
إن البلاد سوى بلا دك ضاق عَرْضُ فضائها
فاجْمَعْ بَنِيَّ إلى بنيـك فأنت خير رِعائها
نُشْهِدْكَ منا مَشْهَدًا ضنكا على أعدائها
نحن الفوارسُ من قريـش يومَ جِدِّ لقائها

---

(١) فى الديوان أنها فى عبد الله وفى الموشح للمرزبانى ١٨٦ أنها فى عبد الملك ، وربما كانتا قصيدتين فتداخلتا ، لأن فى القصيدة ما يفهم منه أنها فى عبد الملك :

ولدتك عائشـة التى فضلت أروم نسائها
متعطف الأعياص حو ل سريرها وفنـائها

وعائشة هذه هى بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أميـة ، وهى أم عبد الملك . أما الزبير فأمه أسماء بنت أبى بكر . وإذا جاز القول بأنه يريد عائشة أم المؤمنين خالة بن الزبير ويسميها أمه تجوزا لأنها كانت تدعوه بابنها ، فإن الأعياص الملتفين حول السرير هم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص ، وهم أبناء أمية بن عبد شمس الأحد عشر .

(٢) كدى : جبل بأسفل مكة . كداء : جبل بأعلاها . معتلج البطاح : ملتقاها . والمراد أنه سليل الأشراف الذين كانوا يقيمون ببطاح مكة .

(٣) المستن : المطروق المسلوك . البطحاء : مسهل واسع فيه دقاق الحصى .

— ٦ —

ومن مدحه لعبد الملك بن مروان :

ما نقموا من بنى أمية إلا　　أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فما　　تصلح إلا عليهم العرب
إن الأغر الذى أبوه أبو العا　　صى عليه الوقار والحجُب
خليفة الله فوق منبره　　جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه　　على جبين كأنه الذهب

الحجاج

(خطيب الأمويين)

ساعد بنى أمية الأيمن ، وقسيم عبد الملك فى توطيد دعائم الملك .

الوالى الذى تسلح بسنانه ولسانه ، فلا يذكر والياً إلا ذكر خطيباً ، ولا يذكر خطيباً إلا ذكر والياً أو قائداً . البليغ الذى لم يلحن مرة ، لا فى جد ولا فى هزل ، المصلح الذى أشار بإعجام الحروف ، وشكلها بالحركات ، وحوّل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية .

معالم حياته

١ — الحجاج بن يوسف ، كنيته أبو محمد ، ينتهى نسبه إلى ثقيف الذى سميت القبيلة باسمه . ولد سنة ٤١ هـ ومات سنة ٩٥ (٧١٣ م) وكانت نشأته بالطائف وموته بمدينة واسط التى أنشأها . وهم مختلفون فى نسب القبيلة اختلافا كبيرا [1] .

(*) تاريخ الطبرى ٧/٢٣٣ وتهذيب الكامل للمبرد ١/١٨٠ والأغانى ٤/٧٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/٣٩٢ والعقد الفريد ٣/٨ و٢١ ومروج الذهب ٢/١٣٢ ، ١١٨ ، ١٢٥ وسرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة ٩٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٢٠ .

(١) بعضهم يرى أنها من هوازن ، كما يزعم الثقفيون ، وإذا فهى عدنانية ، وعلى هذا جمهور الناس .

وبعضهم يردها إلى قحطان ، وآخرون يرجعونها إلى ثمود . وفى خطبة لعلى بن أبى طالب أن ثقيفا ــ جد القبيلة ــ كان عبدا لصالح عليه السلام ، وفى كتاب من عبدالملك إلى الحجاج =

ومهمـا يـكن من شيء فإن قبيلة ثقيف كانت قد آذت النبي حينما خرج إليها بعد موت أبي طالب واشتداد قريش عليه ، آملا أن تسلم وتحميه ، فرده كبراؤها رداً قبيحاً ، وأرسلوا وراءه سفهاءهم وغلمانهم فرموه بالحجارة حتى دَمِيَتْ عَقِبُه ، وما زالوا على جاهليتهم إلى العام التاسع بعد فتح مكة بعام فأسلموا .

٢ — وسنجد في بعض ماهجى به أن اسمه كُـلَيْب ، ويقال إن أمه سمته كليباً ، ولقبته الحجاج ، تفاؤلا أن يكون تقياً كثير الحج .

٣ — لطالما نال الناس من الحجاج وأبيه وأمه ، حقداً عليه ، وتشفياً منه وتنفيساً من الضيق الذى كانوا يجدون فى حكمه

فهم يذكرون أنه ولد مُشَوَّها لادُبر له ، فثُقِب عن دبره . ويذكرون أنه أبى أن يلتقم ثدى أمه — الفارعة — ورفض أثداء غيرها ، حتى أعياهم أمره ، فتصور لهم الشيطان فى سورة الحارث بن كلدة — زوج أمه الاول فى بعض الروايات — فقال : ما خبركم ؟ قالوا : ولد طفل ليوسف من الفارعة ، أبى أن يقبل ثدى أمه ، فقال : اذبحوا جديا أسود ، وأولغوه دمه . ثم تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم ثعبانا أسود سالخا وأولغوه دمه ، واطلوا به وجهه ، فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع .

ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه

= يتذكير بأن ثقيفا كان عبدا لصالح ، وأمينه على الصدقات ، فهرب بها . وقال شبيب الشيباني الخارجي حين دخل الكوفة سنة ٧٦ :

عبد دعى من ثمود أصله لا بل يقال أبو أبيهم يقدم

ويقدم — على وزن ينصر — جد ثقيف ، ومن أولاد إياد . لـكن الحجاج كان ينكر هذا ، فقد قال على المنبر : يزعمون أننا من بقايا ثمود ، فقد كذبهم الله بقوله : « وثمود فما أبقى » وقال فى خطبة أخرى : لئن كنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم .

أن أعظم لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ولاسبق إليها سواه[1] .

ويذكرون أن الحجاج وأباه — أو أخاه — كانا مُعَلِّمَىْ صبيان بالطائف ، قال أحد الشعراء فى هجائه :

أينسى كُلَيْبٌ زمانَ الهُزال   وتعليمه سُورَةَ الكَوْثَر
رغيفٌ له فَلْكَةَ مارُى   وآخر كالقمر الأزهر[2]

ويذكر الجاحظ أن سليمان بن عبد الملك أمر — بعد أن استُخْلِف — بشتم الحجاج ، فقدم وفد العراق يشتمه ، فقال أحدهم : إن عدو الله كان زَبّابا[3] ، لانسب له فى العرب .

ووصف مرة أخرى بأنه كان دباغا ، وصفه بهذا كعب الأشقرى — وكان من جند المهلب بن أبى صفرة — حينما كتب الحجاج إلى المهلب يستبطئه فى حرب الأزارقة ويضعفه ، فأنشد كعب أبياتا منها :

إن ابن يوسف غرّه من غزوكم   خَفَضُ المقام بجانب الأنصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا   ضاقت عليه رحيبة الأقطار
ورأى معاودة الدِّباغ غنيمة   أيام كان مُحالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب ليوفد إليه كعبا ، فبعثه إلى عبد الملك ابن مروان ، ومعه كتاب شفاعة ، فاستنشده عبد الملك ماقال ، فأعجبه ، وكتب إلى الحجاج ليعفو عنه . فلما دخل كعب على الحجاج قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » .

فقال كعب : أيها الأمير ، والله لوددت فى بعض ماشاهدته من تلك الحروب

---

(١) مروج الذهب ٢/١٣١

(٢) تهذيب الكامل ١/١٨١ يقصد أن خبز المعلمين متفاوت الحجم ، فبعضه صغير وبعضه كبير ، لأنه من بيوت شتى .

(٣) زباب : بائع زبيب .

أن أنجو منها ، وأ كون حجاما ، أو حائكا ، فقال الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين مانفعك ما أسمع ، فالحق بالمهلب .

وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويراه من أكاذيب الشعراء(١) .

ولم تنج أمه من الأقاويل ، فهى تارة زوجة للحارث بن كَلَدَة الطبيب ، ثم طلقها ، وتزوجها بعده يوسف الثقفى ، وهى تارة زوجة المغيرة بن شعبة ، سمعها عمر تنشد :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج ؟

فطلقها المغيرة ، وتزوجها يوسف .

لكنى أشك فى بعض ماوصف به الحجاج ، لأنهم زعموا أنه كان معلم صبيان تارة ، وأنه كان بائع زبيب تارة ، وأنه كان دباغا تارة . وربما كان التعليم أولى بالتصديق . أما بيع الزبيب ، والدباغة ، فتهمة سَهَّلَ إلصاقها به نشأته بالطائف ، حيث يكثر الزبيب ، ويحترف بعض الناس بدبغ الجلود .

على أننا نجد فى بعض الأخبار أن أباه جليل القدر ، فقد تشفع به قاضى مصر سليم بن عمرو ـ وكان من أورع الناس وأتقاهم ـ إلى عبد الملك بن مروان ليعفيه من القضاء ، وهذا يدل على علو قدره ، لأنه شفيع القاضى إلى الخليفة . ونجد فى الخبر نفسه أن الحجاج استنكر من أبيه أن يقوم للقاضى : « يغفر الله لك ياأبت ، أنت ابن أبى عقيل ، تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه ؟ . »

فقال له أبوه : إنى أرى الناس مايُرْحمون إلا بهذا وأشباهه . وفى هذا دليل على أن يوسف كان فى نظر ابنه رفيع المكانة ، وفى رد أبيه عليه مايشعر بصلاحه وتقواه .

ولست آخذ من الخبر وحده دليلا على أن الرجل لم يكن معلم صبية ، لأنه ربما كان كذلك ، مع علو قدره ، لعلمه أو لورعه .

---

(١) سرح العيون ٩٤ .

صلته بالحكم

بدأ اتصاله بالحكم منذ عمل فى شرطة رَوْح بن زنباع ، مستشار عبد الملك ابن مروان ، ثم اتصل بعبد الملك إذ قلده أمر عسكره ، ثم ولاه تَبَالة من أعمال اليمن ، فاستهان بها واستعفى عبد الملك من ولايتها فأعفاه .

ثم ندبه عبد الملك لقتال عبد الله بن الزبير ، فاستحل فى قتاله ما استحل ، إذ حاصره بمكة ، وضربها بالمنجنيق سنة ٧٢هـ حتى تفرق عن ابن الزبير أعوانه وخاصة أهله ، وظل يقاتل حتى قتل وصُلب .

وبعد ذلك كافأه عبد الملك بتوليته على الحجاز واليمن واليمامة سنة ٧٥ ومكث بها ثلاث سنين ، فاستصغر الحجاز وطمع فى غيره ، إذ كتب إلى عبد الملك يقول : « قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة » فولاه عبد الملك على العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة .

وإذا كان الحجاج قد جاوز الحد فى حربه لابن الزبير بمكة ، فوصل إلى النتيجة التى أرادها منه عبد الملك ، وإلى النتيجة التى أرادها هو ثمنا لرضا عبد الملك ، فإنه قد فعل ذلك نفسه بالعراق .

وما من شك فى أن العراق — وخراسان تابعة له — كان قد تمرد على الحكم مرات ، وكان مَجْمعا للأحزاب والفرق والعصبيات ، حتى ولىّ عليه معاويةُ المغيرةَ بن شعبة ثم زيادا فعَنُف زياد فى حكمه ، ثم جاء الحجاج فاحتذاه ، وزاد.

نعم ، لقد حكم الحجاج العراق بالشدة التى لاهوادة فيها ، حتى خافه اللص فى مأمنه ، والمنافق فى خلوته ، وكان سيفه ولسانه يتعاونان فى القضاء على بواعث الفتن ودعاة الانشقاق .

ويكاد تاريخ الرجل لايخلو من حرب .

فقد حارب فى جند روح بن زِنْباع زُفَرَ بن الحارث ، وحارب فى جيش عبد الملك ومصعب بن الزبير .

ثم حارب ابن الزبير فى مكة ، وقضى عليه .

وحارب الخوارج فى عدة مواقع .

وحارب عبد الرحمن بن الأشعث فى عشرات المواقع[1] .

وهى حروب لم يكن منها بدٌّ ، لأن الحجاج والٍ من ولاة الخليفة ، عليه أن يصون ملكه ، ويصدع بأمره ، وما على الحجاج فى هذا بأس ، إلا أن قسوته هى مناط اللوم .

فقد كان يقسو كثيرا ويعفو ويلين قليلا .

عفا عن عامر الشَّعبى بعد هزيمة ابن الأشعث ، وكان الشعبى من أعوانه[2] ، وقسا إلى حد الوحشية مع الوافدين عليه من أهل الكوفة بعد موقعة دير الجماجم ، إذ كان لا يبايعه أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال نعم ، بايعه ، وإذا قال لا ، قتله[3]

---

(١) كان عامل الحجاج على سجستان ـ عبيد الله بن أبى بكرة ـ غزا زنبيل (رتبيل) الحاكم التركى لكابل ، وأوغل فى بلاده ، فهلك أكثر جيشه ، فوجه الحجاج إلى زنبيل عبد الرحمن بن الأشعث ، على رأس جيش عظيم ، فامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج فى الفتح ، حتى لا يهلك جيشه ، فأبى عليه الحجاج ، وسخف رأيه ، وأمره بالتوغل ، وإلا عزله . فغضب ابن الأشعث ، وبايعه جنده على خلع الحجاج وقتاله ، ثم خلع عبد الملك ابن مروان . وسار بهم إلى العراق ، وسار الحجاج للقائه فى أهل الشام ، وحدثت بينهما مواقع تزيد على الثمانين فى ستة أشهر ، وكانت الحرب سجالا ، ثم انتهت بموقعة دير الجماجم إذ انتصر الحجاج سنة ٨٣ وفر ابن الأشعث إلى فارس ، ثم جد الحجاج فى طلبه ، فقتل نفسه سنه ٨٥ .

(٢) الطبرى ٨/٣١ .

(٣) الطبرى ٨/٢٥ ممن فعل بهم هذا سعيد بن جبير أحد كبار التابعين ، قال له : أنت سعيد بن جبير ؟ قال : نعم . قال : لا بل شقى بن كسير . قال سعيد : أبى أعلم باسمى منك . قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك . قال سعيد : الشقاء لأهل النار . قال الحجاج : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال سعيد : ما كفرت بالله مذ آمنت به . قال الحجاج : اضربوا عنقه . وجاء إليه رجل كان قد اعتزل الناس ، فسأله عن حاله ، فقال : مازلت معتزلا منتظر أمر الناس حتى غلبت فاتيتك لأبايعك مع الناس ، قال الحجاج : أمتربص ؟ أتشهد أنك كافر؟ قال الرجل بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر ، قال : إذا أقتلك ، وضرب عنقه

=

طرف من أخلاقه

— ١ —

كان سخيا فى بذل المال لتألف القلوب ، حكى أنه لما دخل المدينة فرق على أهلها عشرة آلاف دينار ، وقال لهم : أتيناكم ، وقد غاض المال لكثرة النوائب ، فاعذرونا . فقال له رجل : لا عذر الله من يعذرك ، وأنت أمير المِصْرَين ، فقال الحجاج : صدقت ، واقترض أموالا من التجار ، وفرقها .

وحكى أنه لما ولى العراق كان يطعم فى كل يوم عشرة آلاف شخص ، وكان ويرسل إلى الناس ليحضروا الطعام ، فكثر عليه ذلك ، فقال : أيها الناس ، رسولى إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء [1] ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، ففعلوا ذلك .

— ٢ —

وكان ذكيا صادق الفراسة ، قال عبد الله بن ظَبْيان الذى قتل مصعب ابن الزبير : كنت يوما واقفا على باب الحجاج ، فإذا به قد خرج وحده ، وليس بالباب أحد ، فوقع فى نفسى أن أقتله ، فنظر إلىّ وقال : هل لقيت يزيد بن أبى مسلم ـ كاتب الحجاج ـ ؟ قلت : لا : قال : الْقَه فإن توليتك على الرّىّ معه . فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى يزيد ، فلم أجد عنده شيئاً ، ففهمت أن الحجاج قال لى ذلك لشغلنى عما أردته به .

— ٣ —

وكان بارع الحيلة فى الخلاص من المضايق

فقد بنى هو وعبد الملك بن مروان بابين فى مسجد ، فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك ، فداخله حسد للحجاج ، فكتب الحجاج إليه : إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى كمثل ابنىْ آدم ، إذ قرّبا قُرباناً ، فَتُقُبِّل من أحدهما ، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر

= وأتى بشيخ وشاب فقال للشاب : أمؤمن أنت أم كافر ؟ قال . بل كافر قال الحجاج ولكن الشيخ لا يرضى بالكفر . قال الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ لو كان شىء أعظم من الكفر لرضيت به . فضحك الحجاج ، وخلى سبيلها .

(١) الغداء : الفطور

ودخل عليه قاتل الحسين ، فقال له : أنت قاتل الحسين ؟ .

قال : نعم . قال كيف قتلته ؟ قال : دَسَرْته بالرمح دَسْراً ، ثم هَبرْته بالسيف هَبْراً ، ووكلت أمر رأسه إلى أمير غير وَكِلٍ .

فقال الحجاج : أما والله لا يجتمعان فى الجنة .

وهو يريد بهذا التوجيه فى كلامه أن يرضى أهل العراق وأهل الشام . وقد تحقق ما أراد ، إذ خرج أهل العراق يقولون : صدق الحجاج ، لا يجتمع والله ابن الرسول وقاتله فى الجنة ، وخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير ، لا يجتمع مَنْ شق عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين ، هو وقاتله فى الجنة .

— ٤ —

وكان جاداً صارما ، قليل الضحك ، مهيب المنظر ، مرعباً . وله فى هذا أخبار كثيرة منها[١] أنه وفد على الوليد بن عبد الملك ، فوجده فى بعض نزهه ، فلما رآه ترجل ، وقبل يده ، وجعل يمشى وعليه درع وكنانةوقوس عربية . فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ، فقال الحجاج : دعنى يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك .

ثم جلس مع الوليد فى داره ، وأطال الجلوس عنده ، فبينما هما يتحادثان جاءت جارية فهمست فى أذن الوليد ، ومضت ، ثم عادت وهمست فى أذنه وانصرفت .

فقال الوليد للحجاج:أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد ؟

قال الحجاج : لا والله .

قال الوليد : بعثتها إلىَّ ابنة عمى أم البنين ، تقول ما مجالستك لهذا الأعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج ، فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك ، وقد قتل الخلق .

قال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة [٢] ، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة

---

(١) مروج الذهب ٢/١٥٢ .
(٢) مسيطرة .

عدوك . ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن . وإياك ومشاورتهن فى الأمور ، فإن رأيهن إلى أفَن[١] ، وعزمهن إلى وَهَن ... ولا تطل الجلوس معهن ، فإن ذلك أوفر لعقلك .

— ٥ —

وأما الحديث عن قسوته وسفكه الدماء فكثير .

ذكروا أنه قتل أكثر من مئة ألف صبرا ، وأن حبسه مات فيه أكثر من عشرين ألفاً ، لم يجب الحدّ على أحد منهم ، وكان حبسه بغير سقف ولا ظل صيفا وشتاء ، وكان مكتظا بالناس ، بعضهم على بعض ، وقد مرّ عليهم يوما فاستغاثوا به ، فقال : اخسئوا فيها ولا تكلمون .

وروى عن بعض القراء قوله : قرأ الحجاج فى سورة هود « إنه عمل غير صالح » فلم يدر أهى عملُ أم عَمِلَ ، فقال : ائتونى بقارئ ، فأتوا بى ، وقد قام من مجلسه ، فحُبِسْتُ ونسيني الحجاج ، حتى عرض السجن بعد ستة أشهر . فلما انتهى إلىّ قال : فيم حُبِسْتَ ؟ قلت : فى ابن نوح ، أصلح الله الأمير . فضحك وأطلقنى .

وأغلب الظن أن شدة الحجاج فى الحجاز وفى العراق قد جرت عليه كثيرا من هذه المبالغات ، وجعلته مثالا فى القسوة تضاف إليه الأقاصيص ، فليس بمعقول أن يحبَس القارئ فى غير جريرة ولا شبه جريرة ، ثم يقضى فى محبسه ستة أشهر .

وليس بمعقول ما يلصق به من أخبار ، هى أدخل فى باب الفكاهات ، كقولهم : إن بعض ندمائه كان عنده ، ثم أخذت الحجاج سنة من النوم ، وعطس النديم عطسة منكرة ، فزع منها الحجاج ، فغضب ، وقال : ما أردت بهذه العطسة إلا أن تروعنى . فقال النديم : أيها الأمير ، هذه والله عادتى . فقال الحجاج : والله إن لم تأتنى بشاهد على ذلك ضربت عنقك .

فخرج الرجل ، فقص الأمر على صاحب له ، فقال له صاحبه : أنا أشهد لك .

---

(١) أفن : فساد .

ثم دخلا على الحجاج ، فقال لصاحبه : بم تشهد ؟ قال : أشهد بأنه عطس يوما عطسة ، وقع منه ضرسه ، فضحك الحجاج ، حتى استلقى ، وقال : حسْبُك . وأمر بهما فأخرجا .

خصائص خطابته

— ١ —

تتسم خطب الحجاج كلها بقصر الفقرات ، حتى إن كثيرا من فقراتها مركب من كلمتين أو ثلاث ، كما تجد فى خطبته بالبصرة ، وبالكوفة ، وفى خطبته بعد وقعة دير الجماجم ، وكقوله فى أهل الكوفة والشام :

إن الفتنة تُلْقَح بالنَّجْوَى ، وتُنْتَج بالشكوى ، وتُحْصَد بالسيف . أما والله إن أبغضتمونى لا تَضُرُّونى ، وإن أحببتمونى لاتنفعونى ، وماأنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم [١] ...

— ٢ —

وتتسم بالإكثار من الاقتباس من القرآن الكريم ، اقتباسا ينبىء عن حفظ وفهم عميق وتذوق دقيق ، ولا عجب فقد كان يعلم القرآن .

فهو فى خطبته فى أهل الكوفة والشام يقول[٢] : زعمتم أنى ساحر ، وقد قال الله تعالى : « ولا يفلح الساحر »[٣] وقد أفلحت ... إلى أن يقول : بل أنتم ياأهل الشام كما قال الله سبحانه : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون »[٤] .

وفى خطبة له بالبصرة يقول : قال الله تعالى : « فاتقوا الله مااستطعتم » فهذه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١/١١٥ .
(٢) شرح نهج البلاغة ١/١١٥ .
(٣) سورة طه ٦٩
(٤) سورة الصافات ١٧٣

لله ، وفيها مثوبة . وقال : « واسمعوا وأطيعوا » وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ...[١]

ويقتبس من القرآن فى خطب أخرى كخطبة له بالبصرة[٢] ، وخطبه له لما مات ولداه فى يوم واحد[٣]

على أن فى بعض رسائله وحواره استشهادا بالقرآن الكريم ، وهذا دليل على أنه كان يحفظه كله ، أو يحفظ أكثره ، ويفهم مايحفظ ، ويعى المرامى والمضامين .

ونجده هذا فى ثلاث كتب إلى عبد الملك[٤]

ونجده فى كتاب رابع قد أحسن التعليل وبرع فى التخلص ، فقد كان هو وعبد الملك بنيا بابين فى أحد المساجد ، فوقعت صاعقة ، أحرقت باب عبد الملك فغاظه ذلك وحسد الحجاج ، فكتب الحجاج إليه هذا الكتاب : « إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى ، كمثل ابنَىْ آدم ، إذ قربا قربانا فتقُبِّل من أحدهما ، ولم يُتقَبَّل من الآخر »[٥] .

— ٣ —

وكذلك يكثر من الاستشهاد بالشعر ، وهذا واضح فى خطبته الأولى وفى خطبته الثانية بها ، إذ تمثل بقول عمرو بن براق الهمدانى .

وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يالَهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميًا تجتنبك المظالم

وفى بعض خطب أخرى .

وليس فى هذا عجب ؛ لأن الرجل كان شاعر النفس ، ولعله لولا الحكم والسياسة والحروب لكان من الشعراء ، ثم إنه كان كلفا بسماع الشعر وروايته .

(١) العقد الفريد ٢/١٥٢ .
(٢) العقد الفريد ٢/١٥٣ (٣) العقد الفريد ٢/١٥٤ .
(٤) العقد الفريد ٣/٨ ، ٣/٢٠ البيان والتبين ٣/٢٣٥ .
(٥) سورة المائدة ٢٧

ولهذا قرب إليه الشعراء ، وشجعهم على مدحه ، وكان ينقد بعض ما يمدحونه به ، ومعروف أنه لما قدم البصرة قرب إليه جريرا ، وأعانه على الفرزدق .

— ٤ —

ولقد كان أكثر خطباء العصر تهويلا وتخييلا ، حتى إن قسوته فى الحكم ؛ وغلظته على أهل الفتن لتتجلى فى أقواله ، كما تتجلى فى أفعاله .

ووسيلته إلى هذا التهويل والتخييل مقدرُته البيانية ، وصوره التخييلية ، وتأثيره الخطابى .

فهو حفىٌّ بلغته وأسلوبه ، مولع بالتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل.

تأمل قوله : « والله لأحزمنكم حَزْمَ السَّلَمَة ، ولأضربنكم ضَرْبَ غرائب الإبل » وقوله : « إنى لأرى رءوسا قد أَيْنَعَتْ وحان قِطافُها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى » .

وتأمل قوله : « إن الشيطان قد استَبْطنكم ، فخالط اللحم والدم والعَصَب والمسامع والأطراف والأعضاء والشَّغَاف ، ثم أفضَى إلى المِخاخ والأَصماخ ، ثم ارتفع فعشّش ، ثم باض وفرّخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا » .

فلا عجب فى أن كان بعض سامعيه من خصومه يتأثرون ببلاغته ، ويخالون الحق فى جانبه .

شهد مالك بن دينار أحد معاصريه فقال : مارأيت أحدا أَبْيَنَ من الحجاج ، إنه كان يرقى المنبر ، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصَفْحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، فأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين .

وقال الحسن البصرى : لقد وقذَتْنى كلمة سمعتُها من الحجاج ، هى قوله على المنبر : « إن امرأ ذهبَت ساعة من عمره فى خير ما خُلق له ، لجدير أن تطول حسرته » .

— ٥ —

البراعة في تأييد وجهة نظره ، بالتدليل الخطابي ، الذي يكفل الإقناع ، أو على الأقل يزعزع الرأي السابق .

فإنه لما قُتِـلَ ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، وقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحَرَم الله .

ولو كان شيء مانعا للعصاة ، لمنع آدمَ حُرْمةُ الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته .

فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .

فكأنه يقيس هذا القياس :

الطاعة السابقة والعزازة العظيمة لا تمنعان من عقوبة العاصي ، بدليل أن الله عاقب آدم .

وابن الزبير كان طائعا وعزيزا ، لكنه عصى .

وإذاً فعقوبته حق .

أو هو يعمد إلى التمثيل المعروف في القياس المضمر .

— ٦ —

تشيع في خطبه الموسيقى الناشئة عن سجع قصير الفقرات ، أو الناشئة عن التقسيم والازدواج ، كما مر في النماذج المختارة له .

— ٧ —

يكثر من ضمير المتكلم كقوله في خطبته بالكوفة : «إني لأرى رءوسا... وإني لصاحبها .. وكأني أنظر ... ما يقعقع لي بالشنان... فُرِرْتُ عن ذكاء، وفُتِّشتُ عن تجربة...»

وهذه الظاهرة واضحة أيضا فى خطبته بالبصرة « فعندى دواؤه ... فعلىّ أن أعجله ... قصرت عليه باقيه » ولعل هذا راجع إلى اعتداده بنفسه ، واعتزازه بقوته وبطشه ، ورغبته فى أن يزيد السامعين خوفا منه وتوقيا لعقابه ، لأنهم واثقون من شدته ، وهو حينما يضيف أفعاله إلى نفسه بضمير المتكلم يضاعف الفَرَق منه ومن نكاله .

من خطبته بعد موقعة دير الجماجم

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استَبْطَنكم (١) ، فخالط اللّحمَ والدم والعَصَب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء والشَّغاف (٢) ، ثم أفضى إلى المخاخ (٣) والأَصماخ (٤) ، ثم ارتفع فعشَّش ، ثم باض وفرَّخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خِلافا ، اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تُطيعونه ، ومُؤامراً (٥) تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وَقْعَةٌ ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ....

إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلتم (٦) وخنتم ، وإن أَمِنتم أرْجفتُم (٧) ، وإن خِفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفَّكم ناكث (٨) ، أو استغواكم غاوٍ ، أو استنصركم ظالم ، أو استعْضَدكم خالع (٩) ، إلا تبِعتُموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكّيتموه ؟ يا أهل العراق ، هل شَغِب شاغب (١٠) ، أو نعَب ناعب ، أو زفَر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يا أهل العراق ، ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع (١١) ؟

---

(١) دخل فى بطونكم .
(٢) غلاف القلب أو حبته
(٣) جمع مخ
(٤) الصماخ : خرق الأذن الباطن الموصل الى الرأس.
(٥) المؤامر : المستشار .
(٦) غللتم : خنتم .
(٧) أرجفتم : كذبتم وأشعتم الفتن .
(٨) استهواكم خائن .
(٩) استعضدكم : استعان بكم . خالع : ناقض للعهد.
(١٠) شغب : تمرد وعصى .
(١١) نهاية الأرب ٧/ ٢٤٥ .

عبد الحميد بن يحيى

(كاتب الأمويين)

معالم حياته

عبد الحميد بن يحي مولى فارسى لبنى عامر .

نشأ بالشام فى أخريات الدولة الأموية ، ونجمها إلى غروب ، وريحها إلى ضعف . كان فى أول الأمر معلماً يتنقل ، ثم كتب بديوان الرسائل فى عهد هشام ابن عبد الملك ، ورئيسه آنئذ سالم ، فتخرج عليه .

ثم عرفه مروان بن محمد ـ وكان والياً على الجزيرة وأرمينية ـ فاتخذه كاتباً له ، فلما تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) عينه كاتب الدولة ، ثقة به ، ورغبة فى الانتفاع بعلمه وذكائه وخبرته .

ولقد توالت المحن على مروان فى السنوات الخمس التى قضاها خليفة ، إذ خرج عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن أبى جعفر بن أبى طالب بالكوفة ، ودعا لنفسه فأخمد ثورته والى العراق .

وثار بالشام سكان حمص ثم الغوطة ثم فلسطين ، فأخمد مروان ثورتهم .

ثم خرج سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وطالب بالخلافة ، وانضم إليه أهل الشام ، لكنه انهزم ، وانجلت هزيمته عن قتلى من الجيشين بلغوا ثلاثين ألفا .

(*) وفيات الأعيان و الوزراء والكتاب و مروج الذهب و الفهرست و عيون الأخبار والبيان والتبيين و الصناعتين و المسالك والممالك و صبح الأعشى و سرح العيون .

وطمع الخوارج فى ضعف الدولة ، واستولوا على الكوفة ؛ وكانت الحرب سجالا بينهم وبين مروان .

ثم بويع لأبى العباس السفاح بالكوفة سنة ١٣٢ ﻫ (٧٤٩ م) وهزمت جنوده جيش مروان ، ففر إلى مصر ، وتبعه العباسيون إليها فقتلوه ، وانتهت الدولة بمقتله .

لم يفارق عبد الحميد مروان فى محنه هذه ، وفاء منه لسيده ، حتى لقد أشار عليه مروان حينما توالت هزائمه ، وجدّ العباسيون فى طلبه ، أن ينضم إليهم ، لحاجتهم إلى أدبه ، وإعجابهم به ، وقال له : إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك ، فاستأمن إليهم ؛ وأظهر الغدر بى ، فلعلك تنفعنى فى حياتى ، أو بعد مماتى . فقال عبد الحميد :

أُسِرُّ وفاء ثم أظهر غَدْرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

يا أمير المؤمنين إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بى ، ولكنى سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك .

فلما قتل مروان اختبأ عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأهما الطلب ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كلاهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، إلى أن عرف عبد الحميد ، فأخذ ، وسلمه السفاح إلى صاحب شرطته ، فكان يحمى طستا ، ويضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢ ﻫ (٧٤٩ م)

ثقافته

تزود عبد الحميد من القرآن واللغة والشعر والأخبار والحساب ، وتتلمذ فى الديوان لزوج أخته سالم مولى هشام بن عبد الملك ورئيس ديوان الرسائل فى عهده .

وأغلب الظن أن صلة عبد الحميد بسالم عرّفته بعض ما يتبعه اليونان فى ترثم

وفى رسائلهم ، إذ كان سالم يحذق اليونانية ، ويترجم منها ، وهو الذى ترجم بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر . وقد خلف سالم رسائل فى مئة ورقة ، رآها الناس ، لكنها لم تصل إلينا[١] .

كذلك نرجح أن صداقته لابن المقفع وَصِلَتَه بالنثر الفارسى واليونانى معاً ، لأن ابن المقفع كان يجيد الفارسية ، وقد ترجم منها كليلة ودمنة ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير ، ولعله كان يعرف اليونانية ، لأنه ترجم منها بعض كتب أرسطو فى المنطق والجدل والقياس . وقد مارس الكتابة فى العصر الأموى ، إذ كتب لداود بن عمر بن هُبَيْرة ، ثم كتب لعيسى بن على عم المنصور .

وقد استطاع عبد الحميد بحذقه العربية ، ومعرفته بعض النظم المتبعة فى اليونانية والفارسية أن يجدد فى النثر الفنى العربى ، على أنه قد تأثر بالثقافة الإغريقية التى سرت فى المجتمع العربى منذ طلائع العصر الأموى ، كما سبق فى عوامل ازدهار الكتابة .

خواص كتابته

تميزت كتابته بعدة خواص ، بعضها جديد ، أو فيه تجديد ، لقد خيل إلى بعض الدارسين منذ عهد بعيد أن عبد الحميد أول كاتب ، فقالوا : بُدِئَتْ الكتابة بعبد الحميد وخُتِمَتْ بابن العميد .

وإذا كانت المبالغة واضحة فى الشطر الثانى من الدعوى ، فإنها قد تخفى فى شطرها الأول ، لأن الأدب قد عرف كثيراً من الكتاب بعد ابن العميد (توفى سنة ٣٥٩) ، أصدق منه عاطفة ، وأرق فكراً ، وأجود أسلوباً ، كالباقلانى المتوفى سنة ٤٠٢ وأبى حيان التوحيدى المتوفى سنة ٤١٤ ، لكنهم لم ينالوا من الشهرة مثل ما نال ، لأنه كان وزيراً ولم يكونوا وزراء ، وكانت له حاشية تدعو له وتذيع اسمه ، وتبالغ فى وصفه ، ولم يكونوا هم كذلك .

---

(١) الفهرست ١٧١

أما عبد الحميد فإنه أول كاتب اشتهر بصناعة الكتابة ، فمن السهل أن يصدق الناس أنه بادىء الكتابة الفنية .

والحق أنه — كما بينا فى حياته — مسبوق بأستاذه سالم ، لكن سالما لم يُرْزَق من الشهرة مارزقه عبدالحميد ، ولم تبق رسائله التى كتبها كما بقيت رسائل عبد الحميد.

فإذا أردنا التدقيق فى الحكم قلنا إن النثر الفنى كان معروفا قبل عبد الحميد ، فلم يخترعه اختراعا ، ولم يبتدعه ابتداعا ، كما يوهم الحكم بأن الكتابة بُدِئَتْ به ، وإنما كان النثر الفنى قد بلغ طوراً من النضج ومن التطور قبل عبد الحميد ، ثم جاء عبد الحميد فظهر هذا التطور على قلمه .

أريد أن أقول إن العرب لم يصطنعوا للرسائل كتاباً يكلون إليهم تحبيرها قبل عهد هشام بن عبد الملك ، فهو الذى اصطنع مولاه سالما لهذا الغرض ، ثم جاء مروان بن محمد فاصطنع عبد الحميد .

فلما صارت الكتابة عملا منوطا بأشخاص ، بذلوا جهدهم فى التجويد والافتنان ، فأدخلوا على النثر الفنى المعهود بعض النظم والأشكال ، لكنهم لم يضيفوا إلى جوهره جديداً ، ولم يحدثوا فى أصوله تغييرا يخرجه عن طابعه .

ولعل أول هؤلاء سالم ثم عبد الحميد .

وإذاً فعبد الحميد فى رأيى ليس أول من كتب نثراً فنياً ، بل هو أول كاتب اشتهر بصناعة الكتابة ، على اعتبار أنها عمله ومهنته ، وظهرت فى رسائله مظاهر تطور النثر الفنى المعروف من قبله .

وسيتبين من دراسة خواصه أنه جدد فى الشكل أكثر مما جدد فى الأصل(١) .

فإذا ما تجاوزنا عن التجديد فى المظهر ، وجدنا نثره يكاد لا يختلف عن كثير من الرسائل التى كتبت قبله .

---

(١) راجع ما تقدم فى دراسة الكتابة وعروبة النثر الفنى .

وإذا كنت لا أوافق أن عبد الحميد هو الذى بدأ النثر الفنى ، فإن هذا لا يمنعنى من ذكر الخواص التى تفرد بها عبد الحميد ، فجعلته صاحب ابتداع فى الكتابة ، وصاحب طريقة خاصة به ، حتى ليصح أن يقال إنه الكاتب الأول الذى تمَّ تطور النثر الفنى على قلمه ، باعتباره كاتباً مختصاً بالكتابة ، وباعتبار الكتابة مهنة له ، والفرق كبير بين أن يقال إنه أول من كتب نثراً فنياً ، وأن يقال إنه الكاتب الذى بدأ يكتمل تطور النثر الفنى على قلمه .

— ١ —

فقد برع فى الصياغة ، وإجادة التعبير عن المعانى ، والتأنق فى اختيار المفردات الدَّالة .

وهو فى هذا عامد مستأن يُعد القول إعدادا ، وينقحه تنقيحا ، فلا يكتب متعجلا ، ولا يُسَطِّر كل ما يمليه الخاطر ؛ لأنه لا يريد تأدية المعنى فحسب ، بل يريد أن يكسو هذا الأداء رداء جميلا فيه افتتان .

— ٢ —

وأخذ نفسه بتقسيم الجمل تقسيما ، فهى إن طالت تساوت فى طولها ، وإن قصرت تساوت فى قصرها ، كأنما قد وزنها وزنا ، وأحيانا يزينها بسجعات تبدو غير مستكرهة ولا متكلفة .

— ٣ —

كما عنى بالخيال ، وبالتضاد فى طباق أو مقابلة ، ليزيد الفكرة وضوحا وتأييدا .

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد(١) :

« أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُرْه والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عَضّته بنابها ذَمَّها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا لها(٢) . وقد كانت أذاقَتْنا أفاويقَ(٣) استحليناها ، ثم جَمَحَتْ بنا نافرةً ، ورمحتْنا مُوَلِّية ، فمَلُح عَذْبُها ، وخَشُنَ لِيِّنُها ، فأبعَدَتنا عن الأوطان ، وفرّقتنا عن الإخوان ، فالدارُ نازحة ، والطيرُ بارحة(٤) . وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بُعْدا ، وإليكم وَجْدا ، فإن تتمّ البليّةُ إلى أقصى مُدّتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يَلْحقْنا ظُفُرُ جارح منْ أظفار من يليكم نَرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شر جار . نسأل الله الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم أُلفةً جامعة ، فى دار آمنةٍ ، تجمع سلامةَ الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين » .

فى هذه الرسالة مفردات منتقاة للتعبير عن المعانى ، وسبك جيد للجمل ، وتناسب فى التقسيم .

وفيها تخييل فى قوله (عضته بنابها) وقوله (يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم) .

وبها صورة فنية مكتملة فى قوله (كانت أذاقتنا . . . . مولية) إذ صور الدنيا وهى مواتية بناقة حلوب طيعة تجود بلبنها على صاحبها ، فيستطيبه ويستحليه ، وصورها وهى مدبرة معاندة بهذه الناقة وقد تأبت على العطاء والطاعة فجمحت بصاحبها ، ثم رمحته .

والتضاد واضح بين قوله (ساعده الحظ) وقوله (عضته بنابها) وبين (سكن إليها) و (ذمها ساخطا عليها) .

---

(١) سرح العيون ١٦٥ . (٢) مستزيدا لها : عاتبا عليها .

(٣) جمع أفواق ، وهذه جمع فيقة وهى اللبن يجتمع فى الضرع بين حلبتين .

(٤) البارح من الطير والوحش ما مر من اليمين إلى اليسار والعرب تتطير به .

— ٤ —

وهو أول من أكثر من الإطناب بالترادف ، وتكرير المعنى الواحد في عبارات عدة ، بعضها تأكيد وتوضيح لسابقه ، وبعضها تفصيل لجوانب من الفكرة ، وبعضها توليد وتشقيق .

لهذا أطال بعض الرسائل إطالة لم تعهد من قبل كأخبار الفتوح ، والحض على التأهب للحرب ، ورسائل الوعد والوعيد . ومن هذا رسالته على لسان مروان ابن محمد إلى ابنه عبد الله وقد سيره لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، فقد بلغت نيفا وخمسَ مئة سطر (١) .

وزعموا أنه كتب عن مروان بن محمد إلى أبي مسلم الخراساني كتابا حُمل على جمل ، لكبر حجمه ضمنه مالو قرئ على أصحاب أبي مسلم لأوقع بينهم الاختلاف . وقال لمروان : كتبتُ كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن نجعَ فذاك ، وإلا فالهلاك .

لكن أبا مسلم لم يقرأه ، وأمر بإحراقه ، وكتب إلى مروان .

محَا السيف أسطار البلاغة وانتحى

عليك ليوث الغاب من كل جانب (٢)

وما من شك في أن الكتاب لم يكن في الطول إلى هذا الحد الذي يقتضي جملا ليحمله ، فالإغراق في المبالغة بين ، ولعل الكتاب أرسل مع شخص راكب جملا .

وكثيرا ما يبدو تطويله لطيفا مقبولا لا يشعر قارئه بملال ، كقوله في رسالته — عن مروان بن محمد — إلى أحد الولاة ، يعيب فيها المولعين بالشطرنج (٣) :

---

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وجمهرة رسائل العرب ٢/٤٧٣ .

(٢) سرح العيون ١٦٣ . (٣) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٠ .

« وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناسا ممن قِبَلك من أهل الإسلام قد ألهجهم[1] الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، وألّف بينهم فيها . فهم مُعتكفون عليها من لدن صبحهم إلى مُمسّاهم ، مُلهيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِروا به من القيام بسُنَن دينهم ، وافترِض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مُداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وإن ذلك من فعلهم ظاهر فى الأندية والمجالس ، غير مُنكَرٍ ولا معيب ، ولا مستفظَع عند أهل الفقه ؛ وذوى الوَرَع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظَمَه ، وكرهه واستكبره . . . . »

ولقد تجىء إطالته مفتعلة متكلفة لا باعث عليها إلا الرغبة فى إظهار المقدرة على التصرف فى التعبير والدراية باللغة ، كقوله فى الرسالة التى بعثها على لسان الخليفة إلى ابنه حينما أرسله ليحارب الضحاك بن قيس :

أما بعد فإن أمير المؤمنين — عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجِلف الجافى الأعرابى المتسكّع فى حيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الذين عاثوا فى الأرض فساداً ، وانتهكوا حُرَمه استخفافا ، وبدّلوا نعمَ الله كفراً ، واستحلوا دماء أهل سَلْمه جهْلا — أحبّ أن يعهد إليك فى لطائف أمورك ، وعوامّ شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومُضطرَّ تنقلك ، عهدا يُحمّلك فيه أدَبه ، ويَشرع لك عظمته . . . »

وكوصفه السلاح فى هذه الرسالة نفسها ، فإن المكتوب إليه لم يكن فى حاجة إلى أن يوصف له سلاحه الذى سيحارب به هذا الوصف

أما الرسائل المحتاجة إلى إيجاز ، فقد أوجز فيها ، كتكاليف الرعية ، والإخبار بهزيمة ، وأوامر الخليفة إلى ولاته .

قال له مروان يوما — وقد أهدى إليه بعض العمال عبدا أسود فاستقله: ا كتب إلى هذا العامل كتابا مختصراً ، وذمه على ما فعل .

---

(١) أغراهم .

فكتب إليه[١] .

« لو وجدت لونا شرا من السواد ، وعددا أقل من الواحد ، لأهديته » والسلام » .

وكتب إلى رئيس يوصى بشخص :

« حقّ مُوَصِّل كتابى إليك كحقه علىّ ، إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدِّق أمله[٢] . » .

— ٥ —

وهو يرتب أفكاره ترتيبا دالا على حسن الاستعداد ، والمهارة فى الإعداد ، فيقسم الموضوع إلى أجزاء كبار ، ثم يقسم كل جزء إلى أجزاء صغار ، فتظهر كتابته متلاحمة العناصر ، مترابطة الأفكار .

مثال ذلك رسالته التى أوصى فيها الكتاب[٣] ، فقد بين حاجة الدولة إليهم ، وبين مكانتهم وأقدارهم ، ثم حدثهم بالأساس الذى يقوم عليه صرحهم ؛ من أخلاق فاضلة ، وثقافة واسعة . ثم حذرهم سوء الخلق ، وذكرهم بحق سابقيهم من الكتاب عليهم ، وأوصاهم بالذين أقعدهم الكبَر أو عزلوا . ثم عطف على واجب الكتاب نحو الحكام ، وواجبهم نحو الشعب ، وحذرهم ثانية الإسراف والأبهة والمطامع والعُجْب بالنفس .

— ٦ —

أكثر من استعمال الحال ، معتمدا عليها فى تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها ، وتجميل الكلام ، وإظهار الموسيقى . واستعمال الحال على هذا النحو

(١، ٢) جهرة . رسائل العرب ٢ / ٥٥٤ ، ٥٥٦

(٣) الوزراء والكتاب ٧٠ وصبح الأعشى ١ /٨٥ .

من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التى يعتمد عليها اليونان فى تحديد معانيهم [1].

وقد سبقه إلى الإكثار من الحال أستاذه سالم ، فقال فى إحدى رسائله : «وأعظمتَ رَجُلهم عليك داخلا ، ووسعت مجلسه إذا رأيته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرما ، ثم فاوضته مقبلا عليه ببشرك ، إكراما لأمير المؤمنين . . .) وسبقه أو ماثله عبد الله بن سالم فى رسالة له [2]

وفى رسالته السابقة إلى أهله أحوال كثيرة (ساخطا ، مستزيداً ، نافرة ، مولية ، كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا) .

— ٧ —

أضاف إلى المظهر العام للرسائل ألوانا جديدة تتمثل فى عدة مظاهر :

١ ـ أطال التحميد فى أول الرسائل ، وتوسع فيه ، بتكرير المعانى تارة ، وتوليد بعضها من بعض تارة ، وكان فى بعض الرسائل يبدأ بالحمد ، ثم يعيده فى فصولها .

من ذلك قوله [3] :

الحمد لله الناصر لدينه وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمذل لأعدائه أهل البدعة والضلالة ، الذى لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا جعل النصرة والفَلْج [4] والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزى والذلة والصغار على أهل الباطل والخلاف والمعصية ، حمدا يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمير المؤمنين وأهل طاعته الزياة التى وَعَدَ مَنْ شكره .

٢ ـ نوع معانى التحميد ، مضاهاة للمقام ، ومناسبة للموضوع ، فكان

---

(١) من حديث الشعر والنثر ٤٢ .
(٢) الكامل للمبرد ٧٩٣ .
(٣) جهرة رسائل العرب ٢/٥٥٠
(٤) الفلج : الفوز .

تحميده فى ولاية العهد غير تحميده فى التبشير بفتح أو نصر ، وكان تحميده للتهنئة مغايرا لتحميده فى التعزية .

٤ — وهو أول من عقّب بالحمد بعد البسملة ، فاصلا بينهما بأما بعد ، فيقول مثلا : باسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالحمد لله . . .

٤ — نوّع فى الختام كما نوع فى البدء ، مراعاة المقام ، وموضوع المقال.

— ٨ —

على أنه قد يتكلف فى تعبيره ، فيبدو فيه ثقل وجفاف ، يشعر القارىء أن الكاتب يتوقف ولا يتدفق ، وأنه يتريث ليشق لقلمه طريقا وعرة ، كقوله فى وصيته لعبد الله بن مروان[١] :

« وامنَعْ أهل بطانتك ، وخاصّ خَدَمك ، وعامةَ رعيتك ، من استلحام أعراض الناس عندك بالغَيْبة ، والتقرب إليك بالسعاية ، والنميمة إليك بشىء من أحوالهم المستترة عندك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة ، فإنه أبلغ سُموًّا إلى مثال الشرف ، وأعوَنُ لك على محمود الذِّكر ، وأطلَقُ لِعنان الفضل فى جزالة الرأى ، وشرف الهمة ، وقوة التدبير »

وأوضح من هذا قوله فى وصفه للسلاح فى الرسالة نفسها :

« وخذهم من السلاح بأبدان الدروع[٢] ، وماذِيِّهِ الحديد[٣] ، شاكَّةِ النَّسيج[٤] ، متقاربةِ الحَلَق[٥] ، متلاحمةِ المسامير وأَسْوُقِ[٦] الحديد ،

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وجمهرة رسائل العرب ٢/٤٧٣ .
(٢) الأبدان : جمع بدن وهو الدرع من زرد أو القصيرة على قدر الجسد أو الدرع عامة والإضافة هنا إضافة الكلمة إلى معناها . (٣) الماذى والماذية : الدرع اللينة.
(٤) محكمة النسيج . (٥) الحلق : الحلقات .
(٦) أسوق : جمع ساق .

مموّهةِ الرُّكَب [1] ، مُحكَمة الطَّبع [2] ، خفيفة الصَّوْغ . . . خالصة الجوهر ، سابغة [3] الملابس ، مُبْهَمة السَّرْدِ [4] ، وافية الوزن ، كتَريك [5] النعام فى الصنعة ، مُعلَمةٍ بأصناف الحرير وألوان الصبغ ، فإنه أهيب لعدوهم ، وأفَتُّ [6] لأعضاد من لقيهم . . .

ثم وصف السيوف بقوله :

« معهم السيوف الهندية ، وذُكور [7] البيض اليمانية ، رقاق الشّفرات ، مسمومة الشّحْذ ، مُشَطبةُ الضرائب [8] صافية الصفائح ، لم يدخلها وَهَنُ الطبع ، ولا عابها أَمْتُ [9] الصّوْغ ، ولاشانها خِفّةُ الوزن » .

وصيته للكتاب

كتب عبد الحميد رسالة إلى الكتاب يوصيهم فقال [10]

«أما بعد،حفظكم الله ياأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معايشهم وأبواب رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لايستغنى الملك عنكم، ولايوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم

(١) مموهة : مذهبة .

(٢) الطبع : الصنم . (٣) سابغه : طويلة تامة .

(٤) مبهمة السرد : مصمتة النسج . (٥) التريك : جمع تريكة وهى البيضة بعد خروج الفرخ ، أو خاص بالنعام . (٦) أفت : أشد إضعافا وتحطيما .

(٧) ذكور : جمع ذكر وهوأيبس الحديد وأجوده

(٨) فيها طرائق (٩) الأمت : الضعف والعوج

(١٠) صبح الأعشى ١/ ٨٥ والوزراء والكتاب ٢٧٠

التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم .

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم ، فهيما فى موضع الحكم ، مقداما فى موضع الإقدام محجاما فى موضع الإحجام، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور مواضعها، والطوارق أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ، ويهىء لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يامعشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وأنشدوا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر فى الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات ، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والعظمة ، فإنها عداوة مجلبة من غير إحنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته ، وليكن

الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا — ذلكم وفقكم الله — من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مكرما ، وللفىء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وعن إيذائهم متخلفا ، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما ، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوفقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها فى طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم

أوده من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها .

ألا فأمعنوا رحمكم الله فى النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والتفكير تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزن الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه ، وليوجز فى ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن إكثاره ، وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحمد فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين

أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره ، وحمد الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل (من يلزم النصيحة يلزم العمل) وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره وتممت به .

تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتاب بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

فى هذه الرسالة عدة أمور :

١ — يشيد عبد الحميد بصناعة الكتابة ومكانة الكتاب ، ويذكر فضلهم فى صلاح الخلافة ، وتسديد الملوك ، وتوجيه الحكام .

٢ — ويزودهم بنصائح خلقية يجب أن يتحلوا بها ، من حلم وتبصر ومرونة وعفة وعدل وكتمان للسر ووفاء .

٣ — ثم يوجههم إلى الاستزادة من الثقافة ، والنظر فى كل فن من فنون المعرفة ، ويخص بالذكر صنوف الأدب — يريد الشعر والنثر واللغة والتاريخ وعلوم الدين ، وأهمها القرآن وتفسيره والميراث . ثم ينصحهم بتجويد الخط ، ويعود إلى تفصيل القول فى الأدب ، فيوصيهم بحفظ الأشعار ومعرفة غريبها ومعانيها ، والإلمام بأيام العرب والعجم وسيرهم وأخبارهم ، ويوصيهم بمعرفة الحساب ، لأنه أساس فى كتابة الخراج .

٤ — ثم يعود إلى الوصايا الأخلاقية ، فينصحهم بالترفع عن المطامع وعن الصغائر ، وبالبعد عن السعاية والنميمة ، والتجرد من الكبر ، ويوصيهم بالتحاب والتعاون والتضامن ، بحيث إذا احتاج واحد منهم إلى مساعدة من جاههم ساعدوه ، وإن أقعده الكِبَرُ عن الكسب والعمل زاروه وعظموه واستشاروه .

ويكرر وصاتهم بالوفاء لمن اصطنعوهم ، فى أحوال الشدة والرخاء .

ويحضهم على العدل ومراقبة الله عز وجل ، والرفق بالضعفاء ، والإنصاف المظلومين ، وأن ينزلوا الناس منازلهم ، وأن يراعوا إنفاق مال الدولة فيما يجلب النفع لها ، وأن يكونوا هداة من اصطنعوهم ، فإن رأوهم على حق أعانوهم ، وإن رأوهم على باطل احتالوا لصرفهم عن باطلهم بألطف حيلة ، وضرب لهم المثل من سياسة الرجل للبهيمة وتحايله على ترويضها .

ثم ينبههم على أن يكون مظهرهم ملائماً لحالهم ، فلا يتجاوز أحدهم فى ملبسه ومسكنه ومطعمه ومظهره العام ما يناسب قدره ، وهو يريد بهذا التوجيه أن يحذرهم الرشوة وانتهاز الفرص والاستيلاء على مال الدولة ، بدليل قوله « فإنكم خدمة لا تحملون على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير » .
ويعقب على هذا بتحذيرهم الترف والسرف .

ثم ينصحهم بالإخلاص لعملهم ، والاستعانة بالله فى توفيقهم وتسديدهم ، وبالتواضع اللائق بمكانتهم ، وعدم الغرور .

وينبههم على الاعتراف بالإحسان لمن يساعدهم من الكتاب إذا أحسنوا ، وألا يحملهم الغرور أو الأثرة على إنكار فضل هؤلاء أو التعالى عليهم .

٥ — نلاحظ أن عبد الحميد خرص على تزويده الكتاب بعدة نصائح وتوجيهات تتصل بمهنتهم ، من ثقافية وخلقية ، وأنه وجههم إلى أن يتكافلوا ويتعاونوا ، فيرعى كبيرهم صغيرهم ، ويشجع من علا قدره الشادين والناشئين ، ويعرف القادرون منهم على العمل والكسب أقدار الذين أقعدتهم السن . وفى هذا التوجيه خير عظيم للأدباء ، سبق به عبد الحميد عصره ، ولكن لم يحققه الأدباء إلى اليوم .

٦ — ونلاحظ أن أفكار الرسالة فى حاجة إلى ترتيب أكثر ، ولعلها كانت على وضع غير هذا فقد نصح الكتاب بنصائح خلقية ، ثم ثقافية ، ثم عاد إلى بسط القول فى النصائح الخلقية ، وكذلك فعل فى التوجيه الثقافى إذ نبههم على العناية بالأدب ، ثم انتقل إلى العناية بالدين ، ثم عاد إلى الأدب .

الخـــاتمة

أما بعـــد

فما المعالم البارزة فى هذه الدراسة ؟

وما النتائج التى هدت إليها ؟

— ١ —

قامت فى العصر الأموى أحزاب سياسية ، لـكل منها أسسه التى بنى عليها دعوته ، ولـكل منها وسائله في تحقيق أغراضه ، وآماله ، ولـكل منها غايته وأهدافه ، ولـكل منها أنصاره وأتباعه ودعاته ، فهى إذاً مكتملة المقومات الضرورية للحزب السياسى .

وهذه الأحزاب نشأت عربية إسلامية ، قبل أن يتصل العرب بغيرهم من الأمم المغلوبة بأواصر شتى تـكفل الامتزاج والتأثر والمحاكاة ، ثم تأثرت الشيعة وحدها بمؤثرات أجنبية أهمها فارسى .

ومن الطبيعى أن كانت هذه الأحزاب ــ من أمويين وشيعـــة وخوارج وزبيريين ــ مصبوغة بصبغ سياسى خالص خال من المناهج الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية ، لأن أحوال العصر والمجتمع هى التى أملت عليها ذلك .

على أنها كانت تمزج السياسة بالدين ، لأن محورها الذى تدور حوله هو الخلافة ، وهى منصب سياسى دينى ، ولأن نظام الحـكم نفسه كان قائما على الدين ، يعتمد عليه ، ويستمد منه أحكامه وسلطانه .

وكانت فى العصر فرق دينية ــ جبرية ومرجئة ومعتزلة وأصحاب سنة أو جماعة ــ

منهجها دينى ، أو فكرى متصل بالدين ، لكنها لم تكن بعيدة عن السياسة كل البعد ، ولم تكن قريبة إليها كل القرب .

وقد نشأت هذه الفرق عربية إسلامية ، ثم تأثرت بَعْدُ بعوامل أجنبية شتى .

— ٢ —

تبين أن الشعر السياسى كانت له بذور فى العصر الجاهلى ، وكان له نَبْتٌ فى صدر الإسلام ، لكنه لم يستقم أشجارا قوية باسقة متميزة إلا فى العصر الأموى .

فهو إذاً فنٌّ جديد وُلد فى العصر ، ونشأ فيه وترعرع .

— ٣ —

واتضح أن الكتابة الفنية عرفت فى العصر الأموى قبل عبد الحميد بن يحيى ، وقبل ابن المقفع ، فهى عربية النشأة ، وليست فارسية ولا يونانية ، لأن الموازنة بين ما كتبه العرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، وبين ما كتبه عبد الحميد وابن المقفع ، تكشف عن أصالة النثر الفنى عند العرب ، وتخولنا أن نحكم بأن هذا النثر قد تقبل بعد ذلك أنواعا من التأثير الفارسى واليونانى فى العصر العباسى ، فتطور على أقلام الكتاب .

— ٤ —

كذلك التوقيعات نظام عربى أصيل ، عرفها العرب منذ عهد عمر بن الخطاب ، ثم توسعوا فيها فى العصر الأموى ، وفى العصر العباسى ، فليست نوعا من النثر نقله العرب عن الفرس ، أو حاكوهم فيه .

— ٥ —

وفى العصر الأموى نشأ الأدب الشعوبى ونما ، لا فى العصر العباسى ، وكان

ممثلا فى مظهرين: زراية من العرب بالفرس وغيرهم ، وردٍّ من الفرس على العرب ، لكنه ردٌّ مقصور على دعوى المساواة ، والفخر بما ضيهم المجيد ، لأنهم لم يستطيعوا الجهر بتحقير العرب ودعوى التفوق عليهم إلا فى العصر العباسى .

— ٦ —

كان الأدب السياسى — من شعر وخطابة وحوار ورسائل — مسايرا للحياة السياسية ، مصورا لما بين الأحزاب من صراع على الحكم ، ومعبراً عن مشاعر الشعب .

وكان يتذرع بالدين ، ويتكىء عليه ، فنجد الأحزاب يُكفّر بعضها بعضا ، ونجد كل حزب يزعم أنه وحده على الهدى ، وأنه وحده نصير الدين ، ونقرأ فى أدب كل حزب أنه يرجو من الله التأييد والرعاية والنصر على أعداء الدين .

ولا شك أن مسايرة الأدب للحياة دليل على أنه حىٌّ مرنٌ قابل للتطور ومجاراة الزمن ، يركض مع أهله إذا ركضوا ، ويركد معهم إذا ركدوا .

— ٧ —

ولقد تجلى الأدب السياسى فى عدة مظاهر : شعر وخطابة وحوار ورسائل ، لأنها كانت ألوان الأدب فى ذلك العصر .

لكنه كان فى الشعر والخطابة أكثر تَجَلِّيا ، لأنهما وسيلة التأثير فى الجماهير ، ووسيلة استمالتها إلى الرأى والمذهب ، وتنفيرها من الخصم .

أما الرسائل والمحاورات فإنها كانت بين فرد وفرد ، وقلما كانت متصلة بالجمهور أو مؤثرة فيه .

— ٨ —

وطبيعى ألا يكون هذا الأدب السياسى متحد الغرض ، مُوَحَّد الوجهة ، بل

الطبيعي أن تختلف مسالكه وأهدافه باختلاف الأحزاب التي عبّر عنها .

على أنه قد تناول مايراد منه : من تأييد للحزب ، ودعاية له ، وتدليل على أنه الجدير بالحكم ، ومن حملات على خصومه ، وتنديد بهم ، وتشهير بمظالمهم وسوء حكمهم ، واتهامهم بالزيغ والضلال والكفر ، ومن تحميس على الثورة عليهم ، وتأميل في الفوز والثواب ، ومن استمالة للشعب ، وتحذير من الفتنة ، ووعيد للثوار ، ومن فرح بالانتصار ، وترح من الانكسار ، ورثاء للقتلى ، وتمجيد للأبطال .

— ٩ —

كان الأدب السياسي جديدا في موضوعه ، وكان فيه تجديد في طريقته وصياغته وفنيّته ومعانيه .

يتجلى ذلك في خصائصه التي فصّلت فيها القول ، ولست أستطيع أن أعيد في الخاتمة ما قدّمت في الدراسة ، وأعتقد أن إيجاز هـذه الخصائص في الشعر والخطابة والكتابة يحتاج إلى صفحات ، وأرى أن الاكتفاء بالإشارة الخاطفة يفقدها قيمتها ، فلتراجع في مواضعها .

وقد استرعى نظري أن الشعر مصطبغ بألوان الأحزاب التي ابتعثته ، مختلف بعض الاختلاف ، فدرست خواص الشعر الحزبي منفصلة ، ووازنت بين شعر الأحزاب كلها . أما الخطابة والحوار والرسائل فلم يتضح فيها مثل هذا الاختلاف ، فدرست خواص كل منها جملة .

— ١٠ —

على أن الأدب السياسي تلون بالحياة الإسلامية ، إذ تأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف والثقافة الإسلامية العامة والمذاهب الدينية القائمة .

وظهر تأثره في أفكاره وصياغته واستدلاله ، وفي الفضائل التي أشاد بها

الأدباء فى مدح زعمائهم ، ووصف قادتهم ، والترويج لهم ، وفى الرذائل التى وصموا بها خصومهم . ففيه إشادة بالعدل والمساواة والتواضع والتقوى ، ومنع الرشا والضرب على أيدى المفسدين والعابثين والسُّرّاق ، والحرص على طمأنينة الشعب ورفاهيته ، والاقتداء فى الحكم بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وفيه تنديد وتشهير بالظلم والاستغلال والفجور والاستهتار باللذات وإهمال حقوق الشعب .

وقد جَلَوْتُ هذا كله فى الدراسة ، معتمدا على النصوص التى استنبطت منها خصائص الشعر والخطابة والكتابة .

وبينت أن الأدباء اعتمدوا على الدين فى تأييد مذاهبهم ، كما اعتمد رجاله السياسة أنفسهم .

فالأمويون ورثة عثمان بن عفان ، ومن قريش ، والشيعة ورثة على ، وآل البيت ومن قريش ، والخوارج دعاة الانتخاب الحر ، وعداة الحكم الموروث ، والزبيريون أكفأ قريش وأولاها بالحكم بعد مقتل الحسين .

وما من شك فى أن هذا كله صدًى للإسلام ، ودليل على ماجدّ فى الأدب من تطور .

على أن هذا التجديد الذى طرأ على الأدب السياسى ، ولازمه منذ نشأته ، لم ينسخ ما كان منذ الجاهلية من إشادة ببعض الفضائل كالكرم والشجاعة والحسب ، وتعيير ببعض الرذائل كالبخل والجبن وحقارة النسب ، ولم ينسخ ما تعارف عليه الشعراء من تمهيد بالغزل ووقوف على الطلل ، ومن تعدد الموضوعات فى القصيدة الواحدة ، فقد بقى هذا فى الشعر السياسى ما عدا شعراً كثر الخوارج وبعض الشيعة ، ومازال غالبا على الشعر العربى كله إلى عهد قريب .

حتى الغزل الكيدى الذى اشتهر به ابن قيس الرقيات ، يرجع إلى أصل جاهلى ، فلم يخترعه ابن قيس اختراعا ، وإن كان قد جدد فيه .

— ١١ —

نستطيع من دراسة العوامل الفعالة فى نهضة الشعر والخطابة والكتابة أن نستخلص نتيجتين .

أولاهما :

أن فى العصر الأموى تيارات ثقافية عدة : دينية عمادها القرآن الكريم وتفسيره ، والحديث الشريف ، والتشريع ، وأصول علم الكلام ، وعربية أدبية أساسها اللغة والشعر والأخبار والأنساب والتاريخ ، ودخيلة فيها طب وكيمياء وجدل .

وقد ألفت كتب فى هذه الثقافات ، وترجمت كتب فى العصر الأموى نفسه ، وهذا يقتضينا أن نعيد النظر فى تجاهل الحركة الثقافية فى العصر الأموى ، ونسبة كل شىء إلى العصر العباسى ، فينبغى أن نوقن بأن النهضة العلمية فى العصر العباسى لم تكن ثمرة لجهود العباسيين وحدهم ، واتصالهم بالعلوم اليونانية والأدب الفارسى والهندى فحسب، بل نوقن أنها راجعة إلى هذا ، وأنها امتداد لرقى عقلى ، وتطور فكرى ، منذ عهد بنى أمية .

ودليلنا على ذلك هذه الألوان الثقافية التى كانت فى العصر الأموى بالشرق ، وتلك الألوان الثقافية التى كانت فى العصر الأموى بالأندلس ، قبل الاتصال بفلسفة اليونان وآداب الفرس والهند .

ثانيتهما :

أن لنهضة الأدب السياسى أسبابا وبواعث ، بينتها فى مواضعها .

لكن ليس من الحق أن يقال إن رعاية الدولة للأدب كانت أهم هذه البواعث ، فقد رعت الدولة الأدباء الموالين لها ، وشجعتهم ، فجعلوا يمجدون حكامها ، وينشرون الدعاوة لها ، ويردون على خصومها .

غير أن هناك أدباء لم تقربهم الدولة ، ولم تغدق عليهم ، بل إنها كانت تطاردهم ، وتهدر دماءهم، لأنهم من خصومها ، وكثيرا ما كان أدب هؤلاء أصدق عاطفة ، وأعلى حرارة ، وأعظم تأثيراً فى النفوس ، من الأدب الحكومى الذى يوالى الدولة وتواليه الدولة ، وإذاً فقد نهض الأدب مواليا للحكومة أو معادياً لها لأسباب شتى ، ليست رعاية الدولة أهمها .

ولقد يكون أعظم هذه البواعث شعور الأدباء بأنهم أحرار فيما يعتقدون من مذاهب سياسية ، وبأنهم طُلَقاء فى موالاتهم لهذا الحزب أو ذاك ، غير مقيَّدين فى تعبيرهم عما يختلج فى نفوسهم من عواطف ومشاعر وأهواء .

— ١٢ —

تظهر فى الشعر السياسى ألوان الحزبية أوضح من الألوان الفردية الشخصية ، لأن الشاعر المنتمى إلى حزب يجد فى تأييد هذا الحزب ونصرته قوة له ونصرة ، فيتحدث عن حزبه أكثر من حديثه عن نفسه ، وكثيرا ماتتوارى شخصية الشاعر وراء حزبيته ، فلا يظهر من معالم شخصيته إلا طريقته فى الأداء ، وخصائصه الفنية .

— ١٣ —

الطابع العام للشعر السياسى وللخطابة السياسـية السهولة والوضوح فى المفردات والعبارات والخيال ؛ لأن الأدب السياسى الصرف مقصود به التأثير وتيسير الذيوع والتنقل والفهم ، ليحدث أثره فى العامة والخاصة ، بغير اضطرار إلى إجهادهم فى التفهم والتفكير .

وقد تنقل الأدب السياسى فى الأعصار ، موسوما بالسهولة والوضوح إلى العصر الحديث ، وإلى هذا الوقت الذى نحيا فيه .

المراجع

١ — الأحكام السلطانية . الماوردى . مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ

٢ — أخبار الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر

٣ — الأخبار الطوال . الدينورى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠ هـ

٤ — أخبار مكة . الأزرق . طبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ وطبعة المدرسة المحروسة بمدينة غتنتة ١٢٧٥ هـ

٥ — أصل الشريعة وأصولها . الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء

٦ — الأصنام . ابن الكلبي . مطبعة دار الكتب بمصر

٧ — الأعلاق النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م

٨ — أعيان الشيعة . السيد محسن الأمين الحسينى العاملى . مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٤ — ١٩٣٥

٩ — الأغانى . الأصفهانى . مطبعة دار الكتب وطبعة ساسى

١٠ — أقدم تدوين فى الحديث النبوى (صحيفة همام بن منبه) للدكتور محمد حميد الله . دمشق ١٣٧٢ — ١٩٥٣

١١ — الأمالى . القالى . مطبعة دار الكتب

١٢ — أمثال العرب ، المفضل الضبى ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

١٣ — الأنساب . السمعانى . ليدن ١٩١٢ م

١٤ — أنساب الأشراف ـ البلاذرى (مخطوط)

٥ — البداية والنهاية فى التاريخ . ابن كثير

١٦ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

١٧ — تاج العروس . الزبيدى

١٨ — تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادى ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩

١٩ — تاريخ الخلفاء ، السيوطى مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ - ١٩٥٢

٢٠ — تاريخ الشعر السياسى . الأستاذ أحمد الشايب

٢١ — تاريخ الشعوب الإسلامية . بروكلمان .

٢٢ — تاريخ العرب ، فيليب حتى ، ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة .

٢٣ — التاريخ الكبير ، ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩

٢٤ — تاريخ اليعقوبى . أحمد بن يعقوب ، نشره هوتسما

M. Th. Hautsma.

٢٥ — التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية . ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى : مكتبة النهضة ١٩٤٦

٢٦ — تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعى بيومى

٢٧ — جمهرة أشعار العرب للقرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ - ١٩٢٦

٢٨ — جمهرة خطب العرب . الأستاذ أحمد زكى صفوت . مطبعة الحلبى

٢٩ — جمهرة رسائل العرب » » » » » »

٣٠ — حديث الأربعاء . الدكتور طه حسين . مطبعة المعارف بمصر

٣١ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، فون كريمر ، ترجمة الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربى ١٩٤٧

٣٢ — حلية الكميت . النواجى

٣٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى الدكتور أحمد محمد الحوفى

٣٤ — خزانة الأدب . البغدادى

٣٥ — خطط الكوفة . ماسينيون . ترجمة المصعبى . مطبعة المعارف بصيدا

٣٦ — الخوارج والشيعة . يوليوس فلهوزن . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى.

٣٧ — ديوان ابن قيس الرقيات . طبعة فينا .

٣٨ ـــ ديون الأخطل . تحقيق الأب أنطون صالحانى

٣٩ ـــ ديوان جرير . مطبعة الصاوى .

٤٠ ـــ ديوان الحماسة . أبو تمام . شرح التبريزى . المطبعة الأميرية ١٢٩٦ هـ

٤١ ـــ ديوان الطرماح . تحقيق كرنكو .

٤٢ ـــ ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى .

٤٣ ـــ ديوان كثير . طبعة الجزائر .

٤٤ ـــ رسائل الجاحظ . طبعة الساسى .

٤٥ ـــ الرد على الجهمية الزنادقة . الإمام أحمد بن حنبل .

٤٦ ـــ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . مطبعة الحلبى ١٣٧٧ - ١٩٥٧ .

٤٧ ـــ الشافى . الشريف الرضى .

٤٨ ـــ شرح المقامات . الشريشى . طبعة القاهرة .

٤٩ ـــ الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ليدن والقاهرة .

٥٠ ـــ صحيح مسلم بشرح النووى . المطبعة المصرية بالقاهرة .

٥١ ـــ العقد الفريد . ابن عبد ربه . تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٩ – ١٩٤٠ .

٥٢ ـــ العقيدة والشريعة فى الإسلام . جولد تسيهر .

٥٣ ـــ عيون الأخبار . ابن قتيبة مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٤ ـــ الغزل فى العصر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٥٥ ـــ فتوح البلدان . البلاذرى .

٥٦ ـــ فجر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . الطبعة السادسة .

٥٧ ـــ الفرق بين الفرق . البغدادى .

٥٨ ـــ الفصل فى الملل والنحل . ابن حزم .

٥٩ — فن الخطابة . الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦٠ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٥٩ ومطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٦١ — القاموس المحيط . الفيروزابادى .

٦٢ — الكامل . المبرد . تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته مطبعة نهضة مصر

٦٣ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير .

٦٤ لسان العرب . ابن منظور .

٦٥ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية بمصر .

٦٦ — المرأة فى الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد الحوفى .

٦٧ — مروج الذهب . المسعودى . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .

٦٨ — مصر والسودان . الدكتور محمد فؤاد شكرى .

٦٩ — المعارف . ابن قتيبة .

٧٠ — معجم البلدان . ياقوت .

٧١ — مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة البيان العربى بمصر ١٣٧٦ — ١٩٥٧ .

٧٢ — الملل والنحل الشهرستانى . تحقيق الأستاذ محمد فتح الله بدران مطبعة مخيمر بالقاهرة .

٧٣ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين .

٧٤ — المنتقى فى أخبار أم القرى . الفاكهى . ليبزج ١٨٥٩ .

٧٥ — المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل : أحمد بن يحى المرتضى .

٧٦ الموشح . المرزبانى . المطبعة السلفية بالقاهرة .

٧٧ ـــ النثر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك .

٧٨ ـــ نشوار المحاضرة . التنوخى .

٧٩ نقد العلم والعلماء . ابن الجوزى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٠ ﻫ

٨٠ ـــ هاشميات الكميت . الكميت .

٨١ ـــ وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨ .

٨٢ ـــ الولاة والقضاء . الكندى .

الفهـــرس

صفحة

الفصل الرابع

الزبيريون

صفحة

الباب الثاني

الشعـــر

الفصـل الأول ١٤٦—١٨٥

شعر الحزب الأموى

الفصـل الثانى ١٨٦—٢١٩

شعر الشيعة

شعر الخوارج

صفحة

الباب الثالث

الخطابة

خصائص الخطابة

صفحة

كتب للمؤلف

١ ــ وحى النسيب فى شعر شوقى

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه وخصائصه .

٢ ــ وطنية شوقى

دراسة منصفة للوطنية فى شعر شوقى ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وموازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة العثمانية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ ــ الإسلام فى شعر شوقى

دراسة لتدين شوقى ومظاهره فى شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبى ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودفاع عنه ، ودراسة لنزعته الإسلامية فى تأييد الخلافة التى كانت قائمة ، ودراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٤ ــ الفكاهة فى الأدب

يتناول الفكاهه العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض فى تفصيل لدلالات الفكاهه الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ ــ البطولة والأبطال

يعرض للبطوله وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، ولنماذج من أبطال مصر الحديثه مع التحليل .

٦ ــ أبو حيان التوحيدى

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته وثقافته وصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ :

٧ — سماحة الإسلام

تحليل منصف لسماحة الإسلام فى نواح شتى من تشريعه ، ومن معاملته لمخالفيه ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين .

٨ — أدب السياسة فى العصر الأموى

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض ، ويعرض للعصبية القبلية ، والعصبية الجنسيه وأثرها فى الشعر والسياسة

وبه تراجم لبعض الأدباء الساسة :

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض :

١٠ — مع ابن خلدون

عرض لآرائه فى التربية وعلم الاجتماع التى لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل فى العصر الجاهلى

دراسة للغزل فى الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل فى الجاهلية والإسلام :

« نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى »

١٢ — المرأة فى الشعر الجاهلى

دراسة مفصلة للمرأة فى العصر الجاهلى من الشعر ، من حيث مكانها فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع ، أما وزوجة وبنتا وأختا وقريبة .

ودراسة للمرأة فى الحياة العامة فى السلام وفى الحرب ، ولثقافتها وصناعاتها :
ودراسة للمرأة فى الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ومن حيث أثرها فى الغناء ، ولشاعريتها ، أنواع شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها فى العالم القديم

« نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز »

١٣ ـ أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى من حيوان ، ونبات وجماد وظواهر فى الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة فى موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفنهم

١٤ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلى ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ، وصلات العرب بغيرهم من الأمم

١٥ ـ التيارات المذهبية بين العرب والفرس

يتناول الصلات بين العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام ، وأثرها فى كل من الشعبين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب ... الخ

١٦ ـ المثل السائر لابن الأثير

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ ـ الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته ، وألوانها وعرض لتلاميذه ، ولمؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولمناهجه فى التفسير والتاريخ والفقه

١٨ ـ فن الخطابة

دراسة فنية للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها . وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة مفصلة للخطابة السياسية فى العصر الأموى

١٩ ـ بطولة وبطل

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله

٢٠ ـ القومية فى الشعر الحديث

دراسة مفصلة لدعائم القومية العربية ، وتأثرها بالشعر الحديث وأثرها فيه ، مع نصوص شتى لشعراء الوطن العربى من الخليج إلى المحيط [يطبع]

٢١ ـ الجاحظ

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته ، ومؤلفاته وخصائصه الفنية ، مع تحليل بعض كتبه

٢٢ تحت راية الإسلام

دفاع عن الإسلام ، ودحض لمفتريات خصومه ، وكشف عن بعض جوانب من سموه وحكمته [يطبع]